روائع الأدب الأمريكي

هاربر لي

أن تقتل طائرًا بريئًا

رواية

ترجمة داليا الشيال

دار الشروق

أن تقتل طائرًا بريئًا

Published by arrangement with Harper Lee
and Sam Pinkus, Veritas Media, Inc.,
111 Euclid Avenue, Hastings-on-Hudson, NY 10706, USA.

40th Anniversary Edition, New York: HarperCollins, 1999.

الطبعـة الأولى ٢٠٠٩

رقـم الإيداع ٢٠٠٨/٢٢١٩٢
ISBN 978-977-09-2570-9

هاربر لي

أن تقتل طائرًا بريئًا

رواية

ترجمة وتقديم داليا الشيال

مراجعة مصطفى رياض

إهداء المترجمة

إلى والدي
د.سعد الشيـَّال
تقديرًا لأبوةٍ حانية
ألمس آثارها في قلبي وعقلي

شكر وتقدير

أما وقد انقضت شهورٌ عديدة قضيتها في ترجمة هذه الرواية لمؤلفتها «هاربر لي»، والتي حازت قبولًا منقطع النظير بإعادة طبعها عدة مرات، أودُّ أن أُسَجِّل هنا أنني قد استمتعت بالمساهمة في أن أقدم للقارئ العربي هذا العمل الأدبي الرائع الذي يُعد من أهم كلاسيكيات الأدب الأمريكي.

ومما زاد في متعتي المراجعة التي قام بها الزميل الكريم الأستاذ الدكتور مصطفى رياض، رئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة عين شمس، إذ إنه بذل جهودًا فائقة في مضاهاة الترجمة على الأصل، كما أنه شاركني عناء البحث في الخلفية الثقافية التي تمُد أحداث الرواية بمغزاها، ولا أشك أن القارئ سيلمس ذلك الجهد واضحًا جليًا. ولذا فإنني أبادر بتسجيل خالص شكري وعظيم تقديري لما قام به من جهدٍ وفير، وما أعطاه من وقتٍ ثمين حتى يخرج العمل في صورته اللائقة.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى الصديق العزيز الأستاذ «لاري مالي» (Larry Malley)، مدير مطابع جامعة آركانسو بالولايات المتحدة الأمريكية، الذي أضاء لي ما خفي من ظلال ثقافية تخص مسرح أحداث

الرواية في الجنوب الأمريكي، وذلك لنشأته فيه مراقبًا لعاداته وتقاليده، الأمر الذي أتاح لي رسم صورة صادقة لذلك العالم الذي يموج بخصائص ثقافية قد تغيب حتى عن المواطن الأمريكي العادي.

كما لا يفوتني أن أُسَجِّل هنا ما قام به الأستاذ أحمد مجاهد، المدرس بقسم دراسات اللغة العربية والترجمة بكلية التعليم المستمر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة (SCE-AUC)، فهو الجندي المجهول الذي قام بمراجعة الجانب اللغوي للترجمة حتى تظهر خالية من الشوائب اللغوية. فشكرًا جزيلًا للأستاذ مجاهد على ما قام به من جهد مشكور.

د. داليا الشيـَّال
أستاذ الأدب الأمريكي المشارك
قسم اللغة الإنجليزية وآدابها
جامعة القاهرة

مقدمة المترجمة

«بوصفي قارئة فأنا أكره المقدمات فهي تُذْهِب بلذة النص وتُضَيِّع بهجة التوقعات وتُحْبِط ما ينتاب القراء من فضول»، هكذا عبرت «هاربر لي»، مؤلفة هذه الرواية عن رأيها. ومع احترامي التام لحق «هاربر لي» في التعبير عن رأيها الشخصي بشأن المقدمات، فإنني وجدت أن كتابة مقدمة لترجمة روايتها «أن تقتل طائرًا بريئًا» أمرٌ لا بد منه كي يتعرف القارئ على بعض القضايا المهمة التي ترِدُ في الرواية. كما أن إقدامي على كتابة هذه المقدمة تسمح للقراء بمشاركتي التجربة التي عِشتُها أثناء ترجمة الرواية، إذ يتجه اهتمامي في جانب منها إلى توضيح الصعوبات التي واجهتها عند ترجمة الخصوصيات اللغوية والثقافية للرواية.

لا جِدَال أن رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» تحتل موقعًا بارزًا بوصفها الرواية التي حظت بأكبر عدد من القراء، وأكبر نسبة مبيعات واحتلت مكانة خاصة في الأدب الأمريكي فتركت أثرها على ما تلاها من أعمال. نُشرت الرواية في عام ١٩٦٠، وبعد مرور ثمانية وأربعين عامًا لا تزال الرواية تجذب ملايين القراء عامًا بعد عام. ولعل ذلك يرجع إلى ما تحويه الرواية من قيم تُعلي من شأن كرامة الإنسان واحترام الآخر. وقد أظهر

استطلاع للرأي أجراه نادي كتاب الشهر (Book-of-the-Month-Club) ومركز الكتاب التابع لمكتبة الكونجرس (Library of Congress Center for the Book) أن رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» تحتل المكانة الثانية بعد الكتاب المقدس، وأنها من الروايات التي يُنصح كل إنسان بقرائتها قبل أن يموت. فقد بيع من نسخ الرواية ما يزيد على ٣٠ مليون نسخة منذ تاريخ نشرها لأول مرة، ولم يحدث أن خلت مكتبات البيع من نسخها سواء الفاخرة منها أو الشعبية، كما أصبحت تشكل جانبًا مهمًا من المقررات الدراسية بوصفها مادة أساسية يدرسها طلاب المدارس والجامعات. تُرجِمت الرواية إلى عديد من اللغات، وبصدور هذه الترجمة التي بين يدي القارئ فإن الرواية أصبحت متاحة للقراءة باللغة العربية أيضًا.

وعلى الرغم من الأثر الكبير الذي خلفته هذه الرواية فإن نشاط «هاربر لي» في مجال الكتابة الأدبية لم يتخط كتابة تلك الرواية، كما اتسمت حياة المؤلفة الخاصة بخصوصية شديدة. وبفضل هذا العمل الوحيد الذي أبدعته هاربر لي فإنها أشبه ما تكون بـ«إميلي برونتي» (Emily Bronte) مؤلفة «مرتفعات وذرنج» (Wuthering Heights)، و«مارجريت ميتشل» (Margaret Mitchell) مؤلفة «ذهب مع الريح» (Gone with the Wind) اللتين لم تُسْفِرْ حياتهما الأدبية إلا عن هذين العملين العظيمين. وعند سؤالها عن سبب توقفها عن الكتابة صرحت «هاربر لي» أنها لم ترض أن تخضع لضغط يدفعها رغمًا عنها لكتابة رواية أخرى بل فضّلت أن تنتظر الإلهام الذي يدفعها على نحو طبيعي للإبداع، إلا أنها لم تنل نصيبًا مما تمنته من ذلك الإلهام. وقد حصلت «هاربر لي» على جائزة «بوليتزر» (Pulitzer Prize) عن روايتها، وبعد صعود نجمها لفترة محدودة توارت مبتعدة عن الحياة العامة. لقد عانت «هاربر لي» من متطلبات الشهرة التي

أخضعتها لضغوط عدة بعد نجاح روايتها نجاحًا منقطع النظير. لم تكن لتسعد بوجودها في بؤرة الاهتمام وقد سلطت عليها الأضواء، وهي في ذلك تختلف اختلافًا كبيرًا عن صديقها الكاتب «ترومان كابوتي» (Truman Capote). ولم يقتصر الأمر على عدم سعيها إلى جذب الانتباه بل إنها كانت تنفر من الدعوات لإلقاء محاضرات عامة كما رفضت إجراء أي حوارات صحفية.

وفي عام ١٩٦٢ تحولت الرواية إلى فيلم سينمائي حظي بإعجاب جمهور المشاهدين والنقاد معًا. حصل ذلك الفيلم على ثلاثة من جوائز الأوسكار ورُشح لخمس جوائز أخرى. وقد حصل «جريجوري بيك» (Gregory Peck) على إحدى الجوائز تقديرًا لأدائه الرائع في دور أتيكوس فينش، المحامي الشجاع من ألاباما. وقد عُرِضَ الفيلم في زمن سادته الاضطرابات المدنية، وكان الفيلم لا يختلف عن الرواية في تقديم المشكلات العنصرية ومدى الظلم الذي يُمَارَس ضد الأمريكيين الأفارقة في جنوب الولايات المتحدة. وقد أُعْجِبَتْ هاربر لي بالفيلم إعجابًا كبيرًا يتنافى مع ما عُرِفَ عنها من عزوف عن إبداء مشاعرها، واعتبرته عملًا فنيًا راقيًا. ولا تزال الرواية والفيلم يحتفظان كليهما بالجدَّة التي اتسما بها عند ظهورهما.

قرأتُ رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» لأول مرة وأنا في الرابعة عشرة من عمري، وما زلت أذكر أثرها في نفسي ما أن بدأت في تصفحها. وقد جذبني إلى تلك الرواية عندئذ ما وجدته فيها من انتقال الأطفال من مرحلة البراءة إلى مرحلة المعرفة، إذ يستكشفون صِلاتهم بالعالم الخارجي ويدركون ما اتسم به رجل واحد من بطولة وشجاعة في مواجهة تعصب المجتمع. وكان هذا الاكتشاف صورة من محاولتي

لمعرفة ما يجري في العالم من حولي وأنا ما زلت صبية. وعلى الرغم من أنني كنت أطّلِع من خلال الرواية على ثقافة مختلفة وعصر مختلف فقد استقرت في ضميري قيم إنسانية تصلح لكل زمان ومكان، فكما هو حال أطفال رواية هاربر لي كنت أشب عن الطوق وأتعلم حقائق تدعو إلى التحضر والتسامي الذي ينقل الإنسان إلى مستوى يتجاوز حدود الزمان والمكان. كانت الرواية بالنسبة لي كشفًا للتفاعل الذي يحدث أثناء الأزمات بين أبناء مجتمع واحد يتكون من أعراق وطبقات وأمزجة مختلفة بعضها عن بعض.

لم تحظ الرواية باهتمام الشباب والكبار وحدهم بل تعداه إلى رجال القانون ودارسيه. وتظهر فكرة القانون في بداية الرواية، بل قبل أن تبدأ أحداثها، إذ تقدم هاربر لي لروايتها باقتباس من «تشارلز لام»: «المحامون، أظنهم كانوا أطفالًا يوما ما». إن الشخصية الرئيسية من بين البالغين هي «آتيكوس فينش»، وهو محام وأب لطفلين ألِفا المصطلحات القانونية، بل إن مدبرة المنزل «كالبورنيا» تعرف أن الأحوال تختلف في بيت محام وقد تعلمت القراءة في كتاب من كتب القانون الكلاسيكية. إن الجزء الأول من الرواية يصف دخول الطفلين إلى عالم أكثر قبحًا بالمقارنة بما تَعَوَّدا عليه في بيت والدهما حيث يتمتعان بالحماية، ويقوم هذا الجزء على قواعد قانونية وأعراف اجتماعية. أما الجزء الثاني فيتعلق بالمحاكمة وتجري أغلب أحداثه في قاعة المحكمة. ويغلب على الجزأين استخدام الرمز لتحقيق ما ترمي إليه المؤلفة من تجسيد للقيم الإنسانية الرفيعة.

ويعد «الطائر المحاكي» الرمز البارز في الرواية ويظهر أول ما يظهر في عنوانها، وقد لجأتُ في ترجمة العنوان إلى المعنى الذي يَكْمُن وراء

الرمز: الطائر البريء. وتشير أحداث الرواية إلى الطائر المحاكي لأول مرة عندما يقدِّم «أتيكوس» لطفليه بندقيتين بمناسبة عيد الميلاد، ويوافق أن يقوم العم «جاك» بتعليمهما التصويب. ويحذرهما «أتيكوس» قائلًا: «بإمكانك اصطياد ما تريده من نوع البلوجاي، هذا إن استطعت إصابتها، ولكن تذكر أنها خطيئة أن تقتل طائرًا محاكيًا». إذ إن الطيور المحاكية لا تؤذي غيرها من المخلوقات بل إن تغريدها ينشر البهجة. وقد لاحظ النقاد أن «هاربر لي» تُشير إلى رمز الطائر المحاكي كلما أرادت أن تسجل أمرًا أخلاقيًّا. وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن «الطائر البريء» يظهر على نحوٍ فني راقٍ عبر صفحات الرواية غير أنه يشير أساسًا إلى شخصية «توم روبنسون» وهو البريء الذي اتهم ظلمًا وعدوانًا. ويرمز الطائر البريء في هذا المقام إلى مفهوم البراءة. وواقع الأمر أن هناك شخصيات أخرى بالرواية يمكن تصنيفهم بوصفهم طيورًا بريئة، وهي الشخصيات التي لحقها ضرر أو دمرها الاحتكاك بالشر. وقد لجأت أيضًا لاستخدام الترجمة المعجمية: «الطائر المحاكي» لما تحويه الرواية من إشارات مبكرة إلى الطيور التي «لا تفعل شيئًا سوى أنها تُغَني من قلوبها لأجلنا»، كما تقول الآنسة «مودي» لـ«سكاوت» ابنة أتيكوس فينش. ويحضرني في هذا المقام ترجمة تَرِد على سبيل الخطأ: الطائر الساخر، ومصدر الخطأ يَكْمُن في أن المترجم يفصل الاسم المركب إلى كلمتين، أولاهما «طائر» ويليها «ساخر» لتكون صفة للطائر، بينما تُشير الكلمة الإنجليزية المركبة إلى نوع من الطيور المعروفة بالطيور المحاكية.

وبالإضافة إلى العنوان الجذاب فإن الرواية تنفرد بسِمةٍ أخرى تُميزها، ألا وهي قدرة المؤلفة على تطوير شخصية الراوية التي تجري أحداث الرواية على لسانها، وهي شخصية متعددة الجوانب عبر رحلتها

من براءة الطفولة إلى خبرة الحياة عندما تصبح فتاة بالغة. إن بداية الرواية ونهايتها وهما معًا يمثلان إطار الرواية تُرويان على لسان سكاوت (چان لويز) البالغة وهي تسترجع أحداث طفولتها. غير أن هاربر لي ما تلبث أن تقدم بُعدًا آخر إذ يدرك القارئ أن «سكاوت» الناضجة لا تقف عند تذكر أحداث الطفولة وتفسيرها بل تتعدى ذلك إلى تقديمها ما جرى من أحداث من وجهة نظرها بوصفها طفلة آنذاك. وعلى سبيل المثال فإن أغلب الحوار والسرد يحتفظ بكلمات سكاوت البسيطة وجملها القصيرة وهي الكلمات والجمل التي تصدر عن الأطفال، فهي تستخدم لغة تختلط فيها الجمل التي لا تخضع لقواعد النحو وما يجري على ألسنة الأطفال من كلمات عامية لا يتداولها إلا الأطفال ولا تستخدمها سكاوت البالغة، فنجدها تقول على سبيل المثال:

«لم يكن عُمْر الآنسة كارولين يزيد على الحادية والعشرين، وكان شعرها كستنائيًّا لامعًا وخداها ورديين وأظافرها مطلية باللون القرمزي، وكانت ترتدي حذاء ذا كعب عالٍ وثوبًا مقلمًا باللونين الأحمر والأبيض. كانت هيئتها ورائحتها أقرب ما تكون إلى حلوى النعناع».

نرى في هذه السطور مستويين من الإدراك: نظرة الطفلة البريئة إلى الأمور، وذاكرة البالغة التي حصلت على نصيب من المعرفة. إن مستويات الإدراك المتعددة جديرة بالملاحظة لما لها من أهمية أثناء ترجمة العمل. كما أن اللغة التي كُتِبَتْ بها الرواية تجمع بين الحوار الخشن الذي يتبادله أطفال ملؤهم الحيوية والنشاط، والبلاغة البسيطة التي يتميز بها «أتيكوس» في دفاعه أمام هيئة المحلفين. وعلى الرغم من الحب الذي تبديه الشخصيات للكلمات المكتوبة فإن الرواية تبدو أنها تنبع من الفن المسموع لا المكتوب. إن تَصَفُّح الرواية كفيل ببيان

أن أغلبها يقوم على الحوار، وعلى سبيل المثال فإن المؤلفة لا تسمح للراوية ـ وقد تقدمت بها السنون لتصبح فتاة يافعة ـ أن تصف أو تشرح الأمور بل تجعلَ أتيكوس يشرح الأمر لجيرانه أو لطفليه.

إنَّ رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» عمل يمثل مشكلات عدة للمترجم، فبينما نجد أن خط الرواية الخاص بالتوتر الأخلاقي والاجتماعي حول قضية العِرق في جنوب الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن الماضي يتسم بالوضوح والمباشرة، فإن اللغة المستخدمة تتسم بالتعقيد وتَحْفل بظلال المعاني، بل إنها تتسم في أحيان بالغموض بالنسبة للقراء من غير الأمريكيين بل ومن الأمريكيين أنفسهم الذين لم يعيشوا خبرة الجنوب أيام الفصل العنصري. إذ لا تعتمد الرواية على اللغة الإنجليزية الشائعة وإنما على عامية الجنوب الأمريكي قُبَيل الحرب العالمية الثانية، ويزيد الأمر صعوبة أنها تستخدم أيضًا لغة الصبية في سن البلوغ، مما يتعدى مهارات الترجمة في نصوص أخرى ويستدعي بالضرورة استحضار مزيج من أدوات اللغة وأدوات الأدب والثقافة معًا.

ما أن تَصَفَّحت الرواية حتى واجهت أولى الصعوبات وأكثرها أهمية، ألا وهي اختيار مستوى اللغة العربية المناسب لترجمة هذا النص بما يتسم به من صفات مميزة. ولا يغيب عن فِطْنَة القارئ أنَّ للغة العربية سواء أكانت منطوقة أم مكتوبة مستويات عدة. وانحصرت المشكلة التي أواجهها في الاختيار بين العربية المعاصرة (وهي على مستوى يتسم بالرسمية) وبين العامية وبخاصة في الجمل الحوارية. ومما زاد من صعوبة الاختيار أنَّ الحوار الذي يرِد في الرواية يرقى إلى مستوى الحوار المسرحي ويتنوَّع حسب السياق تنوعًا كبيرًا. فهناك ما يدور من حديث بين الصبية: «جيم» و«سكاوت» و«ديل» عندما يلتقون معًا لرسم الخطط

وتدبير الحيل، وهناك المحادثات التي تجري بين الجيران على نحو عفوي، وكذلك لغة الدروس التي تُلقى على التلاميذ في المدرسة، ولغة الإجراءات الرسمية للمحاكمة في ساحة القضاء. إنَّ هذا التنوع والتباين يتطلب حِرصًا في اختيار مستوى اللغة العربية المستخدمة في وصف المشاهد السابقة وما يجري على لسان شخوصها من حديث أو حوار. فعلى سبيل المثال فإنَّ استخدام العامية يبدو منطقيًا عند نقل المحادثات التي تجري بين الصبية الذين يستخدمون مصطلحات خاصة وعبارات تنتشر بين من هم في سنهم في الجنوب الأمريكي. ورغبة مني في إيجاد حل عملي لتلك المشكلة قررت أن أترجم صفحة من صفحات الرواية ثلاث مرات: أولاها باللغة العربية المعاصرة، وثانيتها بالعامية، أما في المرة الثالثة فكانت اللغة مزيجًا من اللغة العربية المعاصرة والعامية معًا. وفي نهاية المطاف استقر رأيي على استخدام اللغة العربية المعاصرة ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، بينما أتولى في الوقت ذاته تبسيط الأسلوب قدر الإمكان متى دعت الحاجة إلى ذلك (وفي تلك الحالة فإنَّ ما استخدمت من كلمات أو عبارات مبسطة يظهر بين علامات تنصيص). ومثال ذلك استخدامي «بنطلون» لا «بنطال»، أو «أوتوبيس» لا «حافلة».

أضف إلى ذلك أن هاربر لي تضع على لسان شخوصها عبارات يتفاوت مستواها اللغوي بالإنجليزية على أساس من الدور الذي تلعبه الشخصية في مجتمعها. وتوضح الرواية كيف تعيش مجموعات من البشر في البلدة نفسها جنبًا إلى جنب ويتباينون رغم ذلك في استخداماتهم اللغوية ولهجاتهم. فنجد على سبيل المثال أنَّ الحديث يدور بلغة راقية بليغة في قاعة المحكمة، بينما تسجل سكاوت في وصفها لكنيسة الأمريكيين الأفارقة الحديثَ المميز للملونين. وتلاحظ أنَّ «كالبورنيا» مدبرة المنزل، تستطيع الانتقال من اللغة الإنجليزية المهذبة إلى لهجة

الملونين دون مشقة تذكر. ولذا فإن سكاوت تقول: «إن كالبورنيا تتقن لغتين». وكما نرى فإنَّ هذا الأمر في حد ذاته يمثل مستوى آخر من مستويات صعوبة النص الأصلي.

ولعلنا نستطيع أن نفسر ما يلحظه القارئ من جاذبية الرواية حال البدء في قراءتها إذا ما انتبهنا إلى ما قامت به هاربر لي من تصوير العلاقات العِرْقِية في ألاباما في زمن كانت معركة الحقوق المدنية التي طالب بها الأفارقة الأمريكيون في أوجها وبخاصة في ولاية ألاباما حيث تجري أحداث الرواية. وقد قدمت «هاربر لي» تصويرًا دقيقًا للحياة في بلدة جنوبية صغيرة في ثلاثينيات القرن السابق فعرضت لحياة الناس سواء العامة منهم أو الخاصة، وللعلاقات التي يتسم بعضها بالوفاق والبعض الآخر بالتنافر، أضف إلى ذلك ما أسبغته على روايتها من تنوع ثقافي ظهر أثره في ظلال المعاني والإشارات الثقافية. ولا شك أنَّ المترجم الذي يقتصر اعتماده على أدوات اللغة وحدها مُعرض للوقوع في أخطاء فادحة في نقل المعنى عمومًا أو فقد المغزى الثقافي خصوصًا في كثير من تلك المعاني والإشارات. وعلى سبيل المثال جاءت ترجمة (Hoover carts) التي صغتُها في ترجمتي «عربات تجرها البغال» وليس «عربات هوفر» التي ستحجب المعنى الحقيقى من الوصول إلى القارئ. وتعتمد ترجمتي على البحث في تاريخ هذه العربات التي ظهرت لأول مرة في فترة الكساد الكبير. وقد أُطلق عليها اسم الرئيس الأمريكي آنذاك: «هربرت هوفر» (Herbert Hoover)، ووفقًا لما وعد به الرئيس هوفر توافرت العربات للجميع غير أنَّ مالكيها لم يتوافر لهم المال اللازم لتزويدها بالوقود أو لتسديد الضرائب المستحقة عليها. ولما بلغ بهم اليأس مبلغه، رفع المالكون العجلات الأمامية لعرباتهم، وأعدوا

عربة تعلو العجلات الخلفية واستعانوا ببغال شدوها إلى العربات كبديل عن الوقود. وما لبثت «عربة هوفر» أن جذبت الانتباه إليها أينما ذهبت في البلدات الصغيرة بالجنوب الأمريكي. كما يلمس القارئ صعوبة الترجمة إن لم يقرن المترجم مهارات الترجمة بمهارات البحث في مثال آخر يرِد في الرواية بالإشارة إلى (steep front steps and a dog-trot hall) التي قد تجسد للقارئ صورة صالة تؤدي إلى مساحة تعيش فيها الكلاب أو تمرح. غير أنَّ هذه الإشارة في واقع الأمر تصف طرازًا معماريًا لبعض المنازل في جنوب الولايات المتحدة تعرف باسم (The Dunlap Cabin) «كابينة دنلاب»، تتميز بمساحة مدخل كبيرة تبلغ في اتساعها ثمانية أقدام على طول واجهة البيت، وساحة ممتدة تحتل المكان بين جانبي المنزل، ولذا جاءت الترجمة: «ممر مغطى بين جناحي المبنى» على أساس من البحث في أصل ذلك التعبير في تاريخ المعمار في الولايات الجنوبية.

وتبدو المظاهر الثقافية الخاصة بالجنوب الأمريكي أيضًا في ألعاب الأطفال وبعضها وثيق الصلة بالمناسبات الدينية أو القومية، ومنها على سبيل المثال «ماردي جرا» (Mardi Gras) أو الاحتفال بمنتصف فترة الصيام الكبير في جنوب الولايات المتحدة، و«هالوين» (Halloween) أو ليلة عيد جميع القديسين. إذ نجد أنَّ سكاوت تقول: «I wanted to bob for apples, but Cecil said it wasn't sanitary»، والأمر أشبه بما سبق من أمثلة ذات صلة بالسياق الثقافي والحضاري، وجدير بالمترجم أن يراجع الألعاب الشائعة في عيد الهالويين حتى يمكنه تقديم المعنى الذي ترمي إليه سكاوت، وبالبحث يتضح أنَّ تلك اللعبة تتضمن وضع بعض التفاح في حوض من الماء ثم يتسابق المتبارون لالتقاطه بأفواههم دون استخدام أيديهم، ويكسب اللعبة من يتمكن من التقاط تفاحة تحمل علامة مميزة تشير إلى أنها التفاحة الفائزة.

كما تضم الرواية مفردات أمريكية صِرفة لا تستخدم إلا في أقاليم بعينها في جنوب الولايات المتحدة، بل في ألاباما تحديدًا. ومن تلك المفردات التي تمثل تحديًا للمترجم كلمة (runner) في عبارة: «you can take that runner with you» التي توحي للوهلة الأولى بأنها تعني العدَّاء أو الهارب، غير أنَّ تلك الكلمة في لغة أهل الجنوب تعني «وِرْك» الدجاجة، وترجمة الجملة تصبح على هذا النحو: «يمكنك أن تأخذ وِرْك الدجاجة معك». وتحفل الرواية بمفردات من هذا القبيل، بل إن كثيرًا منها يرِد في فصول متفرقة للرواية مثل: (cootie) وتعني «قملة»، و(haint) وتعني «أشباح»، و(bob-white bird) وهو «طائر البوب وايت» في لغة أهل الجنوب.

وبما أن الرواية تحفل بتلك التعبيرات وغيرها من الإشارات التي لا يتسع المجال لتوضيحها في المتن، قررتُ اللجوء إلى توضيح المغزى الثقافي أو إلقاء الضوء على تلك الإشارات عن طريق إضافة الهوامش التي تقدم المعلومات الكفيلة بتوضيح الأمر للقراء. ومثال ذلك عبارة (a man sitting on a flagpole) أي «رجل يجلس فوق ساري عَلَم»، وقد أضفت هامشًا في ذلك المقام يوضح أن الجلوس على لوح يعلو ساري العلم بدعةٌ انتشرت في الولايات المتحدة الأمريكية في عشرينيات القرن الماضي في زمن الكساد الكبير. وفي موقع آخر من الرواية، نعرف أن جيم «قد تلقى تعليمه المدرسي فيما يُعَدُّ خليطًا من منهجي ديوي ودانس كاب»، (half decimal-half Duncecap) كما يَرِدُ في نص الرواية، ويتطلب توضيح الأمر هامشًا يُعرِّف القارئ أن «الدانس كاب» كانت قبعة ورقية على شكل قمع توضع على رءوس الكسالى والمقصرين من الطلاب،

وفي ذلك إشارة إلى نظام تعليمي قائم في جانب منه على الالتزام بالنظام وفي الجانب الآخر على إنزال العقاب بالمخالفين.

ولا يفوتني أن أذكر ما يرد في بعض عبارات الرواية من التباس يَنْبُع غالبًا من قصور الصبية في استخدام اللغة استخدامًا سليمًا، وقد اكتفيت في هذا المقام بتدوين هامش يشرح وجه الالتباس الذي يستحيل نقله إلى اللغة العربية لما يتسم به من تحريف بسيط في كلمة واحدة ينتج عنه كلمتان مختلفتان تمام الاختلاف في المعنى. ومثال ذلك الخلط الذي حدث على لسان أحد الطلاب في مشهد بالمدرسة بين كلمتي (prosecute) أي «يقاضي»، و(persecute) أي «يضطهد». ومن الجلي أن في مثل هذه الحالات قد لا تسعفنا الترجمة ويصبح لزامًا على المترجم أن يوضح الأمر في هامشٍ خاص.

إن رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» تَرْصُد جانبًا مهمًا من تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، وهو جانب يتعلق بسياسة التفرقة العنصرية والتعصب، كما تشتمل الرواية على قيم ونماذج إنسانية تتمثل في براءة الطفولة ومثابرة رجل يخاطر بكل ما لديه كي يدافع عن معتقداته. إن التحسن الذي طرأ على العلاقات العرقية في الولايات المتحدة منذ الستينيات، والذي بلغ أقصى مدى له بانتخاب «باراك أوباما» رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية في نوفمبر ٢٠٠٨ ليكون أول رئيس من أصل إفريقي في التاريخ الأمريكي، لَيعود في جانب منه إلى شجاعة رجال من طراز أتيكوس فينش، وأدباء من طراز هاربر لي كانوا على استعداد لمواجهة المواقف العنصرية التي سادت مجتمعاتهم. إنَّ ما تتسم به الرواية من جاذبية تتخطى حدود المكان والزمان يعود جانب منه إلى الحنين الذي ينتاب القارئ إلى براءة مرحلة الطفولة، قبل أن يصطدموا

بالوجه الآخر للحياة. إنَّها رواية لا تتعمد إثارة البهجة في النفوس ولا هي تعبر عن مشاعر غضب، بل هي رواية تنبض بالحياة والتعاطف ولا تخلو من لمحات فكاهية تتسم بالعفوية والبساطة. إنَّها رواية تقدم الناس كما هم على سجيتهم وتحاول أن تقدم فهمًا لهم، وتطرح نموذجًا لما يكون عليه الإنسان الصادق الشريف. وعلى مستوى أكثر عمقًا تبرز الرواية الجانب الخيِّر في مقابل الشر الذي يتربص به. إنَّ هاربر لي تقدم صورة لا تُنسى لأب يبذل قصارى جهده كي يضع طفليه على الطريق القويم كي يعيشا في عالمهما حريصين على القيام بالواجب الذي يمليه عليهما ضميرهما حتى وإن كانت النتيجة غير مضمونة التحقق. وبقدر ما حوت الرواية في جانب منها من خطايا الإنسان مما قد يبعث التشاؤم في النفس، بقدر ما حوت ما يفوق ذلك الشعور متمثلًا في الأمل في مستقبل أفضل. وخلاصة القول: إنَّ رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» تجمع دفء المشاعر، والتعاطف، والحس الفكاهي، والشعور بالمأساة، لتقدم نموذجًا للإنسانية في أجلى صورها.

وإني أدعو القارئ في النهاية لأن يتساءل معي عن مدى قبول مقولة هاربر لي التي تصدرت هذه المقدمة، والتي تُعَبِّر فيها عن عدم رضاها عن المقدمات، راجيةً أن تَحْظى مقدمتي بقبول حسن بوصفها تمهيدًا لرواية قائمة على التنوع والتباين. وأن يخلصوا من خلالها إلى ما يُنير لهم الطريق كي يحصلوا على المتعة والفائدة من رواية تُعَدُّ من أفضل الروايات التي كتبت في تاريخ الأدب الأمريكي.

داليا الشيَّـــال

ديسمبر ٢٠٠٨

أن تقتل طائرًا بريئًا

رواية

إهـــداء

إلى السيد لي وأليس

عرفانًا بما يجمعنا من حبٍّ وَوِد

المحامـون، أظنهـم كانـوا أطفـالًا يومـا مـا

تشارلز لام
(Charles Lamb)

الجزء الأول

الفصل الأول

حين أوشك أخي جيم (Jem)[1] على بلوغ الثالثة عشرة أُصِيب ذراعه بكسرٍ مضاعف عند مفصل المرفق، وحين التأم الكسر وتضاءلت مخاوفه من ألا يمارس لعبة كرة القدم الأمريكية مرة أخرى، لم يُعِر إصابته اهتمامًا. صار ذراعه الأيسر أقصر قليلًا من الأيمن، وعندما كان يقف أو يمشي كان ظهر يده يشكل زاوية قائمة مع جسده، أما إبهامه فكان موازيًا لفخذه. وما كان ذلك ليهمه على الإطلاق ما دام قادرًا على تمرير الكرة وركلها قبل أن تصل إلى الأرض.

وبعد أن مرَّ من السنين ما أتاح لنا مراجعة أحداثها، كنا في بعض الأحيان نناقش الملابسات التي أدت إلى وقوع ذلك الحادث. أنا أزعم أن عائلة يوولز (Ewells) كانت السبب في كل ذلك، لكن جيم، الذي يكبرني بأربع سنوات، رأى أن الأمر بدأ قبل ذلك بوقت طويل، فقال إن المشكلة بدأت في ذلك الصيف الذي شهد قدوم دِيلْ (Dill) الذي أوحى إلينا بفكرةٍ لإجبار بو رادلي (Boo Radley) على الخروج من بيته.

---

(١) تَرِدْ أسماء الأعلام باللغة الإنجليزية إلى جانب العربية فقط عند ظهورها للمرة الأولى في النص. (المترجمة).

وقلتُ إنه إذا أراد أن ينظر إلى الأمر من زاوية أرحب فالحق أن المسألة بدأت مع أندرو جاكسون (Andrew Jackson)[1]. فلو لم يتول الجنرال جاكسون طرد «الكريكس»[2] لما أُتيح لسيمون فينش (Simon Finch) أن يبدل القارب ويشق طريقه في نهر ألاباما (Alabama). تُرى... ماذا كان سيحدث لنا لو لم يفعل؟ كنا أكبر كثيرًا من أن نُنْهِي جدلنا بالتشابك بالأيدي، لذا فقد راجعنا والدي أتيكوس (Atticus) الذي قال إن كلينا على صواب.

ولأننا من أهل الجنوب، كان عارًا أيما عارٍ لدى بعضِ أفراد العائلة ألا يتوفر سجل يبرهن على انحدارهم من أسلاف شاركوا مع أي من الجانبين المتحاربين في معركة الهاستنجز (Hastings)[3]، وكان موضع فخرنا الوحيد هو سيمون فينش وكان صيدليًا من كورنول (Cornwall) احترف سلخ فراء الحيوانات وبلغ من التقوى مبلغًا لم يَفُقْهُ إلا ما اتَّسم به من بخل.

وقد أثار حفيظة سيمون فينش أثناء وجوده بإنجلترا ما تعرض له من يدعون أنفسهم «بالميثوديين» (Methodists) من اضطهادٍ على يد

---

(١) أندرو جاكسون (Andrew Jackson) هو الرئيس السابع للولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ما بين ١٨٢٩ إلى ١٨٣٧. (المترجمة).

(٢) «الكريكس» (Creeks) هي إحدى قبائل الهنود الحمر من سكان ألاباما الأصليين، ويطلق عليهم في بعض الأحيان اسم ماسكوجي (Muskogee) (المترجمة).

(٣) وقعت معركة الهاستنجز (Battle of Hastings) في يوم ١٤ أكتوبر ١٠٦٦ ما بين قوات ويليم الفاتح (William of Normandy) والسكسونيين (Saxons) بقيادة الملك هارولد الثاني (King Harold II) (المترجمة).

إخوانهم المسيحيين الأكثر تحررًا. وحيث إن سيمون كان يعتبر نفسه من الميثوديين فقد أبحر عبر الأطلنطي إلى فيلادلفيا (Philadelphia) ومنها إلى جامايكا (Jamaica) ثم إلى موبيل (Mobile) حتى استقر في سانت ستيفنز (Saint Stephens) وبما أنَّ سيمون كان حريصًا على اتباع تعاليم جون ويزلي (John Wesley) التي تقضي بالبعد عن الجدل في مجال البيع والشراء فقد اتجه إلى الطب وجمع ثروة طائلة من ممارسته على الرغم من عدم رضائه عن تلك المهنة، كما أنه كان دائم الخشية من أن يُقدم على عملٍ يمس عظمة الخالق مثل ارتداء الحليِّ الذهبية أو الملابس الغالية. ولما كان سيمون قد نسي مقولة أستاذه بعدم استعباد البشر فقد اشترى ثلاثةً من العبيد، وتمكن بمساعدتهم من بناء منزل للعائلة على إحدى ضفتي نهر ألاباما على بعد أربعين ميلًا شمال سانت ستيفنز. وفي إحدى مرات تردده على ألاباما قابل سيمون شريكة حياته وكوَّنا أسرة وأنجبا ذرية أكثرها من البنات. وعاش سيمون حياة مديدة ومات ثريًا.

اعتاد رجال العائلة أن يتواجدوا في منزل سيمون الذي أُطلق عليه «فينشز لاندج» (Finch's Landing)، وكانوا يكسبون عيشهم من جني القطن. وقد توفَّر في المكان جميع سبل الحياة الضرورية، ورغم بساطته، مقارنة بالقصور المجاورة له، فقد كانت الأرض تُدِرُ كل ما يلزم الحياة فيما عدا الثلج ودقيق القمح والملابس، فكانت تصل عن طريق المراكب القادمة من موبيل (Mobile).

ولو قُدِّر لسيمون أن يعيش ليشهد الاضطرابات ما بين الشمال والجنوب لنظر إليها بعينِ الغاضب العاجز، فقد أفقدت هذه الاضطرابات كل الأجيال التالية كل شيء إلا الأرض، لذا لم يتغير ذلك التقليد (تقليد

الارتباط بالأرض) حتى بدايات القرن العشرين، حين انتقل والدي أتيكوس فينش إلى مونتجومري (Montgomery) لدراسة الحقوق، في حين انتقل أخوه الأصغر إلى بوسطن (Boston) لدراسة الطب. أما شقيقتهما ألكسندرا (Alexandra) فظلت مرتبطة بالأرض، وتزوجت من رجل انطوائي كان يقضي معظم وقته مُستَرخيًا على أرجوحة النوم المعلقة بين شجرتين على ضفة النهر مترقبًا امتلاء «صنارته» بالأسماك.

عندما حصل أبي على شهادة الحقوق وانتسب إلى نقابة المحامين، عاد إلى مايكوم (Maycomb) ليبدأ مزاولة المهنة. وتقع مايكوم على بعد حوالي عشرين ميلًا إلى الشرق من أرض فينش، وكانت تُعَدُّ أهم بلدة في المقاطعة.

كان مكتب أتيكوس في دار القضاء غاية في البساطة لا يضم إلا القليل عدا حامل للقبعات، ووعاء لبصق مضغة التبغ، ولعبة الشطرنج، ومجلدًا أنيقًا يحوي قوانين ألاباما. كان أول عميلين له هما أول من حُكِمَ عليهما بالإعدام شنقًا في سجن مقاطعة مايكوم. وقد حثهما أتيكوس على قبول عرض الولاية السخي الذي يدعوهما للاعتراف بارتكاب جريمة من الدرجة الثانية فينجوان بحياتهما[1] ولكنهما كانا ينتميان إلى عائلة هافرفورد (Haverford) التي اقترن اسمها دومًا بالعناد والغباء. وكان هذان الشخصان قد قتلا كبير حدادي مايكوم نتيجة سوء تفاهم نَجَمَ عن زعمه احتجاز فرسٍ دون سند شرعي. ومن علامات طيشهما أنهما قتلاه

(١) جريمة القتل من الدرجة الأولى في القانون الأمريكي توازي جريمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، بينما توازي جريمة القتل من الدرجة الثانية جريمة القتل الخطأ. (المترجمة).

في حضور ثلاثة شهود وأصرا على أن ذلك الوغد كان يستحق الموت واعتبرا ذلك مبررًا مقنعا لأي شخص، واستمرا في إصرارهما على أنهما لم يرتكبا جريمة من الدرجة الأولى، لذا، لم يكن في مقدور أتيكوس أن يقدم لموكلَيه الكثير فاكتفى بالحضور لتوديعهما عند الرحيل. وقد شكلت هذه الواقعة بداية كره أبي العميق لمهنة المحاماة الجنائية.

على مرِّ السنوات الخمس الأولى التي استقر فيها أتيكوس في مايكوم التزم الاقتصاد والتوفير التزامًا تجاوز ما عداه، واتجه إلى استثمار ما كان يتكسبه من مال في تعليم أخيه. كان جون هيل فينش (John Hale Finch) يصغر أبي بعشر سنوات، وقد اختار دراسة الطب في الوقت الذي كان المكسب الناتج عن زراعة القطن لايساوي عناء زراعته، وبعد أن بدأ العم جون دراسته بدأت أحوال أتيكوس المالية تتحسن من العمل بالمحاماة. أحب أبي بلدة مايكوم حيث إنه وُلِدَ وترعرع فيها وكان يعرف أهلها وكانوا يعرفونه، ونظرًا لما عرف به سيمون فينش من نشاط فقد ربطته علاقات الرحم والنسب بأغلب عائلات البلدة.

كانت مايكوم بالنسبة لي بلدة قديمة منهكة، فحين يهطل المطر كانت الشوارع تتحول إلى وحلٍ أحمر، وكان العشب ينمو على الأرصفة وكانت مياه الأمطار تتسرب لتُغرِق مبنى المحكمة القائم في الميدان. كان الطقس وقتذاك أشد حرارة من الآن، وأذكر أنني رأيت كلبًا أسود يعاني من قيظ الصيف وبغالًا نحيلة تشد عربات «الهوفر» Hoover carts وتهش الذباب بأذيالها حيث تقف في ظل شجر البلوط في الميدان. كانت ياقات الرجال المنشاة تتهدل من الساعة التاسعة صباحًا، كما اعتادت السيدات على الاستحمام قبل الظهيرة وبعد قيلولة الساعة الثالثة. ومع حلول الليل كن يتحولن إلى كعكات طرية محلاة بحبات عرق لامع وبودرة ناعمة.

في تلك الأيام اعتاد الناس على السير ببطء، يتبخترون عبر الميدان ويتحركون داخل المحلات التي تقع حول الميدان وخارجها متمهلين في كل شيء يفعلونه. فاليوم ينقسم إلى أربع وعشرين ساعة ولكنه كان يبدو أطول من ذلك. لم تكن هناك حاجة إلى العجلة، فلا مكان يذهبون إليه ولا شيء يشترونه ولا مال يبتاعون به، وباختصار لا شيء يرونه خارج حدود بلدة مايكوم. وبالرغم من ذلك اتسم ذلك العهد عند بعض الناس بتفاؤلٍ غامض، حيث استقر في وجدان سكان البلدة أنه ليس هناك شيء يهابونه إلا الخوف ذاته[1].

كنا نعيش أنا وجيم ووالدنا أتيكوس في الشارع السكني الرئيسي بالبلدة، ومعنا طباختنا كالبورنيا (Calpurnia). كنت أنا وجيم راضيين عن أبينا، فقد كان يلعب معنا ويقرأ لنا ويعاملنا بأدبٍ وإن اتسم ذلك بطابعٍ رسمي.

كانت كالبورنيا نحيلة، ضعيفة البصر، تدقق النظر بتضييق عينيها، وكانت يدها الكبيرة أشبه بلوح السرير بل كانت أكثر صلابة منه. كانت دومًا تطردني من المطبخ وتسألني لماذا لا أسلك سلوكًا سويًا مثل أخي جيم؟ مع العلم بأنها تعرف أنه يكبرني سنًا. واعتادت كذلك أن تستدعيني للعودة إلى المنزل في الوقت الذي كنت فيه غير مستعدة لذلك. كانت معاركنا معًا ملحمية، أحادية الجانب، تكسبها هي دائمًا بسبب انحياز أبي الدائم إليها. عاشت معنا كالبورنيا منذ ولادة جيم وقد أحسست باستبدادها منذ وعيت الحياة.

---

(١) تستخدم المؤلفة في هذه العبارة كلمات جاءت في خطاب الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت (Franklin Roosevelt) (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥) بمناسبة توليه رئاسة الولايات المتحدة عام ١٩٣٣. (المترجمة).

عندما ماتت أمنا كان عمري سنتين، لذا لم أشعر بأني افتقدتها على الإطلاق. كانت أمي من عائلة جراهام (Graham) من بلدة مونتجومري، وقد قابلها أبي عندما انتُخِب عضوا في برلمان الولاية لأول مرة. كان وقتها في منتصف العمر وكانت تصغره بخمسة عشر عامًا. ولد جيم بعد أول عام من زواجهما، وولدت أنا بعد أربعة أعوام أخرى. ماتت أمي بعد مولدي بعامين إِثْرَ نوبة قلبية مفاجئة وقد قِيل إنه مرض موروث في عائلتها. لا أذكر أنني افتقدتها ولكن جيم افتقدها. كانت ذكرى والدتي واضحة في ذهن جيم، ففي غِمَار اللعب كان يتنهد فجأة ويجري ليلعب وحده خلف «الجراج». وعندما كانت تنتابه تلك المشاعر كنت أتركه وشأنه. حين كنت في حوالي السادسة من عمري، وكان جيم في العاشرة، كانت حدودنا في العطلة الصيفية (مسافة لا تتعدى وصول صوت كالبورنيا إلينا) هي منزل السيدة هنري لافاييت ديبوز (Mrs. Henry La Fayette Dubôse) الذي يقع بعد مبنيين من منزلنا في اتجاه الشمال، وبيت عائلة رادلي (Radley Place) الذي يبعد عنا بثلاثة مبانٍ تجاه الجنوب. لم نجرؤ إطلاقًا على تخطي هذه الحدود، ففي منزل عائلة رادلي يسكن كيانٌ مجهول كان مجرد وصفه كافيًا ليجعلنا نتصرف بأدب وحرص لأيامٍ طويلة. أما السيدة ديبوز فكانت الجحيم بعينه.

وكان هذا هو الصيف الذي جاءنا فيه دِيلْ.

عند إطلالة صباح وبينما نستهل يومنا باللعب في الفناء الخلفي سمعت أنا وجيم صوتًا قادمًا من جهة المساحة المزروعة في فناء الآنسة راتشيل هافرفورد (Miss Rachel Haverford)، فاتجهنا إلى السور لنرى ما إذا كان الصوت لكلبٍ صغير، إذ كانت كلبة الآنسة راتشيل على وشك الوضع، ولكننا بدلًا من أن نراها وجدنا شخصًا جالسًا ينظر إلينا. لم يكن

أطول بكثير من النباتات المزروعة حوله. نظرنا إليه بإمعان حتى تكلم فقال:

ـ أهـلًا.

رد عليه جيم بلطف:

ـ أهلا بك.

ـ اسـمي تشارلز بيكر هاريس (Charles Baker Harris) وأستطيع أن أقرأ.

قلت له:

ـ وماذا في هذا؟

ـ ظننتُ أنكما تودان معرفة هذه المعلومة وإذا كان لديكما ما ترغبان في قراءته فأنا قادر على ذلك.

سأله جيم:

ـ كم عمرك؟ أربع سنوات ونصف السنة؟

ـ بل أوشك أن أبلغ السابعة.

قال جيم وهو يشير إليَّ بإبهامه:

ـ آه لا عجب إذن، أختي سكاوت (Scout) تعرف كيف تقرأ منذ ولادتها ولم تذهب إلى المدرسة بعد. إنك تبدو هزيلًا جدًا بالنسبة لسِنك.

قال:

ـ قد أبدو هزيلًا ولكن سني كبيرة.

رفع جيم شعره بيده حتى يبدو في صورة أفضل ثم قال له:

ـ لماذا لا تأتي معنا يا تشارلز بيكر هاريس. يا إلهى يا له من اسم!

ليس مضحكًا أكثر من اسمك. الخالة راتشيل تقول إن اسمك جيريمي أتيكوس فينش (Jeremy Atticus Finch).

تَجَهَّم جيم ثم قال:

ـ حجمي يتناسب مع اسمي. أما أنت فاسمك أطول منك. أراهن أنه أطول منك بمقدار قدم.

قال دِيل وهو يزحف تحت السور لينفذ من تحته.

ـ يسمونني «دِيل».

قلت له:

ـ سيكون أفضل أن تقفز من فوق السور لا أن تزحف من تحته. من أين جئت؟

كان دِيل من بلدة ميريديان (Meridian) من المسيسبي (Mississippi) وكان يقضي الصيف مع خالته، الآنسة راتشيل، وسوف يقضي كل صيف اعتبارًا من الآن في مقاطعة مايكوم.

كانت عائلته في الأصل من مقاطعة مايكوم وأمه كانت تعمل في محل تصوير فوتوجرافي في ميريديان، وكانت قد قدمت صورة ديل في مسابقة لاختيار أجمل الأطفال وفازت بخمسة دولارات. ولما أعطت النقود إلى دِيل أنفق المبلغ كله في زيارات لدار السينما بلغت عشرين زيارة.

قال جيم:

لا يُعْرَضْ هنا أفلام سوى تلك التي تحكي قصص المسيح، وهي تعرض أحيانًا في قاعة المحكمة. هل سبق أن شاهدت فيلمًا جيدًا؟

كان ديل قد شاهد فيلم دراكولا (Dracula)، مما أثار في جيم بدايات شعور بالاحترام نحو ديل.

فقال له:

ـ احْكِه لنا.

كان ديل طفلًا غريب الأطوار، يرتدي «شورت» أزرق من الكتان مربوطًا إلى قميصه بأزرار، وكان شعره أبيض اللون كالثلج ملتصقًا برأسه ويشبه زغب البط. كان ديل يكبرني بسنة واحدة ولكنني كنت أطول منه بكثير. وحين كان يحكي لنا ديل القصص القديمة، كانت عيناه الزرقاوان تبرُقان وتخفتان، وكانت ضحكته تنطلق فجأة وتَنُمْ عن سعادة ومرح. اعتاد ديل أن يشُدَّ خصلة من شعره لتتدلى على منتصف جبينه.

وبعد أن حكى لنا ديل تفاصيل موت دراكولا وعلق جيم بأن الفيلم يبدو أفضل من الكتاب، سألتُ ديل عن والده قائلة:

ـ لم تذكر أي شيء عن أبيك.

ـ ليس لدي أب.

ـ هل مات؟

ـ لا..

ـ إذن ما دام لم يمت، فمن البديهي أن لك أبًا، أليس كذلك؟

احمرَّ وجه ديل وطلب مني جيم أن أسكت وهذه علامة على أنه قد اختبر ديل ووجده شخصًا مقبولًا. ومنذ ذلك الوقت مر الصيف هادئًا رتيبًا. ومن علامات ذلك أننا أجرينا بعض التحسينات على الكوخ الصغير المعلق بين شجرتين عملاقتين في الفناء الخلفي، كما كنا نتجادل ونحن نراجع أحداث بعض الحكايات المستوحاة من أعمال أوليفر أوبتك (Oliver Optic) وفيكتور أبلتون (Victor Appleton) وإيدجر رايس بوروز (Edgar Rice Burroughs).

ومن حُسن حظنا أن اشترك ديل معنا في تمثيل بعض هذه الأدوار، فقد وافق على أن يلعب أدوارًا كان جيم يدفعني إلى أن ألعبها فيما سبق كالقرد في طرازان (Tarzan) والسيد كرابتري (Mr.Crabtree) في أولاد روفر (The Rover Boys) والسيد دامون (Mr. Damon) في توم سويفت (Tom Swift).

وهكذا أصبحنا ننظر إلى ديل على أنه نسخة من مرلين (Merlin) (شخصية الساحر في أسطورة الملك آرثر) الذي كان رأسه يعج بالخطط الغريبة والأشواق والخيالات العجيبة.

ولكن مع حلول شهر أغسطس أصبحت ذخيرتنا مكررة ومملة وحينذاك طرح علينا ديل اقتراحًا لإجبار بو رادلي على الخروج من بيته.

كان ديل مفتونًا بمنزل رادلي ورغم كل تحذيراتنا وتفسيراتنا فقد كان المنزل يجتذبه كما يجتذب القمر مياه البحر، ولكنه لم يجرؤ أن يقترب إلا من عمود الإنارة الذي يقع عند الزاوية وهو على بعد آمن من باب منزل رادلي. كان ديل يقف هناك يحملق ويتساءل وهو يسند ذراعه على العمود الضخم.

يقع منزل رادلي على منعطف حاد وراء بيتنا. فإذا اتجهنا إلى الجنوب فإننا نواجه المدخل الخارجي للمنزل ويستدير رصيف الشارع ليجاور قطعة الأرض الموازية للمنزل. لم يكن المنزل مرتفعًا ويبدو أنه كان في يوم ما مطليًا باللون الأبيض بينما طُلي مدخله الأمامي بلون داكن ونوافذه باللون الأخضر. ولكن بمرور السنين تحولت هذه الألوان إلى لون رمادي يشابه لون الفناء المحيط به. أما شجر البلوط فكان يحجب الشمس عن المنزل، وقد تدلت ألواح خشبية عفنة من فوق الشرفة. فما زالت بعض بقايا الأوتاد تحمي الفناء الأمامي ولكن يبدو أن الفناء لم تطله يد التنظيف من قبل فنَمَتْ فيه أنواع كثيرة من العشب.

يسكن المنزل شبح حقود يتحدث عنه الناس وكأنه موجود بالفعل ولكننا لم نره، لا أنا ولا جيم. يقول الناس إنه يخرج ليلًا عندما يكون القمر ساطعًا في السماء لكي يتلصص عليهم من خلال النوافذ. وعندما كانت بعض النباتات تتجمد أثناء هجمات البرد الشديدة، فما كان ذلك إلا لأن أنفاسه وقعت عليها، وكانت كل الجرائم التي ترتكب تُنْسَب إليه.

وقد نَزَلَتْ بالبلدة سلسلة من الجرائم الليلية المُرَوِّعَة تعرضت خلالها الدواجن والحيوانات الأليفة إلى سرقات وتشوهات عديدة. ورغم أن المتهم الأول في ذلك كان «أدي المجنون» (Crazy Addie)، الذي أغرق نفسه في (دوامة باركر)، لم يسلم رادلي من شكوك الناس فيه. وما كان لزنجي أن يجرؤ على المرور بالقرب من منزل رادلي في الليل بل كان يقطع الطريق إلى الرصيف الآخر مصدرًا صفيرًا وهو يمشي.

توازت مدرسة مايكوم مع الجهة الخلفية من أرض رادلي وكانت أشجار الجوز المزروعة في الجزء المخصص لتربية الدواجن تُسقِط

ثمارها في فناء المدرسة، ولكن لم يجرؤ الأطفال أن يَمَسوا ما يسقط من الأشجار، فالقتل على يد رادلي ينتظرهم إذا أكلوها. أما إذا سقطت كرة البيسبول (baseball) في أرض رادلي فهي بالتأكيد كرة مفقودة، لا سبيل لاستردادها أو السؤال عنها.

بدأت مأساة ذلك المنزل قبل ولادتي أنا وجيم. كان أفراد عائلة رادلي، الذين يلقون الترحاب في كل مكان بالبلدة، أشخاصًا منطوين ومنعزلين، وهي صفات لا يقبلها أهل مايكوم بسهولة. فلم يكن أفراد عائلة رادلي يذهبون إلى الكنيسة، بل كانوا يُصَلُّون في المنزل. أما زوجة السيد رادلي فنادرًا ما كانت تذهب لاحتساء فنجان قهوة منتصف النهار مع إحدى جاراتها، كما أنها لم تشارك في أي من الحلقات الدينية التبشيرية.

كان السيد رادلي يخرج إلى البلدة في الساعة الحادية عشرة من صباح كِل يوم ويعود في تمام الثانية عشرة وهو يحمل، في بعض الأحيان، كيسًا من الورق البني اللون يُفْتَرَضْ أنه مليء باحتياجات العائلة من البقالة.

لم أعرف على الإطلاق مصدر دخل السيد رادلي. قال جيم إنه «يشتري القطن» وهو تعبير مهذب للإشارة إلى أنه لا يعمل، غير أن السيد رادلي وزوجته أقاما في هذا المنزل مع ابنيهما منذ زمن بعيد.

في أيام الآحاد كانت نوافذ منزل عائلة رادلي وأبوابه تغلق، وهي عادة غريبة على بلدة مايكوم، فالأبواب المغلقة تعني إما أن بالمنزل مريضًا أو أن الطقس بارد للغاية. ومن بين كل أيام الأسبوع، كان يوم الأحد هو يوم الزيارات الرسمية حين ترتدي السيدات المشدات ويرتدي الرجال السترات ويلبس الأطفال الأحذية، ولم يحدث على الإطلاق أن صعد أحد الجيران درجات السلم الأمامي لمنزل رادلي في عصر يوم الأحد

وصاح «أهلًا». فقد كان منزل رادلي بلا أبواب خارجية. سألت والدي أتيكوس ذات مرة عما إذا كان لذلك المنزل أبواب في يوم ما فأجابني بنعم، مشيرًا إلى وجود تلك الأبواب فيما قبل أن أولد.

وتحكي الأسطورة المنتشرة بين الجيران أن رادلي الصغير وهو في سن المراهقة تعرف إلى بعض الشبان من عائلة كانينجهامز (Cunninghams) من بلدة أولد ساريم (Old Sarum)، وهي قبيلة كبيرة من شمال المقاطعة. كَوَّن هؤلاء الشبان جماعة لم تر مايكوم مثلها من قبل وهي أقرب ما تكون إلى تنظيم العصابات، ومع أنهم لم يقوموا إلا بأتفه الأعمال شأنًا فقد كانت أعمالهم تلك مدار حديث البلدة وموضع تحذير كنائسها الثلاث. كانوا يتسكعون في صالونات الحلاقة ويستقلون «الأوتوبيس» إلى أبوتسفيل (Abbottsville) ويذهبون إلى السينما، كما كانوا يحضرون حفلات الرقص في نادي القمار الواقع على شاطئ النهر واسمه «فندق قطر الندى ومعسكر السمك». كانوا أيضًا يشربون الويسكي المصنوع بالمنازل والمحرم تداوله أو بيعه. وبالرغم من كل ذلك لم يجرؤ أحد من أهالي مايكوم أن يقول لرادلي إن ابنه ينتمي إلى هذه المجموعة الفاسدة.

وفي ليلة من الليالي التي سادها الهياج والمرح، قاد هؤلاء الشبان سيارة صغيرة قديمة حول الميدان، وعندما حاول السيد كونر (Mr. Conner)، مساعد المأمور إلقاء القبض عليهم، قاوموه وحبسوه في المرحاض الخارجي للمحكمة. وقرر أهل البلدة أنه لا بد من اتخاذ إجراء، وقال السيد كونر إنه يعرفهم جيدًا وإنه مُصرٌ على أن ينالوا عقابهم. وهكذا مَثُلَ الشبان أمام القاضي الحسبي متهمين بالشغب والإخلال بالأمن العام في البلدة وبالاعتداء بالضرب وبالتفوه بألفاظ بذيئة في حضور أنثى. وعندما

سأل القاضي السيد كونر لِمَ أدرج تلك التهمة الأخيرة؟ أجاب السيد كونر أنهم أهانوه بصوتٍ مرتفع جدًا مسموع لجميع سيدات بلدة مايكوم. وقد قرر القاضي إرسال هؤلاء الشبان إلى المعهد الصناعي الحكومي حيث يقدم لهم الطعام في مأوى مناسب فلم يزج بهم في السجن ولم يلحق بهم العار. ولكن السيد رادلي كان يرى غير ذلك مما دعاه أن يطلب من القاضي إطلاق سراح ابنه آرثر (Arthur)، وتعهد بأنه لن يثير أي مشكلات بعد ذلك اليوم. ولما كان القاضي يثق فيما يَعِد به السيد رادلي فقد أطلق سراح الابن.

أما الشبان الآخرون فقد ذهبوا إلى مدرسة التعليم الصناعي وتلقوا فيها أفضل تعليم ثانوي في الولاية، واستمر أحدهم في دراسته حتى التحق بكلية الهندسة في أوبورن (Auburn)، في حين أُغلقت أبواب منزل رادلي خلال أيام الأسبوع وحتى أيام الآحاد، ولم ير أحد ابن السيد رادلي طوال خمسة عشر عامًا.

وجاء اليوم الذي يتذكره جيم بصعوبة، وهو اليوم الذي شوهد فيه بو رادلي وجرت سيرته على الألسنة، ولكن جيم لم يره ولم يعلم بخبره. قال جيم إن أتيكوس لم يتكلم كثيرًا عن عائلة رادلي، وعندما كان جيم يسأله عنهم كان يطلب منه ألاّ يتدخل فيما لايعنيه، وأن يترك عائلة رادلي وشأنها. ولكن حين حدث ما حدث قال جيم إن أتيكوس هز رأسه وغمغم بكلمات غير مفهومة.

وكان جيم يتلقى كل معلوماته عن طريق الآنسة ستيفاني كروفورد (Miss Stephanie Crawford)، وهي جارة سليطة اللسان كانت تقول إنها على معرفة بكل شيء. وحسب ما قالته الآنسة ستيفاني فقد كان بو جالسًا

في حجرة المعيشة منهمكًا في تقطيع قصاصات من صحيفة «مايكوم تريبون» (The Maycomb Tribune) حين دخل أبوه الغرفة عليه، وبينما كان السيد رادلي يمر بالقرب من ابنه، طعنه بو في ساقه بالمقص ثم نزعه ومسحه في «بنطلونه»وعاود تقطيع القصاصات.

هرعت السيدة رادلي إلى الشارع وهي تصرخ بأن آرثر سوف يقتلهم جميعًا. وحين وصل المأمور وجد بو جالسًا في حجرة المعيشة مستمرًا في تقطيع القصاصات من الجريدة. كان عمر بو وقتذاك ثلاثة وثلاثين عامًا.

وقالت الآنسة ستيفاني إن السيد رادلي قد صرح بأنه لن يقبل أن يذهب أي فرد من عائلته إلى أي مصحة، بينما اقترح البعض أن إقامة بو لفترة ما في تسكالوسا (Tuscaloosa) ستعود عليه بالنفع. لم يكن بو مجنونًا ولكنه كان متوترًا في بعض الأحيان، وقد رضخ رادلي لعدم إبقائه حبيس المنزل غير أنه أصر على عدم توجيه أي اتهام لابنه فهو ليس مجرمًا. لم يستطع المأمور أن يَزُجَ ببو في السجن ليكون جنبًا إلى جنب مع الزنوج، ولذلك فقد حُبِس بو في «بدروم»دار القضاء.

ولا تعي ذاكرة جيم انتقال بو من «البدروم»إلى منزله، بينما ذكرت الآنسة ستيفاني كروفود أن بعض أعضاء المجلس المحلي قالوا للسيد رادلي إنه إن لم يعد بو إلى بيته فسوف يموت متعفنًا من الرطوبة.

لا أحد يعرف إلى أي أنواع التهديد لجأ السيد رادلي ليخفي بو بعيدًا عن الأنظار، ولكن جيم يعتقد أنه في معظم الأحيان قيده بالسلاسل الحديدية في السرير، غير أن أتيكوس نفى ذلك وأكد أن الأمر لم يكن كذلك وأن هناك طرقًا أخرى لتحويل الناس إلى أشباح.

استحضرت ذاكرتي كيف كانت زوجة السيد رادلي تفتح الباب

الأمامي وتمشي حتى نهاية المدخل لسُقيا زرعها وكنت وجيم نرى السيد رادلي يمشي ذهابًا وإيابًا إلى البلدة. كان رجلًا نحيلًا، عيناه وبشرته باهتتان، أما عظام خده فحادة وفمه واسع جدًا، وكانت شفته العليا رفيعة والسفلى ممتلئة. وكانت الآنسة ستيفاني كروفورد تقول إنه رجل مستقيم، يعرف ربه ويتقيه فكنا نصدقها خاصة وأن هيئة السيد رادلي المعتدلة دلت على ذلك.

لم يحدث أن وجه إلينا السيد رادلي حديثًا، وحينما كان يمر كنا ننظر للأرض ونردد: «صباح الخير يا سيدي»، فكان يرد علينا دون أدنى اهتمام. كان ابنه الأكبر يعيش في بنساكولا (Pensacola) ويعود إلى منزل العائلة في عطلة عيد الميلاد وهو أحد الأشخاص القليلين الذين رأيناهم يدخلون ويخرجون من هذا المكان. ومنذ ذلك اليوم الذي عاد فيه رادلي بآرثر إلى البيت، يقول الناس إن المنزل صار بلا حياة.

وفي يوم من الأيام قال لنا أتيكوس إنه سوف يضربنا ويعاقبنا إذا ما أحدثنا أي ضجيج في الفناء، وطلب من كالبورنيا أن تتابعنا في غيابه، وأن تتأكد من أننا لن نصدر أصواتًا مزعجة حيث إن السيد رادلي كان يحتضر.

ولم يحضره الموت سريعًا إذ انقضى زمن قبل أن تفيض روحه، فوُضِعَتْ الحواجز الخشبية لتسد الطريق عند جانبي الأرض المحيطة بالمنزل، وغُطي الرصيف بالقش وتحوَّل مسار السيارات إلى الشارع الخلفي كلما جاء الدكتور رينولدز (Reynolds) لزيارة السيد رادلي. ومرت أيام كنت أنا وجيم نزحف حول الفناء إلى أن رُفِعَتْ الحواجز ووقفنا نراقب السيد رادلي وهو يقوم برحلته الأخيرة مارًا بمنزلنا.

همهمت كالبورنيا: «ها هو أحقر رجل على وجه البسيطة» قالتها ثم بصقت متأملة أرض الفناء.

نظرنا إليها بدهشة كبيرة، فقد كانت كالبورنيا قَلّمَا تُعَلِّقُ على أساليب حياة البيض.

ظن الجيران أن بو سيخرج من المنزل بعد وفاة السيد رادلي، غير أن أمرًا آخر قد طرأ عندما عاد أخو بو الأكبر من بنساكولا وحلَّ محل السيد رادلي. وكان اختلاف السن هو الفرق الوحيد بينه وبين الأب.وقال جيم إن السيد ناثان رادلي (Mr. Nathan Radley) هو أيضًا «يشترى القطن». ولكن السيد ناثان كان يرد علينا السلام عندما كنا نحييه في الصباح وكنا نراه أحيانًا وهو عائد من البلدة وفى يده مجلة.

وكلما كنا نحكي لديل عن عائلة رادلي، أبدى فضولا لمعرفة المزيد وازدادت وقفاته عند عمود الإنارة في الزاوية كلما ازدادت تساؤلاته.

كان ديل يهمهم قائلًا: «ترى ماذا يفعل هناك؟ يبدو وكأنه يخرج رأسه من الباب».

قال جيم: «إنه يخرج في ظلمة الليل. قالت الآنسة ستيفاني كروفورد إنها استيقظت ذات يوم من نومها في منتصف الليل فرأته يحملق من النافذة... قالت إن رأسه كانت تشبه الجمجمة. هل حدث أن استيقظت يومًا وسمعته يا ديل؟ هكذا يمشي...» زحلق جيم قدميه على الحصى في الأرض وقال: «لماذا تظن أن السيدة رايتشل تُغْلِق الأبواب بهذا الإحكام في الليل؟ لقد رأيتُ آثاره في الفناء الخلفي عدة مرات في الصباح، كما سمعته في إحدى الليالي ينبش بأظافره على الباب الخلفي، ولكن دومًا يختفي عندما يصل أتيكوس».

قال ديل: ترى... ما شكله؟

وصف جيم بو وصفا دقيقًا فطوله حوالي مترين وكان يأكل السناجب النيئة وأي قطط تقع بين يديه، لذا كانت يداه ملطختين بالدماء. فإذا أكلت حيوانًا نيئًا فلا يمكن أن تزيل آثار الدم من يديك. أما وجهه فيحمل أثر إصابة طويلة متعرجة، وأسنانه صفراء مُسوَّسة وعيناه جاحظتان وفمه ينساب منه اللعاب معظم الوقت.

قال ديل: «فلنحاول دفعه للخروج من المنزل، أريد أن أراه»، فرد عليه جيم قائلًا: «إن مجرد نقرة على الباب ستعرضه للقتل».

وقعت غارتنا الأولى حينما راهن ديل على «الشبح الرمادي» (The Gray Ghost) في مقابل أن يعطيه جيم نسختين من «توم سويفت» (Tom Swift) إذا ما استطاع الوصول إلى مكان أبعد من بوابة رادلي الخارجية. لم يكن جيم قد رفض أي تحدٍ على الإطلاق في حياته.

فكر جيم في الأمر لمدة ثلاثة أيام، وأظن أنه كان يقدم كرامته على عقله فقد تمكن ديل من إحراجه بمنتهى السهولة حين قال له: «أنت خائف». وقال جيم «لست خائفًا كل ما في الأمر أنني أريد التصرف باحترام». ثم قال ديل في اليوم التالي «لا، أنت خائف جدًا حتى إنك لا تجرؤ على مجرد وضع إصبع رجلك أمام الفناء الأمامي». أكد له جيم أنه ليس بخائف وأنه كان يمر كل يوم من أمام منزل عائلة رادلي.

قلت: «وبالطبع كنت تفعل ذلك وأنت تجري».

وفي اليوم الثالث حاصره ديل تمامًا وقال لجيم إن الناس في ميريديان لا يخافون مثلما يخاف الناس في مايكوم، وإنه لم يرَ في حياته أناسًا يخافون مثل هؤلاء الذين رآهم في مايكوم.

كان هذا كافيًا لأن يتجه جيم نحو زاوية المنزل ويقف مستندًا على عمود الإنارة ليراقب البوابة المتأرجحة على مفصلٍ بدائي.

قال جيم عندما وجدنا بجانبه: «أرجو أنك تكون قد أيقنت أنه سيقتلنا جميعًا يا ديل هاريس فلا تلمني عندما يَقْتلِعُ عينيك فأنت الذي ورطتنا في ذلك الأمر. أتذكر»؟

همهم ديل بصبر: أما زلت خائفًا؟

أراد جيم أن يُعلِمَ ديل يقينًا أنه ليس خائفًا من أي شيء كان فقال له: «الحقيقة أنني لا أجد وسيلة تدفعه للخروج دون أن يُوقِعَ بنا ثم إن هناك أخت جيم الصغيرة التي ينبغي له أن يفكر في سلامتها».

وحين قال ذلك عَلِمتُ أنه كان خائفًا. فقد قال جيم نفس هذا الكلام عندما تحديته أن يقفز من فوق المنزل إذ قال حينذاك: «وإذا مت، فماذا سيحدث لكِ؟» ثم قفز وهبط سالمًا، ثم فقد شعوره بالمسئولية ولم يعاوده ذلك الشعور إلا عند منزل عائلة رادلي.

سأله ديل: أتنوي الانسحاب من التحدي؟ إذا كان الأمر كذلك فـ......

قاطعه جيم: يا ديل، هذه الأمور تحتاج إلى تفكير... دعني أفكر للحظة واحدة... هذا أشبه بأن تجعل السلحفاة تخرج رأسها.

سأل ديل: وكيف ذلك؟

أجابه جيم: بأن تشعل «عود كبريت» من تحتها.

حذرت جيم من أنه إذا أشعل حريقًا في منزل رادلي فسوف أكشف أمره لأتيكوس.

قال ديل إن إشعال «عود كبريت» تحت السلحفاة شيء كريه.

رد جيم قائلًا: ليس كريهًا بالمرة، فهو مجرد وسيلة لإقناعها بأن تُخرِجَ رأسها فهو ليس كإشعال النار فيها.

ـ وكيف لك أن تعرف أن إشعال النار لا يضيرها؟

ـ السلاحف لا تحس، أيها الغبي.

ـ هل سبق أن كنت سلحفاة من قبل؟

ـ يا إلهي يا ديل... لا تشوش أفكاري... أعتقد أننا نستطيع أن ندفعه للخروج من مكمنه.

وقف جيم يفكر لفترة طويلة حتى إن ديل تنازل تنازلًا طفيفًا وقال لن أقول إنك خائف ولن تكسب الرهان وسوف أقبل أن نتبادل «الشبح الرمادي» إذا ما ذهبت إلى البيت ولمسته فقط؟

لمعت عينا جيم: أُلامِسُ البيت وحسب؟ أهذا كل ما تريد؟

أومأ ديل برأسه.

هل أنت واثق أن هذا كل ما في الأمر؟ لا أريد أن أسمعك تصيح بطلب آخر بمجرد عودتي.

قال ديل: نعم، هذا كل ما في الأمر. فهو غالبًا سيخرج ليجري وراءك في الفناء، ثم سنهجم عليه أنا وسكاوت ونطرحه أرضًا عندها سنخبره أننا لن نؤذيه.

تركنا زاوية المنزل وعبرنا الشارع الجانبي الذي يوازي منزل رادلي وتوقفنا عند الباب الأمامي.

قال ديل:

هيا تقدم فأنا وسكاوت خلفك.

قال جيم:

سأذهب، فلا تدفعني للتعجل.

مشى جيم نحو الزاوية ثم عاد مرة أخرى وهو يتفحص المنطقة وكأنه يحاول اتخاذ قرار حكيم يصل به إلى أحسن طريقة لدخول المنزل. تجهم وراح يعبث برأسه. سَخِرتُ منه ففتح جيم الباب وأسرع نحو جانب المنزل ولَمَسَهُ بكفه ثم استدار وعاد يجري فتجاوزنا دون أن ينتظر ليرى نتيجة العملية. وعلى الفور لَحِقْنَا به أنا وديل وعندما وصلنا إلى المدخل الأمامي نظرنا إلى الخلف ونحن نلهث.

كان المنزل العتيق كما هو، متهدلًا ومريضًا، ولكن حين أمعنَّا النظر عبر الطريق ظننا أن «شيش» النافذة يتحرك. نقرة خفيفة وحركة بسيطة لا تكاد تُرَى، ثم عاد البيت إلى سكونه المعهود.

الفصل الثاني

تَركَنا دِيل في بداية شهر سبتمبر كي يعود إلى ميريديان. وقد ذهبنا لنودعه وهو يستقل أتوبيس الساعة الخامسة وشعرت بالبؤس الشديد بدونه حتى تذكرت أنني سأبدأ الذهاب إلى المدرسة خلال أسبوع. لم أتطلع لشيء ما في حياتي مثلما تطلعتُ لذلك.

فقد كانت أيام الشتاء تمضي وأنا جالسة في الكوخ الصغير أرقُبُ فناء المدرسة، وأتابع عشرات الأطفال من خلال «تليسكوب» ذي قدرة مزدوجة على التكبير كان جيم قد أعطاه لي، فكنت أتعلم ألعابهم وأتابع سترة جيم الحمراء وسط دوائر متماوجة من الأطفال الذين يلعبون «الاستغماية» مشاطرة إياهم أحزانهم ومحتفلة بانتصاراتهم الصغيرة وأُسرُّ في نفسي ذلك كله، وأتُوق إلى الانضمام إليهم.

وقد تنازل جيم واصطحبني إلى المدرسة في اليوم الأول من الدراسة وهو عادةً أمرٌ يقوم به الوالدان، ولكن أتيكوس قال إن جيم يَسُرُّه أن يقودني إلى فصلي. وأظن أن هذه المهمة كلفت أتيكوس بعض المال، إذ إنني سمعتُ صوتَ رنينٍ غير مألوف صادر من جيب جيم وحين أبطأنا في المشي بجوار فناء المدرسة لم يفت جيم أن يذكرني بألا أزعجه أثناء

ساعات المدرسة، وألا أقصده لأطلب منه أن نُمَثّل فصلًا من «طرازان ورجال النمل» (Tarzan and the Ant Men)، وألا أحرجه بالإشارة إلى حياته الخاصة، وألا أتبعه في الفسحة وقت الظهر. كان عليّ أن ألتزم بحدود الصف الأول، بينما يلتزم هو بحدود الصف الخامس، أي باختصار، كان عليَّ أن أتركه وشأنه.

سألته: أتعني أننا لن نستطيع أن نلعب بعد الآن؟

قال: في البيت سيبقى الأمر على ما هو عليه، ولكنك سترين أن المدرسة شيء مختلف.

وكان الأمر كذلك بالفعل، فقبل أن ينتهي أول صباح لي هناك، جذبتني مدرستنا الآنسة كارولين فيشر (Miss Caroline Fisher) إلى مقدمة الصف وربتت على كفِّي بمسطرة، ثم أمرتني بالوقوف في ركن الفصل حتى الظهر.

لم يكن عُمْرُ الآنسة كارولين يزيد على الحادية والعشرين، وكان شعرها كستنائيًا لامعًا وخداها ورديين وأظافرها مطلية باللون القرمزي، وكانت ترتدي حذاء ذا كعب عالٍ وثوبًا مقلمًا باللونين الأحمر والأبيض. كانت هيئتها ورائحتها أقرب ما تكون إلى حلوى النعناع. كانت قد استأجرت الغرفة الأمامية من الطابق العلوي من منزل الآنسة مودي أتكنسون (Miss Maudie Atkinson) الذي يقع على الجانب الآخر من شارعنا، ولا يبعد عن منزلنا سوى بمبنى واحد. وحينما قدمتنا إليها الآنسة مودي، ظل جيم مشدوهًا لوقت طويل.

كتبت الآنسة كارولين اسمها بأحرف متفرقة على السبورة، وقالت: «اسمي الآنسة كارولين فيشر، وأنا من مقاطعة ونستون في شمال ألاباما».

ارتفع صوت تلاميذ الفصل، فلربما تتصف هذه الآنسة بتلك الطبائع الغريبة التي عُرِفَ بها أهل تلك المقاطعة (حين انسحبت ألاباما من «الاتحاد» في ١١ يناير ١٨٦١، انسحبت مقاطعة ونستون من ولاية ألاباما وكان كل طفل في مقاطعة مايكوم يعرف ذلك). كانت شمال ألاباما تشتهر بمصانع الكحول والبغال الكبيرة ومصانع الحديد والجمهوريين والأساتذة وشخصيات أخرى بلا أي خلفيه اجتماعية.

بدأت الآنسة كارولين اليوم الدراسي بقراءة قصة عن القطط. كانت القطط تتحاور مع بعضها وترتدي ملابس جميلة وتعيش في منزل دافئ تحت مدفأة المطبخ. وحين اتصلت «السيدة قطة» بالمتجر لتطلب بعض الحلوى على شكل فئران مغطاة بالشيكولاتة، بدأ تلاميذ الفصل يتململون زهقا مثل ديدان «الكاتاوابا» التي تتزاحم في الدلو. لم تدرك الآنسة كارولين أن تلاميذ الصف الأول الذين يرتدون ثيابًا مهلهلة وقمصانًا من القطن الخشن وجونلات فضفاضة، والذين شارك معظمهم في جني القطن وإطعام الخنازير منذ طفولتهم المبكرة قد اكتسبوا حصانة ضد شطحات الخيال الأدبي، وعندما أنهت الآنسة كارولين القصة صاحت: «ياه، يا لها من قصة جميلة»!

ثم اتجهت إلى السبورة وكتبت عليها حروف الهجاء بحجمٍ كبير واستدارت في مواجهة الفصل وسألتنا: «هل يعرف أحدكم ما كتبت»؟

كان الجميع يعرفون أنها حروف الهجاء فقد كان معظم تلاميذ الصف الأول من راسبي السنة الماضية.

أعتقد أنها اختارتني لأنها كانت تَعْرِفُ اسمي، وبينما كنت أقرأ حروف الهجاء قطبت جبينها وظهر خيط رفيع بين حاجبيها، وبعد أن

طلبت مني أن أقرأ بصوتٍ عالٍ معظم كتاب القراءة الأولى (My First Reader) وأسعار سوق المال في صحيفة ذا موبيل ريجستر (The Mobile Register)، اكتشفتْ أنني أجيد القراءة فرمتني بنظرة تعبر عن النفور إلا قليلا وطلبت مني أن أقول لأبي إنه يجب ألا يعلمني شيئًا بعد اليوم فهذا سوف يُؤثِرْ فيما أتلقاه بالمدرسة.

سألتها بدهشة: «يعلمني؟! لم يعلمني أبي أي شيء يا آنسة كارولين فلا وقت لديه ليعلمني». ابتسمت الآنسة كارولين وهزت رأسها، فأضفتُ قائلة: إن أبي يبلغ به التعب مداه في المساء فيكتفي بالجلوس في غرفة المعيشة والانهماك في القراءة.

سألتني الآنسة كارولين برحابة صدر إن لم يعلمك، فمن عَلَّمَك إذن: لا بد أن شخصًا ما علمك. فأنتِ لم تولدي وصحيفة «موبيل ريجستر» بين يديك.

«يقول جيم إنني وُلِدْتُ كذلك، وقد قرأ في كتاب أن اسمي بولفينش لا فينش، ويقول جيم إن اسمي الحقيقي هو جين لويز بولفينش (Jean Louis Bullfinch) وإنه جرى تبديلي حين وُلْدتُ وإنني بالفعل......».

كان من الواضح أن الآنسة كارولين تظن أنني أكذب فقالت: «لا يجب أن نطلق لخيالنا العنان يا عزيزتي فقولي لوالدك ألا يعلِّمَكِ شيئًا بعد اليوم. من الأفضل أن تبدئي تعلم القراءة وذهنكِ صافٍ. أخبريه أنني سوف أتولى أمرْكِ منذ الآن وسأحاول إصلاح ما تم تخريبه».

«سيدتي».

«لا يعرف والدك كيف يُعَلِّمُ. يمكنك الجلوس الآن».

تمتمت بأنني آسفة وجلست في مكاني وأنا أفكر في جريمتي. أنا لم أقصد مطلقًا أن أتعلم، ولكنني كنت أتخبط متعثرة في الجرائد اليومية. ترى هل تعلمت أثناء قضاء الساعات الطويلة في الكنيسة؟ لا أذكر على الإطلاق أنني عجزت يوما عن قراءة الترانيم. ولما وجدتني مجبرة على مراجعة الأمر، توصلت إلى أن اكتسابي القدرة على القراءة كان بالسهولة نفسها التي تعلمت بها ارتداء ثوبي الشتوي ذي الأزرار الخلفية، أو صنع عقدة ذات قوسين برباط حذائي، لا أستطيع أن أتذكر متى بدأت الأسطر التي كان أتيكوس يمر تحتها بإصبعه تنفصل إلى كلمات، ولكنني كنت أتمعن فيها كل الأمسيات التي تدور في ذاكرتي عندما أستمع إلى الأخبار اليومية: مشروعات القوانين التي ستتحول إلى تشريعات قانونية، ويوميات «لورنزو داو»[1] (Lorenzo Dow)، وأي شيء آخر يقرؤه أتيكوس حين كنت أتسلل إلى حضنه كل ليلة. لم أحب القراءة إلا عندما أحسست أنني سأفقدها. فلا أحد يحب التنفس مثلًا.

كنت أعلم أنني قد أزعجت الآنسة كارولين. ولذلك بَقَيتُ وحيدة ونظرت من النافذة حتى حان موعد الفسحة، حين شَدَّني جيم من بين تلاميذ الصف الأول في فناء المدرسة. سألني عما إذا كان كل شيء على ما يرام فقلت له:

ـ إذا لم أكن مضطرة للبقاء هنا، فإنني أرغب في الرحيل يا جيم.

---

(١) (كان لورنزو دو (Lorenzo Dow) (١٧٧٧ ـ ١٨٣٤) قَسًّا غريب الأطوار له دورٌ فعال في الصحوة الكبرى الثانية (Second Great Awakening) (١٨٠٠ ـ ١٨٣٠). فاقت مبيعات مذكراته في ذلك الوقت مبيعات الكتاب المقدس. (المترجمة).

ـ «لا تُبالِ يا سكاوت. تقول مدرستنا إن الآنسة كارولين تنتهج أسلوبًا جديدًا في التعليم وقد تعلمته في الكلية وسوف يُطَبَّقْ هذا الأسلوب على كل مراحل التعليم قريبًا. هذا الأسلوب لا يضطرك إلى الاعتماد على الكتب للتعَلُّمْ، فإذا أردت مثلًا أن تعرفي شيئًا ما عن البقر فعليكِ أن تحلبي بقرة، هل تفهمين ما أعني؟

ـ بالتأكيد يا جيم ولكنني لا أريد دراسة البقر، أنا......

ـ بالطبع يجب أن تعرفي شيئًا عن البقر.... إنها تمثل جزءًا كبيرًا من الحياة في مقاطعة مايكوم.

ـ لم أزِدْ على أن سألت جيم إذا كان قد فقد صوابه.

ـ يا عنيدة، إني أحاول أن أشرح لك الأسلوب الجديد في تعليم الصف الأول، إنه «نظام ديوي العشري» (Dewey Decimal System).

وبما أنه لم يسبق لي أن تَشَكَّكْتُ في أقوال جيم، فلم أرَ سببًا يدعوني للبدء في الشك الآن. كان «نظام ديوي العشري» يعتمد، في جانب منه، على قيام الآنسة كارولين بالتلويح أمامنا ببطاقات مطبوع عليها كلمات مثل: « الـ »، «قطة»، «فأر»، «رجل»، «أنت»، ولم تكن تتوقع أن نُبدي أي تعليق، فتلاميذ الفصل يتلقون تلك الرؤى الانطباعية في صمت. شعرت بالملل فبدأت أكتب خطابا إلى ديل فإذا بالآنسة كارولين توقفني وتطلب مني أن أرجو أبي أن يتوقف عن تعليمي. ثم قالت: «نحن لا نكتب في الصف الأول، بل نتعلم كتابة الحروف فقط، ولن تتعلمي الكتابة حتى تصلي إلى الصف الثالث».

كانت كالبورنيا هي التي تستحق اللوم كله، وأظنها كانت تصرف انتباهي بعيدًا عن كل ما أقوم به في الأيام الممطرة ويدفعها دفعًا إلى

الجنون، فكانت تطلب مني أن أكتب حروف الهجاء على رأس لوح الكتابة ثم أقوم بعد ذلك بنقل فصل كامل من الكتاب المقدس تحتها. فإذا ما قمت بالمهمة وحاكيت ما كتبته على وجه مُرْضٍ، كانت تكافئني بساندوتش مفتوح من الخبز المغطى بالزبد والسكر. كانت كالبورنيا تتبع منهجًا تعليميا لا محل فيه للعواطف، وبما أنني قَلَّما كنت أرضيها فكانت نادرًا ما تكافئني.

جاء نداء الآنسة كارولين ليقطع استرسالي في الضغينة الجديدة التي حملتها في نفسي ضد كالبورنيا: من يتناول طعام الغداء في منزله يرفع يده.

رفع الأولاد المقيمون في البلدة أيديهم، فنظرت إليهم الآنسة كارولين متفحصة.

- «من جاء منكم بطعام الغداء فليضعه على مكتبه».

ظهرت فجأة قارورات العسل الأسود ولَمَعَ في السقف نورٌ معدني. مشت الآنسة كارولين بين المكاتب تفحص أوعية الغذاء وتلعقها بإصبعها بفضول للتأكد مما فيها. كانت تومئ برأسها إذا ما أعجبتها محتويات الأوعية أو تقطب جبينها قليلًا إذا لم يعجبها. توقفت عند وولتر كاننجهام (Walter Cunningham) وسألته: «أين طعامك»؟

كان طلاب الصف الأول جميعهم يرون على وجه وولتر كاننجهام أثر معاناته من ديدان الإنكلستوما، كما كان عدم ارتدائه حذاءً يكشف للجميع سبب إصابته بهذا المرض. كان الناس يصابون بهذه الديدان إذا مشوا حفاة في فناء مخازن الغلال أو في حظائر الخنازير. ولو كان وولتر يملك حذاءً لكان سيحتذيه في أول يوم من أيام الدراسة ثم يتخلص منه

عند منتصف الشتاء. غير أنه كان يرتدي قميصًا نظيفًا وسروالًا خِيْطَ بعناية.

سألته الآنسة كارولين:

ـ هل نسيت أن تحضر غداءك معك هذا الصباح؟

نظر وولتر أمامه ورأيت عضلة تضطرب في فَكِّهِ النحيل.

ـ هل نسيته هذا الصباح؟

أخيرًا همهم قائلًا:

ـ نعم.

عادت الآنسة كارولين وفتحت محفظتها وقالت:

ـ ها هو ربع دولار. اذهب إلى وسط البلد وتناول طعامك يمكنك أن ترد لي النقود غدًا.

هز وولتر رأسه ثم قال:

ـ لا .... شكرًا يا سيدتي.

نفد صبر الآنسة كارولين وتسلل هذا الإحساس إلى صوتها.

ـ هيا يا وولتر، تعال وخُذْ النقود.

هز وولتر رأسه مرة أخرى.

وحين هز وولتر رأسه للمرة الثالثة همس أحدهم:

ـ هيا يا سكاوت أخبريها.

اسْتَدَرتُ لأرى جميع سكان البلدة وراكبي الأتوبيس ينظرون إليَّ يؤكدون بكل براءة أن الأُلْفَة تؤدي إلى التفاهم فأنا قد اشتبكت في حوارين سابقين مع الآنسة كارولين.

وقفت بكياسة نيابة عن وولتر وقلت:

ـ آ..... آنسة كارولين؟

ـ ماذا بك يا چان لويز؟

ـ يا آنسة كارولين إنه ينتمي إلى عائلة كاننجهام.

ظننت أني قد أوضحت الأمر بما فيه الكفاية. فقد كان الأمر جَليًا لنا: كان وولتر كاننجهام جالسًا ورأسه لا يتزحزح عن كتفه فهو لم ينسَ غداءه، فلم يكن عنده ما يجلبه معه لا اليوم ولا غدا ولا بعد الغد.

فهو على الأرجح لم يَرَ ثلاثة أرباع دولار دفعة واحدة قط.

وحاولت أن أكرر:

ـ وولتر من عائلة كاننجهام يا آنسة كارولين.

ـ عفوًا يا چان لويز؟

ـ لا عليك يا سيدتي، فسوف تتعرفين إلى سكان المقاطعة كلهم بعد حين. إن أفراد عائلة كاننجهام لا يقبلون أن يأخذوا أي شيء لا يستطيعون رده ـ التبرعات من الكنيسة والكوبونات[1] ـ لم يسبق أن قبلوا شيئًا من أحد، بل يعيشون على ما لديهم.

---

(١) قسائم اعتادت الإدارة الأمريكية توزيعها على الفقراء في فترة الكساد الكبير (The Great Depression) (المترجمة).

كنت قد اكتسبت دراية بعشيرة كاننجهام ـ وكانت مقتصرة على ذلك الفرع منها ـ مما جرى من أحداث في الصيف الماضي. كان والد وولتر أحد عملاء أتيكوس. وبعد حوار كئيب دار في غرفة معيشتنا ذات ليلة حول «أرض الوقْفْ»، وقبل أن يغادر السيد كاننجهام قال: «يا سيد فينش، لا أدرى متى سأستطيع أن أدفع لك».

رد عليه أتيكوس قائلًا:

ـ لا تَحْمِل لذلك همًا يا وولتر، فليكن ذلك آخر ما يقلقك.

وحين سألت جيم عن معنى «أرض الوقْف»، شرح لي أنها حالة تشبه أن يكون ذيل المرء منحشرًا في شق، وسألت أتيكوس عما إذا كان السيد كاننجهام سيدفع لنا، فأجاب: «سيدفع ولكن ليس في صورة نقود، ولكن قبل نهاية العام سيكون قد دفع لي ما عليه. انتظري وسترين كيف ستجري الأمور».

وقد انتظرنا بالفعل. وفى صباح أحد الأيام وجدت أنا وجيم حزمة من حطب المدفأة في الفناء الخلفي، ومع حلول عيد الميلاد جاءنا ملء صندوق من النباتات. وفي الربيع حين وجدنا كيسًا مليئًا بالأجزاء الخضراء من اللِفْت، قال أتيكوس إن السيد كاننجهام قد دفع لنا ما عليه وزيادة سألته: «لماذا يدفع لك بهذه الطريقة»؟

ـ لأنها الطريقة الوحيدة التي يمكنه أن يدفع بها فليس لديه نقود.

ـ هل نحن فقراء يا أتيكوس؟

أومأ أتيكوس برأسه وأكد:

ـ نحن كذلك بالفعل.

قال جيم وقد كست التجاعيد أنفه:

ـ هل نحن فقراء مثل عائلة كاننجهام؟

ـ ليس بالضبط. فعائلة كاننجهام ريفيون ومزارعون، وقد أثرت فيهم الأزمة الاقتصادية تأثيرًا بالغًا.

قال أتيكوس إن المهنيين كانوا فقراء لأن المزارعين كانوا فقراء أيضًا. وبما أن مقاطعة مايكوم منطقة زراعية فإن أطباء الصحة والأسنان والمحامين صاروا لا يحصلون على القطع النقدية من فئة خمسة وعشرة سنتات. كانت مشكلة «الأرض الوقف» ما هي إلا جانب من متاعب السيد كاننجهام. أما المساحات التي لم تكن موقوفة فقد أصبحت بأكملها قيد الرهن، وكان كاننجهام يوجه ما يكسبه، وهو قليل، لسداد الفائدة. كان بإمكان السيد كاننجهام الحصول على وظيفة من «الوكالة العمومية للعمال» (WPA) لو سكت عن الكلام، ولكنه إن أهمل أرضه فستتعرض للهلاك، ففضل أن يجوع ويُبقي على أرضه وينتخب من يشاء. قال أتيكوس إن السيد كاننجهام ينتمي إلى فئة عنيدة من الرجال.

وحيث إن عائلة كاننجهام لم تملك نقودًا تدفعها إلى المحامي، فكانت تدفع له مما تملك. قال أتيكوس «هل تعلمون أن الدكتور رينولدز (Dr. Reynolds) يتعامل بنفس الطريقة؟ إنه يتقاضى مثلًا بوشيلًا من البطاطس مقابل أتعاب التوليد. يا آنسة سكاوت إذا أعرتني انتباهك فسأشرح لك ما تعنيه كلمة «أرض الوقف»، فإن تعريفات جيم تكاد تكون دقيقة إلى حد بعيد».

لو استطعت أن أشرح هذه الأمور إلى الآنسة كارولين لوفَرتُ على نفسي بعض الحرج، وعلى الآنسة كارولين الإحساس بالخجل المترتب

على ذلك الموقف، ولكني لم أكن قادرة على شرح الأمور وعرضها بمثل أسلوب أتيكوس البارع، لذا قلت: «أنت تحرجينه يا آنسة كارولين. لا يملك وولتر ربع دولار في المنزل ليدفعه لكِ، كما أنك لست في حاجة إلى استخدام حطب للمدفأة».

وقفت الآنسة كارولين ساكنة لا تتحرك ثم شدتني من ياقة قميصي ودفعتني نحو مكتبها وقالت: «يا چان لويز. كفاني منكِ اليوم. أنت دائمًا لا تحسنين التصرف ياعزيزتي. ابسطي كفكِ».

ظننت أنها ستبصق في كفي؛ فلم يكن لدينا في مايكوم سبب آخر يدعو أي شخص لأن يبسط كفه: كانت تلك طريقة قديمة للتصديق على العقود الشفوية. ولما كنت أتساءل عن طبيعة الصفقة التي تمت مع مدرستي، استدرت نحو تلاميذ الفصل باحثة عن إجابة فنظر إليَّ التلاميذ في حيرة. أمسكت الآنسة كارولين بمسطرتها وأخذت تضربني ضربًا خفيفًا وسريعًا ثم طلبت مني أن أقف في ركن الفصل. وانفجر التلاميذ في الضحك عندما أدركوا أن الآنسة كارولين قد ضربتنى.

وحين هددت الآنسة كارولين بأن مصيرهم سيكون مثل مصيري، انفجروا مرة أخرى ولم يهدءوا إلا عندما ظهرت الآنسة بلاونت Miss Blount في الأفق. كانت الآنسة بلاونت من سكان مايكوم ولم تكن على معرفة كافيه «بنظام ديوي العشري». ظهرت الآنسة بلاونت عند الباب ووضعت يديها على جانبيها وقالت: «إذا سمعت أي صوت آخر صادر من هذه الحجرة فسأحرق كل من فيها. يا آنسة كارولين، إن تلاميذ الصف السادس غير قادرين على التركيز في مشروعهم الخاص بالأهرامات بسبب الصخب الصادر من هذا الفصل».

وبناء على ذلك لم يَطُلْ وقوفي في ركن الفصل إذ دق جرس المدرسة، مما قدم للآنسة كارولين فرصةً للخلاص من الموقف فراحت تراقب التلاميذ وهم يخرجون واحدًا تلو الآخر ليتناولوا وجبة الغداء. وبما أنني كنت آخر من خرج من الفصل فقد رأيت الآنسة كارولين وهي تجلس مُتْعَبَة على كرسيها وتدفن رأسها بين ذراعيها، ولو كان تعاملها معي أكثر وِدًا لشَعُرْت بالأسف عليها، فقد كانت رغم كل ذلك شخصًا جميلًا.

الفصل الثالث

حين أمسكتُ بوولتر كاننجهام في فناء المدرسة شَعُرتُ ببعض السعادة، ولكن عندما مرَّغتُ أنفه في التراب، تقدم جيم وطلب إليّ أن أكُفَ وقال: «أنتِ أكبر منه».

إنه في مثل سنك تقريبًا، وهو الذي يدفعني إلى أن أتجاوز حدودي.

دعيه يذهب يا سكاوت. لماذا تفعلين ذلك؟

لم يُحضِر طعام الغداء. قلت ذلك وشرحت لجيم كيف تَوَرَّطْتُ في شئون وولتر الغذائية. نهض وولتر من رقدته ووقف بهدوء يستمع إلى جيم وإليَّ. كانت قبضتاه نصف مضمومتين وكأنه يتوقع أن نَنْقَضَّ عليه. ضربت الأرض بقدميّ لأُخِيفه ولكن جيم مد يَدَه وأوقفني ثم نظر إلى وولتر متأملًا وسأله: «هل والدك هو السيد وولتر كاننجهام من «أولد ساروم»؟ أومأ وولتر برأسه.

كان وولتر يبدو وكأنه نما وترعرع على أكل الأسماك، فقد كانت عيناه ـ ولهما زُرْقَة ديل هاريس ـ دامعتين محددتين بخط أحمر، وكان وجهه شاحبًا بلا لون وبلا حيوية عدا طرف أنفه الذي كان ورديًا رطبًا.

حَرَّكَ وولتر أصابعه من فوق حمالات «الأفرول» ونقر على المشابك المعدنية بعصبية.

ابتسم له جيم فجأة وقال: «تعال معنا لتناول طعام الغداء في منزلنا فسوف نسعد بِصحبتك».

أشرق وجه وولتر ثم أظلم فجأة.

قال جيم: إن والدي صديق لوالدك. أما سكاوت فهي مجنونة، وعلى كل حال فهي لن تتشاجر معك بعد اليوم.

قلت: لست متأكدة من ذلك. فقد غَضِبْتُ من جيم حيث تبرع أن يتعهد له باسمي دون أن يستشيرني، ولكني، أمام تسرب الدقائق الثمينة من وقت فسحة الظهيرة، قلت: «حسنا يا وولتر، لن أهاجمك بعد اليوم، هل تحب الفاصوليا؟ إن «كال» طباخة ماهرة».

وقف وولتر مكانه وأخذ يعضُ على شَفَتِيه وعندما فَقَدتُ أنا وجيم الأمل في أن يقبل عرضنا مضينا في السير، وما إن وصلنا قرب منزل رادلي حتى سمعناه يصيح: «أنا قادم معكما».

حين لحق بنا وولتر، تحدث معه جيم بلطف. وقال وهو يشير إلى منزل رادلي: «هناك شبح يعيش في ذلك المنزل. هل سبق لك أن سمعت عنه يا وولتر؟»

قال وولتر: أعتقد أني سمعت عنه. كِدْتُ أموت في أول عام لي في المدرسة حين أكلت من ثمرات الجوز، ويقول الناس إنه أضاف إليها سُمًا وتركها على الجانب الآخر من سور فناء المدرسة.

وبدا جيم أقل خوفًا من بو رادلي ونحن نسير بجواره، بل تحولت

لهجته إلى لهجة تفاخر وقال موجهًا كلامه إلى وولتر: «في يوم من الأيام انطلقت مشيًا حتى لمستُ ذلك البيت».

نظرت إلى السماء ووجهت حديثي إلى الغيوم قائلة: «من يتقدم ليلمس هذا البيت ولو لمرة واحدة، لا يجدر به أن يجري من أمامه كلما مر به».

ـ ومن يجري من أمامه يا آنسة؟

ـ أنت الذي تجري من أمامه، حين تكون بمفردك.

وعندما وصلنا إلى سلم منزلنا الأمامي كان وولتر قد نسي أنه من عائلة كاننجهام. جرى جيم إلى المطبخ وطلب من كالبورنيا أن تضع طبقًا إضافيًا على المائدة نظرًا لوجود ضيف معنا. وجه أتيكوس تحية إلى وولتر وبدأ معه حوارًا عن المحاصيل الزراعية لم أستطع لا أنا ولا جيم متابعته.

قال وولتر: «السبب في عدم نجاحي في الصف الأول يا سيد فينش هو أنني كنت مضطرًا لمساعدة والدي في الحقل مع بداية كل ربيع، ولكن الآن هناك شخصًا آخر يمكنه المساعدة في الحقل».

سألته: هل دفعت له بوشيلا واحدا من البطاطس مقابل ذلك؟ لكن أتيكوس حذرني بإيماءة من رأسه.

بينما ملأ وولتر طبقه بالطعام، استرسل في الحديث مع أتيكوس وكأنهما رجلان بالغان وقد أثار ذلك استغرابي أنا وجيم. كان أتيكوس يَعْرِضُ بعض المشاكل الزراعية عندما قاطعه وولتر ليسأل إذا ما كان لدينا عسل أسود، أَمَرَ أتيكوس كالبورنيا أن تُحْضِر الوعاء ووقفت تنتظر

أن يَغْرِفَ منه وولتر لنفسه. صب وولتر لنفسه بسخاء على الخضراوات واللحم. ولربما كان سيصب العسل أيضا على كوب اللبن لو لم أسأله بدهشة عما كان يفعل. صدر رَنين عن الطبق الفضي عندما أعاد وولتر الوعاء إلى مكانه ثم رأيته يضع يديه على حِجْرِه بسرعة ويغطس برأسه بين كتفيه.

أومأ أتيكوس برأسه تجاهي مرة أخرى، فاعترضت قائلة: «ولكنه أغرق طعامه في هذا الشراب فلقد صبه كله عليه».

وحينئذ طلبت كالبورنيا أن ألحق بها في المطبخ.كانت كالبورنيا غاضبة للغاية وحين تغضب يمتلئ كلامها بالأخطاء اللغوية، أما حين تكون هادئة يتحسن الأمر وتصبح لغتها متقنة مثل أي شخص من أهل مايكوم. قال أتيكوس ذات مرة إن كالبورنيا تلقت تعليمًا أكثر مما ناله معظم بني جنسها من الملونين.

حين كانت تنظر إليَّ بنظراتها الغاضبة كانت التجاعيد الدقيقة تزداد عمقًا حول عينيها، قالت لي كالبورنيا في همسٍ عنيف «هناك أشخاص لا يأكلون مثلما نأكل، ولكن ليس لك الحق في أنْ تنتقديهم على مائدة الطعام. هذا الفتى ضيفك ولو رَغِبَ في أكل مفرش السفرة لوجب عليك تقديمه له، أتسمعين ما أقوله»؟

ـ إنه ليس ضيفي يا كال، فهو من عائلة كاننجهام.

ـ لا تزيدي كلمة واحدة، لا يهم من يكون فأي شخص يجيء إلى هذا المنزل فهو ضيفكم ولا أريد أن أسمعك تُبْدين ملاحظات متعالية حول أسلوبه كما فعَلتِ الآن. قد تكونين أفضل من عائلة كاننجهام ولكن الطريقة التي تجرحين بها مشاعره مخجلة. فإذا كنت لا تحسنين

التصرف على مائدة الطعام فالأفضل أن تجلسي هنا وتتناولي طعامك في المطبخ.

دفعتني كالبورنيا عبر الباب المروحي إلى حجرة السفرة بضربة موجِعة. أخذت طبقي وعُدتُ إلى المطبخ لأنهي وجبتي، ومع ذلك فقد كنت أشعر بالامتنان لأنني لم أواجههم مرة أخرى. وتوعدتُ كالبورنيا بالويل، إذ سأنتقم منها انتقامًا مروعًا فأغرق نفسي في «دوامة باركر» عندما تغفل عن مراقبتي، وحينئذ ستشعر بالأسف، وإلى جانب ذلك، فقد سبق أن أوقعتني في الخطأ: فقد علمتني الكتابة واتضح أنها غلطة منها.

قالت: كفاكِ احتجاجًا.

سبقني جيم وولتر إلى المدرسة وتخلفت لأخُبر أتيكوس عن ظلم كالبورنيا لي، وتحملت في سبيل ذلك أن أعدو عدوًا سريعًا من أمام منزل عائلة رادلي للحاق بهما، أنهيت كلامي مع أتيكوس قائلة: «إنها تحب جيم أكثر مني» ثم اقترحت عليه أن يبادر فيطلب إليها أن ترحل عنا على الفور.

رَدَّ عليّ أتيكوس بصوتٍ قاسٍ قائلا: «هل سبق أن لاحظت أن جيم لا يزعجها بقدر نصف إزعاجك لها؟ ليست لدي أي نية في التخلص منها لا الآن ولا على المدى البعيد. فلا يمكننا أن نحيا يومًا واحدا بدون كَالْ. هل سبق أن فكرت في ذلك؟ عليك أن تفكري بما تفعله كال من أجلك، ثم عليك أن تطيعيها، هل تسمعين ما أقوله؟».

عُدْتُ إلى المدرسة وما زال بداخلي إحساس طاغٍ بكراهية كالبورنيا إلى أن سمعت صرخة فجائية بددت غضبي، نظرت لأجِد الآنسة كارولين تقف في وسط الغرفة والفزع يعلو وجهها. من الواضح أنها استعادت رباطة جأشها وقدرتها كي تستأنف عملها.

صَرَخَتْ قائلة: إنه حي.

هَبَّ الذكور من التلاميذ دفعة واحدة لمساعدتها. يا إلهي، أتشعر بالخوف من مجرد فأر؟ قال «ليتل تشاك ليتل» (Little Chuck Little) الذي يملك قدرة عالية على التعايش مع الكائنات الحية، قدرة فائقة أشبه بالظاهرة.

«أين ذهب يا آنسة كارولين؟ قولي لي أين ذهب بسرعة، يا دي. سي. D.C» وهنا استدار نحو صبي خلفه واستأنف قائلا: «دي. سي أغلق الباب وسنمسك به. أسرعي يا سيدتي وقولي أين ذهب»؟

أشارت الآنسة كارولين بإصبعٍ راجفة لا نحو الأرض ولا المكتب، بل إلى شخص ضخم ومجهول الهوية. قَطَّبَ ليتل تشاك جبينه وقال بلطف: أتعنينه هو يا سيدتي؟ نعم يا سيدتي هو حي. هل أشعركِ بشيء من الخوف؟ قالت الآنسة كارولين بيأس: «كنت أمر بالقرب منه حين زحف خارجا من شعره... نعم، زحف خارجا من شعره...».

ابتسم ليتل تشاك ابتسامة عريضة ثم قال: «ليس هناك داع للخوف من قملة يا سيدتي. ألم يسبق لك أن رأيتي إحدى هذه الحشرات؟ لا تخافي بل عودي إلى مكتبك وزيدينا علمًا».

كان ليتل تشاك أحد أفراد سكان البلدة الذين لا يعرفون من أين ستأتي وجبتهم القادمة، ولكنه كان بالفطرة رجلًا ذا مروءة، وضع ليتل تشاك يديه تحت مرفقيها وقاد الآنسة كارولين إلى مقدمة الفصل وقال: لا تخافي ليس هناك ما يدعو للخوف من قملة. سأذهب وأجلب لك كوبًا من الماء البارد.

لم يُبْدِ المُضِيفُ (من تَسكُن القملة رأسه) أي اهتمام على الإطلاق لمدى الهرج الذي أحدثه، بل مدَّ يده فوق جبينه باحثًا في فروه رأسه، ثم عَيَّنَ موقع ضيفه وسحقه بين إبهامه وسبابته.

راقبت الآنسة كارولين العملية بدهشة موجعة. جَلَبَ لها ليتل تشاك الماء في كوبٍ ورقي، فشربته بامتنان. وأخيرا استعادت نبرات صوتها وقالت بهدوء «ما اسمك يا بني؟».

رمشت عينا الصبي وقال: من؟ أنا؟ فأومأت الآنسة كارولين برأسها.

قال: بوريس يوويل (Burris Ewell).

نظرت الآنسة كارولين في دفتر الغياب ثم قالت «لديَّ هنا اسم «يوويل» ولكن الاسم الأول ليس مدونًا هل يمكنك هجاء اسمك الأول؟».

قال «لا أعرف. فهم يطلقون عليَّ اسم «بوريس» في البيت»، قالت الآنسة كارولين: «حسنا يابوريس. اعتقد أنه من الأفضل أن نعفيك من الحضور لبقية اليوم. أريدك أن تذهب إلى البيت وتغسل شعرك».

أخرجت الآنسة كارولين من مكتبها كتابا سميكًا وقلبت بعض صفحاته وقرأت للحظة قائلة: هناك علاج منزلي لـ..........، يا بوريس أريدك أن تذهب للمنزل وتغسل شعرك بصابون قلوي وبعدها دلِّك رأسك بالكيروسين.

ـ لماذا يا سيدتي؟

ـ لتتخلص من...... القمل، يا بوريس هناك احتمال بأن يصاب التلاميذ الآخرون بالعدوى، وأنت بالطبع لن يرضيك ذلك، ما رأيك؟

وقف الصبي، فبدا أقذر مخلوق بشري سبق لي أن رأيته في حياتي. كان عنقه رماديًا داكنًا وظاهر يديه بلون الصدأ كما كانت أظافره وما حولها سوداء اللون. أطل الصبي على الآنسة كارولين من بقعة صغيرة نظيفة تَبَدّتْ على وجهه. وربما لم يكن حتى هذه اللحظة قد أثار انتباه تلاميذ الفصل، وذلك على الأرجح لأنني والآنسة كارولين قمنا بتسليتهم جميعًا معظم ساعات النهار.

قالت الآنسة كارولين: «يا بوريس... أرجو أن تستحم قبل أن تعود غدا إلى المدرسة» ضحك الصبي بوقاحة ثم قال: «لا تظني أنك تطردينني يا سيدتي، فأنا كنت على وشك الرحيل فقد قضيت في المدرسة الفترة المطلوبة مني لهذا العام».

بدت الآنسة كارولين متحيرة وقالت: «ماذا تعني؟» لم يجبها الصبي بل أصدر صوتًا وقحًا ينم عن الاستخفاف.

أجابها أحد تلاميذ الفصل الأكبر سنًا: إنه من عائلة يوويل يا سيدتي. وتساءلت في نفسي ما إذا كان هذا التفسير سيلاقي ما لاقته محاولتي من فشل. استأنف الصبي قائلا، إنهم يشغلون كل ركن في المدرسة يأتون في اليوم الأول من كل عام ثم يرحلون. إن مسئولة الغياب تجبرهم على الحضور لأنها تهددهم بإبلاغ المأمور، ولكنها فشلت في محاولة إبقائهم فهي تعتقد أنها قد طبقت القانون بمجرد تسجيل أسمائهم عند حضورهم في اليوم الأول والواجب أن يحتسبوا غائبين طوال السنة.

سألت الآنسة كارولين باهتمام صادق:

ـ «وماذا عن آبائهم وأمهاتهم»؟

ـ ليس لديهم أمهات، وآباؤهم رجال مشاكسون.

شعر بوريس يوويل بالفخر إزاء هذا الوصف. فقال بصراحة: أنا داومت على الحضور في الصف الأول، أول يوم من كل عام لمدة ثلاث سنوات. أعتقد أني لو كنت ذكيًا هذا العام لانتقلت إلى الصف الثاني.

قالت الآنسة كارولين: «عُدْ إلى مكانك يا بوريس من فضلك» وفي نفس اللحظة التي قالت فيها تلك العبارة، أيقنت أنها ارتكبت خطأً جسيمًا فقد تحول ما سبق أن أبدى الصبي من تنازل وتبسط إلى غضبٍ عارم فقال «هيا يا آنستي، حاولي أن تعيديني إلى مكاني».

نهض ليتل تشاك ليتل واقفًا وقال «دعيه يرحل يا سيدتي، إنه شخص وضيع جدًا ومن المحتمل أن يحاول القيام بعمل مشين، ولا داعي لتعريض الأطفال الصغار لكل ذلك».

كان تشاك ضئيل الحجم، ولكن حين استدار بوريس يوويل نحوه، امتدت يد ليتل تشاك إلى جيبه وقال: انتبه يا بوريس، قد أقتلك في لمح البصر. والآن اذهب إلى بيتك.

بدا بوريس خائفا من طفل لم يبلغ نصف قامته، واستغلت الآنسة كارولين تردده فقالت: «يا بوريس اذهب إلى المنزل، وإن لم تفعل فسأستدعي ناظر المدرسة فأنا سأعلمه بما حدث على أية حال».

أصدر الصبي الصوت الوقح ذاته ثم مشى متباطئًا حتى الباب. ولما صار على مسافة آمنة خارج نطاق الغرفة استدار وصاح: «قولي للناظر، عليك اللعنة. لن تستطيع معلمة وضيعة الخلق مثلك أن تجعلني أفعل أي شيء. لن تستطيعي أن تدفعيني للذهاب إلى أي مكان».

انتظر بوريس حتى تأكد أنها انفجرت في البكاء، وأسرع خارجا من المبنى.

وسرعان ما التففنا حول مكتبها، جاهدين أن نخفف عنها: «لقد كان شخصًا وضيعًا بالفعل.. يضرب تحت الحزام... ليس مطلوبًا منك أن تعلمي أشخاصًا كهؤلاء... إنهم لا يتصرفون كما يتصرف أهالي مايكوم، يا آنسة كارولين. والآن لا تنزعجي يا سيدتي. يا آنسة كارولين، لماذا لا تقرئين لنا حكاية؟ قصة تلك القطة التي رويتها علينا هذا الصباح كانت جميلة».

ابتسمت الآنسة كارولين ثم تمخطت وقالت: «شكرا يا أحبائي». وبعدها طلبت منا العودة إلى مكاتبنا، وفتحت كتابًا وتعجب تلاميذ الصف الأول حينما رَوَتْ لهم حكاية طويلة عن ضفدعة كانت تعيش في مبنى ضخم.

وحين مررت بالقرب من منزل عائلة رادلي للمرة الرابعة في ذلك اليوم ـ منها مرتان بأقصى سرعتي في الجري ـ ازدادت كآبتي لتُوازي كآبة ذلك المنزل. فإذا كانت بقية أيام العام الدراسي مشحونة بالمواقف الدرامية كالتي أتى بها اليوم الأول من الدراسة، فإن العام قد يكون مسليًا بعض الشيء، ولكن فكرة قضاء تسعة أشهر بدون قراءة أو كتابة جعلتني أفكر في الهرب.

وبحلول وقت العصر كنت قد انتهيت من التفكير في أمور الهرب، وحين جاء وقت سباقي مع جيم على طول الرصيف للقاء أتيكوس حين يعود من العمل لم أسابق جيم هذه المرة. وكنا قد اعتدنا على الجري للقاء أتيكوس عندما نراه عن بعد يمر حول زاوية مكتب البريد. ويبدو أن أتيكوس كان قد نسي الزَّلَّة التي بدرت مني وقت الظهيرة.

وكان لديه الكثير من الأسئلة حول ما يدور في المدرسة، ولكني قدمت إجابات غاية في الإيجاز ولم يحاول هو أن يضغط عليَّ للحصول على إجابات شافية.

وربما استشفت كالبورنيا أن يومي كان كئيبًا: فقد سمحت لي بمتابعتها وهي تُحَضِّرُ العشاء وقالت: «أغمضي عينيك وافتحي فمك فعندي مفاجأة لك».

لم تخبز كالبورنيا الخبز المحمص إلا نادرًا وذلك لضيق الوقت، ولكن وجود كلينا في المدرسة اليوم أتاح لها بعض الوقت فكالبورنيا كانت على يقين أنني أحب الخبز الهش المحمص.

قالت: «لقد افتقدتك اليوم. شعرت بالوحدة في المنزل حوالي الساعة الثانية مما اضطرني إلى الاستماع إلى الراديو».

ـ لماذا حدث ذلك؟ فأنا وجيم قلَّما نوجد في المنزل إلا عندما تهطل الأمطار.

ـ أعلم ذلك. ولكن أحدكما دائما على مسافة قريبة مني، يسمعني إذا ناديت. ولا أعلم كم من النهار انقضى وأنا أناديكما.

ثم نهضت من على كرسي المطبخ واستأنفت قائلة:

ـ حسنا لدي الآن وقت كافٍ لتحميص ما يملؤ مقلاة من الخبز المحمص. هيا اذهبي الآن ودعيني أُعِدُّ مائدة العشاء.

انحنت كالبورنيا وقبلتني. انصرفت مسرعة وأنا أتساءل في نفسي عما يكون قد حدث لها: لقد أرادت أن تصالحني. هذا كل ما في الأمر. لقد كانت دومًا تقسو عليَّ، كما أنها لاحظت في الآونة الأخيرة عاقبة

أسلوبها الذي يعتمد على الشكوى، ولكنها بلغت من العند مبلغًا جعلها لا تقر بذلك. كنت متعبة من كثرة مشكلات اليوم.

جلس أتيكوس ليقرأ الجرائد بعد العشاء وصاح قائلا: «يا سكاوت. هل أنت مستعدة للقراءة؟» حمَّلني الرب أكثر مما أستطيع احتماله. ولذا خرجت إلى المدخل الأمامي فجاء أتيكوس في إثري وقال:

ـ ماذا بك يا سكاوت؟

قلت لأتيكوس إني لست على ما يرام وإني لا أريد أن أذهب إلى المدرسة إن وافق على ذلك.

جلس أتيكوس على الأرجوحة ووضع ساقا على ساق.

تجولت أصابعه حتى وصلت إلى ساعة جيبه وكان يقول إنها الطريقة الوحيدة التي تساعده على التفكير. انتظر أتيكوس وهو في حالة صمت وَدُود. رغبت أن أُدَعِّمَ موقفي فقلت:

ـ أنت لم تذهب إلى المدرسة ومع ذلك فإنك على ما يرام ولذا سأبقى أنا أيضا في المنزل بإمكانك أن تعلمني كما علمك جدي وعلم العم جاك.

ـ لا، لا أستطيع. عليَّ أن أعمل لأتكسب العيش. فإلى جانب ذلك سيُزج بي في السجن إذا أبقيتك في المنزل. ستأخذين اليوم جرعة من المجنسيا وغدا ستذهبين إلى المدرسة.

ـ أشعر أني بخير، حقًا.

ـ كنت أظن ذلك، والآن اصدقيني القول.

وشيئا فشيئا حكيت له عن المحن التي عانيت منها ذلك اليوم ثم قلت:

ـ وقالت لي إن كل شيء أتعلمه منك فهو خطأ فلن نستطيع أن نقرأ معًا بعد الآن. أرجوك لا ترسلني مرة أخرى إلى المدرسة.

وقف أتيكوس ومشى حتى آخر المدخل الخارجي وعندما انتهى من فحص بعض النباتات المتسلقة عاد إليَّ وقال:

أولًا، إذا تمكنت من تعلم حيلة بسيطة يا سكاوت فستتعايشين على أفضل نحو مع جميع أنواع البشر. ليس بإمكانك أن تفهمي شخصًا ما حتى تنظري للأمور بمنظوره.

ـ ماذا تقصد يا سيدي؟

ـ حتى تلبسي جلده وتتعايشي تماما معه.

قال أتيكوس إني تعلمت أشياء كثيرة اليوم، كما أن الآنسة كارولين قد تعلمت هي الأخرى أمورًا عديدة. لقد تعلمت ألا تقدم شيئًا إلى أي فردٍ من أفراد عائلة كاننجهام ولكن لو أننا، أنا ووولتر، نظرنا إلى الأمور من زاويتها للاحظنا أن ما ارتكبته ما هو إلا خطأ بريء. لم يكن علينا أن نتوقع منها أن تُلِمَّ بخصائص بلدة مايكوم كلها في يوم واحد، ولا يمكننا أن نحملها المسئولية في حين أن هذا كل ما تعلمه.

قلت: لم أستطع أن أفعل سوى ما فعلته، ومع ذلك فقد حملتني المسئولية. اسمعني يا أتيكوس. لا أرى ضرورة لذهابي إلى المدرسة. ثم جاءتني فكرة مفاجئة فانفجرت قائلة:

ـ بوريس يوويل. هل تذكره؟ إنه يذهب إلى المدرسة في اليوم الأول

من بدء الدراسة والسيدة المسئولة عن دفتر غياب التلاميذ تعتقد أنها نفذت القانون ما دامت قد سجلت اسمه في الدفتر.

ـ لا يمكن أن تفعلي ذلك يا سكاوت... في بعض الأحيان يتحتم الأمر أن يتحايل المرء على القانون بعض الشيء... ولكن في حالتك أنت يبقى القانون صارمًا، عليك إذًا أن تذهبي إلى المدرسة.

ـ لا أرى سببًا لأن أذهب إلى المدرسة في حين أن يوويل لا يذهب

ـ إذن استمعي إليّ:

قال أتيكوس إن عائلة يوويل كانت عارًا على مقاطعة مايكوم لثلاثة أجيال فلم يقم أي منهم بعمل شريف ولا حتى ليوم واحد، على حد ما يذكر. ثم قال إنه في أحد أعياد الميلاد القادمة، حين يذهب للتخلص من شجرة عيد الميلاد، سيأخذني معه ويريني أين وكيف يعيشون. هم بالفعل من بني آدم ولكنهم يعيشون كالحيوانات. ثم قال: يمكنهم أن يذهبوا إلى المدرسة حين يبدون ميلًا ولو قليلا إلى التعلم، هناك أساليب لإرغامهم على الحضور بالقوة ولكن من الحماقة أن تُرْغِم أشخاصًا من عائلة يوويل على العيش في بيئة جديدة.

ـ فإن لم أذهب للمدرسة غدًا، فهل سترغمني على ذلك؟

قال أتيكوس بلهجة جافة:

ـ لنترك الأمر عند هذا الحد. أنت يا آنسة سكاوت فينش من العامة وعليك أن تطيعي القانون وتخضعي له.

ثم قال إن أفراد عائلة يوويل يشكلون من أنفسهم مجتمعًا خاصًا بهم، وفي بعض الأحيان فإن العامة يمنحونهم بعض المزايا بمجرد غض النظر

عن بعض أفعالهم. فهم أولا غير مضطرين للذهاب إلى المدرسة كما أن بوب يوويل (Bob Ewell) وهو والد بوريس، لا يجد من يمنعه من الصيد ونصب الأفخاخ في الوقت المخالف لمواعيد الصيد.

قلت له: هذا شيء سيِّئ. ففي مقاطعة مايكوم التي نعرفها يُعَدُ الصيد خارج الموسم بمثابة جنحة في عرف القانون وجناية في عرف أهل المقاطعة.

قال أبي:

ـ هذا ضد القانون، وهو بالتأكيد أمر سيئ، ولكن حين ينفق رجل كل أموال المعونة التي يتلقاها على الويسكي الرديء فإن أطفاله سيبكون جوعًا. فأنا لا أعرف أي مالك أرض في هذه المنطقة يستكثر على هؤلاء الأطفال الصيد الذي جلبه لهم أبوهم.

ـ ولكن ليس على السيد يوويل أن يفعل ذلك.

ـ طبعا، ولكن من يمكنه أن يغير أسلوبه في الحياة؟ فهل ستعبرين عن استنكارك هذا عن طريق معاقبة أولاده؟

همست بالنفي، وحاولت أن أقف وقفة أخيرة فقلت:

ـ ولكني إذا ظللت أذهب إلى المدرسة فلن نستطيع ممارسة القراءة بعد الآن.

ـ هذا يبدو أنه يزعجك حقا، أليس كذلك؟

ـ بلى يا سيدي.

حين نظر إليّ أتيكوس من أعلى، رأيت تعبيرًا على وجهه يجعلني دائمًا أتوقع منه شيئا ما، ثم سألني:

ـ هل تعرفين ما هو الوصول إلى اتفاق وسط بالتراضي؟

ـ أن نتحايل على القانون؟

ـ لا، إنها اتفاقية يتم التوصل إليها بالتنازل المشترك من الطرفين، وهذا ما أقترحه: إذا تنازلت بشأن ضرورة الذهاب إلى المدرسة، فسنستمر في القراءة كل ليلة كما كنا نفعل دائما. هل توافقين على هذا الاتفاق؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ إذًا يسري الاتفاق دون الرجوع إلى الشكليات المعتادة. هذا ما قاله أتيكوس عندما رآني في حالة تأهب لأبصق في يدي، وحين فتحت الباب الأمامي قال أتيكوس:

ـ يا سكاوت، من الأفضل ألا تذكري لأحد في المدرسة أي شيء عن اتفاقنا.

ـ ولم لا؟

ـ أخشى أن يقابل اتفاقنا بالرفض من قِبَل المسئولين. اعتدت أنا وجيم على مفردات والدنا القانونية التي كانت تماثل تلك المستخدمة في الوصايا، وكانت لنا حرية مقاطعة أتيكوس طلبا لتفسير بعض الأمور التي يصعب علينا فهمها.

ـ ماذا يا سيدي؟

ـ أنا لم أذهب إلى المدرسة، لكن عندي شعورٌ بأنك لو قلت للآنسة كارولين إننا نقرأ كل ليلة، فسوف تلاحقني وأنا لا أريدها أن تفعل ذلك.

في ذلك المساء جعلنا أتيكوس في حالة استثارة مستمرة حين قرأ لنا

بجدية مقالة عن رجل جلس فوق سارية علم بدون سبب واضح[1] ولكنه كان سببا كافيا كي يقضي جيم يوم السبت التالي في الكوخ الذي فوق الشجرة. جلس جيم هناك بعد أن تناول إفطاره ومكث هناك حتى غروب الشمس. وكان من الممكن أن يبقى طوال الليل لو لم يقطع أتيكوس عنه المعونة. وقد قَضَيْتُ معظم النهار أتسلق الشجرة صعودًا وهبوطًا، أقضي له مهامه، وأجلب له الكتب والطعام والماء، وكنت أحمل له «بطانية» لتقيه برد الليل حين قال أتيكوس إني إذا أهملت جيم فسوف يهبط بنفسه من على الشجرة وكان أتيكوس على حق.

---

(١) الجلوس على لوح يعلو صاري العلم بِدعة انتشرت في الولايات المتحدة الأمريكية في عشرينيات القرن الماضي وقت الكساد الكبير. وقد بدأها «آلفين كيلي» (Alvin Kelly) الذي عُرِفَ في هوليوود بأدائه للأدوار البديلة استجابة لتحدٍ صدر عن أحد أصدقائه، وظل في جلسته طوال ثلاث عشرة دقيقة. (المترجمة).

الفصل الرابع

لم تكن بقية أيام المدرسة أكثر يسرًا من الأيام الأولى، فقد كانت بالفعل «مشروعًا» لا نهاية له تحوَّل شيئًا فشيئًا إلى «وحدة عمل» أنفقت عليها ولاية ألاباما كميات ضخمة من أوراق الرسم وأقلام الشمع، في جهد حسن النية لكنه لم يفلح في تعليمي «ديناميكية الجماعة». وما إن انتهيت من عامي الأول حتى كان ما أسماه جيم بنظام ديوي العشري قد انتشر في أرجاء المدرسة، لذا لم تتح لي الفرصة لمقارنته بتقنيات التعليم الأخرى، وما كنت في حاجة إلى أن أسدد النظر إلى أبعد من البيئة المحيطة بي: رأيت أن أتيكوس وعمي اللذين تلقيا تعليمهما في المنزل يعرفان كل شيء، على الأقل كان الذي لا يعرفه أحدهما يعرفه الآخر. وبالإضافة إلى ذلك، كان كل ما ألحظه هو أن والدي خدم لسنوات في برلمان الولاية وانتُخِب في كل مرة دون معارضة، وهو بريء من التعديلات التي ظن أساتذتي أنها جوهرية لتنمية «المواطنة السليمة». تعلم جيم وفقا لخليط من منهجي «ديوي ودانس كاب»[1] وأظهر أداءً

(١) الدانس كاب، قبعة ورقية على شكل قُمْع يعاقَب طلاب المدارس الكسالى بوضعها على رءوسهم. ويشير المعنى إلى نظام تعليمي قائم في جانب منه على الالتزام بالنظام وفي الجانب الآخرَ على إنزال العقاب. (المترجمة).

متميزًا سواء كان بمفرده أم ضمن مجموعة. ولكن جيم كان مثالا سيئا، فلم يكن هناك نظام تعليمي يمكنه أن يمنح الإنسان القدرة على فهم ما يقرأ، أما بالنسبة لي، فلم أكن أعرف شيئا سوى استيعاب ما كنت أقرأه في مجلة «تايم» (Time)، وقراءة كل ما يقع بين يدي. ولكن بينما كنت أتلمس طريقي بلا همة وسط دوامة النظام الدراسي في مقاطعة مايكوم، لم أستطع التغلب على الشعور بأنني قد خُدِعت. لم أكن أعرف طبيعة الخدعة، غير أنني لم أصدق أن الولاية ترمي لأن يدوم تعليمي لاثنتي عشرة سنة من الملل المستمر.

ومع مرور السنة الأولى، وبما أني كنت أنصرف من المدرسة قبل جيم بنصف ساعة، حيث كان عليه البقاء حتى الساعة الثالثة، اعتدت الانطلاق بأقصى سرعة لأتجاوز منزل عائلة رادلي حتى أصلَ بسلام إلى مدخل منزلنا، وفي عصر أحد الأيام وبينما كنت أجري لَفَتَ نظري شيء ما جعلني ألتقط نفسًا عميقًا وأنظر خلفي طويلًا ثم أعود أدراجي.

كانت شجرتا بلوط مزدهرتين تستقران عند حافة أرض منزل عائلة رادلي، وقد ضربت جذورهما وامتدت إلى جانبي الطريق فصار غير مستوٍ. في ذلك اليوم، شيء ما لفت أنظاري إلى إحداهما.

ظهر هناك ورق مفضض محشور في فجوة فوق مستوى عينيّ مباشرة، أبهر تلألؤه عينيَّ في شمس ذلك العصر. وقفت على أطراف أصابعي ونظرت حولي بسرعة مرة أخرى، ثم مددت يدي إلى الفجوة وسحبت قطعتين من «اللبان» بدون غلافهما الخارجي.

أصبح دافعي الأول هو أن أَزُجَّ بإحداهما في فمي بأسرع طريقة ممكنة، ولكني تذكرت أين أنا فجريت إلى المنزل وعندما وصلت إلى

المدخل الأمامي تفحصت غنيمتي. بدت «اللبانة»طازجة وذات رائحة طيبة حين شممتها، لعقتها ثم انتظرت بعض الوقت. ولما لم يصبني شيء دسستها في فمي: إنها «لبانة» من ماركة ريجليز Wrigley 's ذات النعناع مضاعف النكهة.

حين عاد جيم إلى المنزل سألني عن مصدر ما كان يحشو فمي. فقلت له إني وجدتها.

ـ يا سكاوت، لا تأكلي أي شيء تعثرين عليه.

ـ لم تكن ملقاة على الأرض بل على شجرة.

زمجر جيم غاضبًا فقلت له:

ـ حسنا، كانت محشورة في تلك الشجرة التي نَمُرُّ بها عند عودتنا من المدرسة.

ـ ابصقيها فورًا.

بصقتها، وعلى أية حال كانت نكهتها قد تلاشت.

ـ هأنذا قد مضغتها طوال فترة العصر وما زلت علي قيد الحياة، ولم أمرضْ.

ضرب جيم الأرض بقدمه:

ـ ألا تعرفين أنه ليس من المفروض حتى أن نلمس الشجرات التي هناك. ستُعَرِضِينَ نفسك للقتل إن فعلتِ.

ولكنك لمست المنزل ذات يوم.

ـ كان ذلك أمرًا مختلفًا. اذهبي وتمضمضي فورًا، ألا تسمعينني؟

ـ لن أفعل ذلك فإنه سيزيل النكهة من فمي.

ـ إذا لم تستمعي إلى ما أقوله سأبلغ كالبورنيا بما فعلت.

فَضَّلْتُ أن أُطِيعَ جيم على أن أتشاجر مع كالبورنيا. ولسبب ما غَيَّرْتُ سنتي الأولى في المدرسة من طبيعة علاقتنا. فقد تحول استبدادها وظلمها وتدخلها في شئوني إلى همهمات مستنكرة لأفعالي على وجه العموم. ومن ناحيتي، كنت شديدة الحرص على ألا أثير غضبها.

قَرُبَ حلول الصيف الذي كنا، أنا وجيم، ننتظره بفروغ الصبر، إذ كان الصيف من أحب الفصول إلينا: فهو يعني النوم على المدخل الخلفي للمنزل، أو محاولة النوم في كوخ الشجرة، ويعني أيضا المأكولات الطيبة وآلافًا من ألوان الطبيعة، ولكنه كان أولًا وقبل كل شيء يعني وجود «ديل» بيننا.

سَمَحَتْ لنا إدارة المدرسة بالانصراف مبكرًا في اليوم الأخير من الدراسة، فمشينا، أنا وجيم، إلى المنزل معًا.

قلت له:

ـ أعتقد أن صديقنا القديم «ديل» سيعود غدًا.

ـ ربما بعد غد، ففي المسيسبي تُعَطَل المدارس بعدنا بيوم، وعند وصولنا إلى شجرة البلوط الواقعة بالقرب من منزل عائلة رادلي، رفعت إصبعي لأشير للمرة المائة إلى الفجوة حيث وجدت «اللبان» محاولة أن أقنع جيم بأنني وجدتها هناك، ولكني أشرت إلى قطعة أخرى من الورق المفضض.

ـ إني أراها يا سكاوت، إني أراها.

ـ نظر جيم من حوله ومد يده ووضع اللفافة الصغيرة اللامعة في جيبه بحذرٍ شديد. وعند المدخل الأمامي فتحنا علبة صغيرة مرقعة بورق مفضض تم تجميعه من الورق الذي يُلَفُّ به «اللبان». توضع خواتم الزواج في هذا النوع من العلب المخملية ذات اللون الأرجواني والتي بها ماسكة صغيرة. فتح جيم الماسكة الصغيرة فوجدنا بداخلها قطعتين نقديتين مصقولتين من فئة السنت الواحد، مرصوصتين واحدة فوق الأخرى، تفحصهما جيم ثم قال:

ـ يا سكاوت، إنهما من النوع المحفور عليه رأس هندي، واحدة بتاريخ ١٩٠٦ والأخرى بتاريخ ١٩٠٠. إنهما قديمتان فعلًا.

ـ ١٩٠٠، إذن.

ـ اسكتي للحظة فأنا أفكر.

ـ ألا تعتقد يا جيم أن هذا قد يكون مخبأً لشخص ما؟

ـ لا، لا يمر أحد من هذا المكان، ما لم يكن شخصًا كبيرًا في السن.

ـ الكبار ليس لهم مخابئ. أعتقد أنه بإمكاننا الاحتفاظ بهما؟

ـ لا أعرف ما الذي سنفعله يا سكاوت. لمن سنعيدهما؟ ففي الواقع لا يمر أحد من هناك.

فسيسل (Cecil) يمشي من الشارع الخلفي ويدور حول البلدة كلها حتى يصل إلى المنزل.

سكن سيسل جاكوبز (Cecil Jacobs) في نهاية شارعنا بالقرب من

مكتب البريد وكان يمشي مسافة تعادل ميلًا كاملًا في كل يوم مدرسي حتى يتجنب المرور بمنزل لافاييت دوبوز. سكنت السيدة دوبوز في منزل يبعد عنا بمبنيين، وقد أجمع أهل الحي على أنها أحقر سيدة عجوز عاشت على هذه الأرض. لم يقبل جيم أن يمر بالقرب من منزلها دون أن يكون في صحبة أتيكوس.

ـ ما الذي سنفعله يا جيم؟

من يجد شيئًا يحتفظ به ما لم يعرف صاحبه، يُعَدُّ قطف زهرة كاميليا أو حَلْبُ كمية من الحليب الدافئ من بقرة الآنسة مودي أتكنسون في يوم صيفي أو قطف بعض العنب من كرمة أحد الجيران، جزءًا من ثقافتنا الأخلاقية. أما المال فله وضع مختلف.

قال جيم:

ـ سأقول لك ماذا سنفعل: سنحتفظ بالنقود حتى بداية العام الدراسي، ثم نسأل كل شخص عما إذا كانت النقود تخصه، فلربما كانت مِلكًا لطفل من ركاب «الأتوبيس» نسيها في غِمَار انهماكه في الاستعداد للانصراف من المدرسة. أعرف أنهما تخصان شخصًا ما، ألا ترين كيف تم صقلهما كي يَضُمهما إلى مدخراته؟

ـ نعم، ولكن لماذا يضع شخص ما قطعة »اللبان«هناك؟ أنت تعرف أنها لا تدوم طويلا.

ـ لا أعرف يا سكاوت ولكن المؤكد أن هاتين العملتين ذاتا أهمية لشخص ما.

ـ وكيف يكون ذلك يا جيم؟

ـ حسنًا، إنهما من النوع المحفور عليه رأس هندي..... وهذا يعني أن مصدرهما الهنود الحمر، لذا فمن المؤكد أنهما تتمتعان بقوة سحرية وتجلبان الحظ السعيد. إنهما بالطبع لا تقدمان دجاجًا مقليًا حين ترغبينه ولا تجدينه، ولكنهما تجلبان طول العمر والصحة الجيدة والنجاح في امتحانات الأسابيع الستة.... هذه النقود لها قيمة كبيرة لدى شخص ما، لذا سأحتفظ بها في صندوقي.

وقف جيم يتأمل منزل عائلة رادلي لفترة طويلة قبل أن يتوجه إلى غرفته، وبدا حينها وكأنه يعيد التفكير. وصل ديل بعد يومين متألقًا في مجده: فقد ركب القطار وحده من ميريديان إلى مفترق مايكوم (كان ذلك لقبًا فخريًا، فقد كان مفترق مايكوم الحقيقي في مقاطعة أبوت Abbott) حيث استقبلته الآنسة راتشيل في تاكسي مايكوم. تناول ديل عشاءه في عربة الطعام بالقطار ورأى توأمين ملتصقين ينزلان من القطار في باي سانت لويس (Bay St. Louis). ظل ديل متمسكًا بقصته رغم التهديدات، لكنه تخلص من «الشورت الأزرق» المزرر إلى قميصه ولبس بنطلونًا قصيرًا بحزام. بدا الآن أثقل وزنًا مما كان عليه، لكن طوله لم يتغير. قال إنه رأى أباه، وإنه أطول من أبينا وله لحية سوداء مدببة، وأنه يشغل وظيفة رئيس شركة السكة الحديد «بي آند إن» (P& N Railroad).

قال ديل وهو يتثاءب:

ـ ساعدت المهندس لفترة أثناء الرحلة.

رد عليه جيم قائلًا:

ـ أنا لا أصدق ما تقول يا ديل... اسكت، والآن ماذا سنلعب؟

ـ سنمثل توم وسام وديك (Tom and Sam and Dick) هيا نذهب إلى الفناء الأمامي.

أراد ديل تمثيل أجزاء من أولاد روفر (Rover Boys) نظرًا لوجود ثلاثة أدوار محترمة في النص.

قلت:

ـ لقد مللت من أولئك.

ـ فقد تعبت بالفعل من لعب دور «توم روفر» (Tom Rover) الذي يفقد ذاكرته فجأة في منتصف التمثيلية ثم يخرج منها حتى النهاية، حيث يُعثر عليه في ألاسكا (Alaska).

قلت له:

ـ أَلِّف لنا واحدة يا جيم.

ـ تعبت من التأليف.

كنا متعبين بالفعل رغم أنها أول أيام استعادتنا الحرية فتساءلت في نفسي عما سيجلبه لنا الصيف.

مشينا إلى الفناء الأمامي، حيث وقف ديل ينظر نحو واجهة منزل عائلة رادلي الكئيبة وقال:

ـ أشم رائحة الموت... وأنا صادق فيما أقوله لكما.

قال ذلك حين طلب منه أن يَصْمُتَ.

ـ هل تعني أنك قادر على أن تشم رائحة الموت حين يكون هناك شخصٌ يحتضر؟

ـ لا، بل أستطيع أن أشم رائحة شخص فتدلني على ما إذا كان سيموت، لقد علمتني سيدة عجوز طريقة استشعار ذلك.

مال عليَّ ديل وشمني وقال:

ـ يا جين ـ لويز ـ فينش ـ ستموتين خلال ثلاثة أيام.

ـ يا ديل، إن لم تسكت فسوف أضربك حتى تلتوي ساقيك وأنا أعني ما أقول.

زمجر جيم قائلًا:

ـ اسكتا، تتصرفان وكأنكما تؤمنان «بالأبخرة الحارة».

ـ وأنت تتصرف وكأنك لا تؤمن بها.

سأل ديل:

ـ وما هو البخار الحار؟

سأل جيم ديل:

ـ ألم يسبق لك أن مشيت ليلًا في طريقٍ خالٍ من المارة ومررت بمكانٍ حار؟ إن البخار الحار هو روح لا تستطيع الصعود إلى السماء فتتخبط في الطرقات المنعزلة، وإذا ما اصطدمتَ بها، فستصبح في يوم ما مثلها فتموت، وسوف تتجول في الليل وتكتم أنفاس الناس.

ـ وكيف يمكنك تجنب الاصطدام بها؟

ـ لا يمكنك ذلك، فأحيانًا تتمدد عبر الطريق كله ولكن لو حدث واصطدمت بإحداها فقل:

ـ أيها الملاك اللامع، أيها الحي الميت، ابتعد عن طريقي، لا تكتم أنفاسي، هذا لن يجعلها تلتف حولك.

قلت:

ـ لا تصدق كلمة واحدة مما يقوله يا ديل. فكالبورنيا تقول إنها مجرد حكايات تجري على ألسنة الزنوج.

ـ نظر إليَّ جيم عابسًا ولكنه عاد فقال:

ـ حسنًا، ألن نلعب أم ماذا؟

قلت:

ـ هيا نتدحرج داخل «العجلة».

تنهد جيم وقال:

ـ تعرفان أن العجلة لن تسعني لكِبر حجمي.

ـ يمكنك أن تدفعنا.

جريت نحو الفناء الخلفي وأخذت إطار سيارة قديمًا... رميت به في الفناء الأمامي وقلت: أنا أولًا.

لكن ديل قال إنه يجب أن يكون الأول، فقد وصل أولًا.

أقام جيم نفسه حكمًا بيننا فمنحني الحق في أن أكون الأولى بينما منح ديل وقتًا إضافيًا وهكذا حشرت نفسي داخل العجلة.

كنت حتى هذه اللحظة لم أدرك أن جيم انزعج من تكذيبي لصحة ما قاله حول «الأبخرة الحارة» وأنه كان ينتظر بفروغ الصبر فرصة مكافأتي

على ذلك. وقد كافأني بالفعل إذ دفع بالعجلة على طول الرصيف بكل ما أوتي من قوة. وما إن فعل حتى انصهرت الأرض والسماء والبيوت متحولة إلى خشبة رسام مجنونة تداخلت ألوانها فخفقت أذناي وشعرت بالاختناق. لم أستطع أن أمد يديَّ لأوقِفَ العجلة فقد كانتا محشورتين بين صدري وركبتيّ. كنت آمل أن يسبق جيم العجلة فيوقِفها، أو أن يدفع بي أحد المطبات نحو الرصيف. سمعت جيم ورائي يعدو خلف العجلة ويزعق.

ارتطمت العجلة على الحصى ثم اندفعت عبر الطريق واصطدمت بحاجز فرَمَتْ بي كالفلّين على الرصيف. تمددت على أرض الشارع وأنا أشعر بدوار وغثيان. هززت رأسي حتى سكنت وصفعتُ أذنيَّ حتى صمتتا وعندها سمعت صوت جيم:

ـ سكاوت، ابتعدي.... هيا.

رفعت رأسي وحَدَقْتُ أمامي في اتجاه سلالم منزل عائلة رادلي فتجمدت في مكاني.

كان جيم يصرخ:

ـ هيا يا سكاوت، لا تبقِ هناك. انهضي، ألا تستطيعين؟

نهضت على قدميّ مرتجفة بينما بدأ الشعور بالبرودة يفارقني.

صرخ جيم:

ـ أحضري العجلة. أحضريها معك.

وحين استعدت قوتي، جريت عائدة إليهما بأسرع ما استطاعت ساقاي المرتجفتان أن تحملاني.

صرخ جيم:

ـ لماذا لم تحضريها؟

فصرخت فيه:

ـ ولماذا لا تحضرها أنت.

صمت جيم فقلت:

ـ هيا، فهي ليست بعيدة جدًا من الباب الخارجي. ألا تذكر أنك لَمَسْت المنزل مرة من قبل؟

ـ نظر إليَّ جيم غاضبًا ولم يستطع التراجع فجرى على الرصيف وخاض في بركة ماء ثم اندفع وأحضر العجلة.

عاد جيم منتصرًا وعلى وجهه علامات الضيق مني:

ـ أرأيتِ؟ لا شيء في ذلك. أقسم يا سكاوت أنكِ أحيانًا تتصرفين وكأنك مجرد فتاة، إن ذلك مخجل.

لكن ما لا يعرفه جيم تخطى ما يعرفه بكثير، ولكنني قررت ألا أخبره. ظهرت كالبورنيا عند الباب الأمامي وصاحت:

ـ حان وقت شرب عصير الليمون. ادخلوا واحتموا من حرارة الشمس قبل أن تحرقكم. يُعَدُّ شرب عصير الليمون وقت الضحى من طقوس الصيف. وضعت كالبورنيا إبريقا وثلاثة أكواب عند المدخل الأمامي للمنزل ثم عاودت عملها. لم يعد يزعجني كثيرًا ما إذا كان جيم غاضبًا مني. فسيعيد عصير الليمون له ما تعكر من صفو مزاجه.

ابتلع جيم بسرعة كوبه الثاني ثم ضرب على صدره وقال:

ـ أعرف ماذا سنلعب. سنلعب لعبة جديدة مختلفة.

سأله ديل:

ـ وما هي؟

ـ بو رادلي.

في بعض الأحيان تبدو رأس جيم شفافة أمامي: لقد اخترع هذه اللعبة حتى يجعلني أعتقد أنه ليس خائفًا من عائلة رادلي بأي شكل من الأشكال، وحتى يظهر الفرق بين جرأته البطولية، وبين ما اتصف به من جُبْن.

سأل ديل:

ـ بو رادلي؟ كيف؟

ـ يا سكاوت، يمكنك أن تلعبي دور السيدة رادلي.

ـ لا أريد أن أفعل ذلك.. لا أعتقد.

قال ديل:

ـ ما الحكاية؟ أما زلت خائفة؟

قلت:

ـ يمكنه أن يخرج في الليل حين نكون كلنا نيامًا.

قال جيم بصوت خافت:

ـ يا سكاوت، كيف يمكنه أن يعرف ما نفعله؟ فضلًا عن ذلك، فأنا لا أعتقد أنه ما زال يمكث هناك. لقد مات منذ سنوات وقد حنطوه ووضعوه في المدخنة.

قال ديل:

ـ يا جيم، يمكننا أن نلعب معًا وتراقبنا سكاوت إذا كانت خائفة.

كنت واثقة تمامًا أن بو رادلي لا يزال في المنزل، ولكني لم أملك دليلًا على ذلك، وشعرت أنه من الأفضل أن ألتزم الصمت وإلا سأُتَّهَم بأنني أؤمن بـ «الأبخرة الحارة» وهي ظاهرة اكتسبت حصانة منها أثناء النهار.

حدد جيم أدوارنا: أنا سألعب دور السيدة رادلي وكل ما عليّ أن أفعله هو أن أُنَظِّفَ المدخل الأمامي. لعب ديل دور السيد رادلي العجوز: فمشى علي الرصيف ذهابًا وإيابًا ثم سعل حتى يوجه جيم كلامه إليه، أما جيم فقد لعب بالطبع دور «بو»: فاختبأ تحت السلم الأمامي وأخذ يصرخ ويعوي من وقت لآخر.

ومع مُضِي أيام الصيف، تطورت لعبتنا. فقد صقلناها وطورناها وأضفنا إليها حوارًا وحبكة درامية حتى تحولت إلى مسرحية صغيرة نغيرها ونشكلها كل يوم.

كان ديل وَغْدًا بمعنى الكلمة: فقد كان باستطاعته أداء أي دور وكان يبدو طويل القامة إذا تطلب الدور ذلك. كان يبلغ قمة الأداء في أدوار الشخصيات الخسيسة: أما أسوأ أدواره فهي الأدوار المرعبة. لَعِبْتُ بلا حماسة أدوارًا متنوعة لسيدات يظهرن في النص، ولا أعتقد أنها كانت أكثر متعة من طرازان. أديت أدواري في ذلك الصيف بإحساس تخطى مشاعر القلق الغامضة رغم تأكيدات جيم بأن بو رادلي قد مات، وأنه لن يصيبني شيء خصوصًا مع وجوده ووجود كالبورنيا في النهار ووجود أتيكوس في الليل.

وُلِدَ جيم بطلًا.

كانت تلك الدراما الصغيرة الحزينة مكوَّنة من أحداث عارضة تناقلتها الشائعات واستقرت بوصفها أساطير الحي، فظلت السيدة رادلي جميلة حتى تزوجت من السيد رادلي وخسرت كل أموالها. كما فَقَدَتْ معظم أسنانها وشعرها وسبابتها اليمنى (والفضل في ذلك يرجع إلى ديل، فقد أكل «بو» إصبعها في إحدى الليالي حين لم يجد أي قطط أو سناجب ليأكلها). كانت السيدة رادلي تجلس باكية في غرفة المعيشة بينما يقوم «بو» بتخريب أثاث المنزل كله على مهلٍ.

كنا ـ ثلاثتنا ـ نلعب أدوار الأولاد الذين يقعون في المشكلات، ولكنني كنت أحيانًا ألعب دور القاضي كنوع من التغيير. جاء جيم وأدخل ديل تحت السلم، وراح ينخسه بعصا المكنسة. وعاد جيم ليظهر في هيئة مأمور أو بعض سكان البلدة أو الآنسة ستيفاني كروفورد التي كان لديها الكثير لتقوله عن عائلة رادلي، فما لديها يفوق كل ما عند أهالي مايكوم من أخبار.

وحين جاء وقت تمثيل مشهد «بو» العظيم، تسلل جيم إلى داخل المنزل وسرق المقص من درج ماكينة الخياطة في اللحظة التي أدارت فيها كالبورنيا ظهرها ثم جلس في الأرجوحة وأخذ يقص الجرائد. أما ديل فقد اتجه نحو جيم وهو يسعل، ويتقدم جيم ليبدو وكأنه يطعن ديل في فخذه. وكان الأمر يبدو حقيقيًا من حيث أقف.

وحين مر بنا السيد ناثان رادلي في طريقه اليومي إلى البلدة، كنا نقف بلا حراك صامتين حتى يغيب عن أنظارنا، ثم نتساءل ما الذي كان سيفعله بنا لو شك فيما كنا نفعله. توقفت نشاطاتنا كلما ظهر أحد الجيران، وذات مرة رأيت الآنسة مودي أتكنسون تُطِيلُ النظر إلينا عبر الشارع.

وفي إحدى المرات التي كنا منهمكين فيها بتمثيل الفصل الخامس والعشرين من الكتاب الثاني من «عائلة من رجل واحد» (One Man's Family)[1] لم نرَ أتيكوس الذي وقف على الرصيف ينظر إلينا، وقد راح يضرب على ركبته بمجلة ملفوفة في يده. بدت حرارة الشمس وكأنها تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا. سألنا:

ـ ما الذي تلعبونه جميعًا؟

قال جيم:

ـ لا شيء.

وفهمت من أسلوب جيم في التملص من الإجابة أن لعبتنا كانت سرًا، ولذا التزمت الصمت.

ـ ماذا تفعلون بهذا المقص إذن؟ لماذا تمزقون تلك الجرائد؟ ويلكم إن كانت جرائد اليوم.

ـ لا شيء.

قال أتيكوس:

ـ لا شيء؟ كيف؟

ـ لا شيء يا سيدي.

ـ أعطني ذلك المقص. فهو ليس لعبة. هل لهذا أية علاقة بعائلة رادلي؟

---

(١) إشارة إلى أطول مسلسل أذاعته المحطات الأمريكية وقد بدأت إذاعته عام ١٩٣٢ ولقي نجاحًا كبيرًا على مدى ثلاثين عامًا. (المترجمة).

قال جيم وقد احمر وجهه:

ـ لا يا سيدي.

قال أتيكوس بفظاظة «أتمنى ذلك» ثم دخل المنزل.

ـ يا جـ.......م.

ـ اسكتي فهو في غرفـة المعيشة ويستطيع أن يسمعنا من موقعه هناك.

وبعد أن ذهبنا إلى الفناء وأحسسنا بالأمان، سأل ديل جيم إن كان بإمكاننا أن نمثل بعد الآن.

ـ لا أعرف. فلم يمنعنا أتيكوس من ذلك.

قلت:

ـ يا جيم، أعتقد أن أتيكوس يعرف الحقيقة على أية حال.

ـ لا، فهو لا يعرف.. فلو كان يعرف لقال لنا ذلك.

لم أكن واثقة ولكن جيم قال لي إني مجرد فتاة، وإن الفتيات دائما يتخيلن أشياء ولهذا السبب فإن الناس يكرهونهن. ولو أني بدأت أتصرف مثل الفتيات، فعلي أن أذهب لأجد شخصا آخر ألعب معه.

قلت:

ـ حسنا. استمرا في اللعب وستعرفان.

كان مجيءُ أتيكوس هو السبب الثاني لرغبتـي في التخــلي عن اللعب. ويعود السبب الأول إلى ذلك اليوم الذي سقطت فيه في الفناء

الأمامي لمنزل عائلة رادلي، فبينما كنت أهز رأسي وأحاول أن أكبح الغثيان الذي أصابني وأسمع صراخ جيم، سمعت أيضا صوتًا آخر، صوتا ضعيفًا إلى درجة أنني ما كنت أسمعه عبر الرصيف.

إنه صوت شخص ما يضحك من داخل المنزل.

الفصل الخامس

نجحت في نهاية المطاف في إخضاع جيم لإرادتي بعد الإلحاح المستمر الذي وصل لحد الإزعاج، وقد كنت على يقين من نجاح هذا الأسلوب. وكنت قد شعرت بالارتياح لتوقفنا عن اللعب لفترة، غير أن جيم أصر ـ رغم ما حدث ـ على أن أتيكوس لم يمنعنا من اللعب، لذا، فبإمكاننا الاستمرار في لعبتنا. إن كان أتيكوس قد منعنا بالفعل، فقد فكر جيم في التحايل على الأمر بتغيير أسماء الشخصيات بحيث لا يمكن أن نُتَّهَم بتمثيل أي شيء حقيقي.

وافق ديل قلبًا وقالبًا على تلك الخُطة، غير أنه صار مصدر إزعاج على أية حال؛ فهو يتبع جيم أينما ذهب، وكان قد طلبني للزواج في بداية الصيف ولكنه سرعان ما نسي الموضوع. كان قد ضَيَّق عليّ الخناق وأعلنني ملكًا له وأخبرني أنني الفتاة التي سيحبها مدى الحياة، ثم ما لبث أن أهملني. وقد قمت، مرتين، بضربه ضربًا موجعًا، ولم يؤتِ ضربي له ثماره بل ازداد قربًا من جيم وتعلقًا به، فكانا يمضيان أيامًا بطولها وحدهما في كوخ الشجرة يتآمران ويخططان، ولا يستدعياني إلا إذا كانا في حاجة إلى طرف ثالث، غير أنني ابتعدت عن خططهما الأكثر طيشًا،

وقضيت معظم فترات الغروب فيما تبقى من أيام الصيف مع الآنسة مودي أتكنسون عند المدخل الأمامي لمنزلها معرضةً نفسي لاتهامها لي بأنني لست إلا «فتاة».

كم تمتعنا، أنا وجيم، بحرية اللعب في فناء الآنسة مودي ما دمنا بعيدين عن شجرات الأزاليا، ولكن صلتنا بها لم تكن محددة على نحو واضح، فبالنسبة لي كانت مجرد سيدة من سيدات الحي ـ وذلك إلى أن طردني جيم وديل من خططهما ـ ولكنها على أية حال سيدة تتمتع بحضور طيب إلى حد كبير.

نصت معاهدتنا الضمنية مع الآنسة مودي على أننا نستطيع اللعب في المساحة الخضراء من حديقتها وأن نأكل من محصول العنب. كان لنا ذلك ما دمنا لا نقفز على التعريشة ولا نسعى لاستكشاف المساحة الخلفية الواسعة من منزلها. كانت الشروط كلها شروطًا كريمةً مما دعانا لعدم مخاطبتها إلا فيما ندر، فقد كنا حريصين على الاحتفاظ بالتوازن الدقيق لعلاقتنا، غير أن جيم وديل دفعاني دفعًا لأن أوثق علاقتي بها بسبب سلوكهما معي.

كَرِهَتْ الآنسة مودي منزلها واعتبرت أن الوقت الذي تمضيه فيه بمثابة وقت ضائع. فهي أرملة متقلبة المزاج، تعني بأحواض زهورها مرتديةً زي الرجال وقبعة قديمة من القش. اعتادت الآنسة مودي الخروج إلى فناء منزلها الأمامي بعد حمام الساعة الخامسة لتهيمن على الشارع بجمالها الطاغي.

أحبت الآنسة مودي كل النباتات التي تنمو على أرض الخالق، حتى الأعشاب الضارة منها، ولم تستثنِ إلا أوراق عشب الجوز في فنائها التي

ما إن تراها حتى تشن «معركة المارن الثانية»[1] (The Second Battle of Marne) فتنقض عليها وهي تحمل وعاءً من القصدير وتلقي عليها بنفحاتٍ من مادة سامة قالت إنها قوية إلى حد أنها ستقتلنا إذا لم نبتعد عنها.

سألتها مرة بعد أن راقبتها وهي تقوم بحملة مُطَولة ضد عشب لم يزد ارتفاعه عن ثلاث بوصات:

ـ لماذا لا تقتلعينها؟

ـ أقتلعها يا طفلتي؟

ثم التقطت النبتة الرخوة وضغطت بإبهامها على طولها، فخرجت منها بذور دقيقة مجهرية.

قالت:

ـ إن سويقة واحدة من عشبة الجوز يمكنها تخريب فناء بأكمله، انتبهي جيدًا لما أقول: حين يأتي الخريف تجف هذه النبتة وتحملها الرياح إلى أرجاء مقاطعة مايكوم. صورت تعبيرات وجه الآنسة مودي هذا الأمر تصويرًا جعله أشبه بوباءٍ من «العهد القديم».

كانت أحاديث الآنسة مودي شائقة طَلِيَّة وبخاصة إذا ما أخذنا في

---

(١) «معركة المارن الثانية» (The Second Battle of the Marne) إحدى أهم معارك الحرب العالمية الأولى، دار القتال فيها من الخامس عشر من يوليو إلى الخامس من أغسطس من عام ١٩١٨. وكانت المعركة آخر هجمة قام بها الألمان على الجبهة الغربية إلا أنهم ما لبثوا أن اندحروا عندما قاد الفرنسيون قوات الحلفاء في هجوم مضاد فأوقعوا بالألمان خسائر فادحة وانتصروا عليهم. (المترجمة).

الاعتبار أنها من أهالي مقاطعة مايكوم، وكانت تنادينا بأسمائِنا الكاملة، وحين تبتسم كانت ابتسامتها تَكشف عن «طربوشين» من الذهب مثبتين في نابي فكها العلوي، وحين أبديت إعجابي بهما وتمنيت أن يكون لي مثلهما في يوم من الأيام قالت: «انظري إلى» ثم بحركة من لسانها دفعت هذا الجسر إلى الأمام، وكانت هذه علامة من علامات الود دعمت صداقتنا.

امتدَّ كرم الآنسة مودي ليشمل جيم وديل كلما توقفا عن الانغماس فيما يشغلهما، وقد حصدنا خيرات موهبة كانت الآنسة مودي قد أخفتها عنا حتى ذلك الحين. فقد كانت تصنع أفضل كعك في الحي. وما إن نِلْنا ثقتها حتى كانت تصنع لنا ثلاث كعكات صغيرات كلما خبزت، ثم تنادي علينا عبر الشارع صائحة: «جيم فينش، سكاوت فينش، تشارلز بيكر هاريس، تعالوا إلى هنا». وكانت تلبية ندائها تعني دائمًا خير الجزاء.

في فصل الصيف يكون شفقُ الغروب طويلًا وهادئًا، وكنا غالبًا نجلس بهدوء في مدخل منزلها الأمامي نراقب السماء ولونها يتدرج من الأصفر إلى الوردي أثناء تسلل الشمس إلى مبيتها، ونتابع تحليق الطيور وهي تجتاح الجوار ثم تختفي وراء أسطح مباني المدرسة.

وفي إحدى الأمسيات قلت:

ـ يا آنسة مودي، هل تعتقدين أن بو رادلي لا يزال حيًا؟

قالت:

ـ اسمه آرثر وهو لا يزال حيًا.

تأرجحت في كرسيها الكبير المصنوع من خشب البلوط واستأنفت قائلة:

ـ هل تشمين رائحة نبات الميموسا (mimosa) في حديقتي؟ إنها أشبه بأنفاس الملائكة هذا المساء.

ـ نعم يا سيدتي، وكيف تعرفين؟

ـ أعرف ماذا يا طفلتي؟

ـ أن بـ..... السيد آرثر ما زال حيًا؟

ـ يا له من سؤال كئيب... وأعتقد أنه موضوع كئيب.. أعرف أنه حي يا چان لويز لأني لم أرَ جثمانه يخرج من منزله.

ـ ربما مات ووضعوه في المدخنة.

ـ من أين جئت بهذه الفكرة؟

ـ هذا ما قاله جيم.

ـ كفاكِ! إن جيم يصير شبه جاك فينش يومًا بعد يوم.

عرفت الآنسة مودي جاك فينش، شقيق أتيكوس منذ الطفولة، فأعمارهما متقاربة وقد نشأ معًا في «فينش لاندنج» فالآنسة مودي هي ابنة أحد الملاك المجاورين وهو الدكتور فرانك بوفورد (Frank Buford) الذي امتهن الطب ورغم ذلك كان مولعًا بكل ما تنبته الأرض، لذا ظل فقيرًا. أما العم جاك فينش فقد اقتصر ولعه بالزراعة على أحواض الزهور المثبتة بنوافذ منزله بناشفيل (Nashville)، لذا فقد ظل غنيًا. كنا نرى العم جاك في كل عيد ميلاد وفي كل مرة يعبر فيها عن رغبته في الزواج من الآنسة مودي ترد عليه صارخة: «ارفع صوتك أكثر وأكثر، حتى يسمعوك في مكتب البريد، فأنا لم أسمعك بعد».

ظننا، أنا وجيم، أنها طريقة غريبة في طلب يد سيدة للزواج، ولكن على أية حال فالعم جاك، غريب الأطوار، قال إنه يحاول مضايقة الآنسة مودي وإن محاولاته قد باءت بالفشل طوال أربعين عامًا، كما قال إنه آخر شخص في العالم قد تفكر الآنسة مودي بالزواج منه، ورغم ذلك فهو أول من يخطر ببالها عندما تريد المشاكسة، وأفضل دفاع يواجهها به يتمثل في هجوم نشط، وكان الأمر واضحًا لنا تمامًا.

قالت الآنسة مودي:

ـ آرثر رادلي لا يغادر المنزل هذا كل ما في الأمر، أما كنت تبقين في البيت إذا كنت لا ترغبين في الخروج؟

ـ نعم يا سيدتي، ولكن قد أرغب في الخروج، فلماذا لا يرغب هو في ذلك؟

ضاقت عينا الآنسة مودي وقالت:

ـ أنت تعرفين هذه الحكاية بقدر ما أعرفها.

ـ لم أعرف بعد السبب على أية حال. لم يخبرني أحد بالسبب.

أعادت الآنسة مودي جسر أسنانها بلسانها وقالت:

ـ كنت تعرفين أن السيد رادلي من أتباع الكنيسة البروتستانية المعمدانية الذين يتبعون مذهب غسل الأقدام.

ـ وأنت كذلك؟

ـ لست مؤمنة إلى ذلك الحد، أنا مجرد معمدانية.

ـ ألا تؤمنين بغسل الأقدام؟

ـ نؤمن بذلك ولكن في البيت وفي الحمام.

ـ ولكننا لا نستطيع ممارسة «المناولة» معكم أنتم يا..

من الواضح أن الآنسة مودي قد قررت أنه من الأسهل عليها تعريف المعمدانية الأصلية من تعريف المناولة السرية فقالت:

ـ يؤمن غاسلو الأقدام بأن أي شيء يجلب المتعة هو خطيئة. هل تعرفين أن بعضهم خرج من الغابات في أحد أيام السبت ومر بهذا المكان وقال لي إن مصيري إلى الجحيم وكذا زهوري؟

ـ وزهورك أيضًا؟

ـ نعم يا آنستي، ستحترق معي. إنهم يعتقدون أني أقضي وقتًا طويلا خارج المنزل ولذا لا أقضي وقتًا كافيًا داخل المنزل لأقرأ في الكتاب المقدس.

تزعزعت ثقتي في عظات الأناجيل وتعاليمها وأنا أتخيل الآنسة مودي تُحْرَق إلى الأبد في عدد مختلف من أنواع الجحيم البروتستانتية. حقًا كان لسانها سليطًا ولم تفعل الخير في الجوار كما فعلت الآنسة ستيفاني كروفورد. ولكن بينما لم يكن هناك شخص عاقل يثق بالآنسة ستيفاني، فقد وثقنا، أنا وجيم، إلى حد كبير بالآنسة مودي. فهي لم تَشِ بنا على الإطلاق، ولم تتتبع سقطاتنا، هذا إلى جانب أنها لم تكن مهتمة إطلاقا بحياتنا الخاصة، كانت صديقة لنا، فكيف يمكن لمخلوق عاقل إلى هذا الحد أن يعيش مهددًا بخطر التعذيب الأبدي؟ هذا شيء لا يمكن فهمه.

ـ ليس هذا صحيحا يا آنسة مودي. فأنت أفضل سيدة أعرفها، ابتسمت الآنسة مودي وقالت:

ـ شكرًا يا آنستي. المشكلة أنَّ «غاسلي الأقدام» يعتقدون أن النساء هن الخطيئة ذاتها. إنهم يفسرون الكتاب المقدس على نحو حرفي كما تعرفين.

ـ لهذا السبب يبقى السيد آرثر في المنزل؟ ليبتعد عن النساء؟

ـ لا أعرف.

ـ لا أفهم ذلك. يبدو لي أنه لو كان السيد آرثر يتطلع إلى جنات النعيم لخرج إلى الفناء الأمامي على الأقل، فأتيكوس يقول إن من يحبون غيرهم في الله مثلك.

توقفت الآنسة مودي عن التأرجح في كرسيها، واحتد صوتها وقالت:

ـ أنت أصغر سنًا من أن تفهمي تلك المسألة، ففي بعض الأحيان يصبح من يحمل الكتاب المقدس بيمينه أسوأ ممن يحمل قارورة ويسكي.... ولنضرب المثل بأبيك.

صدمني ما قالته فقلت لها:

ـ أتيكوس لا يشرب الويسكي. لم يسبق له أن رشف قطرة واحدة في حياته.... لا، بل شرب مرة. قال لي إنه شرب منه مرة ولم يعجبه.

ضحكت الآنسة مودي قائلة:

ـ لم أكن أعني والدك، ما قصدته هو أن أضرب مثلًا بوالدك الذي إن شربَ الخمر حتى الثمالة لن يكون قاسيا قسوة بعض الأشخاص وهم في أحسن أحوالهم. هناك نوع من الأشخاص يهتمون كثيرًا بحياة

الآخرة إلى حد أنهم لم يتعلموا كيف يعيشون في هذا العالم، وبإمكانك أن تنظري حولك وسترين صحة ما أقوله.

ـ هل تعتقدين أن كل ما يقال عن بو.... السيد رادلي صحيح؟

ـ وماذا يقال؟

وحكيت لها ما سمعته.

قالت الآنسة مودي بتجهم:

ـ ثلاثة أرباع هذا من اختراع الملوَّنين والربع الباقي من اختراع ستيفاني كروفورد. لقد حكت لي ستيفاني كروفورد أنها استيقظت مرة في منتصف الليل ووجدته يتلصص عليها من النافذة، فسألتها عما فعلته، وهل أفسحت له مكانًا بجوارها على السرير؟ وقد أخرسها سؤالي لفترة.

لم يداخلني شك على الإطلاق في أن سؤال الآنسة مودي قد أخرس ستيفاني كروفورد، فصوت الآنسة مودي كافٍ لإخراس أي شخص، قالت:

ـ كلا يا صغيرتي، إنه منزل حزين، إني أتذكر آرثر رادلي حين كان صبيًا، كان دائمًا ما يخاطبني بلطف، ومهما قال الناس عن أفعاله إلا أنه كان يخاطبني بألطف أسلوب.

ـ هل تعتقدين أنه مجنون؟

هزت الآنسة مودي رأسها وقالت:

ـ إذا لم يكن مجنونًا فقد أصبح مجنونًا الآن، فنحن لا نعرف بالضبط

ما يحدث للناس وما يحدث في المنازل وراء الأبواب المغلقة. إن الأسرار.....

ـ إن أتيكوس لا يعاملنا داخل البيت إلا مثلما يعاملنا خارج البيت تمامًا.

قلت ذلك لما استشعرته من واجب الدفاع عن أبي.

ـ عجبًا يا طفلتي، لم أكن أعني والدك على الإطلاق، ولكن ما دمت قد ذكرته الآن فسأقول الآتي: إن أتيكوس فينش يظل هو نفسه سواء كان في المنزل أم في شوارع البلدة، ما رأيك في أن تأخذي بعض الكعكات الطازجة معك إلى المنزل. وقد أدخل عرضها هذا السرور على نفسي.

حين استيقظت صباح اليوم التالي، وجدتُ جيم وديل في الفناء الخلفي وقد انغمسا في الحديث وحين انضممت إليهما طلبا مني كالعادة أن أنصرف عنهما.

ـ لن أنصرف. فهذا الفناء مِلكي مثلما هو مِلَكٌ لك يا جيم فينش. ولي حق اللعب به كما يحق لك. تشاورا لفترة قصيرة ثم قال لي ديل محذرًا:

ـ إذا بقيت معنا فعليك أن تفعلي ما نطلبه منكِ.

قلت:

ـ ولكن قل لي ما هذا التجبر الذي حل بك فجأةً؟

استأنف ديل قائلًا:

ـ إذا لم تقولي إنك ستفعلين ما نطلبه منك، فلن نخبرك بشيء.

ـ تتصرف وكأنك ازددت طولًا بمقدار عشر بوصات في ليلة واحدة حسنًا فما الأمر؟

قال جيم بهدوء:

ـ سنرسل رسالة لبو رادلي.

ـ ولكن كيف؟

حاولت أن أتغلب على الخوف الذي سرى في كل بدني. فالآنسة مودي يمكنها أن تتحدث كما تشاء فهي ناضجة وتشعر بالأمان أثناء جلوسها في المدخل الأمامي. أما بالنسبة لنا فالأمر مختلف.

لن يعدو الأمر مجرد أن يضع جيم الرسالة في طرف صنارة الصيد ويضعها بين «شيش» النافذة فإذا تصادف أن مر بنا سيقرع ديل الجرس منبهًا.

رفع ديل يده اليمنى فرأيته يحمل جرس أمي الفضي المخصص لدعوتنا إلى العشاء.

قال جيم:

ـ سأذهب إلى جانب المنزل. لقد نظرنا البارحة عبر الشارع فلاحظنا أن هناك «شيش» نافذة غير محكم وأعتقد أنه بإمكاني أن أثبت الرسالة بحافة النافذة على الأقل.

ـ جيم!

ـ أنت الآن متورطة معنا ولا يمكنك التخلي عنا. وعليك أن تبقي معنا يا آنسة.

ـ حسنًا، حسنًا، سأبقى معكما لكني لا أريد أن أتولى مهمة المراقبة يا جيم. هناك شخص.

ـ بل ستراقبين المساحة المزروعة خلف المنزل وسيراقب ديل المنطقة الأمامية للمنزل وحتى نهاية الشارع.

وإذا ظهر أحد فسيقرع الجرس، هل هذا واضح؟

حسنًا إذن. ما الذي كتبته له؟

قال ديل:

طلبنا منه بأدب جَمْ أن يخرج في بعض الأحيان، وأن يحكي لنا ما يفعله داخل المنزل، وقلنا له إننا لن نؤذيه بل سنشتري له بعض الآيس كريم.

ـ لقد أصابكما مس من الجنون. إنه سيقتلنا.

ـ قال ديل: هذه فكرتي. أعتقد أنه إن خرج وجلس معنا لفترة فقد تتحسن حالته.

ـ وكيف تعرفان أنه ليس على ما يرام؟

ـ وكيف ستشعرين لو أنك حُبِسْتِ مائة عام ولا شيء تأكلينه سوى القطط؟ أعتقد أن لحيته طويلة إلى ها هنا.

ـ كلحية أبيك؟

ـ ليس له لحية، إنه...

توقف ديل عن الكلام وكأنه يحاول أن يتذكر.

قلت:

ـ ها ها، أوقعت بك!

إذا كان هذا لا يهمك كثيرًا فقد حَلَقَ لحيته في الصيف الماضي نعم، ولدي رسالة تثبت ذلك، وقد أرسل إليّ دولارين أيضًا.

استمر في الكلام.. أعتقد أنه أرسل لك بذلة شرطي من الفرسان... ولكنها لم تصل إطلاقًا، أليس كذلك؟

استمر في قَصِ هذه الأكاذيب عليَّ يا بني.

إن ديل هاريس قادر على اختلاق أعظم الأكاذيب التي لم يسبق لي أن سمعتها، ومنها أنه ركب طائرة البريد سبع عشرة مرة، وذهب إلى «نوفاسكوتيا» (Nova Scotia)، وأنه رأى فيلًا، وقد كان جده هو العميد جو ويلر (Joe Wheeler) الذي وَرَّثه سيفًا.

قال جيم:

ـ اصمتا الآن.

ثم تسلل أسفل المنزل وأخرج عصًا طويلةً صفراء اللون من البامبو.

ـ هل تعتقدين أنها طويلة بما يكفي لتصل إلى النافذة من على الرصيف؟

قلت:

ـ إن الشجاع الذي استطاع أن يلمس المنزل لا يجدر به أن يلجأ إلى صنارة. لماذا لا تدق على الباب الأمامي؟

قال جيم:

ـ هذا أمر مختلف. كم مرة سأقول لك ذلك؟

أخرج ديل قطعة من الورق من جيبه وأعطاها لجيم. ومشينا نحن الثلاثة نحو المنزل القديم، وبقي ديل عند عمود الإنارة على الزاوية الأمامية للمساحة الخضراء من الأرض. ثم مشينا أنا وجيم على الرصيف

الموازي لجانب المنزل. تجاوزت جيم ووقفت في موقع أستطيع فيه رؤية المنعطف.

قلت:

ـ الطريق خالٍ لا أرى أحدًا.

نظر جيم عبر الرصيف نحو ديل الذي أومأ برأسه.

ثبَّت جيم الرسالة في طرف صنارة الصيد ثم دفع بها عبر الفناء نحو النافذة التي اختارها. كانت الصنارة أقصر ببضع بوصات عن الطول المطلوب فانحنى جيم بجسده قدر استطاعته. راقبته وهو يدفع الصنارة في طعنات متتالية ثم تخليت عن موقعي وتقدمت نحوه.

همهم:

ـ لا أستطيع أن أوصلها بالصنارة. وإذا ما وَصَلَتْ فلن أستطيع أن أثبت الرسالة بالنافذة. عودي للشارع يا سكاوت.

عُدْتُ وأطلت النظر عبر المنعطف ونحو الطريق الخالي.

كنت أنظر بين الحين والآخر إلى جيم الذي كان يحاول أن يضع الرسالة على حافة النافذة بصبر جميل، وكانت الورقة تسقط على الأرض فيسارع جيم بوخزها برأس الصنارة ويرفعها إلى النافذة حتى ظننت أنه إن قُدِّر لبو رادلي أن يستلم الرسالة فلن يتمكن من أن يقرأها.

كنت أنظر إلى امتداد الشارع حين قرع سمعي صوت الجرس.

سقط رأسي بين كتفيّ فزعًا واستدرت متوقعةً أن أجد نفسي في مواجهة بو رادلي ومخالبه الدامية، ولكني بدلًا من ذلك رأيت ديل وهو يدق الجرس بكل قوته في وجه أتيكوس.

بدا جيم في قمة الحرج حتى إنني لم أجرؤ أن أخبره بذلك.

تقدم متخاذلًا يجر الصنارة وراءه على الرصيف.

صاح أتيكوس:

ـ كف عن دق الجرس.

أمسك ديل لسان الجرس. غير أن الصمت الذي أعقب ذلك جعلني أتمنى لو أنه دق الجرس مرة أخرى. دفع أتيكوس بقبعته إلى مؤخرة رأسه ووضع يده على جانبيه وقال:

ـ يا جيم. ماذا تفعلون؟

ـ لا شيء يا سيدي.

ـ كفاك عبثًا، اصدقني القول!

ـ كنت.. كنا نحاول إعطاء شيء ما للسيد رادلي.

ـ ما الذي تحاولون إعطاءه للسيد رادلي؟

ـ مجرد رسالة.

ـ دعني أراها.

أعطاه جيم قطعة متسخة من الورق. أخذها أتيكوس وحاول قراءتها ثم قال:

ـ لماذا تريدون من السيد رادلي أن يخرج؟

قال ديل:

ـ ظننا أنه قد يستمتع بصحبتنا... ثم ما لبثت الكلمات أن توقفت على شفتي جيم حين نظر أتيكوس إليه.

قال أتيكوس موجهًا حديثه إلى جيم:

ـ يا بني، سأقول لك شيئًا لمرة واحدة: كُفْ عن إزعاج هذا الرجل، وما قلته الآن موجهٌ لكما أنتما أيضًا.

ـ إن ما يفعله السيد رادلي أمر يخصه هو، ولو أراد البقاء داخل منزله فله الحق في ذلك دون أي تدخل من الأطفال الفضوليين. وهذا وصف مهذب لطيف لأمثالنا، فماذا ترانا فاعلين لو أن أتيكوس دخل علينا فجأة ليلا دون أن يطرق الباب؟ إن ما نفعله بالسيد رادلي لهو أمر مشابه. قد يبدو ما يفعله السيد رادلي غريبًا بالنسبة لنا ولكنه لا يبدو غريبا بالنسبة له. بالإضافة إلى ذلك ألم نفكر في أن الأسلوب المتحضر للتواصل مع الآخرين يكون عبر الباب الأمامي لا النافذة الجانبية؟ وأخيرا فإن علينا الابتعاد عن المنزل إلى أن ندعى إليه ولا نلعب كالبلهاء كما رآنا نفعل ولا أن نسخر من أي شخص في هذا الشارع أو في هذه البلدة.

قال جيم:

ـ لم نكن نسخر منه، ولم نكن نهزأ به. كنا نحاول أن...

ـ إذن هذا ما كنتم تفعلونه، أليس كذلك؟

ـ نهزأ به؟

قال أتيكوس:

ـ لا، بل تعرضون قصة حياته من أجل تثقيف الجيران.

بدا جيم منفعلًا:

ـ لم أقل إننا كنا نفعل ذلك، لم أقل ذلك.

ـ ابتسم أتيكوس ابتسامة جامدة وقال:

ـ لقد سبق أن قلت ذلك. توقفوا عن هذا الهراء الآن.

فغر جيم فمه ناظرًا إليه.

ـ تريد أن تصبح محاميًا. أليس كذلك؟

كانت شفتا أتيكوس تنطقان بحزم لا يبدو أنه كان يعنيه، فبدا وكأنه يبذل جهدًا كي يحاول أن يطبقهما.

قرر جيم أنه لا فائدة من المراوغة فصمت. وحين دخل أتيكوس إلى المنزل ليُحْضِر ملفًا كان قد نسي أن يأخذه معه وهو ذاهب إلى العمل صباحًا، أدرك جيم أخيرًا أنه وقع ضحية خدعة من أقدم حيل المحامين المعروفة. انتظر جيم عند مسافة بعيدة من السلم الأمامي وراقب أتيكوس وهو يغادر المنزل ويمشي في اتجاه البلدة. وحين أصبح أتيكوس بعيدًا عن مرمى الصوت صاح جيم خلفه: «كنت أظن أني سأصبح محاميًا، ولكني لست متأكدًا أن لدي نفس الرغبة الآن».

الفصل السادس

وافق أبونا حين استأذنه جيم في أن يسمح لنا بالذهاب مع ديل إلى بركة السمك الخاصة بالآنسة راتشيل حيث كانت تلك آخر ليلة له في مايكوم قائلًا: «ودَّعاه نيابةً عني وقولا له إننا سنلقاه في الصيف القادم».

قفزنا الجدار المنخفض الذي يفصل ما بين فناء الآنسة راتشيل والممر المؤدي إلى بيتنا. َصفَّرَ جيم مُطْلِقًا صوتًا شبيهًا بصوت طائر «البوب وايت» فأجابه ديل في الظلام.

قال جيم:

انظري هناك، لا نسمة هواء واحدة تهب علينا.

أشار تجاه الشرق حيث كان القمر ضخمًا يرسل أنواره من خلف شجرات الجوز الأمريكية في فناء الآنسة مودي وقال: «هذا يجعل الطقس يبدو أكثر حرارة».

سأل ديل وهو لا ينظر إلى أعلى فقد كان يصنع لفافة تبغ من خيطٍ وجرائد:

ـ هل ترى صليبًا على وجه القمر الليلة؟

قال جيم:

لا، لا أرى إلا السيدة فحسب، لا تشعل تلك يا ديل وإلا فإنك ستنتشر الرائحة الكريهة في هذا الجانب كله من البلدة.

ففي مايكوم عادةً ما يرى الناس سيدة على وجه القمر تجلس إلى منضدة الزينة وتمشط شعرها.

قلت:

ـ سنفتقدك يا ولد، وأعتقد أنه من الأفضل أن نتجه لمراقبة السيد آفري (Mr. Avery).

كان السيد آفري يسكن أمام منزل السيدة هنري لافاييت ديبوز. وفضلًا عن تبرعاته للكنيسة فقد كان يجلس في المدخل الأمامي للمنزل حتى الساعة التاسعة ولا يفعل شيئًا سوى أن يعطس، وفى إحدى الأمسيات أتيحت لنا فرصة مشاهدة أحد عروضه التي كانت حتمًا آخر أحسن أعماله، حيث إنه لم يقدم ذلك العرض مرة أخرى طوال فترة مراقبتنا له. كنا أنا وجيم نعبر السلالم الأمامية لمنزل الآنسة راتشيل حين أوقفنا ديل قائلًا: «يا إلهي، انظرا هناك». وأشار إلى شيء ما عبر الطريق. في البداية لم نشاهد شيئًا عدا المدخل الأمامي المغطى بأشجار «الكودزو» ولكننا بعد تدقيق أكثر اكتشفنا وجود قوس من الماء يهبط من الأوراق ويتناثر في الدائرة الصفراء الصادرة عن نور الشارع، وقد بدا لنا أن هذا القوس يتعدى طوله عشرة أقدام من المنبع إلى الأرض. قال جيم إن السيد آفري قد أخطأ التصويب ولكن ديل قال إنه دون شك يشرب جالونًا من الماء كل يوم. أما المسابقة التي تشاركا فيها وتَلَتْ ذلك فقد حددت المسافات النسبية والقدرات الخاصة لكل منهما مما جعلني أشعر ثانيةً أنني بعيدة عن المنافسة حيث لم تكن لي موهبة في هذا المجال.

تمطَّى ديل ثم تثاءب وقال غير مُبالٍ:

ـ أعرف ما الذي سنفعله. هيا بنا نذهب ونتمشى.

بدا الأمر مريبًا بالنسبة لي فليس هناك في مايكوم مَنْ يخرج ليتمشى. فَسألته: «أين سنذهب يا ديل؟» حرك ديل رأسه بعنف تجاه الجنوب.

وافق جيم ولكني احتججت؛ فقال لي بعذوبة:

ـ ليس عليك أن ترافقينا يا ملاكي.

ليس عليك الذهاب. تذكر...

لم يكن جيم من النوع الذي يستسلم للهزائم السابقة: فقد بدا أن الدرس الوحيد الذي أفاده من أتيكوس هو أن لأتيكوس بصيرة نافذة في فن التحقيق. قال:

ـ يا سكاوت، لن نزيد على أن نذهب إلى عمود الإنارة ثم نعود.

مشينا متمهلين صامتين على امتداد الرصيف ونحن نُصغي إلى الأراجيح المنصوبة في المداخل الأمامية للمنازل وهي تَئِنُ تحت ثِقَل سكان الحي، وإلى همهمات الليل الخافتة التي تصدر عن قاطني شارعنا. وكنا نسمع صوت الآنسة ستيفاني كروفورد وهي تضحك بين الحين والآخر.

قال ديل: «حسنًا»؟

قال جيم: «حسنًا». لماذا لا تعودين إلى المنزل يا سكاوت؟

ـ ما الَذي ستفعلانه؟

سيذهب ديل وجيم ويسترقان النظر من النافذة ذات «الشيش» غير المحكم ليريا إن كان ممكنًا لهما رؤية «بو رادلي»، فإذا لم أرغب في الذهاب معهما فعليّ أن أعود للمنزل وأُبقِي فمي مغلقًا، هذا كل ما في الأمر.

ـ ولكن لماذا بالله عليكما انتظرتما حتى هذه الليلة؟

وجاء ردهما أنه لا أحد سيراهما ليلًا، وأن أتيكوس سيكون منهمكًا في قراءة أحد الكتب بحيث لن يسمع «ملكوت الله» قادمًا، ولأنهما إذا قتلا على يد «بو رادلي» الآن فسيحرمان من الذهاب إلى المدرسة بينما لو لَقِيا حتفهما من قبل لحرما العطلة، وأن الرؤية داخل منزل معتم خلال الليل أسهل منها خلال النهار. وأتبعا ردهما باستفسار عن مدى فهمي لما قالاه.

ـ يا جيم من فضلك...

ـ يا سكاوت. أقول لك للمرة الأخيرة. أغلقي فمك واذهبي للمنزل. أُصَرِحُ أمام الرب بأنكِ تصبحين فتاة أكثر فأكثر كل يوم. وبعد أن سَمِعتُ هذا الكلام لم يعد لي خيار سوى أن أنضم إليهما. ظننا أنه من الأفضل الزحف من تحت حاجز الأسلاك الشائكة خلف منزل عائلة رادلي، فهناك ستكون فرصة اكتشاف وجودنا أقل. كان الحاجز يحيط بحديقة كبيرة ومرحاض خارجي خشبي ضيق.

رفع جيم السلك السفلي وأشار إلى ديل ليزحف من تحته وقد تبعته ورفعت السلك حتى يمر جيم الذي استطاع بالكاد أن يمر، همس جيم: «لا تحدثا أي صوت ولا تدوسا على الخضروات فذاك من شأنه إيقاظ الموتى».

سيطر هذا الخاطر على ذهني فكنت أسير بسرعة خطوة في الدقيقة، ثم تقدمت بخطوات أسرع عندما رأيت جيم وقد سبقني ووقف يلوح في ضوء القمر. وصلنا إلى البوابة التي تفصل الحديقة عن الفناء الخلفي. لمس جيم البوابة فصَرَّتْ.

همس ديل: «ابصقي عليها».

همستُ: «لقد أوقعتنا في فخ يا جيم. لن نستطيع الخلاص بسهولة من هنا».

اسكتي! ابصقي عليها يا سكاوت.

بصقنا عليها حتى جفت حُلوقنا ثم فتح جيم الباب ببطء ورفعه وأراحه على السور وهكذا أصبحنا في الفناء الخلفي.

يُعَدُ شكل منزل عائلة رادلي من الخلف أكثر كآبة من الأمام: فالمدخل يمتد بعرض المنزل ويضم بابين ونافذتين مظلمتين فيما بين البابين. وبدلًا من وجود صف من الأعمدة وجدنا لوحًا من الخشب بعرض بوصتين في أربع بوصات يُدَعِّم إحدى نهايات السقف، كما كانت هناك مدفأة قديمة من طراز «فرانكلين» قائمة في ركن المدخل الأمامي وفوقها مرآة بها حامل للقبعات تعكس ضوء القمر.

قال جيم بصوت خافت وهو يرفع قدمه: «آه...».

ـ ماذا حدث؟

ـ «جبناء» قالها وهو يلتقط نفسًا.

لقد ثبت لنا أننا كنا مضطرين إلى المراوغة للتملص مما هو غير مرئي

ومن كل الاتجاهات، وذلك حين تلفَّظ ديل الذي كان يسبقنا هامسًا بكلمة «الل...ل...ـه». زحفنا جانب المنزل ثم نحو النافذة ذات «الشيش» غير المحكم. كانت حافة النافذة أعلى من جيم بعدة بوصات.

ـ هل أساعدك على التسلق. انتظر على أية حال.

أمسك جيم برسغه الأيسر ورسغي الأيمن ثم أمسكت برسغي الأيسر ورسخ جيم الأيمن وجلس ديل على السرج الذي صنعناه ثم رفعناه حتى أمسك بحافة النافذة.

همس جيم: «أسرع. فلن نستطيع أن نتحمل أكثر من ذلك».

أمسك ديل بكتفي وأنزلناه على الأرض.

ـ ماذا رأيتُ؟

ـ لا شيء. ستائر.. ولكن هناك ضوءًا خافتًا يُشِعُّ في مكانٍ ما.

همس جيم:

ـ هيا لنغادر هذا المكان، هيا نعود إلى الخلف مرة أخرى.

وحين أردت الاحتجاج طلب مني أن أغلق فمي.

ـ فلنحاول من النافذة الخلفية.

ـ قلت: لا، يا ديل.

توقف ديل وسمح لجيم أن يسبقنا، وحين وضع جيم قدمه على آخر درجة من السلم أصدرت صوت صرير فوقف صامتًا، ثم حاول أن يجرب ثقله بالتدريج فتوقف الصوت. تجاوز جيم درجتين ثم وضع قدمه

على المدخل الأمامي ورمى بنفسه عليه ثم راح يتأرجح لفترة طويلة. ثم استعاد وزنه ونزل على ركبتيه ورفع رأسه ونظر إلى الداخل.

عندئذ رأيت الخيال؛ ظل رجل يرتدي قبعة. ظننت في البداية أنه شجرة ولكن لا أثر لرياحٍ تهب، كما أن جذوع الشجر لا تمشي. كسى ضوء القمر المدخل الأمامي للمنزل، أما الظل محدد الملامح فإنه فقد عبر المدخل حتى وصل إلى جيم.

رأى ديل الظل فرفع يديه ليخفي وجهه.

وحين مر الخيال بجيم وضع ذراعيه حول رأسه وتجمد في مكانه. توقف الخيال على بعد حوالي قدم وتحرك ذراعه خارجًا من جنبه ثم سقط ولم يتحرك. وبعد ذلك استدار وعاد عابرًا جيم ومشى بعيدًا على امتداد المدخل الأمامي للمنزل وعاد من حيث جاء.

قفز جيم من المدخل الأمامي للمنزل وأسرع نحونا. فتح البوابة ومررني أنا وجيم عبرها ثم دفعنا بين صفين من الخضروات. تعثرت في منتصف الطريق فسمعنا صوت طلقة من بندقية يبدد الصمت المحيط بنا.

قفز جيم وديل إلى جانبي وجاءني صوت جيم وهو يَنشُجْ:

اهربي في اتجاه فناء المدرسة! أسرعي يا سكاوت.

أمسك جيم بالسلك السفلي وتدحرجنا أنا وديل حتى وصلنا إلى منتصف الطريق أمام شجرة البلوط الوحيدة في فناء المدرسة فاكتشفنا أن جيم ليس معنا. عدنا بسرعة إلى الخلف فوجدناه يتصارع مع السلك يرفس «بنطلونه» محاولًا التخلص منه حتى ينجو. ثم جرى نحو شجرة البلوط وهو يرتدي سرواله الداخلي.

وبعد أن اختبأنا وشعرنا بالأمان، استسلمنا لشعور بالخدر غير أن ذهن جيم كان مُتَقدًا فقال: «علينا الذهاب للمنزل. سيفتقدوننا».

عدونا عبر فناء المدرسة وزحفنا من تحت السور حتى وصلنا إلى «مرعى الغزال» (Deer's pasture) خلف منزلنا، وتسلقنا حاجزنا الخلفي. وصلنا إلى السلم الخلفي ثم سمح لنا جيم بالتوقف للراحة.

وحيث إن أنفاسنا قد استقر ترددها في صدورنا، فقد مشينا ـ ثلاثتنا ـ بعدم اكتراث حتى وصلنا إلى الفناء الأمامي. نظرنا في اتجاه الشارع فشاهدنا مجموعة من الجيران متجمعة عند البوابة الأمامية لمنزل عائلة رادلي.

قال جيم:

من الأفضل أن نواصل سيرنا إلى هناك، سيشكون في أمرنا إن لم نفعل.

كان السيد ناثان رادلي واقفًا وراء بوابة منزله وقد حمل بندقية صيد بعد أن فتح ماسورتها فأصبحت معدة لاستقبال مزيد من الطلقات بينما وقف أتيكوس بالقرب من الآنسة مودي والآنسة ستيفاني كروفورد. أما الآنسة راتشيل والسيد آفري فكانا على مقربة من المكان ولم يلحظنا أي منهم ونحن نقترب.

أخذنا موقعنا بجوار الآنسة مودي التي نظرت فيما حولها وقالت:

ـ أين كنتم جميعكم؟ ألم تسمعوا هذه الجلبة؟

سأل جيم:

ـ ماذا حدث؟

ـ أطلق السيد رادلي النار على زنجي في فنائه.

ـ وهل أصابه؟

ـ لا، بل أطلق النار في الهواء وقد أخافه حتى شحب لونه على أية حال وهو يقول إنه إن رأى أي منكم زنجيًا أبيض اللون فذاك هو الشخص المطلوب. وهو يقول أيضًا إن ماسورة البندقية الأخرى تنتظر الصوت التالي الذي سيسمعه في فناء منزله، وإنه في المرة القادمة لن يصوب عاليًا، سواء كان الهدف كلبًا أم زنجيًا أم حتى... جيم فنش!

سألها جيم:

ـ ماذا تعنين يا سيدتي؟

تحدث أتيكوس فقال:

ـ أين «بنطلونك»؟

ـ «بنطلوني» يا سيدي؟

نعم، «بنطلوني».

لم يكن هناك مفر. فقد وقف جيم في سرواله الداخلي على الملأ وأمام الجميع. فتنهدت.

ـ يا سيد فينش؟

ومن خلال الوهج المنبعث من عمود الإنارة استطعت أن أرى ديل وهو يؤلف إحدى كذباته: فاتسعت عيناه واستدار وجهه الملائكي الممتلئ.

سأل أتيكوس:

ـ ما الخبر يا ديل؟

قال ديل بلهجة غامضة:

ـ لقد كسبته.

ـ كسبته؟ كيف؟

هرش ديل في مؤخرة رأسه ثم انتقل بيده إلى الأمام ومسح بها على جبينه.

ـ كنا نلعب لعبة «البوكر» عند بركة السمك.

شعرنا أنا وجيم بالارتياح كما بدا الجيران مقتنعين بكلام ديل إلا أنهم تيبسوا جميعًا. ولكن ما هي لعبة «البوكر»؟

لم يكن هناك مجال لمعرفة أي شيء إذ انفجر صوت الآنسة رايتشيل كصفارة سيارة الإطفاء قائلة «يا للمسيح». ديل هاريس. أتُقَامِر عند بركتي؟

وهنا أنقذ أتيكوس ديل من تقطيع أوصاله في التو واللحظة حين قال:

ـ مهلًا يا آنسة راتشيل. لم أسمع من قبل أنهم يلعبون تلك اللعبة. هل كنتم جميعًا تلعبون؟

دَعَّم جيم أكذوبة ديل فقال بعينين مغمضتين:

ـ لا يا سيدي. كنا نلعب بأعواد الكبريت.

أعجبت بأخي، فأعواد الكبريت خطيرة أما المقامرة بأوراق اللعب فمدمرة.

قال أتيكوس:

ـ يا جيم، أنت وسكاوت، من الآن فصاعدًا لا أريد أن أسمع عن «لعبة البوكر» بأي شكل من الأشكال. جيم، اذهب إلى بيت ديل لتحضر «بنطلونك». أنهيا هذه المسألة فيما بينكما.

قال جيم ونحن نسير فوق الرصيف:

ـ لا تقلق يا ديل. لن تمسك بسوء. سيتحدث إليها ويقنعها بذلك، إنني معجب بسرعة بديهتك يا فتى... اسمع!!.. توقفنا وسمعنا صوت أتيكوس يقول: «... ليس أمرًا خطيرًا... فكلهم يمرون بهذه المرحلة يا آنسة راتشيل...».

أحس ديل بالراحة ولكني وجيم لم نشعر بها فمشكلة ظهور جيم مرتديا بنطلونه المفقود في صباح اليوم التالي ما زالت قائمة.

قال ديل ونحن نقترب من سلم منزل الآنسة راتشيل:

ـ أعطيك «بنطلونًا» من عندي.

قال جيم إن المقاس سيكون صغيرًا، ولكنه يشكره على أية حال. ودعنا ديل ودخل المنزل، وكأنما تذكر على ما يبدو أنه كان خطيبي، فقد عاد فجأة وهو يجري وقبلني بسرعة أمام جيم ثم صاح قائلًا ونحن نبتعد:

ـ ستكتبان لي، هل تسمعان ما أقول؟

غير أننا لم نكن لننعم بالنوم حتى لو كان جيم متدثرًا ببنطلونه في أمن وسلام، فقد بدا لي أن كل صوت من أصوات الليل الصادرة من المساحة الخلفية للمنزل يصل إلى سمعي وأنا في سريري وكأنه يتضخم ثلاثة أضعاف، وكان كل وقع خفيف لقدم على الحصى يوحي بأن بو رادلي قد جاء لينتقم..... كل زنجي يمر وهو يضحك في الليل هو نفسه بو رادلي الذي هرب من منزله وجاء ليعاقبنا..... والحشرات التي تصطدم بالشبك السلكي هي أصابع بو رادلي المجنونة وهي تحاول تحطيمه، كانت أشجار «الشينابري» حية تتأرجح. ترددت بين النوم واليقظة حتى سمعت صوت جيم يهمهم:

ـ نامي يا صغيرة يا ذات العيون الثلاثة؟

ـ هل أنت مجنون؟

ـ اسكتي فنور حجرة أتيكوس لا يزال مطفأً.

وفى نور القمر الشاحب رأيت جيم يهبط من سريره إلى الأرض ويقول:

ـ سأذهب لأحضر «بنطلوني».

جلست في سريري وقلت:

ـ لا يمكن أن تفعل ذلك ولن أسمح لك به.

حاول ارتداء قميصه بصعوبة وقال:

ـ عليَّ أن أفعل ذلك.

ـ إذًا افعل ذلك وسأوقظ أتيكوس.

ـ افعلي ذلك وسأقتلك.

جذبته إلى جانبي في السرير وحاولت إقناعه بالمنطق وقلت:

في الصباح سيجد السيد ناثان «بنطلونك» يا جيم وهو يعرف أنك فقدته. وحين يريه لأتيكوس ستكون النتيجة سيئة جدًا وهذا كل ما في الأمر. عد إلى سريرك.

ـ هذا ما أعرفه، ولهذا السبب سأذهب لإحضاره.

بدأت أشعر بالغثيان. فأنا خائفة من فكرة عودته إلى هناك بمفرده، ثم تذكرت الآنسة ستيفاني: فالسيد ناثان أعد طلقات سلاحه ليطلقها على من يصدر صوتًا في ليلتنا هذه سواء أكان مصدره زنجيًا أم كلبًا... وجيم يعلم ذلك الأمر خيرًا مني.

شعرت باليأس:

ـ يا جيم، لا يستحق الأمر كل هذه المخاَطرة. إن الضرب يؤذي ولكنه لا يدوم. أما البندقية فإنها ستطيح برأسك.. أرجوك.

تنهد جيم بصبر ثم قال:

ـ إنني.. حسنًا يا سكاوت، الأمر وما فيه هو أن أتيكوس لم يضربني من قبل قط، وأريد أن أبقي الأمر كذلك.

ـ إنها فكرة جديرة بالاحترام، إذ يبدو أن أتيكوس كان يهددنا مرارًا وتكرارًا بالضرب.

ـ تعني أنه لم يمسك بك متلبسًا قط.

ـ ربما كان الأمر كذلك، ولكني أريد أن يستمر الأمر على هذا يا سكاوت، ما كان يجب أن نفعل ما فعلناه الليلة.

ففي تلك اللحظة بدأنا أنا وجيم نمضي كل في طريق، فأحيانًا لم أكن أفهمه ولكن كانت هذه فترات قصيرة الأمد. أما هذا الأمر فأكثر مما أستطيع احتماله. رجوته قائلة:

ـ أرجوك، ألا تستطيع التفكير في الموضوع لمدة دقيقة واحدة، تصوَّر نفسك وحيدًا في ذلك المكان.

ـ لا تزيدي كلمة واحدة!

ـ الأمر هنا ليس مسألة مخاصمة والدي لك أو شيئًا من هذا القبيل... سأوقظه يا جيم، أقسم أني...

ـ أمسك جيم بياقة «بيجامتي» وشدها بقوة...

ـ إذن، سأذهب معك.

ـ لن تذهبي معي، ستكونين مصدر إزعاج وحسب.

ـ لم يكن هناك جدوى. فتحت الباب الخارجي وأمسكت به بينما زحف جيم وهو ينزل السلم، فالساعة حوالي الثانية صباحًا، القمر يغْرُب والظلال الشبكية تخبو متحولة إلى ضباب ثم تتلاشى. وبدا ذيل قميص جيم الأبيض وكأنه يتأرجح ويتذبذب كشبح صغير يرقص مبتعدًا لينجو من الصباح المقبل، وهبت نسمة خفيفة فانسابت معها قطرات العرق على جانبي جسدي وقد شعرت ببرودتها.

ذهب جيم من الطريق الخلفي عبر «مرعى الغزال» ثم خلال فناء المدرسة ثم حول السور،كان هذا هو الطريق الذي تصورت أنه سيسلكه.

استغرق هذا الطريق فترة أطول، ولذا لم يكن قد حان موعد القلق بعد. انتظرت حتى حان وقت الشعور بالقلق ورحت أنتظر سماع صوت بندقية السيد رادلي. ثم ظننت أني سمعت صوت السور الخلفي.

ثم سمعت صوت سعال أتيكوس وأمسكت بأنفاسي، ففي بعض الأحيان وعندما كنا نقوم برحلتنا إلى الحمام كنا نجده يقرأ. وقد كان يقول إنه غالبًا ما يستيقظ أثناء الليل ويأتي ليطمئن علينا، ثم يعود للقراءة حتى ينعس مرة أخرى. انتظرت لأرى نور حجرته يضاء وقد أجهدت عيني في انتظار رؤية النور يغمر البهو. ولكن النور لم يُضأ فتنفست الصعداء مرة أخرى.

عادت زواحف الليل إلى أوكارها ولكن ثمار «الشينابري» الناضجة كانت تتساقط على سطح المنزل كلما هبت الرياح وخلفت الظلمة كآبة مصحوبة بنباح الكلاب البعيدة.

وها هو الآن يعود، إذ ظهر قميصه الأبيض من فوق السور الخلفي وببطء بدا أكبر فأكبر. صعد جيم السلالم الخلفية وبدون أي كلام رفع «بنطلونه» وأشار إليه ثم تمدد على سريره وسمعت السرير يهتز لفترة قصيرة ولكن سرعان ما هدأت الحركة ولم أعد أسمعه يهتز مرة أخرى.

الفصل السابع

ظل جيم طوال أسبوع صامتا متوعك المزاج. وقد عملت بما نصحني به أتيكوس ذات مرة فتصورت نفسي محله لأتوغل في دخيلة نفسه..... فكرت في أني لو كنت ذهبت بمفردي إلى منزل عائلة رادلي في الساعة الثانية صباحًا، لكانت جنازتي في عصر اليوم التالي، لذا تركت جيم وشأنه وحاولت ألا أزعجه.

بدأت الدراسة وكان الصف الثاني يماثل الصف الأول سوءًا بل يفوقه في السوء، فلا يزالون يُلَوِّحُون بالبطاقات أمامنا ولا يَدْعُونَنا للقراءة والكتابة. وأصبحنا قادرين على تقييم مدى تقدم الآنسة كارولين في تدريس الصف المجاور بناءً على تكرار الضحكات الصادرة عن التلاميذ. وعلى أية حال فإن الطاقم المعتاد قد رسب في الصف الأول مرة أخرى وهم الآن يساعدون الآنسة كارولين في حفظ النظام. أما أفضل ما في الصف الثاني فهو اضطراري للبقاء في المدرسة لفترة أطول تتيح لي العودة مع جيم، حيث كنا عادة ما نمشي معًا إلى البيت في الساعة الثالثة.

وفي أحد الأيام وبينما كنا نعبر فناء المدرسة في اتجاه البيت، قال جيم فجأة:

ـ هناك شيء لم أخبرك به.

وبما أن هذه كانت أول جملة كاملة له منذ أيام عديدة فقد شجعته قائلة:

ـ بشأن ماذا؟

ـ بشأن تلك الليلة.

ـ لم تحكِ لي أي شيء عن تلك الليلة.

لم يبال جيم بما قلته وهشه بيده كما يهش الذباب عن وجهه. صمت لفترة وجيزة ثم قال:

ـ حين عُدْتُ كان «بنطلوني» مطويًا فوق السور وكأنه ينتظرني لأجلبه.

فوق السور...

وشيء آخر.

قالها جيم بصوتٍ خفيض.

ـ هناك شيء سأريه لك عندما نصل إلى المنزل. لقد خِيطَ ما تمزق في «البنطلون».... لم تكن خياطة متقنة كتلك التي تجيدها السيدات، بل بدت مثلما كنت سأفعل لو قمت بالمهمة بنفسي، رديئة تمامًا مثل...

ـ وكأن شخصًا ما كان يتوقع أنك ستعود لاستعادته.

ارتجف جيم ثم قال:

ـ كأن شخصًا ما يقرأ أفكاري... كأن شخصًا ما استطاع أن يعرف ما كنت سأفعله، ولا يمكن لأي شخص أن يعرف ما سأفعله إلا إذا كان يعرفني.. أليس كذلك يا سكاوت؟

كان سؤال جيم أشبه باستغاثة، ولكني طمأنته قائلة:

ـ لا يمكن لأحد أن يعرف ما ستفعله إلا إذا كان يعيش معك في ذات المنزل، وحتى أنا لا أستطيع أحيانًا أن أعرف ما ستفعله.

مررنا بشجرتنا، وفي الفجوة رأينا كُرةً مكونةً من خيوطٍ رمادية اللون.

قلت:

ـ لا تأخذها يا جيم. فهذا مخبأ لشخصٍ ما.

ـ لا أظن ذلك يا سكاوت.

ـ بل إنه كذلك، يجيء أحدهم، ولنقل إنه وولتر كاننجهام مثلًا، أثناء استراحة الغداء ويخبئ أشياءه هنا... وها نحن نأتي لنأخذها، ما رأيك... لنتركها وننتظر يومين فإن ظلت في مكانها نأخذها، موافق؟

ـ حسنًا، قد تكونين على حق. لا بد أنه مخبأ أحد الأطفال. إنه يخبئ تلك الأشياء خوفًا عليها ممن هم أكبر منه. أنت تعرفين أننا لا نجد هذه الأشياء إلا في فترة الدراسة.

ـ نعم ولكننا لا نمر من هنا في فترة الصيف.

عُدْناَ إلى المنزل وظلت الكرة في مكانها حتى صباح اليوم التالي. وحين وجدناها لا تزال هناك في اليوم الثالث، دَسَّها جيم في جيبه. ومنذ ذلك الحين اعتبرنا كل ما نجده في فجوة الشجرة ملكًا لنا.

بدا الصف الثاني كئيبًا، ولكن جيم أكد لي أن إحساسي تجاه المدرسة سيتحسن كلما تقدمت في العمر، وأنه في البداية كان يشعر مثلما أشعر

الآن، وأن المرء لا يتعلم شيئًا ذا قيمة قبل الوصول إلى الصف السادس. لقد بدا أن الصف السادس أعجبه منذ البداية: فقد شاهدته يمر بـ «فترة فرعونية» حيرتني: إذ حاول أن يسير كأنه صورة مسطحة وقد مد ذراعًا إلى الأمام وآخر إلى الخلف، واضعًا إحدى قدميه وراء الأخرى. وقد صرح لي بأن المصريين القدماء كانوا يمشون بتلك الطريقة. فقلت له إنهم لو كانوا يمشون كذلك فعلًا، فلا أعلم كيف أمكنهم أن ينجزوا أي شيء. ولكن جيم قال إنهم أنجزوا أكثر مما أنجز الأمريكيون، فهم الذين اخترعوا ورق التواليت ومستلزمات التحنيط. وتساءل: كيف كان سيصبح حالنا الآن لولا إنجازاتهم؟ قال لي أتيكوس إنه عليَّ أن أتخلص من استخدام الصفات وعندئذ سأرى الحقائق.

الفصول في ألاباما الجنوبية غير محددة المعالم، فالصيف ينجرف نحو الخريف وأحيانًا لا يتبع الشتاء فصل الخريف بل يتحول إلى ربيع يدوم أيامًا وينصهر لاحقًا متحولًا إلى صيف من جديد. بدا آخر خريف طويلًا ولم يكن باردًا إلى حد ارتداء «الجاكيت». كنا أنا وجيم نسير بخطى سريعة نشطة في طريقنا المعتاد عصر أحد أيام شهر أكتوبر حين أوقفتنا فجوة الشجرة مرة أخرى، في تلك المرة كان بداخلها شيء أبيض اللون.

ترك لي جيم شرف الحصول عليه، فلما جذبت ما بها وجدت تمثالين صغيرين منحوتين من قطعتي صابون، أحدهما يُمثلُ صبيًا والآخر قد ألبس فستانًا بسيطًا.

وقبل أن أتذكر أنه ليس هناك ما يسمى بالسحر ارتفع صوتي بالصراخ وألقيتهما أرضًا.

التقطهما جيم ثم صاح: «ما حكايتك؟» ثم مسح التمثالين ونظفهما من التراب الأحمر، وقال: «إنهما جيدا الصنع، لم يسبق لي أن رأيت تمثالين بهذه الجودة».

أراني جيم التمثالين. كانا لطفلين صغيرين، الصبي يرتدي بنطلونًا قصيرًا وقد سقطت كتلة من الشعر المغطى برغوة الصابون على حاجبيه. نظرت إلى جيم ولاحظت أن هناك خصلة من الشعر الكستنائي لم أكن ألحظها من قبل وقد تَدَلَّتْ من مفرق شعره.

حَوَّلَ جيم نظره من الدمية التي تمثل بنتًا صغيرة إليَّ أنا، فقد كان شعر الدمية مقصوصًا باستقامة فوق الجبين مثل شعري. قال:

ـ هذان يمثلاننا.

ـ ومن تظنه صنعهما؟

ـ مَنْ مِنَ الجيران يعرف كيف يحفر بالسكين؟

ـ السيد آفري.

ـ ليس السيد آفري. أعني من يعرف كيف ينحت تماثيل بالسكين؟

مارس السيد آفري مهنة النحت بالسكين فينحت على قطعة من الحطب مرة كل أسبوع، ويصنع منها أعوادًا خشبية يلوكها بين أسنانه.

قلت:

ـ هناك حبيب الآنسة ستيفاني كروفورد العجوز.

إنه نحات ولكنه يعيش في الريف، ولم أره يهتم بنا في أي وقت من الأوقات.

ربما يجلس في مدخل المنزل الأمامي ليراقبنا بدلًا من أن ينظر إلى الآنسة ستيفاني، لو كنت مكانه لفعلت ذلك.

حَدّق فيَّ جيم طويلًا حتى إني سألته: ما الحكاية؟ ولكنه لم يجبني سوى بـ «لا شيء يا سكاوت». وحين مضينا إلى المنزل وضع جيم الدميتين في صندوقه.

وبعد أقل من أسبوعين وجدنا عبوة كاملة من «اللبان»، وقد استمتعنا بها إذ غابت عن ذاكرة جيم حقيقة أن كل شيء في منزل عائلة رادلي ما هو إلا سمٌّ.

وفي الأسبوع التالي وجدنا في فجوة الشجرة ميدالية باهتة اللون. وقد أراها جيم لأتيكوس الذي قال إنها ميدالية كانت تُمنح قديمًا في مسابقات الإملاء، وإنه قبل أن نولد أقامت مدارس مقاطعة مايكوم تلك المسابقات ومنحت ميداليات للفائزين. قال أتيكوس إن شخصًا ما لا بد أن يكون قد أضاعها. هل سألنا الجيران يا ترى؟ رفسني جيم رفسة قوية أشبه برفسة الجمل حين حاولت أن أقول اسم المكان الذي وجدناها فيه. سأل جيم أتيكوس إن كان يتذكر شخصًا ممن سبق لهم أن فازوا بمثلها فرد أتيكوس بالنفي.

وقد ظهرت أكبر جوائزنا بعد أربعة أيام، وهي عبارة عن ساعة جيب عاطلة ولها سلسلة من الألومنيوم تتدلى منها مطواة.

ـ هل تعتقد أنها مصنوعة من الذهب الأبيض يا جيم؟

ـ لا أعلم. سأريها لأتيكوس.

قال أتيكوس إن الساعة مع السلسلة والمطواة ربما تساوي عشرة دولارات إذا ما كانت جديدة ثم سأل:

ـ هل أجريت مقايضة مع أحد التلاميذ في المدرسة؟

ـ لا يا سيدي.

وأخرج جيم ساعة جده التي سمح له أتيكوس بحملها مرة واحدة في الأسبوع إذا حرص عليها. ففي الأيام التي حمل فيها تلك الساعة، حرص عليها جيم حرصًا شديدًا.

قال جيم:

ـ يا أتيكوس، إذا وافقت فإني أفضل أن أحمل هذه الساعة. ربما أستطيع أن أصلحها.

وحين فقدت ساعة الجد ما سبق أن أدخلته على جيم من بهجة وسرور وأصبح حملها يمثل عبئًا عليه، لم يعد جيم يشعر بضرورة التأكد من الوقت كل خمس دقائق.

ـ وها هو قد بذل جهده، ولم يتبق أمامه سوى عقرب واحد وقطعتين صغيرتين ولكن الساعة لم تَدُرْ. تنهد قائلًا:

ـ لن تدور أبدًا يا سكاوت؟

ـ نعم؟

ـ ألا تعتقدين أن علينا أن نكتب رسالة إلى ذاك الذي يترك لنا كل هذه الأشياء؟

ـ سيكون ذلك رائعًا فعلًا يا جيم، ويمكننا أن نشكره... ما بك يا جيم؟

ـ أمسك جيم بأذنيه، وهز رأسه من جانب إلى آخر وقال:

ـ لا أفهم. لا أستطيع أن أفهم، لا أعرف لماذا يا سكاوت...

ثم نظر باتجاه غرفة المعيشة وقال:

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن أقول لأتيكوس... لا، أعتقد أن عليَّ ألا أفعل ذلك.

ـ سأقول له بالنيابة عنك.

ـ لا، لا تفعلي يا سكاوت. سكاوت؟

ـ نعـ.....م؟

كان على وشك أن يقول لي شيئًا طوال ذلك المساء. يشرق وجهه وينحني تجاهي ثم سرعان ما يغير رأيه. وقد غيَّره الآن مرة أخرى.

ـ حسنًا، لا شيء.

ـ هيا نكتب رسالة.

دفعت بدفتر وقلم رصاص تجاهه ليصبح في متناول يديه.

ـ حسنًا، يا «سيدي العزيز».

ـ كيف تعرف ما إذا كان رجلًا. أراهن أنها الآنسة مودي.

ـ بل إني أراهن على ذلك منذ زمن بعيد.

ـ حسنًا، ولكن الآنسة مودي لا تستطيع أن تمضغ اللبان.

ثم ابتسم جيم واستأنف قائلًا:

ـ أنتِ تعرفين ما تتمتع به، أحيانًا، من قدرة على الحديث الطريف

وقد عرضتُ عليها مرة قطعةً من اللبان ورفضتها شاكرةً مفسرة أنَّ اللبان يلتصق بسقف حلقها فيعوقها عن الكلام. ألا يبدو هذا طريفًا؟

ـ بلى، إن لها أحاديث طريفة أحيانًا، وعلى أية حال فمن المستبعد أن تملك ساعة ذات سلسلة.

قال جيم:

ـ «سيدي العزيز. نُقَدِّرُ... لا... بل نُقَدِّرُ كثيرًا كل ما وضعته في الشجرة من أجلنا. المخلص جدًا، جيريمي أتيكوس فينش».

ـ لن يعرف من أنت إذا وَقَّعْتَ هكذا يا جيم.

محا جيم الاسم وكتب «جيم فينش»ثم وقعتُ باسم «جين لويز فينش» (سكاوت) تحت اسمه. وضع جيم الرسالة في ظرف.

في صباح اليوم التالي، وفي طريقنا إلى المدرسة، سبقني جيم راكضًا وتوقَّف عند الشجرة. وعندما رفع رأسه إلى أعلى نظر إليَّ بوجه شاحب.

ـ يا سكاوت.

عدوتُ نحوه.

ـ سَدَّ أحدُهم فجوةَ الشجرة بالأسمنت.

ـ لا تبكي يا سكاوت. هيا، سكاوت... لا تبكي... هيا، لا تحملي همًا.

هكذا همهم جيم طوال الطريق إلى المدرسة.

وعند عودتنا إلى المنزل لتناول الغداء التهم جيم طعامه بسرعة ثم ركض نحو المدخل الأمامي ووقف عند السلم. تبعته فقال:

ـ لم يمر بعد.

وفي اليوم التالي كرر جيم مراقبته وحصل على بغيته.

قال جيم:

ـ كيف حالك يا سيد ناثان؟

ـ صباح الخير يا جيم وسكاوت.

هذا ما قاله السيد رادلي عند مروره بالقرب من منزلنا. قال جيم:

ـ يا سيد رادلي.

استدار إليه السيد رادلي.

ـ يا سيد رادلي، هل أنت الذي ملأت فجوة تلك الشجرة هناك بالأسمنت؟

ـ نعم، لقد ملأتها.

ـ ولماذا يا سيدي؟

ـ لأن الشجرة تموت، وذلك يتطلب أن تملأ ثقوبها بالأسمنت إن مرضت أو ضعفت. كان الأجدر بك أن تعرف ذلك يا جيم.

لم يقل جيم شيئًا آخر حتى عصر اليوم التالي. وحين مررنا بشجرتنا ربَتَ على الأسمنت وهو مستغرق في التفكير، ثم توقف وغرق في تفكير عميق. بدا عليه أنه يُغرق نفسه في حالة مزاجية سيئة، ولذا آثرت الابتعاد عنه قليلًا.

وكما هي العادة ذهبنا للقاء أتيكوس وهو عائد من عمله ذلك المساء وحين وصلنا إلى سلم منزلنا، قال جيم: «انظر إلى تلك الشجرة هناك يا سيدي من فضلك».

ـ أي شجرة يا بنيَّ؟

ـ تلك التي عند زاوية محيط منزل عائلة رادلي في طريق عودتنا من المدرسة.

ـ نعم؟

ـ هل تعتقد أنها تموت؟

ـ لا يا بني، لا أظن ذلك، انظر إلى الأوراق، كلها خضراء ومكتملة النمو، ولا ترى فيها أي بقع بنية اللون في أي مكان.

ـ إنها ليست حتى ضعيفة.

ـ تلك الشجرة تتمتع بصحة جيدة مثلما تتمتع أنت أيضًا بصحة جيدة. ولكن لماذا تسأل؟

ـ السيد ناثان قال إنها تموت.

ـ ربما يكون كلامه صحيحًا، فهو بالتأكيد يعرف عن أشجاره ما لا نعرفه نحن.

ـ تركنا أتيكوس عند المدخل الأمامي. استند جيم إلى أحد الأعمدة وراح يمسح كتفيه عليه.

ـ هل أنت مصاب بِحَكَّه يا جيم؟

لم يجب عن سؤالي بالرغم من أني طرحته بألطف طريقة ممكنة.

ـ إذن هيا بنا ندخل يا جيم.

ـ فيما بعد.

ظل جيم واقفًا هناك حتى حَلَّ الليل، وقد انتظرتُه، وحين دخل المنزل لاحظت أنَّه كان يبكي، فقد ظهرت علامات أوساخ على وجهه من أثر البكاء، لكن ما شعرت بغرابته هو أنني لم أسمعه وهو يبكي.

الفصل الثامن

لأسباب خَفَتْ على أكثر أبناء مايكوم حِنْكَة، تحول خريف ذلك العام إلى شتاء. فقد مرَّ علينا أسبوعان لم يشهد الإقليم أبرد منهما منذ عام ١٨٨٥ كما قال أتيكوس. قال السيد آفري إنه قد كُتِبَ على «حجر رشيد» أنه حين يعصي الأولاد آباءهم ويدخنون ويتشاجرون فيما بينهم، فإن الفصول تتغير. شعرنا، أنا وجيم، بالذنب لما اقترفناه من آثام تُثْقِل الضمير وأسهمت في نزول تلك التقلبات المناخية ببلدتنا، مما جَلَبَ التعاسة إلى جيراننا وسبب القلق لنا.

ماتت السيدة رادلي العجوز في ذلك الشتاء، ولكن موتها مَرّ دون ضجة تُذْكَر، فقد كان الجيران نادرًا ما يرونها، إلا حين كانت تخرج لتسقي شجيراتها من نوع «الكنا»، وقد رأينا، أنا وجيم، أن «بو» قد نال منها أخيرًا، ولكن حين عاد أتيكوس من منزل عائلة رادلي قال إنها ماتت ميتة طبيعية، مما أصابنا بخيبة أمل.

همس جيم: «اسأليه».

اسأله أنت، فأنت الأكبر.

ـ ولذا يجبُ عليكِ أنتِ أن تسأليه.

قلت:

ـ يا أتيكوس، هل رأيت السيد آرثر.

نظر إليَّ أتيكوس بصرامة من وراء صحيفته وقال:

ـ لم أره.

منعني جيم من الاسترسال في طرح الأسئلة. قال إن أتيكوس لا يزال حساسًا تجاه علاقتنا بعائلة رادلي ولن يكون الإلحاح عليه مثمرًا، وكان يرى أن أتيكوس قد أحس بأن نشاطاتنا في تلك الليلة من الصيف الماضي لم تكن مقتصرة على «لعبة البوكر» فحسب. لم يكن لدى جيم أي أساس قوي لهذه الفكرة، لكنه قال إنه مجرد حَدْس.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت ونظرت من النافذة فكِدْتُ أموت رعبًا، وجلبت صرخاتي أتيكوس من الحمام وقد حَلَقَ نصف ذقنه فقط.

جررت أتيكوس نحو النافذة وأشرت إلى ما أفزعني قائلة:

ـ إنها نهاية العالم يا أتيكوس. أرجوك، افعل شيئًا.

قال:

ـ لا، إنها ليست نهاية العالم، إنها الثلوج تتساقط.

سأله جيم ما إذا كان الثلج سيستمر في التساقط لمدة طويلة. فلم يكن جيم بدوره قد سبق أن رأى الثلج أيضًا، ولكنه كان يعرف ما هو الثلج. قال أتيكوس إن ما يعرفه عن الثلج لا يزيد على ما يعرفه جيم عنه ثم أرْدَف قائلًا:

ـ غير أنني أظنه سيتحول إلى أمطار؛ فهو لا يبدو كثيفًا.

رن جرس التليفون وغادر أتيكوس مائدة الإفطار ليجيب عليه.

وعندما عاد إلينا قال:

ـ كانت تلك «يو لا ماي» (Eula May) وقد قالت: «حيث إن الثلج لم يسقط في مقاطعة مايكوم منذ عام ١٨٨٥، فستعطل الدراسة اليوم».

كانت يو لا ماي هي عاملة التليفونات الأكثر أهمية في مايكوم، وكان يُوكَلُ إليها مسئولية إصدار الإعلانات العامة ودعوات الزفاف، وإطلاق صفارة إنذار الحريق، وإعطاء تعليمات الإسعاف الأوّلية في حالة غياب الدكتور رينولدز (Dr. Reynolds).

وأخيرًا، أمرنا أتيكوس بالتزام الأدب وأن ننظر إلى أطباقنا بدلًا من النوافذ، عندئذ سأله جيم:

ـ كيف تصنع تمثال «رجل الثلج»؟

ـ ليس لدي أي فكرة ولا أريدكما أن تشعرا بخيبة أمل، ولكني أشك في أنه لن يكون هناك ثلج كافٍ لصنع ولا حتى كُرَة من الثلج.

دخلت كالبورنيا وقالت إن الأرض قد غطاها الجليد، وحين عدونا إلى الفناء الخلفي وجدناه وقد غطته طبقة هشة من الجليد.

قال جيم:

ـ يجب ألا نمشي فوقه. انظري، كل خطوة تمشينها تضيع جزءًا منه.

نظرت خلفي حيث آثار خطواتي التي مزجت تراب الفناء بالجليد الهش. قال جيم إننا إن انتظرنا حتى يسقط المزيد من الثلج فسوف

نستطيع أن «نكشطه» كله لنصنع رجل ثلج. أخرجت لساني والتقطت قشرة كبيرة منها، فشعرت بحرارة.

ـ إنها ساخنة يا جيم.

ـ لا، ليست ساخنة، ولكنها باردة جدًا إلى حد أنها تحرق. لا تأكليها يا سكاوت. أنت تضيعينها دون جدوى، اتركيها.

ـ ولكني أريد أن أمشي على الجليد.

ـ عندي الحل، سنذهب لنمشي في فناء الآنسة مودي.

قفز جيم على قدم واحدة عبر الفناء الأمامي، وقد تبعت آثاره. وحين وصلنا إلى الممر الجانبي أمام منزل الآنسة مودي، بادرنا السيد آفري بالكلام، كان وجهه زهري اللون، وبطنه المنتفخة تتدلى أسفل حزامه.

قال:

ـ هل تريان ما فعلتماه؟ لم يسبق أن سقط الثلج على مايكوم منذ معركة «أبوماتوكس»[1] (Appomattox). فالأطفال الأشرار من أمثالكما هم السبب في تغيير طبيعة الفصول.

وقد شُغلت بما إذا كان السيد آفري يعرف كم كنا ننتظر بفروغ الصبر أن يعيد استعراضه الذي شاهدناه في الصيف الماضي ولكن دون جدوى، وجال بخاطري أن ما أصابنا من خيبة أمل يَعُد، بلا شك، دليلًا على فداحة ما ارتكبنا من خطايا. لم أشغل نفسي بالسؤال عن المصدر

(١) معركة «أبوماتوكس» هي آخر المعارك التي دارت خلال الحرب الأهلية الأمريكية (المترجمة).

الذي كان السيد آفري يعتمد عليه في جمع إحصاءاته المناخية، فقد كان «حجر رشيد» هو مصدره الأوحد.

ـ يا جيم فينش، أنت يا جيم فينش.

ـ الآنسة مودي تناديك يا جيم.

ـ ابقيا كلاكما في وسط الفناء. هناك نبتة مزدهرة مدفونة تحت الثلج بالقرب من المدخل الأمامي. لا تخطوا عليها.

صاح جيم:

ـ سمعًا وطاعة يا سيدتي. الطقس جميل، أليس كذلك يا آنسة مودي؟

ـ وما الجمال في ذلك؟ إذا اشتدت البرودة لدرجة التجمد فستقضي على كل أشجاري من الأزاليا.

لمعت حبات الثلج البللورية على القبعة القديمة التي اعتادت الآنسة مودي أن تتقي بها حرارة الشمس، وقد انصرفت إلى الانحناء على الشجيرات الصغيرة ولفها في أكياس من خيش سألها جيم عن سبب قيامها بذلك.

قالت:

ـ ذلك كي تبقى دافئة.

ـ كيف يمكن للأزهار أن تبقى دافئة؟ فليس لها دورة دموية.

ـ ليس في إمكاني الإجابة عن هذا السؤال يا جيم فينش. كل ما أعرفه هو أنه إذا اشتد البرد الليلة فستتجمد هذه النباتات، ولذا عليَّ أن أغطيها. هل هذا واضح؟

ـ نعم يا سيدتي. يا آنسة مودي؟

ـ ماذا يا سيدي؟

ـ هل يمكن لنا، أنا وسكاوت، أن نأخذ بعض الثلج؟

ـ يا للسماء! خذاه كله، هناك سلة عتيقة بأسفل المنزل، انقلا الثلج فيها.

وفجأة ضاقت عينا الآنسة مودي وقالت:

ـ يا جيم فينش، ما الذي ستفعلانه بالثلج؟

قال جيم:

ـ سترين.

نقلنا أكبر قدر من الثلج من فناء الآنسة مودي إلى فنائنا، وكانت تلك عملية مُوحِلَة.

سألت:

ـ ما الذي سنفعله يا جيم.

قال:

ـ سترين. والآن أحضري السلة واحملي كل الثلج الذي يمكنك حمله من الفناء الخلفي إلى الأمامي وعليك أن تمشي فوق آثار خطواتك.

ـ هل سيكون لدينا طفل مصنوع من الثلج.

ـ لا، بل رجل ثلج حقيقي، وعلينا أن نعمل بجد.

ركض جيم نحو الفناء الخلفي وعاد بفأسِ الحديقة وبدأ يحفر بسرعة خلف كومة الحطب ويُنَحِي الديدان التي يجدها جانبًا، ثم دخل البيت وعاد حاملًا سلة الغسيل وملأها بالتراب وحملها إلى الفناء الأمامي.

وحين أصبح لدينا خمس سلال من التراب وسلتان من الثلج قال جيم إننا مستعدون للبدء في العمل.

سألته:

ـ ألا تعتقد أن ذلك يتصف بنوع من «اللخبطة»؟

ـ إنه قد يبدو كذلك الآن، ولكنه لن يكون كذلك فيما بعد.

غرف جيم ملء ذراعيه من التراب وراح يكدس فوقها أكوامًا أخرى ويرتبها حتى أتم بناء جذع التمثال.

قلت له:

ـ يا جيم، لم يسبق لي أن سمعت برجل ثلج زنجي.

ـ لن يستمر على ذلك طويلًا.

أحضر جيم بعضًا من فروع شجرة الخوخ من الفناء الخلفي ثم ضَفَّرها ولوَاها على شكل عظام وغطاها بالتراب.

قلت:

ـ يبدو وكأنه يشبه الآنسة ستيفاني كروفورد ويداها على أردافها: بدينة عند المنتصف وذراعاها صغيران.

ـ سأجعلهما أكبر.

رش جيم الماء على الرجل الطيني وأضاف المزيد من التراب. حَدّق بعمق في التمثال ثم كَوَّن له بطنًا ممتلئة متدلية تحت خصره.

نظر إليَّ جيم وعيناه تومضان وقال:

ـ إن السيد آفري يشبه رجل الثلج، أليس كذلك؟

غرف جيم بعض الثلج وبدأ يلصقه فوق التمثال. وقد سمح لي بتغطية الظهر فقط، وانفرد بوضع الملامح الأمامية وحده، وتحول السيد آفري تدريجيًا من اللون المُتْرِبْ إلى اللون الأبيض.

نجح جيم في تصوير السيد آفري عندما يكون غاضبًا وذلك باستخدام قطع من الحطب للعيون والأنف والفم والأزرار، بالإضافة إلى عيدان من حطب المدفأة الذي أكمل الصورة. خطا جيم خطوة للخلف وراح يتأمل ما أبدعه.

قلت:

ـ إنه جميل يا جيم، ويبدو وكأنه يرغب في الحديث معك.

قال بخجل:

ـ أجل جميل، أليس كذلك؟

لم نستطع الانتظار حتى يعود أتيكوس إلى المنزل ليتناول طعام الغداء، بل اتصلنا به وقلنا له إن لدينا مفاجأة كبرى. وقد بدا مندهشًا عندما رأى معظم الفناء الخلفي منقولًا في الفناء الأمامي ولكنه قال إننا أتقنّا عملنا، قال أتيكوس:

لم أكن أعرف كيف ستتصرفان، ولكن من الآن فصاعدًا لن أقلق عليك، يا بني، ستهتدي دائمًا إلى أفكار جيدة.

احمرّت أذنا جيم من مديح أتيكوس له، ولكنه رفع رأسه منتبهًا حين رأى أتيكوس يتراجع للخلف، حدّق أتيكوس قليلًا في رجل الثلج، ثم ابتسم وضحك.

ـ يا بني لا أستطيع أن أعرف ما ستكونه: مهندسًا أو محاميًا، أو رسام «بورتريهات». لقد اقترفت عن عمد تشهيرًا علنيا في الفناء الأمامي. يجب أن نُخْفي مَلامِح هذا الشخص.

اقترح أتيكوس أن يخفف جيم من حجم بطن التمثال الممتلئة ويبدل خشب المدفأة بمكنسة وأن يضع عليه أيضًا «مريلة » مطبخ. قال جيم إنه لو فعل ذلك، سيصبح رجل الثلج موحلًا بلا هوية.

لا يهمني ما ستفعله ما دمت ستفعل شيئًا ما لتغيير شكله. لا يمكنك أن تستمر في صنع صور كاريكاتورية لجيراننا.

قال جيم:

ـ إن هذا التمثال ليس صورة كار..يكا..تو..رية، بل يبدو مطابقًا له تمامًا.

ـ قد لا يشاركك السيد آفري الرأي نفسه.

قال جيم: أعرف ما سأفعل.

جرى جيم مسرعًا عبر الشارع حتى اختفى في الفناء الخلفي للسيدة مودي ثم عاد مزهوًا بالانتصار فوضع قبعتها الشمسية على رأس رجل الثلج كما أسند مقص الحديقة على جانب ذراع التمثال، قال أتيكوس إن الأمر أصبح مقبولًا الآن.

فتحت الآنسة مودي الباب الأمامي وخرجت إلى المدخل الأمامي ثم نظرت عبر الشارع نحونا وفجأة ابتسمت ثم صاحت:

يا جيم فينش. أيها الشيطان. أعِدْ إليّ قبعتي.

نظر جيم إلى أتيكوس الذي هز رأسه قائلًا:

ـ إنَّها «تخلق من الحبة قبة». ولكنها حقيقة معجبة بإنجازاتك.

سار أتيكوس نحو الممر الجانبي لمنزل السيدة مودي وهناك انهمكا في حديث تخللته تلويحات بالأذرع، ولم ألتقط منه سوى عبارة واحدة:... «لقد نصبا تمثالًا في الفناء، يا أتيكوس، لن تكون قادرًا على تربيتهما».

توقف سقوط الثلج بعد الظهر وانخفضت درجة الحرارة، ومع حلول الليل صَدَقَتْ أسوأ تنبؤات السيد آفري: فقد حرصت كالبورنيا على أن تبقي كل مدفأة بمنزلنا متقدة بالنيران، ولكننا بالرغم من ذلك كنا نشعر بالبرد. وحين عاد أتيكوس للمنزل هذا المساء قال إننا يجب أن نتوقع الأسوأ. وسأل كالبورنيا إن كانت ترغب في البقاء معنا تلك الليلة. رفعت كالبورنيا نظرها إلى أعلى نحو السقف العالي والنوافذ الكبيرة وقالت إنها تظن أن شعورها بالدفء سيزيد إن كانت في بيتها؛ فأوصلها أتيكوس بسيارته إلى منزلها.

وقبل أن أنام وضع أتيكوس مزيدًا من الفحم في مدفأة غرفتي. قال إن درجة الحرارة سجلت ١٦ درجة «فهرنهايت» وإنها أبرد ليلة يتذكرها، وأن رجل الثلج لا بد وأن يكون قد تجمد وأصبح متماسكًا.

بعد دقائق، كما بدا لي، أيقظني شخص ما وهو يهزني. فمعطف أتيكوس كان يغطيني.

ـ هل أتى الصباح حقًا؟

ـ انهضي يا طفلتي.

ـ حمل أتيكوس روب حمامي ومعطفي. قال:

ـ ارتدي الروب أولًا.

وقف جيم بالقرب من أتيكوس مترنحًا نعِسًا وقد ارتدى معطفه المغلق عند العنق وكانت يده الأخرى مندسة في جيبه. بدت هيئته عجيبة وكأنه أضاف إلى وزنه الكثير.

ـ أسرعي يا حبيبتي. ها هو حذاؤك وجوربك.

ارتديتهما بغباء، وقلت:

ـ هل جاء الصباح؟

ـ لا، إن الساعة قد تجاوزت الواحدة بقليل. أسرعي. أخيرًا فهمت أن شيئًا ما على غير ما يرام.

لم يكن بحاجة حينها لأن يشرح لي الأمر، فمثلما تُدْرِك الطيور وِجْهَتَها حين يهطل المطر، كنت أدرك دائما ما يدور حين يقع ما ينذر بالخطر في شارعنا، فقد ترامت إلى سمعي أصوات ناعمة حريرية، وأصوات عدوٍ مكتومة ملأتني برعب يشوبه العجز.

ـ منزل من هذا؟

قال أتيكوس بلطف:

ـ منزل الآنسة مودي يا حبيبتي.

من موقعنا أمام باب منزلنا كنا نرى ألسنة اللهب تتطاير من نوافذ غرفة الطعام في منزل الآنسة مودي. وتأكيدًا لما رأينا، اخترق أسماعنا دوي سيارات الإطفاء وقد ارتفع إلى حده الأقصى دونما توقف.

قال جيم وهو يَئِنُ:

ـ لقد احترق المنزل، أليس كذلك؟

قال أتيكوس:

ـ أتوقع ذلك. والآن أصغيا إليّ. اذهبا وقفا أمام منزل عائلة رادلي. لا تعترضا طريق الناس، هل سمعتما؟ أترياني في أي اتجاه تهب الرياح؟

قال جيم:

ـ آه، يا أتيكوس، أتعتقد أنه يجب أن نبدأ في نقل الأثاث إلى الخارج؟

ـ ليس بعد يا بني. نفذا الآن ما أقوله لكما. اجريا الآن. لتكن سكاوت موضع رعايتك، هل تسمع يا جيم؟ لا تدعها تبعد عن نظرك.

وبدَفْعة منه وضعنا أتيكوس على أول الطريق إلى البوابة الأمامية لمنزل عائلة رادلي. وقفنا نراقب الشارع وهو يمتلئ بالرجال والسيارات بينما راحت النار تلتهم في صمت منزل الآنسة مودي.

همس جيم:

ـ لماذا لا يسرعون؟ لماذا لا يسرعون؟

وما لبثنا أن أدركنا السبب وراء تأخرهم، فقد ظهر حشد من الرجال وهم يدفعون سيارة الإطفاء المتهالكة التي أنهكتها شدة البرودة، وما أن ثَبَّتَ رجال الإطفاء الخرطوم بمضخة المياه حتى انفجر الخرطوم فاندفعت منه المياه بشدة وأغرقت الرصيف.

ـ يا إلهي.. يا جيم...

ضمني جيم إليه وقال:

ـ اسكتي يا سكاوت. لم يحن وقت القلق بعد. سأقول لك متى يحين ذلك.

أسرع رجال مايكوم ـ وقد ارتدوا القليل أو الكثير من الملابس كلٌّ كما اتفق له ـ إلى إخراج أثاث الآنسة مودي إلى الفناء المقابل في الجهة الأخرى من الشارع. ورأيت أتيكوس يحمل كرسي الآنسة مودي الهزاز الثقيل المصنوع من خشب البلوط. بَدَتْ لي حكمةَ أتيكوس بإنقاذ ما تعتبره الآنسة مودي أثمن ما تملك.

أحيانا كنا نسمع صُراخًا ثم يظهر وجه السيد آفري من النافذة العلوية. فيدفع «بمرتبة» من النافذة إلى الشارع ثم يرمي بالأثاث حتى صاح الرجال: «انزل من هناك يا «ديك». السلالم تحترق. اخرج من هناك يا سيد آفري».

شرع السيد آفري في الهبوط من النافذة.

قال جيم لاهثًا:

ـ سكاوت، لقد انحشر.. يا إلهي...!

كان السيد آفري معلقًا لا يستطيع حراكًا، دفنت وجهي تحت ذراع جيم ولم أعاود النظر حتى صاح جيم:

ـ لقد نجا يا سكاوت. إنه بخير.

نظرت لأرى السيد آفري يعبر مدخل الدور العلوي. لف ساقيه حول

بعضهما وراح ينزلق على عمود حين زلقت إحدى قدميه فجأة فسقط ثم صرخ ووقع فوق شجيرات الآنسة مودي.

وفجأة لاحظت أن الرجال أخذوا يتراجعون عن منزل الآنسة مودي ليتوجهوا نحونا. فقد توقفوا عن حمل الأثاث إذ صعدت النيران إلى الطابق الثاني حتى وصلت إلى السقف؛ كانت إطارات النوافذ سوداء ذات خلفية برتقالية حادة.

ـ يا جيم، إنها تبدو كالقَرْع.

ـ انظري يا سكاوت.

تصاعد الدخان وهو يلتف حول منزلنا ومنزل الآنسة راتشيل كالضباب المتصاعد من ضفة نهرٍ، وكان الرجال يَجُرُّونَ الخراطيم باتجاههما. وعَلَتْ أصوات سيارة الإطفاء القادمة من «أبوتسفيل» وهي تدور في المنعطف حتى توقفت عند منزلنا.

قلت: «ذاك الكتاب»....

قال جيم: «ماذا»؟

ـ كتاب «توم سويفت» ليس كتابي. إنه يخص «ديل».

ـ لا تقلقي يا سكاوت. لم يحن وقت القلق بعد.

ثم أشار بيده قائلًا:

ـ انظري هناك.

وقف أتيكوس بين مجموعة من الجيران ويداه في جيبي معطفه. بدا وكأنه يشاهد مباراة كرة قدم وإلى القرب منه وقفت الآنسة مودي.

قال جيم:

ـ ألا ترين، إنه ليس قلقًا بعد.

ـ لماذا لا يقف على أسطح أحد المنازل؟

ـ إنه عجوز ومعرض للسقوط ودَقّ عنقه.

ـ هل تظن أن علينا تنبيهه إلى إخراج حاجياتنا من المنزل؟

ـ علينا ألا نزعجه، سيعرف كيف يتصرف في الوقت المناسب.

بدأت عربة مطافئ «أبوتسفيل» في ضخ الماء على منزلنا، وكان هناك رجل يقف على السطح وأخذ يشير إلى الأماكن التي كانت تحتاج إلى الماء أكثر من غيرها. راقبت تمثالنا الثلجي يتحول إلى اللون الأسود ثم يتداعى، واستقرت قبعة الآنسة مودي فوق الرُكام ولم أستطع أن أرى مقص النباتات، وبلغت شدة حرارة النيران فيما بين منزلنا ومنزل الآنسة راتشيل ومنزل الآنسة مودي مبلغًا دفع الرجال إلى التخلص من معاطفهم بل مما عليهم من أرواب الحمام، صاروا يعملون الآن وهم يرتدون بيجاماتهم وملابس نومهم التي «حشروها» في «بنطلوناتهم». ولكنني أدركت أنني كنت أكاد أتجمد شيئًا فشيئًا حيث أقف. حاول جيم أن يشعرني بالدفء ولكن ذارعه لم تكن كافية. تحررت منها وأمسكت بكتفيّ، ثم رحت أرقص قليلًا فشعرت بوجود قدمي.

ظهرت عربة إطفاء أخرى وتوقفت أمام منزل الآنسة ستيفاني كروفورد. لم تكن هناك مضخة مياه لتشغيل خرطوم إضافي، فحاول الرجال أن يغمروا منزلها بالماء عن طريق طفايات الحريق اليدوية.

خفف سقف منزل الآنسة مودي المصنوع من الصفيح من حدة

اللهب ثم تهاوى المنزل واندفعت النيران في كل مكان وراح الرجال يهاجمونها بالبطانيات من على أسطح المنازل المجاورة وهم يدوسون على شرارات النيران وقطع الخشب المحترقة.

حَلَّ الفجر وشرع الرجال في العودة إلى منازلهم، فُرَادى ثم في مجموعات، وأخذوا يدفعون عربة مطافئ مايكوم عائدين بها إلى البلدة، كما مضت عربة مطافئ «أبوتسفيل»وبقيت العربة الثالثة. وقد علمنا في اليوم التالي أنها وصلت من بلدة «كلاركس فيرى» (Clark's Ferry) التي تبعد عن بلدتنا حوالي ستين ميلًا.

مشينا، أنا وجيم، عبر الشارع ببطء كمن يزحف. حَدَّقَتْ الآنسة مودي في الحفرة السوداء المدخنة في فنائها، وهز أتيكوس رأسه ليقول لنا إنها لا تريد أن تتكلم، ثم قادنا إلى المنزل وهو يمسك بأكتافنا لنعبر الشارع الذي غطاه الجليد، وأخبرنا أن الآنسة مودي ستمكث مع الآنسة ستيفاني في الوقت الحاضر.

سألنا قائلًا:

ـ هل يريد أحدٌ منكما أن يشرب الشوكولاته الساخنة؟

سرت في جسمي رعدة حين أشعل أتيكوس النار في موقد المطبخ. وبينما كنا نحتسي مشروب «الكاكاو» لاحظت أن أتيكوس كان ينظر إليّ بفضول في بادئ الأمر سرعان ما تحول لتجهُّم.

قال:

ـ أعتقد أني قلت لكِ ولجيم أن تبقيا في مكانكما.

ـ لقد بقينا في مكاننا.

ـ إذًا بطانية من هذه؟

ـ بطانية؟

ـ نعم يا آنستي، بطانية، وهي ليست لنا.

نظرت فوجدت نفسي ممسكة ببطانية بنية اللون مصنوعة من الصوف كنت أضعها حول كتفي كما تفعل نساء الهنود الحمر.

ـ أتيكوس، لا أعرف يا سيدي..... إني...

استدرت ناحية جيم باحثة عن إجابة، ولكن جيم كان أكثر حيرة مني. قال إنه لم يعرف من أين جاءت البطانية، فقد فعلنا ما طلبه منا أتيكوس، ووقفنا عند بوابة منزل عائلة رادلي بعيدًا عن الجميع، ولم نتحرك بوصة واحدة من مكاننا. ثم توقف جيم عن الحديث ليستأنف قائلًا وهو يهذي:

ـ السيد ناثان كان بجوار النيران... لقد رأيته... كان يجر تلك «المرتبة»... أتيكوس... أقسم لك...

ـ حسنا يا بني. يبدو أن كل من في بلدة مايكوم كانوا هناك الليلة بطريقة أو بأخرى. يا جيم أعتقد أن هناك بعض ورق اللف في حجرة الخزين. اذهب وأحضره وسوف...

أتيكوس، لا يا سيدي...

بدا جيم وكأنه فقد صوابه ثم بدأ يفشي أسرارنا ذات اليمين وذات اليسار دون أن يضع سلامتي أو حتى سلامته في الاعتبار، ودون أن يحذف أي شيء، لا فجوة جذع الشجرة ولا البنطلون ولا أي شيء آخر.

لقد وضع السيد ناثان الأسمنت في تلك الشجرة حتى لا نعود ونجد شيئًا فيها. أظنه مجنونًا غير أنني أقسم بالله أنه لم يؤذنا قط، كما أنه لم يسئ إلينا. كان باستطاعته أن يذبحني ذبحًا ولكنه بدلًا من ذلك حاول أن يصلح بنطلوني.. لم يضايقنا قط يا أتيكوس.

قال أتيكوس بلطف شديد حتى إنني شعرت بالارتياح:

ـ لا تعبأ يا بني.

كان من الواضح أنه لم يتابع أي كلمة مما قاله جيم، فقد كان كل ما قاله:

ـ أنت على حق. من الأفضل أن نحتفظ بذلك وبالبطانية لأنفسنا. ربما ستشكره سكاوت في يوم من الأيام على حمايتها من البرد.

سألت:

ـ أشكر من؟

بو رادلي. كنتِ مشغولة بمتابعة الحريق فلم تلاحظي أنه وضع البطانية فوق كتفيك.

شعرت باضطراب شديد في معدتي وكدت أتقيأ حين أمسك جيم بالبطانية واقترب مني ببطء. «لقد تسلل خارجًا من منزله ـ ثم استدار ـ وتسلل مرة أخرى ووضع البطانية على كتفيك هكذا».

قال أتيكوس بلهجة جافة:

ـ لا تجعل هذا يدفعك لتستزيد من المجد يا جيريمي.

قطَّب جيم جبينه وقال:

ـ لن أفعل له شيئًا بعد الآن.

ولكني لاحظت وجود شرارة المغامرة تلمع في عينيه. ثم أردف قائلًا:

ـ تصوري يا سكاوت لو أنك استدرت في تلك اللحظة لكنت قد شاهدتِه.

أيقظتنا كالبورنيا وقت الظهيرة. وقال أتيكوس إنه لا ضرورة لذهابنا إلى المدرسة في ذلك اليوم فلن نستوعب أي شيء بدون نوم. وقالت لنا كالبورنيا إن علينا أن نحاول تنظيف الفناء الأمامي.

كانت قبعة للآنسة مودي معلقة على طبقة رقيقة من الجليد وكأنها فراشة محفوظة في كهرمان، وكان علينا أن نحفر في التراب بحثا عن مقص نباتاتها. وقد وجدنا الآنسة مودي في فناء منزلها الخلفي، تحدق في شجيرات الأزاليا المتفحمة.

قال جيم:

ـ سنحضر لك ممتلكاتك يا آنسة مودي. نحن آسفان جدًا.

نظرت الآنسة مودي من حولها ورأينا ظل ابتسامتها المعتادة فوق وجهها:

ـ كنت دائما أتمنى لو كان لدي منزل أصغر يا جيم فينش، فذاك يضمن لي مساحة لفناء أوسع. سيكون هناك مجال أكبر لنمو شجيرات الأزاليا الآن.

سألتها في اندهاش:

ـ ألست حزينة يا آنسة مودي؟

قال أتيكوس لنا إن منزلها هو كل ما تملكه تقريبًا.

ـ حزينة يا طفلتي؟ عجبًا. كنت أكره حظيرة البقر هذه. لقد فكرت أنا نفسي في إحراقه مئات المرات، لولا خوفي من أن يحبسوني.

ولكن...

ـ لا تقلقي عليّ يا چان لويز فينش. هناك وسائل يمكن للشخص أن ينجز بواسطتها أمورًا ما كان يعرف سابقًا كيف يتصرف تجاهها. حسنًا، سأبني لنفسي منزلًا صغيرًا وأؤجر غرفة أو غرفتين منه، ثم سيكون عندي أجمل فناء في ألاباما. إن نباتات «البيلينجراث» (Bellingraths) ستبدو هزيلة مقارنة بما سأعده حين أبدأ من جديد.

تبادلت النظرات مع جيم، ثم سألها هو:

ـ وكيف بدأ الحريق يا آنسة مودي؟

ـ لا أعرف يا جيم. ربما من مدخنة المطبخ. لقد تركتُ النار مشتعلة في أصص النبات. لقد عَلِمتُ أنه كان لديكِ صحبة غير متوقعة أمس يا آنسة چان لويز.

ـ وممن سمعت ذلك؟

ـ أتيكوس حكى لي وهو في طريقه إلى البلدة هذا الصباح. هل أقول لك الحقيقة، كنت أتمنى لو كنت معك. ولو كنت معك لكنت قد انتبهت والتفت إلى الخلف.

ـ لقد حيرتني الآنسة مودي. فبالرغم من أن معظم ممتلكاتها قد

احترقت وها هو الفناء المفضل لديها وقد تحول إلى خراب، فإنها تبدي اهتمامًا بشئوننا وتعبر عن ودها لنا.

ـ لا بد وأنها قد لاحظت حيرتي فقالت:

ـ لم يقلقني ليلة أمس سوى ما تسبب فيه الحريق من فوضى وخطر، كان من الممكن أن يحترق الحي بأكمله. أما السيد آفري فسيبقى في الفراش لمدة أسبوع كامل: لقد تحول إلى حطام. فقد حذرته من أن سِنه لا تسمح له بالخوض في تلك الأشياء. وحين أفرغ من عملي وتكون ستيفاني كروفورد منشغلة عني، فسأخبز لها كعكة خاصة. فمنذ ثلاثين عامًا وستيفاني تحاول الحصول على الوصفة التي أستعملها، وإذا كانت تظن أني سأعطيها تلك الوصفة لمجرد أنني سأسكن في منزلها فهي لا شك مخطئة.

خطر ببالي أن الآنسة مودي حتى لو تراجعت وأعطتها الوصفة، فإن الآنسة ستيفاني لن تستطيع تطبيقها على أية حال. لقد سمحت لي الآنسة مودي بمشاهدتها وهي تجهز الكعكة وأعرف أن فنجانًا كبيرًا من السكر هو أحد مكوناتها.

كان النهار ساكنًا والطقس باردًا وصافيًا حتى إننا كنا نسمع صوت ساعة دار المحكمة وهي تصدر نغماتها قبل أن تدق معلنة تمام الساعة. كان لون أنف الآنسة مودي غريبًا لم يسبق لي أن رأيته من قبل، وقد سألتها فقالت:

ـ أنا خارج المنزل منذ الساعة السادسة. لا بد أنني قد تجمدت.

ثم رفعت يديها فرأيت شبكة من الخطوط الصغيرة تتقاطع وتتشابك في راحتيها، وكانت ذات لون بني من أثر التراب والدم الممتزجين.

قال جيم:

ـ لقد أتلفت يديك. لماذا لا تستعينين برجل ملون؟ أو ربما بنا، أنا وسكاوت؟ يمكننا مساعدتك.

ولم يكن في صوته ما يدل على إحساس صادق بالتضحية حين تفوّه بالعبارة الأخيرة.

قالت الآنسة مودي:

ـ شكرًا يا سيدي، ولكن لديك عملًا هناك.

ثم أشارت إلى فنائنا.

سألت:

ـ هل تعنين التمثال؟ يمكننا تسويته في لحظة.

حدقت فيّ الآنسة مودي وشفتاها تتحركان في صمت، وفجأة رفعت يديها إلى رأسها وشهقت. وحين غادرناها كانت لا تزال تضحك ضحكات خافتة.

قال جيم إنه لا يعرف ما حل بها. إلا أنها كانت الآنسة مودي بعينها.

الفصل التاسع

«اسحب ما قلته الآن يا فتى!»

كان هذا الأمر الذي أصدرته إلى سيسيل جاكوبز (Cecil Jacobs) بداية فترة عصيبة مرت بنا، أنا وجيم. كانت قبضتا يديّ مُطبقتَين وكنت على استعداد لإطلاقهما. كان أتيكوس قد توعدني بالضرب المبرِّح إذا نما إلى علمه أني تشاجرت مع أي شخص مرة أخرى. قال إني بلغت من العمر والحجم مبلغًا لا يصح معه أن أتورط في مثل هذه الأفعال الطفولية، كما قال إن الناس من حولي سيسعدون كثيرًا عندما أبادر في أقرب فرصة بالتحكم في أعصابي وردود أفعالي غير أني لم ألبث أن نسيت ما قاله.

جعلني سيسيل جاكوبز أنسى، فقد أعلنَ في فناء المدرسة في اليوم السابق أن والد سكاوت فينش يدافع عن الزنوج. أنكرتُ ذلك ولكني حكيت لجيم وسألتُه:

ـ ماذا يعني بذلك؟

ـ لا شيء. اسألي أتيكوس وسيخبرك.

سألت أتيكوس ذلك المساء:

ـ هل تدافع عن الزنوج يا أتيكوس؟

ـ طبعًا. ولا تقولي «زنجي» يا سكاوت، فهذا لفظ غير مهذب.

ـ ولكن كل من في المدرسة يرددونها.

ـ من الآن فصاعدا سيرددها الجميع، عدا أنت.

ـ حسنًا، ما دمت لا ترغب في أن أنشأ على تَعَلُّم مثل هذه الألفاظ فلماذا ترسلني إلى المدرسة؟

نظر إليّ أبي بنعومة والإعجاب في عينيه. ورغم الحل الوسط الذي توصلنا إليه، استمرت الحملة التي قمت بها للتهرب من الذهاب للمدرسة على نحو أو آخر منذ أول جرعة مدرسية تلقيتها في اليوم الأول من الدراسة؛ كانت بداية شهر سبتمبر الماضي قد شهدت مني إغماءات ودوخة وشكاوى هضمية خفيفة ثم تماديت إلى درجة أني دفعت خمسة سنتات كي أحك رأسي برأس ابن طباخة الآنسة راتشيل الذي كان مُصَابًا بمرض جلدى رغم أن العدوى لم تصبني. فقد كنت أفكر في شيء آخر.

ـ هل يدافع المحامون جميعا عن الـزنـ... السود يا أتيكوس؟

ـ طبعا يا سكاوت.

ـ إذًا لماذا قال سيسيل إنك تدافع عن الزنوج؟ لقد جعل الأمر يبدو وكأنك تقوم بعمل سري حسن التنظيم.

تنهّد أتيكوس قائلًا:

ـ ببساطة أنا أدافع عن رجل أسود، اسمه توم روبنسون يعيش في تلك

المستوطنة الصغيرة وراء مقلب نفايات البلدة، وهو يصلي في الكنيسة التي ترتادها كالبورنيا، وهي تعرف عائلته معرفة جيدة وتقول إنها عائلة حسنة السمعة. يا سكاوت لستِ كبيرة بالقدر الذي يؤهلك لفهم بعض الأمور، ولكن أهل البلدة يتناقلون حديثًا يريدون من ورائه ألا أبذل جهدًا كبيرًا في الدفاع عن هذا الرجل. هذه قضية غريبة، ولن تعرض على المحكمة قبل الدورة الصيفية، وقد أبدى جون تايلور (John Taylor) من الكرم ما دعاه لتأجيل القضية.

ـ ولكن، لماذا تدافع عنه ما دام الناس يرون أنه لا يجدر بك ذلك؟

ـ لعدة أسباب، السبب الرئيسي هو أنني إن لم أتول الدفاع عنه فلن أمشي في البلدة مرفُوع الرأس، ولن أكون قادرًا على تمثيل بلدتي في برلمان الولاية، كما أنني لن أستطيع أن أكون أبًا حازمًا لكِ ولجيم.

ـ هل تعني أنك إذا لم تدافع عن ذلك الرجل فلن يكون علينا لا أنا ولا جيم أن نسمع كلامك بعد الآن؟

ـ هذا صحيح.

ـ لماذا؟

ـ لأنني لن أستطيع أن أطلب منكما ثانيةً أن تلتزما بما أقوله لكما يا سكاوت. ببساطة يا ابنتي، الأمر يتعلق بطبيعة عمل المحامي؛ فالمحامي يصادف في حياته قضية واحدة ـ على الأقل ـ تترك أثرها في حياته الخاصة، وهذه هي قضيتي على ما أعتقد. قد تسمعين بعض الكلام السيء حول هذا الموضوع في المدرسة، ولكن أرجو أن تفعلي شيئًا واحدًا من أجلي إذا أردت: ما عليك سوى أن ترفعي رأسك.. لا

قبضتك عاليًا، ومهما قيل فلا تتيحي لأحد الفرصة لإخراجك عن شعورك، حاولي استخدام عقلك في القتال، على سبيل التغيير.. فعقلك مستنير حتى وإن قاوم التعلم.

ـ أتيكوس، هل سنكسبها؟

ـ كلا يا عزيزتي.

ـ إذن لماذا...

ـ لا تعني هزيمتنا وقد مضى عليها مائة عام أن نتخلى عن السعي للانتصار.

قلت له: «إنك تذكرني يا بن العم آيك فينش» (Ike Finch).

كان ابن العم آيك فينش هو الوحيد المتبقي على قيد الحياة من المحاربين القدماء من الجيش الكونفدرالي[1]، وقد اعتاد أن يتباهى بلحيته التي كان يشذبها لتبدو مثل لحية «الجنرال هود»[2]. كنا نزوره أنا وجيم وأتيكوس مرة على الأقل كل عام، وكنت مضطرة لتقبيله. وكنا، أنا وجيم، نصغي باحترام إلى أتيكوس وابن العم آيك وهما يستعيدان أحداث الحرب. فيقول ابن العم آيك:

أقول لك يا أتيكوس إن «تسوية ميزوري»[3] هي التي وجهت إلينا

---

(١) الجيش الكونفدرالي هو جيش ولايات الجنوب الذي حارب ضد جيش ولايات الشمال في الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ـ ١٨٦٥) (المترجمة).

(٢) الجنرال جون بل هود (John Bell Hood) (١٨٣١ ـ ١٨٧٩) من قادة الجيش الجنوبي المعروف باستبساله في القتال. (المترجمة).

(٣) تسوية ميزوري (Missouri Compromise) هي المعاهدة التي أقرها الكونجرس الأمريكي سنة ١٨٢٠ لوضع حد لسلسلة من الأزمات المتعلقة بالتوسع في تجارة العبيد إلى مناطق في غربي الولايات المتحدة (المترجمة).

الضربة القاضية، ولكن لو اضطررت إلى خوض التجربة مرة أخرى لسِرتُ في إثر كل خطوة خطوتها من قبل وزيادة عليها كنا سنمحوهم هذه المرة... في عام ١٨٦٤ حين جاء ستونوول جاكسون[١] (Stonewall Jackson).. معذرة يا شباب، ففي تلك الأيام كان «أولد بلو لايت» قد رحل عن عالمنا.. طيَّب الله ثراه.

قال أتيكوس:

ـ تعالي يا سكاوت.

مثلما يحبو الطفل توجهت إلى حجر أتيكوس ودفنت رأسي تحت ذقنه، طوقني بذارعيه وجعل يهدهدني بلطف ثم قال:

ـ هذه المرة الأمر مختلف. فنحن لا نحارب «اليانكيز» (Yankees)[٢] بل نحارب أصدقاءنا، ولكن ضعي في اعتبارك أنه مهما كانت الأمور مريرة فهؤلاء لا يزالون أصدقاءنا وهذا لا يزال وطننا.

•

كان ما قاله أتيكوس يدور برأسي عندما واجهت سيسيل جاكوبز في فناء المدرسة في اليوم التالي، قلت:

---

(١) ستونوول جاكسون (Stonewall Jackson) (١٨٢٤ ـ ١٨٦٣) هو جنرال كونفدرالي مشهـور بانتصاراته المتعددة على الشماليين. تسبب روبرت لي (Robert E. Lee)، القائد الكونفدرالي الأشهر، في إصابته خطأً في معركة تشانسلورسفيل (Battle of Chancellorsville) في ٢ مايو ١٨٦٣ غير أنه توفي بعد ثمانية أيام إثر إصابته بالتهاب رئوي وكان ستوونول جاكسون يعرف باسم «أولد بلو لايت» (Ol' Blue Light) (المترجمة).

(٢) الاسم الذي يطلق على الشماليين من مواطني الولايات المتحدة الأمريكية (المترجمة).

ـ عليك أن تسحب كلامك يا فتى وإلا؟

صاح قائلًا:

ـ يجب أن تجبريني على ذلك. يقول الناس إن أباكِ عارٌ على بلدتنا وإن ذلك الزنجي يجب أن يشنق معلقًا على خزان المياه.

صوَّبت قبضتي تجاهه ثم تذكرت ما قاله لي أتيكوس فأرخيت قبضتي وابتعدت وأنا أسمع عبارة «سكاوت جبانة» وهي ترن في أذني. فكانت تلك أول مرة أتراجع فيها عن مشاجرة.

شعرت على نحو ما أنني لو كنت تشاجرت مع سيسيل لخذلت أتيكوس، فنادرًا ما كان يطلب أتيكوس مني ومن جيم أن نفعل شيئًا من أجله، ولذا كنت مستعدة أن أُتَّهَم بالجبن من أجله. انتابني شعور طاغٍ بالنبلِ لأني تذكرت ما وعدت أتيكوس به، وظل ذلك الشعور يلازمني لثلاثة أسابيع. ثم جاءت أعياد الميلاد وحلَّت الكارثة.

كانت مشاعري أنا وجيم تجاه أعياد الميلاد مختلطة، فالجانب الحسن منها هو شجرة الميلاد والعم جاك فينش، ففي مساء عيد الميلاد من كل عام كنا نقابل العم جاك عند مفترق مايكوم ليقضي أسبوعًا كاملًا معنا.

أما الجانب الآخر من العمل فقد أسفر عن الملامح الجامدة لكل من العمة ألكسندرا وفرانسيس.

أعتقد أنه كان يجب أن أضيف إلى القائمة العم جيمي (Jimmy) وزوج العمة ألكسندرا، ولكن بما أنه لم يسبق له أن خاطبني مرة طوال حياتي إلا ليقول لي «انزلي من على السور»، فإني لا أرى سببًا يدعوني

إلى الانتباه إلى وجوده. وكذلك كانت الحال مع العمة ألكسندرا بالنسبة لزوجها، فمنذ فترة طويلة، وحين تفجر إحساس بالمودة، «أنتج»العم جيمي والعمة ألكسندرا ابنًا أسمياه هنري، وقد ترك المنزل عندما بلغ السن المناسبة لذلك ثم تزوج وأنجب فرانسيس. كان هنري وزوجته يتركان ابنهما فرانسيس عند جديه في كل عيد ميلاد حتى يتفرغا للتمتع بمسراتهما الخاصة.

لم يكن بوسعنا، أنا وجيم، أن نصدر من التوسلات ما يقنع أتيكوس بأن يتركنا نقضي يوم عيد الميلاد في المنزل؛ فكنا نقضي عيد الميلاد من كل عام، حسب ما تعيه ذاكرتي، في فنشز لاندنج، وكانت مهارة عمتي في الطهو خير تعويض عن اضطراري إلى قضاء عطلة دينية مع فرانسيس هانكوك (Francis Hancock) فقد كان يكبرني بعامٍ ويكره كل الألعاب البريئة التي أحبها.

والعمة ألكسندرا هي أخت أتيكوس، وحين حكى لي جيم عن الأطفال الذين يُسْتَبْدَلون سرًا بغيرهم تأكدت من أنها لا بد أن تكون قد استبدلت عند ولادتها، وأن جديَّ ربما حصلا على طفلة من عائلة كروفورد بدلًا من طفلتهما الحقيقية. ولو طافت بذهني تلك الصور الخيالية عن الجبال والتي تستحوذ على عقول المحامين والقضاة، لشبهت العمة ألكسندرا بجبل إفرست: فخلال طفولتي كلها اتَّصف إحساسها بالتبلد التام.

حين قفز العم جاك من القطار يوم عيد الميلاد، كان علينا انتظار الحَمَّال ليسلمه لفافتين طويلتين. وكنا أنا وجيم نرى في تقبيل أتيكوس للعم جاك على خده أمرًا يثير الضحك؛ فهما الشخصان الوحيدان اللذان رأيناهما يقبِّل أحدهما الآخر. صافح العم جاك جيم وأرجحني عاليًا،

ولكن ليس عاليًا بما فيه الكفاية: فالعم جاك أقصر من أتيكوس فهو أصغر الأبناء سنًا وأصغر من العمة ألكسندرا. وهما يتشابهان كثيرًا، غير أن العم جاك نجح في إخفاء عيوب وجهه: فلم نكن نلحظ حِدَة أنفه وذقنه.

وكان العم جاك واحدًا من العلماء القلائل الذين لم يرهبوني قط، وربما كان ذلك لأنه لم يكن يتصرف باعتباره طبيبًا؛ فعندما كان يمارس واجبه المهني في أمور بسيطة تخصني أنا وجيم، مثل: إزالة شظية صغيرة من القدم، كان يَحكي لنا بالضبط ما سيفعله، ويعطينا تقديرًا عن مدى الألم الذي سنشعر به، ويشرح لنا كيفية استخدام أي أداة سيستعملها. وفى أحد أعياد الميلاد رُحْتُ أتوارى عند الزاوية لأستخرج شظية صغيرة ملتوية دخلت في قدمي، ولم أسمح لأحد بأن يقترب مني. ولما أمسك بي العم جاك أضحكني ضحكًا متواصلًا بحكاية عن واعظ كان يكره الذهاب إلى الكنيسة حتى إنه كان يقف عند باب بيته وهو يرتدي «الروب»، يدخن النارجيلة ويلقي مواعظ دينية لمدة خمس دقائق إلى أي عابر سبيل يَتُوقُ إلى السعادة الروحية، لكنني قاطعت العم جاك لأعرف منه متى سيخرج الشظية من قدمي، فرفع أمامي شظية دامية وقد أمسكها بملقاط وقال إنه انتزعها بينما كنت أضحك، وكان ذلك ما يُعرف بالنسبية.

سألته وأنا أشير إلى اللفافات النحيلة والطويلة التي أعطاها له الحَمَّالْ:

ـ ماذا في تلك اللفافات؟

ـ لا شيء يهمك.

ـ كيف حال روز آلمير (Rose Aylmer).

ورو ز آلمير هي قطة العم جاك، وهي قطة جميلة صفراء اللون يقول عنها العم جاك إنها واحدة من إناث قليلات استطاع احتمالهن بصفة دائمة. ثم أدخل يده في جيب معطفه وأخرج بعض الصور الفوتوغرافية التي أعجبنا بها.

قلت:

ـ لقد أصبحت سمينة.

ـ أعتقد ذلك، فهي تأكل بواقي الطعام في المستشفى.

قلت:

ـ هذه قطة لعينة.

ـ ما هذا الذي قلته؟

قال أتيكوس:

ـ لا تشغل بالك بها يا جاك، إنها تحاول اختبارك. تقول «كال»إنها أصبحت تسب وتلعن بطلاقة منذ أسبوع.

رفع العم جاك حاجبيه ولم يقل شيئًا.

كنت أسلك مسلكًا يقوم على نظرية تقول إنه ما إن يكتشف أتيكوس أنني تعلمت تلك الألفاظ من المدرسة فسيمنعني من الذهاب إليها، وإن كنت لا أنكر الجاذبية الخاصة لألفاظ الشتم والسب.

وعندما طلبت من العم جاك في ذلك المساء أن يمرر لي لحم الخنزير «اللعين»، أشار إليَّ مهددًا وقال: «سأراك فيما بعد يا فتاتي الصغيرة».

وحين انتهى العشاء، ذهب العم جاك إلى غرفة المعيشة وجلس هناك. ثم ضرب على فخذيه ليستدعيني للجلوس في حجره، كنت أحب رائحته التي تشبه زجاجة الخمر الممتزجة بشيء حلو المذاق. دفع بخصلة جبيني بعيدًا عن عيني ونظر إليّ وقال:

ـ أنت تشبهين أتيكوس أكثر مما تشبهين أمك، كما أن بنطلونك أصبح ضيقًا عليك.

ـ أعتقد أنه مقاسي تمامًا.

ـ تفضلين الآن كلمات مثل «ملعون» و«يا للجحيم»، أليس كذلك؟

قلت إني أظن ذلك.

ـ وأنا لا أفضل ذلك ما لم أدفع لاستخدامها دفعًا لأني أشعر بغضب شديد. سأبقى هنا لمدة أسبوع، ولا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام طوال هذه المدة يا سكاوت، ستتعرضين للمشاكل إذا تلفظت بهذه الألفاظ. كما أنَّك لا بد ترغبين في أن تصبحي سيدة مجتمعات راقية عندما تكبرين، أليس كذلك؟

قلت له إنني لا أرغب في ذلك على نحو خاص.

ـ طبعًا، ترغبين في ذلك. والآن هيا بنا نذهب إلى الشجرة.

عملنا في تزيين شجرة الميلاد حتى حان وقت النوم، وفي تلك الليلة حلمت باللفافتين الطويلتين اللتين أحضرهما لنا العم جاك. وفي صباح اليوم التالي اندفعنا نحوهما لنكتشف أنهما من أتيكوس الذي كتب للعم جاك ليحضرهما معه من أجلنا، وكانتا ما طلبناه بالتحديد.

ـ لا تصوباهما في البيت.

قالها أتيكوس حين صوب جيم بندقيته إلى صورة معلقة على الحائط. قال العم جاك:

ـ عليك أن تعلمهما التصويب.

قال أتيكوس:

ـ هذه مهمتك، أما أنا فقد خضعت للقدر فحسب.

نجح أتيكوس في إبعادنا عن الشجرة حين ارتفع صوته بالنغمة التي يترافع بها في قاعات المحاكم، وقد وافق على أن نصطحب بندقيتينا اللتين تعملان بضغط الهواء إلى «فينشز لاندنج». (كان قد سبق لي أن فكرت في تصويب بندقيتي تجاه فرانسيس) وقال إننا إذا ارتكبنا خطأً واحدًا فسوف يأخذ منا البندقيتين ولن يعيدهما لنا بعد ذلك أبدًا.

تكوَّنت «فينشز لاندنج» من ثلاثمائة وست وستين درجة تنحدر من أعلى لتنتهي في محطة للسفن عند النهر، وإلى مسافة أبعد في اتجاه النهر كانت هناك بقايا محطة قديمة لتحميل القطن، حيث كان الزنوج من عبيد عائلة فينش يحملون لفافات ويفرغون قوالب الثلج والدقيق والسكر ومعدات الزراعة والملابس النسائية. كان هناك طريق ذو اتجاهين يبدأ من حافة النهر ثم يختفي بين الأشجار الكثيفة، وفي نهايته منزل أبيض مكوَّن من طابقين تمتد حولهما عدة مداخل على شكل دائري، وقد شيَّده جدنا سيمون فنش عندما تقدم به العمر إرضاءً لزوجته التي لم تَكُف يومًا عن الإلحاح عليه، ولكن الشبه القائم بين ذلك المنزل والمنازل الشائعة في ذلك العصر يبدأ وينتهي بتلك المداخل، أما التفاصيل الداخلية لمنزل

عائلة فينش فتدل على سذاجة سيمون والثقة المطلقة التي وضعها في نسله.

ففي الطابق العلوي ست غرف للنوم، أربع منها خُصِصَتْ لبناته الثماني والخامسة لابنه الوحيد، ولكم فنش (Welcome Finch) والسادسة للزائرين من الأقارب. فالتقسيم بسيط، ولكن لا يمكن الوصول إلى غرف نوم البنات إلا عبر سلم واحد، بينما يتعذر الوصول إلى غرفة نوم الابن والغرفة الأخرى إلا عن طريق سلم آخر، فسلم غرف نوم البنات يبدأ عند غرفة نوم الأبوين التي كانت في الطابق السفلي، وهكذا تمكن سيمون من متابعة التحركات الليلية لبناته.

أما المطبخ فمنفصل عن باقي المنزل ويتصل به عن طريق ممر خشبي ضيق. وفى الفناء الخلفي جرس عَلاه الصدأ معلق على عمود كان يستعمل لاستدعاء العاملين في الحقل أي كإشارة حالات الخطر. كما ضم المنزل ما يطلق عليه «ممشى الأرملة»، ولكن لم تكن هناك أية أرامل تتمشى فيه. ولكن سيمون كان يَرْقُبْ منه ناظر المزرعة والزوارق النهرية ويُمعِن النظر في حياة المُلاك المجاورين.

دارت حول المنزل أسطورة «اليانكيز» حيث كان يقال إن إحدى نساء عائلة فنش، المخطوبة حديثًا، قد ارتدت كامل جهاز عرسها لإنقاذه من سطو لصوص الغزاة الموجودين في الجوار، وقد انحشرت في الباب (لكثرة ما ارتدته) ولكن سرعان ما جاءتها النجدة عندما صُبَّ الماء عليها صَبًّا. حين وصلنا إلى «فينشز لاندنج»، قبَّلت العمة ألكسندرا العم جاك وقبَّلَ فرانسيس العم جاك، كما صافح العم جيمي العم جاك في صمت وأعطينا إلى فرانسيس هدايانا وأعطانا هو أيضًا بدوره هدية. وانجذب

جيم نحو الكبار لشعوره أنه شب عن الطوق، ليتركني مع ابن عمي أحاول تسليته ومجاذبته أطراف الحديث، وبالرغم من أن فرانسيس لم يتعد الثامنة من عمره فقد كان يسرح شعره إلى الخلف.

سألت فرانسيس بأدب:

ـ ما الهدية التي حصلت عليها في عيد الميلاد؟

ـ ما طلبته بالضبط.

طلب فرانسيس بنطلونًا قصيرًا (يصل حتى الركبة)، وحقيبة كتب من الجلد الأحمر، وخمسة قمصان ورابطة عنق غير مربوطة. كذبت عليه قائلة:

ـ هذا جميل. أنا وجيم حصلنا على بندقيتين تعملان بضغط الهواء كما حصل جيم على مجموعة أدوات كيميائية.

ـ أظنها لعبة للأطفال.

ـ لا، بل هي مجموعة حقيقية، وقد قال لي جيم إنه سيصنع لي حبرًا غير مرئي سوف أكتب به رسالة إلى «ديل».

وسأل فرانسيس عن جدوى كتابة رسالة بحبر غير مرئي.

قلت:

ـ ألا تستطيع أن تتخيل وجهه وهو يتلقى رسالة فارغة مني؟ هذا سيجعله يُجَن.

يراودني إحساس بالغرق ببطء إلى أسفل المحيط كلما تحادثت مع فرانسيس، فهو أكثر الأطفال إثارة للملل في نفسي. وبما أنه كان يعيش

في مدينة «موبيل» فإنه لم يستطع أن يَشِي بي لإدارة المدرسة بل كان ينقل كل شيء يعرفه إلى العمة ألكسندرا التي قامت بالتالي بإخبار أتيكوس بكل ما سمعته. وكان أتيكوس بدوره إما ينسى ما سمع وإما يوقع بي أشد العقاب، أي حسب مزاجه. كانت المرة الوحيدة التي رأيت فيها أتيكوس محتدًا في حديثه مع الآخرين حين قال للعمة ألكسندرا:

ـ أختاه، أنا أفعل كل ما بوسعي لتربيتهما.

وكانت هذه الملاحظة تتعلق بارتدائي «الأفرول» باستمرار.

كانت للعمة ألكسندرا آراء متشددة فيما يخص الملابس التي أرتديها. فما كان هناك بارقة أمل في أن أكون سيدة محترمة ما دمت أرتدي بنطلونًا، وحين شرحت أن الفستان لا يمنحني حرية القيام بأى عمل، قالت إنه لم يكن من المفترض أن أقوم بأعمال تتطلب ارتداء البنطلون. وقد شمل تصور العمة لما يجب أن أكون عليه من سلوك مهذب حين اللعب، اللعب بالأفران وأطقم الشاي الصغيرة وارتداء عقد من اللؤلؤ كانت قد أهدته لي حين مولدي. بالإضافة إلى ذلك، كان يجب عليَّ أن أكون بمثابة الشمس الساطعة في حياة أبي التي تتسم بالوحدة. وما إن عبرت عما رأيته من قدرتي على أن أكون تلك الشمس الساطعة وأنا أرتدي البنطلون أيضًا، حتى بادرتني العمة ألكسندرا بقولها إن الشخص يجب أن يتصرف وكأنه شعاع شمس يبعث الدفء، وإنني وُلِدتُ بمزايا طيبة ولكني أزداد سوءًا كل عام. جرحت العمة ألكسندرا مشاعري وجعلتني أعض على أسناني من الغيظ، ولكني حين سألت أتيكوس عن الأمر قال إن في العائلة ما يكفيها من أشعة الشمس وإنه يمكنني الاستمرار فيما أنا عليه فهذا لا يضايقه.

وعندما حان موعد عشاء عيد الميلاد، جلست على المنضدة الصغيرة في غرفة الطعام وجلس جيم وفرانسيس مع الكبار، فقد استمرت عمتي في عَزْلي بعيدًا لفترة طويلة بعد تأهب جيم وفرانسيس للجلوس إلى المنضدة الكبيرة. وغالبًا ما كنت أتساءل عما كانت تظنني فاعلة؟ فهل كانت تعتقد أني سأقف وأبدأ في إلقاء ما حولي من أشياء؟ في بعض الأحيان كنت أفكر أن أطلب منها السماح لي بالجلوس إلى منضدة الكبار مرة واحدة وسوف أثبت لها كم أنا متحضرة، وعلى أية حال فأنا أتناول الطعام كل يوم في المنزل مع الكبار دون أن أتسبب في أية كوارث كبرى. وحين رجَوتُ أتيكوس أن يتوسط في الأمر، قال إنه ليس له تأثير حيث إننا ضيوف، فالمفروض أن نجلس حيث تريدنا أن نجلس، كما قال إن العمة ألكسندرا لا تملك القدرة على فهم البنات لأنها لم ترزق بهن.

غير أن مهارتها في الطهو عوضتني عن كل شيء، فعشاء عيد الميلاد المتواضع تضمن: ثلاثة أنواع من اللحوم، وخضروات صيفية كانت محفوظة في حجرة الخزين، ومخلل مصنوع من الخوخ، ونوعين من الكعك. بعده ذهب الكبار إلى غرفة المعيشة وجلسوا في حالة من الخمول الناتج عن التخمة. استلقى جيم على الأرض وذهبت أنا إلى الفناء الخلفي. قال لي أتيكوس بلهجة حالمة: «ارتدي معطفك» ولكنني لم أستمع إليه.

جلس فرانسيس بالقرب مني على السلم الخلفي. فقلت له:

ـ لم أتناول عشاءً أفضل من عشاء الليلة من قبل.

ـ جدتي طباخة ماهرة. ستعلمني الطهو.

ضحكت وأنا أتخيل جيم يرتدي مريلة مطبخ وقلت:

ـ الصبية لا يطبخون.

ـ ولكن جدتي تقول إن على الرجال جميعًا أن يتعلموا الطهو وأن على الرجال أن يكونوا حريصين على زوجاتهم ويجب عليهم رعايتهن إذا لم يَكُنَّ في حالة صحية جيدة.

قلت:

ـ لا أريد أن يخدمني ديل، فالأفضل أن أرعاه أنا.

ـ ديل؟

ـ نعم. لا تقل لأحد شيئا عن هذا الموضوع، لكننا سنتزوج عندما نكبر فقد تقدم إليّ في الصيف الماضي.

صَفَّرَ فرانسيس متعجبًا.

قلت:

ـ وما الذي يعيبه؟ لا شيء.

ـ هل تتحدثين عن القزم الصغير الذي قالت جدتي إنه يقضي فترة الصيف مع الآنسة راتشيل؟

ـ هو بالضبط من أعنيه.

قال فرانسيس:

ـ أعرف عنه كل شيء.

ـ وماذا تعرف عنه؟

ـ تقول جدتي إنه لا بيت له.

ـ إن له بيتًا. فهو يعيش في بلدة «ميريديان».

ـ إنه ينتقل من منزل أحد الأقارب إلى منزل آخر طوال الوقت، والآنسة راتشيل تستضيفه كل صيف.

ـ يا فرانسيس، ليست الأمور كذلك.

ابتسم فرانسيس.

ـ تكونين أحيانًا شديدة الغباء يا چان لويز، وأظنك غير قادرة على تقدير الأمور تقديرًا سليمًا.

ـ ماذا تعني؟

ـ إذا سمح لك العم أتيكوس بالتجول مع الكلاب الشاردة، فذاك شأنه كما تقول جدتي، ولذا فإن الخطأ ليس خطأك. أظن أنك لا شأن لك بأن العم أتيكوس محبٌ للزنوج، ولكن واجبي أن أخبرك بأن ذلك مُهين لبقية أفراد العائلة.

ـ فرانسيس، ما الذي تعنيه؟

ـ أعني ما قلت بالضبط. تقول جدتي إنه يكفي أن والدكما يترككما تفعلان ما تشاءان، ولكن بعد أن أصبح من محبي الزنوج فلن نستطيع أن نسير في شوارع مايكوم بعد الآن، إنه يدمر العائلة، هذا ما يفعله.

نهض فرانسيس وعبر بسرعة الممر الضيق المتجه إلى المطبخ. ومن مسافة آمنة صاح قائلًا: «ما هو إلا محب للزنوج».

زمجرت قائلة:

إنه ليس كذلك. لا أعرف ما الذي تتحدث عنه، ولكن من الأفضل لك أن تَكُفْ عن هذا الحديث حالًا.

قفزت على السلم وعبرت الممر الضيق بسرعة وكان من السهل الإمساك بخناق فرانسيس. أمرته أن يتراجع عما قاله وبسرعة. هرب فرانسيس من قبضتي وأسرع نحو المطبخ ثم صاح:

ـ محبٌ للزنوج.

ـ أعرف أنه من الأفضل أن يتمهل المرء عندما يتعقب الفريسة. لا تقل شيئًا، وبكل تأكيد سيستثار فضولها وستظهر من مخبئها. ظهر فرانسيس عند باب المطبخ وسأل بتردد:

ـ أما زلت غاضبة؟

ـ لا، ليس بقدر يُذْكَر.

خرج فرانسيس في اتجاه الممر الضيق.

ـ عليك أن تتراجع عما قلت يا فرانسيس.

أسرعت في الحركة فاندفع فرانسيس عائدًا إلى المطبخ فتراجعت نحو السلم، كان بإمكاني الصبر والانتظار. كنت قد جلست هناك لمدة خمس دقائق حين سمعت صوت العمة ألكسندرا:

ـ أين فرانسيس؟

ـ إنه هناك في المطبخ.

ـ إنه يعلم أنه من المفترض ألا يلعب هناك.

جاء فرانسيس إلى الباب وصاح:

ـ يا جدتي، إنها تحاصرني هنا ولا تريد أن تتركني.

ـ ما كل هذا يا چان لويز؟

نظرتُ إلى العمة ألكسندرا وقلت لها:

ـ لم أحبسه هناك يا عمتي ولم أمسك به.

صاح فرانسيس:

ـ بل هي تحاصرني ولا تدعني أخرج.

ـ هل كنتما تتشاجران؟

ـ لقد غضبت مني چان لويز يا جدتي.

ـ اخرج يا فرانسيس من هناك، وأنتِ يا چان لويز لو سمعت منك كلمة أخرى فسأشكوك لأبيك. ثم.. هل صحيح ما سمعته من قولك «يا للجحيم» منذ قليل؟

ـ لا.

ـ ظننت أني سمعتك تقولين ذلك. الأفضل ألا أسمعك تقولينها أبدًا مرة أخرى.

كانت العمة ألكسندرا من النوع الذي يتنصت من وراء الأبواب. خرج فرانسيس مرفوع الرأس مبتسمًا ما إن ابتعدت العمة ألكسندرا ثم قال:

ـ إياك أن تعبثي معي.

قفز نحو الفناء وأبقى على مسافة بيننا. راح يرفس الحشيش ويستدير

نحوي بين الحين والآخر ويبتسم لي. ظهر جيم عند المدخل الأمامي ونظر إلينا ثم مضى في طريقه. تسلق فرانسيس شجرة الميموسا ثم هبط ووضع يديه في جيبيه وسار ببطء حول الفناء. ثم قال ساخرًا: «ها...» سألته من يا ترى يعتقد نفسه، العم جاك؟ قال فرانسيس إنه يعتقد أني أمرت بأن أجلس في مكاني وأن أتركه وشأنه.

قلت:

ـ أنا لا أزعجك.

نظر إليّ فرانسيس بإمعان واستنتج أني قد هدأت ثم تمتم قائلًا: «محب للزنوج».

وفي هذه المرة سددت قبضتي اليسرى في لكمة قوية في اتجاه أسنانه الأمامية، ثم أتبعت لكمتي الأولى بلكمات من يميني بعد أن كَلّت يسراي غير أن الوقت لم يسعفني إذ كان العم جاك قد وصل وثبت ذراعي إلى جانبي وقال: «كفاكِ».

أولت العمة ألكسندرا كل العناية لفرانسيس، فمسحت دموعه بمنديلها وربتت على شعره وخده. وعندما وصل أتيكوس وجيم والعم جيمي إلى الفناء الخلفي بدأ فرانسيس في الصياح:

ـ قال العم جاك:

ـ من بدأ الشجار؟

أشار فرانسيس وأنا ـ كل منا إلى الآخر ـ ثم صاح هو:

ـ يا جدتي، لقد سبتني بلفظة «عاهرة» ثم انقضّت عليّ.

سألني العم جاك:

ـ هل هذا صحيح يا سكاوت؟

ـ أعتقد ذلك.

حين نظر إليّ العم جاك باحتقار بدت ملامحه أشبه بملامح العمة ألكسندرا. قال:

ـ إنني حذرتك من أنك ستُدْخِلين نفسك في المشاكل إذا استخدمت مثل هذه الكلمات، أليس كذلك؟

ـ بلى يا سيدي، ولكن...

ـ حسنا، أنت متورطة في المشاكل الآن. ابقِ في مكانك.

ترددت ما بين البقاء في مكاني أو الجري، وقد توانيت بسبب هذا التردد عن الانطلاق فما كان من العم جاك إلا أن أمسك بي عندما قررت الهرب. وفجأة وجدت نفسي أنظر إلى نملة صغيرة تتصارع مع كسرة خبز في العشب.

ـ لن أتكلم معك أبدًا ما بقيتُ على قيد الحياة. أكرهك وأحتقرك وأتمنى أن تموت غدًا.

جاء ما قلته مشجعًا للعم جاك على مواصلة ما بدأه، جريت نحو أتيكوس لأشعر بالطمأنينة فقال إني تخطيت حدودي وأن الوقت قد حان للعودة إلى المنزل. صعدت إلى المقعد الخلفي للسيارة دون أن أودع أحدًا وعند وصولي للمنزل أسرعت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي بعنف. حاول جيم أن يقول شيئًا لطيفًا، ولكنني لم أعطه الفرصة.

وحين أجريت مسحًا للخسائر لاحظت وجود سبع أو ثماني علامات حمراء فقط، وحينما كنت أفكر في النظرية «النسبية»سمعت طرقًا على الباب. سألت من الطارق فأجاب إنه العم جاك.

ـ ابتعد من هنا.

حذرني العم جاك من أنه سيضربني مرة أخرى إذا ما تكلمت بنفس هذه الطريقة ولذا صَمتُ. وحين دخل الغرفة تراجعت نحو إحدى الزوايا وأدرت له ظهري. قال:

ـ سكاوت، أما زلت تكرهينني؟

ـ أُكمْل من فضلك يا سيدي.

ـ لم أكن أتصور أنك ستتحاملين عليّ. لقد خاب ظني بك... لقد تخطيت حدودك وأنت تعرفين ذلك.

ـ ولا أنا أيضًا.

ـ يا عزيزتي، لا يمكنك أن تتركي لنفسك حرية مناداة الناس بتلك الأسماء.

ـ لستَ عادلًا... لستَ عادلًا.

ـ لستُ عادلًا... ماذا تعنين؟

ـ أنت لطيف حقًا يا عم جاك، وأظن أني أحبك حتى بعد ما فعلته بي، ولكنك لا تفهم الأطفال جيدًا.

وضع العم جاك يديه على أردافه ونظر إليّ من أعلى وقال:

ـ ولماذا لا أفهم الأطفال يا آنسة چان لويز؟ إن سلوكًا كسلوكك لا يتطلب سوى قليل من الفهم. لقد كان سلوكًا فوضويًا سفيهًا.

ـ يجب أن تعطني فرصة لأشرح لك ما حدث. لا أعني أن أكون وقحة معك، ولكني أحاول أن أشرح لك ما حدث.

جلس العم جاك على السرير وعقد حاجبيه وحملق فيّ من تحتهما وقال:

ـ أكملي.

أخذت نفسًا عميقًا وقلت:

ـ حسنًا. أولًا أنت لم تعطني الفرصة لأشرح لك وجهة نظري في الموضوع، بل انقضضت عليّ فورًا. حين أتشاجر مع جيم فإن أتيكوس لا يصغى إلى وجهة نظر جيم فقط بل يستمع إلى وجهة نظري أيضًا. وثانيًا لقد قلت لي ألا أستعمل كلمات كتلك إلا في حالة الاستفزاز الشديد، وقد استفزني فرانسيس إلى حد جعلني مستعدة لقتله.

هرش العم جاك رأسه وقال:

ـ ما هي وجهة نظرك يا سكاوت؟

ـ إن فرانسيس قد شتم أتيكوس، ولم أكن مستعدة لتحمل ذلك.

ـ ماذا قال؟

ـ «محب للزنوج». لا أعرف كثيرًا ما يعنيه هذا الوصف، ولكن الطريقة التي قيل بها... دعني أوضح لك أنه لم يكن ممكنًا أن أجلس هناك وأدعه يقول شيئًا يتعلق بأتيكوس.

ـ هل قال ذلك عن أتيكوس؟

ـ نعم يا سيدي. قال ذلك وزاد عليه الكثير، قال إن أتيكوس أساء لسمعة العائلة وإنه لم يحسن تربيتي أنا وجيم.

ومن النظرة التي بدت على وجه العم جاك، تصورت أنني قد تورطت مرة أخرى. وحين قال: «سنرى ما يمكن أن نفعله بخصوص هذا الأمر»، أدركت أن فرانسيس قد وقع في ورطة. استأنف العم جاك قائلًا:

ـ أفكر في الذهاب إلى هناك الليلة.

ـ أرجوك يا سيدي، سامحه من فضلك.

ـ ليس لدي النية أن أفعل ذلك. يجب أن تعرف ألكسندرا ما حدث والفكرة هي... انتظري حتى أتمكن من هذا الصبي.

ـ يا عم جاك. أرجوك أن تعدني بشيء ما، أرجوك يا سيدي. عدني أنك لن تقول لأتيكوس شيئًا حول هذا الموضوع. لقد طلب مني من قبل ألا أدع أي شيء أسمعه عنه يدفعني إلى الجنون أو الغضب. وأفضل أن يظن أننا كنا نتشاجر حول أمر آخر. أرجوك عدني بذلك.

ـ ولكنني لا أريد أن يفلت فرانسيس دون عقاب بعد أن بدرت منه مثل هذه الأقوال.

ـ هو لم يفلت. هل يمكنك أن تضمد جرح يدي؟ فهو ما زال ينزف قليلًا.

ـ بالطبع يا طفلتي. إن تضميدى يدك يعدل عندي تضميد مئات غيرها، هل من الممكن أن تتفضلي من هنا.

حملني العم جاك بشهامة إلى الحمام وبينما كان يطهر أصابعي ويربطها قصَّ على حكاية رجل عجوز مضحك قصير النظر كان لديه قطة اسمها «هودج» (Hodge). وقد كان هذا الرجل يَعِدُ الشقوق في الرصيف حين كان يذهب للبلدة. ثم قال:

ـ ها نحن الآن. سيكون على أصبعك علامة لا تليق بسيدة محترمة.

ـ شكرًا. يا عم جاك؟

ـ بأمرك سيدتي.

ـ ما هي العاهرة؟

بدأ العم جاك يحكي قصة أخرى طويلة عن رئيس وزراء عجوز يجلس في مقعد في مجلس العموم حيث كان ينفخ الريش في الهواء بينما الرجال من حوله يشتبكون في مناقشات حادة. أظنه كان يحاول الإجابة عن سؤالي، ولكن لم يكن لما قاله أي معنى.

وبعد ذلك، حين كان من المفترض أن أكون نائمة في سريري، نزلتُ إلى البهو لأشرب كوبًا من الماء فسمعت أتيكوس والعم جاك يتحدثان في غرفة الجلوس:

ـ لن أتزوج أبدًا يا أتيكوس.

ـ لماذا؟

ـ ربما أرزق بأطفال.

ـ هناك الكثير الذي يجب أن تتعلمه يا جاك.

ـ أعـرف ذلك. لقـد أعطتني ابنتك أول درس لي عصر هذا اليوم.

ـ قالت لي إني لا أفهم في معاملة الأطفال وشرحت لي الأسباب، وكانت على حق تمامًا. لقد قالت لي يا أتيكوس كيف كان يجب عليّ معاملتها. يا إلهي، أنا أسف جدًا لأني قَسَوتُ عليها.

ضحك أتيكوس.

ـ إنها تستحق ذلك، فلا تشعر بالندم.

ظللت متوترة وانتظرت أن يحكي العم جاك لأتيكوس عن وجهة نظري، ولكنه لم يفعل بل همهم ببساطة قائلًا: «إن استعمالها للكلمات البذيئة لا يترك شيئًا للخيال، ولكنها لا تعرف معنى نصف ما تقوله، وقد سألتني عن معنى كلمة عاهرة.

ـ وهل شرحته لها؟

ـ لا، ولكني حكيت لها عن لورد ملبورن.

جاك، حين يسألك طفل عن شيء ما، فأجبه، بحق السماء، ولا تحاول أن تجعل من إجابتك عملًا دراميًا، فالأطفال هم الأطفال، ولكنهم يستطيعون أن يميزوا التهرب من الإجابة أسرع مما يستطيع الكبار أن يفعلوا. فالتهرب ببساطة يشّوشهم.

أخذ والدي يفكر ثم استأنف قائلًا:

ـ لقد أجبت إجابة صحيحة عصر اليوم، ولكن الأسباب خاطئة. التلفظ بألفاظ بذيئة هي مرحلة يمر بها كل الأطفال ولكنها تنتهي مع الوقت حين يدركون أنهم لا يجذبون اهتمام الآخرين بها. أما حدة الطباع فشيء آخر. يجب أن تتعلم ذلك بسرعة، فستواجه الكثير في الشهور القادمة، وعلى أية حال فإنها تسير نحو الأفضل. لقد نَضِجَ جيم، وهي الآن تقلده، وكل ما تحتاج إليه هو بعض المساعدة في بعض الأحيان.

ـ أتيكوس، أنت لم تضربها مرة واحدة.

ـ أقر بذلك. حتى الآن استطعت أن أدبر أموري بالتهديدات. يا جاك إنها تهابني بقدر ما تستطيع. فهي لم تصل إلى المثال الذي أريدها أن تكون عليه ولكنها تحاول على أية حال.

قال العم جاك:

ـ ليس هذا بالجواب.

ـ لا، فالجواب هو أنها تعرف أني أعرف أنها تحاول. هذا هو الفرق، أما ما يقلقني فهو أنها وجيم سيضطران إلى أن يستوعبا بعض الأمور البشعة على نحو أسرع مما يجب. لست قلقًا بالنسبة لجيم وقدرته على ضبط أعصابه، ولكن سكاوت لا تزال مستعدة لمهاجمة أي شخص على الفور إذا ما أحست أن كبرياءها في خطر.

انتظرت أن يخل العم جاك بوعده، ولكنه لم يفعل حتى الآن:

ـ أتيكوس، إلى أي حد سيكون الأمر سيئًا؟ ليس لديك فرصة كبيرة لمناقشته.

ـ لا يمكن للأمور أن تكون أسوأ مما هي عليه يا جاك. إن الدليل الوحيد لدينا هي شهادة ذاك الرجل الأسود مقابل شهادة أسرة يوويل وهذا الدليل سَيُخْتَصَرْ إلى «هل فعلت؟»، «لا، لم أفعل». وليس متوقعًا من هيئة المحلفين أن تصدق كلام توم روبنسون وتُكَذِّبُ كلام أسرة يوويل... هل تعرف أسرة يوويل هذه؟

قال العم جاك إنه يعرفها ويتذكرها، ثم وصف أفرادها لأتيكوس ولكن أتيكوس قال له:

ـ أنت تتحدث عن الجيل السابق، وعلى أية حال فإن الجيل الحالي يشبه أسلافه.

ـ ما الذي سنفعله إذن.

قبل أن أنتهي سأحاول إحراج المحلفين قليلًا، وأظن على أية حال أن هناك فرصة أمامنا للاستئناف. لا أستطيع أن أعرف ما سيحدث في هذه المرحلـة مـن القضية. أنت تعرف أني كنت آمـل أن أعيـش حيــاتي دون الاضطـرار إلى المرافعـة في قضية كهـذه، ولكن جـون تايلـور (John Taylor) أشار إليّ وقال: «أنت لها».

ـ أي أنه أراد أن ينجو من هذه الورطة، أليس كذلك؟

ـ صحيح ولكن هل تعتقد أنني كنت أستطيع مواجهة أبنائي إن لم أفعل ذلك؟ أنت تعرف ما سيحدث كما أعرفه أنا يا جاك، وآمل وأدعو الله أن أستطيع الخروج بجيم وسكاوت من هذه المحنة دون مرارة، ودون أن يصابا ـ وهذا أهم شيء ـ بمرض مايكوم المعتاد: لماذا يصاب أناس عقلاء بالجنون المطلق حين يحدث أي شيء يتعلق بزنجي؟ هذا أمر لا أدّعي فهمه. آمل فقط أن جيم وسكاوت سيأتيان إليّ بحثًا عن الأجوبة بدلًا من الاستماع إلى رأي أهل البلدة. أتمني أن يثقا بي بما فيه الكفاية... چان لويز؟

قفزت فروة رأسي من مكانها وألصقت رأسي بالزاوية «نعم يا سيدي».

ـ هيا إلى الفراش.

أسرعت إلى غرفتي وذهبت إلى سريري. لقد أثبت العم جاك أنه

أمير حقيقي حيث لم يخذلني. ولكني لم أستطع أن أعرف كيف استطاع أتيكوس أن يعرف أني كنت أسترق السمع إليهما، ولم أدرك إلا بعد مرور سنوات عديدة أنه أرادني أن أستمع إلى كل كلمة قالها.

الفصل العاشر

كان أتيكوس ضعيفا وكان قد قارب الخمسين من عمره، وحين سألناه، أنا وجيم، عن كِبَر سنه، قال إنه بدأ حياته متأخرًا، وقد بعث فينا ذلك شعورًا بافتقاده لسمات الرجولة وما تقتضيه من قدرات، فقد كان أكبر سنًا من آباء زملائنا في المدرسة ممن في نفس أعمارنا، ولم يكن هناك من شيء نستطيع أن نقوله عنه حين كان زملاء الفصل يقولون: «أبي...».

كان جيم مولعًا بلعبة كرة القدم الأمريكية حتى الجنون، ولم يكن أتيكوس يصيبه الإرهاق من اللعب معه، ولكن حين كان جيم يريد أن يُمْسِك به كي يلقي به أرضًا ليستخلص الكرة لنفسه كان أتيكوس يقول: «سني لا تسمح لي بمجاراتك في اللعب يا ولدي».

لم يكن أبونا يمارس عملًا ذا أهمية، فهو يعمل في مكتب وليس في محل تجاري، ولم يكن أتيكوس سائقًا لإحدى عربات القمامة الخاصة بالإقليم، ولم يكن مأمور البلدة، ولم يكن مزارعًا ولا عاملًا في جراج، أي لا يمارس عملًا يمكن أن يثير إعجاب أحد.

بالإضافة إلى ذلك، كان يرتدي نظارات طبية نظرًا للضعف الشديد

في عينه اليسرى. وكان يقول إن العيون اليسرى هي «اللعنة» المُنَزَّلَة على عائلة فينش؛ فكان كلما أراد أن يرى شيئًا ما على نحو جيد يدير رأسه وينظر بعينه اليمنى.

لم يكن يمارس تلك الأعمال التي كان يمارسها آباء زملاء الفصل: لم يذهب للصيد قط، ولم يلعب البوكر أو يصطاد السمك أو يشرب الخمر أو يدخن بل كان يجلس في غرفة المعيشة ويقرأ.

في ظل صفات كهذه، كان يمكن أن يبقى مغمورًا ولكن ذلك لم يحدث: ففي ذلك العام ضَجَّت المدرسة بالحديث حول دفاعه عن توم روبنسون (Tom Robinson)، وكان حديثًا أبعد ما يكون عن المديح. وبعد شجاري مع سيسيل جاكوبز حيث ألزمت نفسي بسياسة الجُبْن، جرت شائعة في المدرسة بأن سكاوت فينش لن تُعاود القتال مع أي شخص فلن يسمح لها أبوها بذلك. ولم يكن ذلك صحيحا في مجمله، نعم لن أقاتل علانية دفاعًا عن أتيكوس، ولكن العائلة لها خصوصيتها؛ فأنا مستعدة لمقاتلة أي شخص من العائلة ابتداء من ابن عم من الدرجة الثالثة؛ مقاتلة الأسنان والأظافر، وكان فرانسيس هانكوك على سبيل المثال يعرف ذلك.

حين أهدانا أتيكوس بنادق ضغط الهواء رفض أن يعلمنا كيفية التصويب. وقد علمنا العم جاك مبادئ التصويب وقال إن أتيكوس لم يكن مهتمًا بالبنادق. وفي أحد الأيام قال أتيكوس لجيم: «أُفَضِّلُ أن تقوم بالتصويب تجاه العلب الصفيح في الفناء الخلفي، ولكني أعلم أنك ستطارد الطيور؛ بإمكانك اصطياد ما تريده من نوع البلوجاي (blue jay)، هذا إن استطعت إصابتها، ولكن تذكر أنها خطيئة أن تقتل طائرًا محاكيًا».

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي أسمع فيها أتيكوس يتحدث عن الخطيئة وقد سألت الآنسة مودي عن الموضوع فقالت:

ـ والدك محق؛ فالطيور المحاكية لا تفعل شيئًا سوى أنها تعزف لنا الموسيقى كي نستمتع بها... إنها لا تلتهم ما نزرع، ولا تعشش في حقول الذرة، وهي لا تفعل شيئًا سوى أنها تُغَني من قلوبها لأجلنا. لذا فإنها خطيئة أن تقتل طائرًا محاكيًا.

ـ يا آنسة مودي. هذا حي قديم، أليس كذلك؟

ـ هذا الحي أقدم من البلدة.

ـ لا، أنا أعني أن الناس في حينا كلهم من كبار السن، أنا وجيم الطفلان الوحيدان هنا، فالسيدة ديبوز شارفت على المائة والآنسة راتشيل عجوز وأنت وأتيكوس أيضًا.

قالت الآنسة مودي بحدة:

ـ أنا لا أنظر لمن هو في الخمسين على أنه عجوز جدًا، فأنا لم أستخدم كرسيًا متحركًا بعد، أليس كذلك؟ وكذلك أبوك، ولكن يجب أن أقول إن العناية الإلهية كانت كريمةً حين اشتعلت النيران التي أتت على الضريح العتيق الذي كنت أعيش فيه يوما، فقد بلغت من العمر عتيًا وما كنت لأستطيع العناية بمثل ذلك البيت الضخم. ربما تكونين على حق يا چان لويز، هذا الحي محدود حقا، وأنت لم تختلطي بصغار السن كثيرًا، أليس كذلك؟

ـ بلى، خالطتهم في المدرسة.

ـ أعني الشباب، فأنت محظوظة كما تعلمين، فأنت وجيم تستفيدان

من كون أباكما في هذه السن. لو كان في الثلاثين من عمره لوجدتما الحياة مختلفة تمامًا.

ـ طبعًا. لا يمكن لأتيكوس أن يفعل أي شيء.

قالت الآنسة مودي:

ـ قد تدهشين، فما زالت الحياة تَدُبُ فيه.

ـ ما الذي يستطيع أن يفعله.

ـ يستطيع أن يُحكم صياغة أي وصية فلا يمكن العبث بها حتى لا يسمح لأي شخص أن يتدخل فيها.

ـ حسنًا، قولي شيئًا آخر.

ـ هل تعرفين أنه أفضل لاعب ضامة في هذه البلدة؟ عندما كنا في «فينشز لاندنج» وكنا صغارًا، كان أتيكوس فينش يستطيع أن يهزم كل اللاعبين على كلتي ضفتي النهر.

ـ يا إلهي يا آنسة مودي! جيم وأنا نكسبه دائمًا.

ـ لقد حان الوقت لتكتشفي أنه يفعل ذلك عمدًا. هل تعلمين أنه يستطيع العزف على الهارب اليهودي[١]؟

جاء هذا الإنجاز المتواضع ليزيد من شعوري بالخجل، قالت:

ـ حسنًا.

---

(١) يُعْتَقَد أن الهارب اليهودي من أقدم الآلات الموسيقية في العالم. ولا توجد صلة بين تلك الآلة والديانة اليهودية، ويَعْزِفُ على تلك الآلة بقطعة معدنية بينما يحمل العازف الآلة قريبا من فمه (المترجمة).

ـ ماذا تعنين يا آنسة مودي؟

ـ حسنًا... لا شيء... لا شيء، ولكن يجب أن تكوني فخورة به بعد كل هذا الذي حكيته لك عنه؛ لا يمكن لأي شخص أن يعزف على الهارب اليهودي، والآن ابتعدي عن طريق النجارين والأفضل أن تذهبي إلى منزلك، سأتفرغ لرعاية شجيرات الأزاليا بعد قليل، ولن أستطيع مراقبتك وأخشى أن يسقط عليكِ لوح خشبي.

ذهبت إلى الفناء الخلفي فوجدتُ جيم يُطلق بندقيته على علبة من الصفيح، وبدا لي غباؤه عندما رأيتُ طيور «البلوجاي» من حوله. عُدت إلى الفناء الأمامي وشَغَلتُ نفسي لمدة ساعتين في إقامة متراس معقد في جانب المدخل الأمامي، وقد أقمته من عجلة وصندوق برتقال وصندوق غسيل وكراسي المدخل الأمامي وعلم أمريكي صغير أعطاه لي جيم بعد أن وجده في علبة «فيشار».

وحين عاد أتيكوس إلى المنزل لتناول وجبة العشاء وجدني منبطحة أُصَوب بندقيتي عبر الشارع.

ـ على ماذا تصوبين؟

ـ أُصَوِّبُ نحو مؤخرة الآنسة مودي.

التفت أتيكوس ليرى هدفي العظيم وقد انحنى فوق شجيراته فدفع بقبعته إلى الوراء ثم عبر الشارع وصاح «يا مودي! ظننت أنه من الأفضل أن أحذركِ؛ فأنتِ في خطر».

وقفت الآنسة مودي ونظرت تجاهي وقالت: «يا أتيكوس! أنت شيطان قادم من الجحيم».

حين عاد أتيكوس طلب مني أن أعلن الهدنة ثم قال:

ـ لا تدعيني أمسك بك توجهين هذه البندقية تجاه أي شخص بعد الآن.

لقد تمنيت أن يكون أبي بالفعل قادمًا من الجحيم. وقد استشرت كالبورنيا حول موضوع قدرات أبي فقالت:

ـ السيد فينش؟ إنه رائع، إنه يستطيع أن يقوم بأعمال كثيرة.

ـ مثل ماذا؟

هرشت كالبورنيا وقالت:

ـ لا أعلم تحديدًا.

وقد أكد جيم ما قالته كالبورنيا حين سأل أتيكوس عما إذا كان سيلعب مع فريق «الميثوديين»، فرد أتيكوس بأن عنقه سيُدَقُّ لو لعب معهم، فقد تقدم به العمر ولم يعد قادرًا على مزاولة مثل هذه الألعاب. كان «الميثوديون» يحاولون أن يسددوا رهنًا عقاريًا مفروضًا على كنيستهم، وقد تحدوا فريق «المعمدانيين» ليلعبوا ضدهم مباراة في كرة القدم الأمريكية.

وقد بدا أن آباء أطفال البلدة جميعهم سيشاركون في المباراة عدا أتيكوس. قال جيم إنه لا يريد الذهاب، ولكنه لا يستطيع مقاومة إغراء كرة القدم بأي شكل من الأشكال. وقف جيم مكتئبًا عند خط التماس ومعه أتيكوس وأنا، بينما كان والد سيسيل جاكوبز يحرز أهدافًا لفريق «المعمدانيين».

وفي أحد أيام السبت قررنا، أنا وجيم أن نذهب للاستكشاف مصطحبين بندقيتينا لنرى ما إذا كنا نستطيع أن نجد أرنبًا أو سنجابًا، وكنا قد ابتعدنا مسافة خمسمائة متر عندما لاحظت أن جيم يدقق النظر تجاه شيء ما في آخر الشارع. مال جيم برأسه إلى جانب واحد وأخذ ينظر بزاويتي عينيه.

ـ ما الذي تنظر إليه؟

ـ ذلك الكلب العجوز هناك.

ـ إنه تيم جونسون (Tim Johnson) العجوز، أليس كذلك؟

ـ بلى.

كان تيم جونسون هو كلب السيد هاري جونسون (Harry Johnson) الذي كان يقود أتوبيس بلدة موبيل، ويعيش في الطرف الجنوبي من البلدة. وتيم كلب صيد يميل لونه للحمرة الداكنة وهو الكلب المدلل لمايكوم كلها.

ـ ماذا يفعل؟

ـ لا أدري يا سكاوت. من الأفضل أن نذهب إلى المنزل.

ـ آه جيم. إنه شهر فبراير.

ـ هذا لا يعنيني، سأحكي لكال.

أسرعنا بالذهاب إلى المنزل وعدونا نحو المطبخ.

قال جيم:

ـ كال! من فضلك، اخرجي معنا إلى الشارع لدقيقة واحدة.

ـ لماذا يا جيم؟ لا يمكنني الخروج إلى الشارع كلما طلبت مني ذلك.

ـ هناك كلب عجوز لا يبدو في حالة طيبة.

تنهدت كالبورنيا وقالت:

ـ لا أستطيع أن أضمد سيقان الكلاب الآن، هناك بعض «الشاش» في الحمام، أحضره وافعل ذلك بنفسك.

هز جيم رأسه وقال:

ـ إنه مريض يا كال، قد أصابه شيء.

ـ ماذا يحاول أن يفعل، أيحاول أن يمسك بذيله؟

ـ لا، بل يفعل هكذا...

ـ ابتلع جيم «ريقه» كالسمكة ثم رفع كتفيه وثنى جذعه. هكذا يفعل...

احتدت كالبورنيا وقالت:

ـ أتحكي لي قصة يا جيم فينش؟

ـ لا يا كال. أقسم لك أنني لا أحكي قصة.

ـ أكان يجري؟

ـ لا، بل كان يتمشى ببطء شديد فمن الصعب أن تلحظي أنه يتحرك. هو آتٍ من هنا.

شطفت كالبورنيا يديها وتبعت جيم إلى الفناء وقالت:

ـ لا أرى كلابًا.

تابعتنا كال إلى ما بعد منزل عائلة رادلي ونظرت إلى حيث أشار جيم. لم يكن تيم جونسون إلا مجرد نقطة بعيدة، ولكنه أصبح أقرب إلينا الآن. كان يمشي مشية غريبة، وكأن ساقيه على الجانب الأيمن أقصر من مثيلتيهما على الجانب الأيسر. وقد ذكرني بسيارة «غرزت» في حفرة من الرمال.

قال جيم:

ـ إنه غير متوازن.

حدقت كالبورنيا ثم أمسكت بكتفينا وجرت بنا إلى المنزل، أغلقت الباب الخشبي خلفنا واتجهت نحو الهاتف وصاحت:

ـ أريد مخاطبة مكتب السيد فينش. يا سيد فينش! كال تتحدث. أقسم بالله أن هناك كلبًا مسعورًا في الشارع، وهو يسير في اتجاهنا، أجل يا سيدي، إنه قادم يا سيد فينش، أؤكد لك أنه قادم، إنه تيم جونسون العجوز، نعم يا سيدي... نعم يا سيدي... نعم.

أنهت كالبورنيا المكالمة وهزت رأسها حين حاولنا أن نسألها عما قاله أتيكوس، ثم قرعت جرس الهاتف وقالت:

ـ يا آنسة يولا ماي... يا سيدتي. لقد انتهيت من التحدث مع السيد فينش، أرجو ألا تصليني به مرة أخرى، واصغ إليَّ يا آنسة يولا ماي، هل تستطيعين أن تتصلي بالآنسة راتشيل، والآنسة ستيفاني كروفورد، وكل من لديه هاتف في هذا الحي لتقولي لهم إن هناك كلبًا مسعورًا يتقدم في هذا الاتجاه؟ أرجوك يا سيدتي.

أصغت كالبورنيا ثم قالت:

ـ أنا أعرف أنه شهر فبراير يا آنسة يولا ماي، ولكني أعرف أيضًا الكلب المسعور حين أراه. أرجوك أن تسرعي يا سيدتي!

سألت كالبورنيا جيم:

ـ هل لدى عائلة رادلي هاتف؟

نظر جيم في دليل التليفون وقال لا.

ـ ولكنهم لن يخرجوا من منزلهم على أية حال يا كال.

ـ لا يهمني، سأخبرهم.

هرعت كالبورنيا نحو الفناء الأمامي وذهبنا أنا وجيم في أعقابها، ولكنها صاحت:

ـ ابقيا في البيت.

تلقى الحي رسالة كالبورنيا؛ فأُحكِم غَلقُ كل باب خشبي على مرأى منا ولم نرَ أي أثر لتيم جونسون. راقبنا كالبورنيا وهي تعدو نحو منزل عائلة رادلي رافعةً «جونلتها» ومريلتها فوق ركبتيها. صعدت إلى السلم الأمامي وقرعت الباب، فلم تتلقّ أي جواب؛ فصاحت:

ـ يا سيد ناثان، يا سيد آرثر، هناك كلب مسعور قادم إلى هذا الاتجاه. كلب مسعور قادم.

قلت:

ـ كان من المفروض أن تلف حول المنزل من الجهة الخلفية.

هز جيم رأسه وقال:

ـ لا فرق الآن.

قرعت كالبورنيا الباب ولكن عبثًا، لم يستجب أحد إلى تحذيرها؛ فلم يبدُ أن أحدا قد سمعه.

وحين جرت مسرعة إلى الفناء الخلفي، رأينا سيارة فورد سوداء تتهادى لتقف في ممر السيارات ثم خرج منها أتيكوس ومعه السيد هيك تيت (Mr. Heck Tate).

السيد هيك تيت هو مأمور مقاطعة مايكوم، وهو يُطَاوِل أتيكوس في قامته ولكنه أكثر نحافة، وكان أنفه طويلًا ويرتدي حذاء ذا ثقوب معدنية لامعة، و«بنطلونًا» ضيقًا من أسفل ومعطفًا من القماش المنقوش بأشكال مربعة. أما حزامه فمُرَصَّعَ بصفٍ من طلقات الرصاص وكان يحمل بندقية ثقيلة. وحين وصل هو وأتيكوس إلى المدخل الأمامي، فتح جيم الباب.

قال أتيكوس:

ـ ابق في الداخل يا بني. أين هو يا كال؟

قالت كالبورنيا وهي تشير إلى الشارع:

ـ لا بد أن يكون قد وصل إلى الشارع الآن.

سأل السيد تيت:

ـ لم يكن يعدو، أليس كذلك؟

ـ لا، فهو في مرحلة التقلصات يا سيد هيك.

ـ هل نلحق به يا هيك؟

هكذا سأله أتيكوس فأجابه هيك:

ـ من الأفضل أن ننتظر يا سيد فينش. إن الكلاب المسعورة عادة ما تمشي في خط مستقيم، ولكن لا شيء مؤكد؛ فمن المحتمل أن يتبع المنحنى، وآمل أن يفعل ذلك أو أن يذهب مباشرة إلى الفناء الخلفي لمنزل عائلة رادلي، فلننتظر للحظة.

قال أتيكوس:

ـ لا أعتقد أنه قد يدخل فناء عائلة رادلي؟ فالحاجز سيمنعه...ربما يواصل السير على الطريق.

ظننت أن الكلاب المسعورة تُرْغِي أفواهها وتعدو وتقفز وتنهش الناس من حلوقهم، وكنت أظن أن ذلك يحدث في شهر أغسطس. ولو أن تيم جونسون تصرف هكذا لكنت أقل خوفًا.

لا شيء يخيف أكثر من شارع مهجور في حالة الانتظار. كانت الأشجار ساكنة، والطيور المحاكية صامتة، والنجارون الذين يعملون في بناء منزل السيدة مودي قد اختفوا. سمعت السيد تيت يجذب نفسًا عميقًا ثم يمسح أنفه، بعدها نقل بندقيته ليضعها على ذراعه. رأيت وجه الآنسة ستيفاني كروفورد في إطار النافذة الزجاجية للباب الأمامي ثم ظهرت الآنسة مودي ووقفتُ بجوارها. وضع أتيكوس قدمه على حافة عارضة خشبية لأحد الكراسي ومسح يده ببطء على جانب فخذه.

قال بصوت خافت:

ـ ها هو.

أصبح تيم جونسون على مرمى البصر، يمشي مترنحًا على الحافة الداخلية للمنحنى الموازي لمنزل عائلة رادلي.

همس جيم:

ـ انظري إليه، يقول السيد هيك إنه يسير على خط مستقيم، ولكن هذا الكلب لا يستطيع حتى أن يواصل سيره في الشارع.

قلت:

ـ إن المرض قد تمكن منه.

ـ إن صادف أي شيء في طريقه فلن يتوانى عن الهجوم عليه.

وضع السيد تيت يده على جبينه وانحنى إلى الأمام ثم قال:

ـ إنه مسعور فعلًا يا سيد فينش.

تقدم تيم جونسون إلى الأمام ببطء كالحلزون، ولكنه لم يكن يلعب أو يتشمم النباتات: بدا وكأنه مُصِّرٌ على السير في طريق واحد تدفعه قوة غير مرئية نحونا. رأيناه وهو يرتجف كحصان يهش عن نفسه الذباب، حيث ينفتح فكه وينغلق. كان جسده مائلًا على جانب واحد، ولكنه كان ينجذب تدريجيًا نحونا. قال جيم:

ـ إنه يبحث عن مكان يموت فيه.

التفت إلينا السيد تيت وقال:

ـ إنه بعيد عن الموت يا جيم، لم يصل لتلك المرحلة بعد.

وصل تيم جونسون إلى الشارع الجانبي الذي يمر أمام منزل عائلة

رادلي. وإذا بما تبقى من عقله المسكين يجعله يتوقف فيدو وكأنه يفكر في أي طريق يسلك. خطا بعض الخطوات المترددة ثم توقف أمام باب منزل عائلة رادلي. حاول أن يستدير ليعود ولكنه وجد صعوبة في ذلك.

قال أتيكوس:

ـ إنه في مدى طلقاتنا يا هيك، الأفضل أن تتعامل معه الآن قبل أن يتجه إلى الشارع الجانبي، والله وحده يعلم من قد يكون عند المنعطف... ادخلي يا كال.

فتحت كالبورنيا الباب ثم أوصدته بالمزلاج خلفها، بعد ذلك رفعت المزلاج وأمسكت به. حاولت أن تسد الطريق بجسدها أمامي أنا وجيم، ولكننا كنا ننظر من تحت ذراعيها.

قال السيد تيت وهو يسلم البندقية إلى أتيكوس:

ـ هيا اقتله يا سيد فينش.

كدنا، أنا وجيم، نفقد وعْيَنَا.

قال أتيكوس:

ـ لا تُضِعْ الوقت يا هيك، هيا.

يا سيد فينش. هذه عملية تتطلب التصويب مرة واحدة.

هز أتيكوس رأسه بشده:

ـ لا تقف دون أن تفعل شيئًا فلن ينتظر النهار بطوله.

ـ بالله عليك يا سيد فينش، انظر أين هو، إذا أخطأت التصويب

فستدخل الرصاصة إلى منزل عائلة رادلي. لا أستطيع التصويب بدقة وأنت تعرف ذلك.

ـ لم أطلق الرصاص منذ ثلاثين عامًا...

رمى السيد تيت البندقية إلى أتيكوس وقال:

ـ سأشعر بالراحة إذا فعلت ذلك الآن.

ومن خلال الضباب رأينا أبانا وهو يمسك بالبندقية ويسير متجهًا نحو منتصف الشارع. سار بسرعة ولكنني ظننت أنه يتحرك ببطء كما الغطاس تحت الماء: تحرك الوقت ببطء إلى حد يبعث على الغثيان.

همهمت كالبورنيا حين رفع أتيكوس نظارته:

ـ فليسدد الرب خطاه.

ثم رفعت يديها إلى خديها.

دفع أتيكوس نظارته إلى جبينه فَعَاوَدَتْ الهبوط فألقى بها في الشارع. ووسط الصمت، سمعت صوت تحطمها. فرك أتيكوس عينيه وذقنه وأخذ يرمش بقوة. اتخذ تيم جونسون قراره الأخير أمام منزل عائلة رادلي فاستدار أخيرًا ثم سار في اتجاهه السابق نحو شارعنا. خطا خطوتين نحو الأمام ثم توقف ورفع رأسه وإذ بجسمه يتصلب.

وبحركات سريعة جدًا بدت وكأنها تجري كلها في وقت متزامن، جذبت يد أتيكوس قفل أمان البندقية المستدير، ثم رفعها إلى كتفه.

سمعنا صوت فرقعة البندقية....قفز تيم جونسون وتخبط ثم انهار على الرصيف في كومة جمعت بين اللونين البني والأبيض، ولم نَدْرِ ما أصابه.

قفز السيد تيت من المدخل الأمامي وجرى نحو منزل عائلة رادلي. توقف أمام الكلب وانحنى ثم التفت ونقر على جبينه فوق عينه اليسرى وقال:

ـ لقد انحرفت قليلًا تجاه اليمين يا سيد فينش.

ـ هكذا كنت دائمًا، لو كان الأمر بيدي لاستعملت «بندقية رش».

انحنى على الأرض والتقط نظارته ثم طحن العدستين المكسورتين تحت كعبه وذهب إلى حيث السيد تيت ووقف ينظر إلى تيم جونسون.

فُتِحت الأبواب واحدا تلو الآخر، وعاد الحي إلى الحياة من جديد. نزلت الآنسة مودي السلم مع الآنسة ستيفاني كروفورد.

تصلَّب جيم في مكانه فقرصته حتى يتحرك، ولكن حين رآنا أتيكوس قادمين، صاح:

ـ ابقيا مكانكما.

وحين عاد السيد تيت وأتيكوس إلى الفناء كان السيد تيت يبتسم وهو يقول:

ـ سأطلب من زيبو (Zeebo) أن ينقله من هنا. لم تفقد الكثير بعد يا سيد فينش، يقولون إن مهارة التصويب لا يمكن أن تُنْسى.

صمت أتيكوس.

قال جيم:

ـ أتيكوس؟

ـ نعم؟

ـ لا شيء.

ـ لقد رأيتك! فينش ذو الطلقة الواحدة القاتلة!

استدار أتيكوس ليواجه الآنسة مودي. نظر كل منهما إلى الآخر دون أن ينطقا بشيء. ركب أتيكوس مع المأمور في سيارته، قال لجيم:

ـ تعال هنا، لا تقترب من هذا الكلب، هل تفهم؟ لا تقترب منه، إنه خطر حيًا كان أو ميتًا.

ـ حسنًا يا سيدي... أتيكوس؟

ـ ماذا يا بني.

ـ لا شيء.

هنا قال السيد تيت وهو يبتسم لجيم:

ـ ما حكايتك يا ولد؟ ألا يمكنك أن تتكلم؟ ألم تكن تعلم أن والدك هو...

قال أتيكوس:

ـ اسكت يا هيك. هيا بنا نعود للبلدة.

وحين ابتعدا بالسيارة، ذهبنا، أنا وجيم، إلى سلم الآنسة ستيفاني الأمامي وجلسنا ننتظر وصول زيبو مع شاحنة القمامة.

جلس جيم في حالة وجوم وارتباك ثم قالت الآنسة ستيفاني:

ـ آه. آه. آه. من كان يظن أن يلقى كلبًا مسعورًا في فبراير؟ ربما لم يكن

مسعورًا، ربما كان مختلا فحسب، لا أريد أن أرى وجه هاري جونسون حين يعود من بلدة موبيل ويكتشف أن أتيكوس فينش قد قتل كلبه. ولكنه كان يعج بالبراغيث.

كانت ذكرى مرأى تيم جونسون ساعيا على الطريق حينذاك كفيلةً بتحويل نغمة حديثهما في اتجاه آخر، غير أنهما كانا سيكتشفان الحقيقة سريعا، فقد أرسل رأس الكلب إلى مونتجمري، وانطلق لسان جيم من عقاله مصدرًا جملًا متلاحقة على نحو يفتقر إلى الوضوح.

ـ هل ترينه يا سكاوت؟ هل ترينه واقفًا هناك؟... وفجأة يقف مسترخيًا، وتبدو البندقية وكأنها جزءٌ منه... وقد فعل ذلك بسرعة هائلة كأنه...... أجدني مضطرًا إلى التصويب لمدة عشر دقائق قبل أن أستطيع إصابة الهدف.

ابتسمت الآنسة مودي وبدت على وجهها ملامح العبث الخبيث، ثم قالت:

ـ حسنًا يا آنسة چان لويز، أما زلت تعتقدين أن والدك لا يستطيع عمل شيء؟ أما زلت تخجلين منه؟

أجبت بخنوع:

ـ لا.

نسيت أن أقول لك ذلك اليوم إنه إلى جانب عزفه على الهارب اليهودي، فإن أتيكوس فينش كان أمهر رامٍ في مقاطعة مايكوم في زمانه.

ردد جيم:

أمهر رامٍ.

نعم، هكذا قلت يا جيم فينش، ربما ستغير من لهجتك الآن. أما كنتما تعلمان أنه في شبابه كان يحمل لقب «العجوز ذو الطلقة الواحدة». عجبًا، حين كان في فينشز لاندنج، وكان لا يزال في مقتبل العمر، كان يشكو من تبديده لذخيرته دون جدوى إذا أطلق خمس عشرة رصاصة وأصاب بها أربع عشرة حمامة.

همهم جيم:

ـ لم يذكر ذلك على الإطلاق.

ـ لم يذكر ذلك على الإطلاق، أليس كذلك؟

ـ لا يا سيدتي.

قلت:

ـ أتساءل لماذا لا يذهب للصيد الآن؟

قالت الآنسة مودي:

ـ ربما أستطيع أن أخبرك. إن كان أبوك صاحب خصال حميدة فأهم تلك الخصال أنه رجل متحضر، فالمهارة في الرماية هبة من عند الله موهبة... ولكن عليك أن تتمرن لتتقنها. ورغم ذلك، فالرماية تختلف عن عزف البيانو وما شابهه. أعتقد أنه تخلى عن بندقيته حين أدرك أن الله حباه موهبة يتميز بها عن باقي الأحياء. وأعتقد أنه قرر ألا يمارس الرماية ثانية إلا إذا اضطُر إلى ذلك وقد اضطُر اليوم.

قلت:

ـ يبدو أنه سيفخر بما قام به.

قالت الآنسة مودي:

ـ ذوو العقول الراجحة لا يتفاخرون بمواهبهم.

شاهدنا زيبو قادمًا بعربتـه. أنزل شوكـة كبيرة مـن مؤخـرة عربته ورفع بها تيم جونسون بحذر... قذف بالكلب في العربة ثم صب شيئًا ما من وعاء كان يحمله على البقعة التي سقط فيها تيم وما حولها. ثم صاح:

ـ لا تقتربوا من هنا لفترة.

حين عدنا إلى المنزل قلت لجيم إن لدينا مادة للحديث في المدرسة يوم الإثنين. استدار جيم ليقول بحدة.

ـ لا تنطقي بكلمة واحدة عما حدث يا سكاوت.

ـ ماذا؟! سأفعل ذلك بالتأكيد؛ ليس بين التلاميذ من يفخر بأن أباه أمهر رامٍ في مايكوم سواي.

قال جيم:

ـ أعتقد أنه لو أرادنا أن نعرف هذا الموضوع لحكى لنا عنه بنفسه، لو كان فخورًا بذلك لحكى لنا عنه.

ـ ربما نسي أن يقول لنا.

ـ لا يا سكاوت. هذا شيء لن تفهميه. لقد أصبح أتيكوس عجوزًا

فعلًا، ولكن لا يهمني إن كان ليس قادرًا على فعل شيء....لا يهمني إن كان غير قادر على فعل أي شيء مهما كان.

التقط جيم حجرًا ورمى به مبتهجًا نحو «الجراچ»، ثم عدا خلفه وصاح.

ـ أتيكوس «جنتلمان»، مثلي تمامًا.

الفصل الحادي عشر

حين كنا صغيرين، أنا وجيم، لم تتعد تحركاتنا الناحية الجنوبية من بلدتنا، ولكن حينما أوشك عامي الثاني في المدرسة على الانتهاء وأصبح تعذيب بو رادلي في أدراج النسيان، اجتذبنا الجانب التجاري من مايكوم نحو الشارع الذي يمر بأملاك السيدة هنري لافاييت ديبوز. فمن المستحيل الذهاب إلى البلدة دون المرور بمنزلها، إلا إذا أردنا أن نسير ميلًا آخر يضاف لما نقطعه للوصول إلى وجهتنا. لم تترك مواجهاتي البسيطة معها مجالًا للرغبة في المزيد، غير أن جيم قال إن موعد ذلك سيحين يوما ما عندما أَنْضُج.

كانت السيدة ديبوز تعيش وحيدة لا يصحبها سوى فتاة زنجية ترعاها طوال الوقت، وذلك في منزل ذي سلم أمامي شديد الانحدار وممر مغطى بين جناحي المبنى وساحة صغيرة يبعد عنا بمنزلين. كانت السيدة ديبوز امرأةً مُسِنة تقضي معظم يومها في الفراش وبقية اليوم على كرسي متحرك، ويشاع عنها أنها تحتفظ بمسدس من طراز (CSA) تخبئه تحت شيلانها العديدة.

كنا أنا وجيم نُكِنُّ لها الكراهية، وإذا تصادف وكانت بمدخل منزلها

أثناء مرورنا أمامه فإنها تقذفنا بنظراتها الغاضبة وتخضعنا لتحقيق لا هوادة فيه حول سلوكنا، وتطلق تنبؤات تشاؤمية عما سنؤول إليه حين نكبر، ودائمًا ما كانت تلك التنبؤات تشير إلى أننا لن نحقق في حياتنا أي نجاح. وقد تخلينا منذ فترة طويلة عن فكرة المرور من على الرصيف المقابل لمنزلها إذ إن ذلك يدفعها إلى أن ترفع صوتها لتُسمِعَ الحي كله.

لم يكن في وسعنا عمل أي شئ يرضيها، فإذا قلت بكل إشراق: «مرحبًا يا سيدة ديبوز»، تلقيت الإجابة: «لا تقولي لي: مرحبًا، أيتها الفتاة القبيحة، بل عليك أن تقولي:

ـ «مساء الخير يا سيدة ديبوز».

كانت السيدة ديبوز شريرة، وقد سمعت ذات مرة أن جيم ينادي أبانا باسمه فكان رد فعلها مرعبًا، فإلى جانب وصفنا بأكثر البلهاء الذين مروا بطريق منزلها وقاحة وصفاقة، فقد قالت لنا أيضًا إنه من المؤسف أن أبانا لم يتزوج بعد وفاة والدتنا. لم تكن هناك سيدة أجمل من والدتنا، كما كانت تقول، وإنه لشيء مؤسف أن يترك أتيكوس أولاده بدون توجيه وإرشاد سليمين. لم أكن أتذكر والدتنا، ولكن جيم كان يتذكرها، وكان يحكي لي عنها أحيانًا، وقد شَحُبَ لونه حين رمتنا السيدة ديبوز بذلك التعليق.

لقد استنتج جيم، الذي نجا حتى الآن من بو رادلي وكلب مسعور وأهوال أخرى، أنه من الجُبْن التوقف والانتظار عند سلم منزل الآنسة راتشيل الأمامي، كما قرر أن علينا أن نجري حتى زاوية مكتب البريد كل مساء لمقابلة أتيكوس وهو عائد من عمله. وفي أمسيات عديدة وجد أتيكوس أن جيم قد استشاط غضبًا بسبب شيء ما قالته السيدة ديبوز أثناء مرورنا.

كان أتيكوس يقول:

ـ لا عليك يا بني. إنها سيدة عجوز مريضة. عليك أن ترفع رأسك عاليًا وأن تتصرف مثل «الجنتلمان» فمهما قالت لك، يجب ألا تجعلها تثير غضبك.

اعترض جيم قائلًا إنها ليست مريضة كما تبدو فهي تملك طاقة للصياح بأعلى صوتها. وكلما مر ثلاثتنا بالقرب من منزلها، كان أتيكوس يرفع قبعته ويلوِّح بها بفروسية قائلًا: «مساء الخير يا سيدة ديبوز. تبدين اليوم في أبهى صورة».

لم أسمع من أتيكوس يومًا توضيحًا عما يقصده بتلك «الصورة». وكان يقص عليها أخبار المحكمة، ويعبر لها عن تمنياته بأن يكون يومها التالي سعيدًا. وكان أتيكوس يعيد قبعته إلى رأسه ويرفعني لأركب على كتفيه في حضورها ثم نتجه إلى المنزل على ضوء الشفق. في تلك الأوقات كنت أشعر أن أبي، الذي كان يكره البنادق والذي لم يَخُضْ أي حرب، هو أشجع من عاش من الرجال.

وفي اليوم التالي لاحتفال جيم بعيد ميلاده الثاني عشر، شعر بحاجة ملحة لإنفاق ما امتلأ به جيبه من نقود ؛ وهكذا اتجهنا نحو البلدة مع العصر، وظن جيم أن ما معه من المال يكفي لشراء قاطرة بخارية صغيرة وعصا موسيقية لي.

منذ زمن بعيد كنت قد وضعت نُصبَ عيني شراء تلك العصا: كانت متوفرة لدى محلات «في. جي. آلمور» (V.J.Elmore) ومزينة بأشرطة لامعة مدلاة وأشرطة معدِنية وثمنها سبعة عشر سنتًا، وأتذكر طموحي الجامح حينئذ بأن أكبر وأقود الفرقة الموسيقية لمدرسة مايكوم الثانوية،

وقد بلغت من تطوير مهاراتي مبلغًا مكنني من أن أقذف العصا عاليًا ثم أتلقاها وهي تسقط في أغلب الأحوال، مما تسبب في رفض كالبورنيا إدخالي إلى المنزل كلما رأتني أحمل عصًا في يدي. ظننت أني أستطيع تجاوز تلك المشكلة بامتلاك عصا موسيقية حقيقية، كما اعتقدتُ أن جيم كان كريمًا إذ سيشتري لي واحدة.

كانت السيدة ديبوز تقف في المدخل الأمامي لمنزلها حين مررنا، فصاحت:

ـ أين تذهبان كلاكما في مثل هذا الوقت؟ أظنكما متسللين من المدرسة.

ـ سأتصل بالناظر لأخبره.

ثم وضعت يديها فوق عجلات كرسيها واستدارت بزاوية مقدارها ٩٠ درجة.

قال جيم:

ـ إنه يوم السبت يا سيدة ديبوز.

قالت بلهجة غامضة:

ـ ليس هناك فرق ما إذا كان اليوم السبت أو غيره، وأتساءل إن كان أبوكما يعرف مكانكما.

ـ يا سيدة ديبوز، لقد اعتدنا الذهاب للبلدة بمفردنا منذ كنا بهذا الطول.

وهنا وضع جيم يده على ارتفاع حوالي قدمين من الرصيف وكفه يتجه نحو الأسفل.

صاحت:

ـ لا تكذبا عليّ. يا جيريمي فينش، لقد أعلمتني مودي أتكنسون أنك كسرت تعريشة العنب هذا الصباح، وأنها ستخبر والدك، وحينها ستتمنى لو أن أمك لم تلدك، فإن لم يرسلك والدك إلى المدرسة الإصلاحية للأحداث قبل حلول الأسبوع القادم فلن يكون اسمي ديبوز.

أنكر جيم كل هذه الاتهامات، فهو لم يقترب من تعريشة الآنسة مودي منذ الصيف الماضي ويعرف أن الآنسة مودي لن تشكوه لأبيه إن قام بذلك بالفعل.

صرخت السيدة ديبوز:

ـ لا تعارضني، وأنتِ...

وهنا أشارت نحوي بإصبع نال منه مرض التهاب المفاصل.

ـ ما بالك تروحين وتغدين في ذلك الأفرول؟ يجب عليك أن تلبسي فستانًا أو «جونلة» قصيرة يا فتاتي الصغيرة. سينتهي بكِ الأمر للعمل نادلةً حين تكبرين، هذا إن لم يبادر أحد بتغيير عاداتك هذه، تصوري فتاة من عائلة فينش تعمل نادلة في «مقهى أوكي»... ها ها.

أصبت برعب شديد، فمقهى «أوكي» مكان كئيب على الجانب الشمالي من الميدان. أمسكت بيد جيم ولكنه نفض يده من يدي ثم همس:

ـ هيا بنا يا سكاوت، لا تهتمي بها، ارفعي رأسك عاليًا وكوني «جنتلمان».

ولكن السيدة ديبوز تابعت قائلة:

ـ ليت الأمر يقتصر على فتاة من عائلة فينش تعمل نادلة، إنما هناك رجل من نفس العائلة يدافع عن الزنوج أمام المحكمة.

تصلب جيم، فقد أصابته السيدة ديبوز في مقتل هذه المرة وقد أدركت ذلك.

ـ أجل، ماذا جرى في الدنيا حتى نرى رجلًا من عائلة فينش لا يلتزم بالمبادئ التي تربى عليها؟ سأقول لكما لماذا؟

وضعت يدها على فمها وحين أبعدتها سحبت وراءها خيطًا فضيًا ممتدًا من اللُعَاب:

ـ إن أباكما ليس أفضل من الزنوج والحثالة الذين يدافع عنهم.

تحول لون وجه.جيم إلى اللون القرمزي، فجذبته من كمه، في حين تابعتنا السيدة ديبوز ونحن نواصل سيرنا على الرصيف بخطبة لاذعة حول الانحطاط الأخلاقي لعائلتنا، وكانت المقدمة المنطقية لها أن نصف عائلة فينش في مستشفى المجانين على أية حال، ولكن لو كانت والدتنا على قيد الحياة لما كنا سنصل إلى مثل هذه الحال.

لم أكن أعرف ما الشيء الذي أزعج جيم أكثر، غير أنني استأت من تقييم السيدة ديبوز للصحة العقلية للعائلة، فقد اعتدت سماع الشتائم التي توجه إلى أتيكوس، ولكن كانت هذه أول شتائم أسمعها من شخص بالغ، وباستثناء تعليقاتها عن أتيكوس فإن هجوم السيدة ديبوز كان لا يزيد عن كونه أمرًا معتادًا. كان في الجو شيء ينم عن عبير الصيف: ففي الظل كان الجو باردًا ولكن الشمس دافئة، وهذا دليل على أن الأوقات الطيبة آتية: العطلة المدرسية وقدوم ديل.

اشترى جيم محركه البخاري وذهبنا إلى محلات «آلمور» لشراء العصا الموسيقية. لم يشعر جيم بمتعة حصوله على ما ظفر باقتنائه، فقد دفعه في جيبه وسار إلى جانبي صامتًا في اتجاه المنزل. وفي الطريق إلى المنزل كِدْتُ أصطدم بالسيد لِنك ديس (Mr. Link Deas) الذي صاح: «انتبهي يا سكاوت» وذلك حين قذفت بالعصا في الهواء ولم أنجح في التقاطها، وحين اقتربنا من منزل السيدة ديبوز كانت عصاي قد اتسخت بسبب سقوطها في الطين مرات عديدة.

لم تكن هناك في المدخل الأمامي لمنزلها.

في السنوات التي تلت، كنت أحيانًا أتساءل عن السبب الذي دفع جيم للقيام بما فعله ذلك اليوم، وعما جعله يخالف ميثاق «كن جنتلمان يا بني» ومرحلة الاستقامة المصحوبة بالخجل التي تملكته أخيرًا. ربما تحمل جيم من المضايقات بسبب دفاع أتيكوس عن الزنوج بقدر ما تحملت أنا، وكنت قد سَلَّمت بقدرته على التحكم في أعصابه، فهو في الأصل هادئ الطبع وليس عصبيًا، حينذاك فكرت في أن التفسير الوحيد لما فعله هو أنه قد فقد عقله لعدة دقائق.

إن ما فعله جيم كان يمكن أن أفعله بكل بساطة لو لم أكن ملتزمة بتحذيرات أتيكوس التي تضمنت، حسبما افترضتُ، عدم الشجار مع السيدات العجائز. كنا قد اقتربنا من بوابة منزلها حين انتزع جيم عصاي الموسيقية من يدي وجرى بها كالمجنون مرتقيًا السلم حتى وصل إلى فناء السيدة ديبوز الأمامي. فعل ذلك ناسيًا ما أوصاه به أتيكوس، وناسيًا كذلك أنها تخبئ مسدسًا تحت شيلانها، وأنه لو أخطأت السيدة ديبوز التصويب فلن تخطئ خادمتها «جيسي» (Jessie).

لم يهدأ حتى قطع رءوس كل شجرة كاميليا لدى السيدة ديبوز، وحتى امتلأت الأرض بالبراعم والأوراق الخضراء، ثم قام بلَيّ عصاي على ركبته وكسرها إلى جزأين ورماها على الأرض.

أثناء ذلك كنت أصرخ عاليًا، شد جيم شعري وقال إنه لا يبالي بما فعل وإنه مستعد لإعادة ما فعله إذا أتيحت له الفرصة، وإني إذا لم أكف عن الكلام فسوف ينتف كل شعرة في رأسي. لم أسكت فركلني ففقدت توازني ووقعت على وجهي. رفعني جيم بخشونة ولكنه بدا آسفًا لما فعله.... ولم يكن هناك ما يقال.

لم نشأ أن نتوجه للقاء أتيكوس ذاك المساء لدى عودته إلى المنزل ؛ فتوارينا في المطبخ حتى رمتنا كالبورنيا خارجًا. وبطريقة سحرية ما، بدا أن كالبورنيا عرفت بكل ما جرى. لم تكن مصدر عزاء حقيقي لنا لكنها أعطت جيم فطيرة دافئة قسمها نصفين وأشركني فيها، وكان قوامها أشبه بالقطن الذي يصعب بَلْعه.

ذهبنا إلى غرفة المعيشة وأخذت مجلة لكرة القدم الأمريكية ووجدت صورة لديكسي هاول[1] (Dixie Howell) وقلت: «إنه يشبهك». كان ذلك ألطف شيء يمكن أن أقوله ولكنه لم يكن مجديًا. جلس بجوار النافذة، وراح ينتظر وهو متقوقع في الكرسي الهزاز. ثم خبا ضوء النهار.

وبعد فترة مرت علينا كحقْبَتَين جيولوجيتين، سمعنا صوت احتكاك نعل حذاء أتيكوس بالسلم الأمامي. أغلق الباب بشدة، مرت فترة صمت ـ فأتيكوس الآن عند شماعة القبعات في القاعة ـ ثم سمعناه ينادي: «جيم». كان صوته يشبه زفيف الرياح الشتوية.

---

(١) ديكسي هاول (١٩١٢ـ ١٩٧١) هو لاعب كرة قدم أمريكية شهير في ولاية ألاباما. (المترجمة).

ضغط أتيكوس مفتاح نور السقف في غرفة المعيشة فوجدنا هناك متجمدين ساكنين. كان يمسك عصاي الموسيقية بإحدى يديه وشرائط الزينة الصفراء المتسخة تتدلى على السجادة. مد يده الأخرى التي كانت تمسك ببراعم زهور الكاميليا.

قال:

ـ جيم، هل فعلت ذلك؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ ولماذا؟

قال جيم بصوت خفيض:

ـ قالت إنك تدافع عن الزنوج والحثالة.

ـ هل فعلت هذا بسبب قولها ذلك.

تحركت شفتا جيم ولكن «نعم يا سيدي» التي قالها لم تكن مسموعة.

ـ يا بني، لا شك عندي في أنك تضيق بزملائك بسبب تعليقاتهم حول دفاعي عن الزنوج كما تقول، ولكن أن تفعل شيئًا كهذا لسيدة عجوز مريضة فهو أمرٌ لا يمكن التسامح بشأنه، إني أنصحك أن تذهب لتتحدث مع السيدة ديبوز ثم تعود إلى البيت مباشرة.

لم يتحرك جيم.

ـ هيا، اذهب.

مشيت وراء جيم عند خروجه من غرفة المعيشة، فقال أتيكوس: «عودي إلى هنا»، فعدت.

أمسك أتيكوس بصحيفة «موبيل برس» (Mobile Press) وجلس على الكرسي الهزاز الذي غادره جيم قبل قليل. وأُقسم أنني لم أفهم كيف استطاع أن يجلس هنا بكل برود ليقرأ الجرائد بينما ابنه الوحيد معرض للقتل بمسدس من مخلفات الجيش الفدرالي. نعم...كان جيم يعاديني أحيانًا حتى أكاد أقتله، ولكن حين تصل الأمور إلى هذا الحد، فإن جيم هو كل ما أملك في دنياي. لم يبدُ على أتيكوس أنه يُدْرِك ذلك.... وربما كان مدركًا ولكنه لا يبالي.

تملكني شعور بالكراهية تجاه أتيكوس بسبب موقفه ذلك، ولكن الشعور بالإرهاق يطغى على المرء عندما يكون متورطًا في المشكلات ؛ فسرعان ما وجدتني أختبئ في حضنه وهو يطوق ذارعيه من حولي.

قال:

ـ صِرْتِ فتاة كبيرة، ولم يعد في إمكاني أن أهدهدك.

ـ أنت لا تبالي بما قد يحدث له، لقد أرسلته إلى هناك ليقتل بالرصاص بينما كان كل ما فعله هو الوقوف موقف الدفاع عنك.

دفع أتيكوس برأسي تحت ذقنه:

ـ لم يحن وقت القلق بعد، لم أتوقع أن يتهور جيم بسبب هذه المشكلة، بل كنت أظن أني سألاقي منكِ مصاعب أكثر.

قلت: إني لا أرى سببًا في المحافظة على رباطة جأشنا، وإني لا أعرف أحدًا في المدرسة يضطر إلى المحافظة عليها.

قال أتيكوس:

ـ يا سكاوت، حين يجيء الصيف سيكون عليك المحافظة على رباطة جأشك فيما يتعلق بأشياء أسوأ بكثير... أعلم أن ذلك ليس عدلًا بالنسبة لك ولجيم، ولكن يجب علينا أحيانًا أن نبذل قصارى جهدنا بالرغم من المصاعب، وأن نتصرف على نحو مناسب حين يجب أن نواجه شيئًا ما. حسنًا، إن كل ما يمكنني قوله الآن هو أنكما حين تكبران، أنت وجيم، ربما ستتذكران هذا كله وستشعران بأني لم أتخلَّ عنكما. إن هذه القضية، قضية توم روبنسون، مسألة تتعلق بجوهر ضمير الإنسان يا سكاوت، ما كنت سأستطيع أن أذهب إلى الكنيسة وأن ألتزم بالصلاة لله إذا لم أحاول مساعدة ذلك الشخص.

ـ أتيكوس، لا بد أنك مخطئ.

ـ كيف ذلك؟

ـ حسنًا، يبدو أن معظم الناس يعتقدون أنهم على صواب وأنك على خطأ.

قال أتيكوس:

ـ إن لهم الحق كل الحق في أن يظنوا ذلك، بل إن آراءهم جديرة بأن تُحترم، ولكن قبل أن أستطيع التوافق مع الناس، عليّ أن أتمكن من التوافق مع نفسي، فالشيء الوحيد الذي لا يلتزم برأي الأغلبية هو ضمير الإنسان.

وحين عاد جيم وجدني ما زلت في حضن أتيكوس.

قال أتيكوس:

ـ حسنًا يا بني؟

أوقفني أتيكوس على قدمي، فاسترقت نظرات فاحصة إلى جيم، بدا وكأنه متماسك تمامًا، لكني لاحظت أن تعبيرًا غريبًا يكسو وجهه، ربما أعطته جرعة من الكالوميل[1] (Calomel).

لقد نظفت لها الفناء واعتذرت لها، ولكني لا أعني ما قلت، ووعدتها بالعمل في حديقتها كل سبت كي أحاول إنبات زهورها من جديد.

قال أتيكوس:

ـ لا معنى لاعتذارك عما لم تعنه يا جيم، إنها سيدة عجوز مريضة، لا يمكن محاسبتها على ما تقوله أو تفعله، كنت أفضل بالطبع لو أنها قالت ما قالته لي وليس لأي منكما، ولكننا لا يمكن أن نتوقع أن نحصل دائمًا على ما نريده.

بدا جيم مفتونًا بزهرة مرسومة على السجادة، قال:

ـ يا أتيكوس، إنها تريدني أن أذهب لأقرأ لها.

ـ تقرأ لها؟

ـ نعم يا سيدي. تريدني أن أذهب عصر كل يوم بعد المدرسة وفي أيام العطلة لأقرأ لها بصوت عال لمدة ساعتين، هل عليَّ أن أفعل ذلك يا أتيكوس؟

ـ بالطبع.

---

(١) هي ماده تستخدم كمسهل للمعدة. (المترجمة).

ـ ولكنها تريد أن أفعل ذلك لمدة شهر كامل.

ـ إذًا فستفعل ذلك مدة شهر كامل.

طبع جيم إصبع قدمه الكبير بلطف في منتصف الزهرة وضغط عليها وأخيرًا قال:

ـ أتيكوس... لا بأس في أن أقوم بهذا العمل على الرصيف، ولكن في الداخل.... إن المنزل من الداخل معتم ومخيف، فهناك ظلال وأشياء غريبة على السقف.

ابتسم أتيكوس وسط عبوسه وقال:

ـ إن ذلك يتواءم مع خيالك، تصور نفسك وكأنك داخل منزل عائلة رادلي.

في يوم الإثنين التالي تسلقنا أنا وجيم السلم الأمامي المنحدر المؤدي إلى منزل السيدة ديبوز ومشينا بهدوء فوق أرض الممر المكشوف، ثم قرع جيم الباب الثاني على اليسار وهو محصن برواية «إيفانهو»[١] (Ivanhoe) وفخور بمعرفته الضافية.

صاح:

ـ سيدة ديبوز!!

فتحت جيسي الباب الخشبي ثم رفعت مزلاج الباب المنخلي.

---

(١) إيفانهو هي رواية للكاتب الأسكتلندي سير وولتر سكوت (Sir Walter Scott). كتبت الرواية عام ١٨١٩ وتدور أحداثها في إنجلترا في القرون الوسطى. (المترجمة).

قالت:

ـ أهذا أنت يا جيم فينش؟ هل معك أختك... لا أعرف.

قالت السيدة ديبوز:

ـ أدخليهما يا جيسي.

أدخلتنا جيسي ثم ذهبت إلى المطبخ.

وعندما عبرنا عتبة المنزل استقبلتنا رائحة مقبضة، رائحة اعتدت عليها في المنازل الكئيبة التي أصابها العطن بسبب الأمطار والتي تستعمل فيها مصابيح زيت الفحم، وأوعية شرب الماء، والملاءات المنزلية غير المبيضة. غمرتني هذه الرائحة بحالة من الخوف والتوقع والترقب.

وفي ركن من الغرفة وجدت سريرًا نحاسيًا، وفيه جلست السيدة ديبوز. تساءلت في نفسي ما إذا كانت أفعال جيم هي التي تسببت في ملازمتها الفراش، وللحظة شعرت بالأسى تجاهها. جلست السيدة ديبوز تحت أكوام من الألحفة وكانت تبدو ودودًا.

وبالقرب من سريرها وُضعت منضدة ذات سطح من المرمر، عليها كوب به ملعقة شاي ومحقنة ذات أُذُنٍ حمراء، وعلبة من القطن الماصّ، وساعة مصنوعة من الصلب ذات ثلاث أرجل.

ـ إذن قد أحضرت معك أختك الصغيرة الرديئة، أليس كذلك؟

ـ هكذا كانت تحيتها لنا.

قال جيم:

ـ أختي ليست رديئة وأنا لست خائفًا منك.

قال جيم ذلك بالرغم من أنني لاحظت أن ركبتيه ترتجفان. توقعت منها هجومًا مُطَولًا، ولكن كل ما قالته كان:

ـ يمكنك أن تبدأ القراءة يا جيريمي.

جلس جيم على كرسي مصنوع من القصب وفتح رواية «إيفانهو». جذبت كرسيًا آخر وجلست إلى القرب منه.

قالت السيدة ديبوز:

ـ اقتربا أكثر. تقدما إلى جوار السرير.

حركنا كرسيينا إلى الأمام وكانت تلك هي المرة الأولى التي أقترب فيها منها إلى هذا الحد، كانت السيدة ديبوز بشعة المظهر، وجهها بلون غطاء الوسادة القذرة وزوايا فمها مبتلة لامعة حيث البلل يندفع كنهر مثلج ينزل في الأخاديد العميقة التي تحيط بذقنها. كما ظهرت على خديها بقع الشيخوخة باللون الأحمر القاني كلون الكبد، أما سواد عينيها الباهتتين فكانا أشبه بدائرتين صغيرتين. كما كانت يداها ممتلئتين وقد نما الجلد الميت فغطى أظافرها. أما فمها فخالٍ من طاقم أسنانها السفلي في حين أن شفتها العليا ناتئة، وبين الحين والآخر كانت تشد شفتها السفلى إلى طاقم أسنانها العلوي حاملة ذقنها معها، وكانت تلك الحركة تسرع من سريان لعابها في أخاديد وجهها.

لم أسرف في التطلع إليها على كل حال، فتح جيم رواية «إيفانهو»مرة أخرى وبدأ القراءة، حاولت متابعته لكنه كان يقرأ بسرعة فلم أستطع مجاراته، وحين كانت تصادفه كلمة صعبة لا يعرف معناها كان يتجاوزها، ولكن السيدة ديبوز كانت تستوقفه وتطلب منه أن يتهجَّاها. قرأ جيم لما

يقرب من عشرين دقيقة، نظرت خلالها لرف المدفأة الملطخ وللخارج عبر النافذة ثم إلى أي شيء يجعلني أتجنب النظر إليها. وبينما راح يقرأ، لاحظت أن تصحيحات السيدة ديبوز أصبحت أقل وأكثر تباعدًا، إلى الحد الذي سمح لجيم بأن يترك جملة عالقة في الهواء بدون أن تكتمل، لم تكن تصغي إذن.

نظرت تجاه السرير.

كان شيء ما قد حدث لها، فقد استلقت على ظهرها وهي مغطاة بالألحفة وكان لا يرى منها سوى الرأس والكتفين. تحرك رأسها ببطء من جانب إلى آخر، ومن وقت إلى آخر كانت تفتح فمها إلى آخره حتى استطعت أن أرى لسانها يتحرك ببطء. تجمعت خيوط اللعاب على شفتيها وسرعان ما كانت تشفطها إلى الداخل ثم تفتح فمها ثانية. بدا فمها وكأن له كينونة خاصة وكأنه يعمل على نحو مستقل عن بقية جسمها، خارجيًا وداخليًا، وكأنه قوقعة ظهرت وقت انحسار الماء عن الشاطئ.

كان فمها يصدر أحيانًا صوتًا يوحي بأن هناك مادة لزجة قد وصلت إلى درجة الغليان.

جذبت جيم من كمه.

نظر إليّ جيم ثم إلى السرير. تأرجح رأسها كعادته بانتظام تجاهنا فقال جيم:

ـ سيدة ديبوز! هل أنت بخير؟

ولكنها لم تسمعه.

أطلقت الساعة رنينها فأفزعتنا، وبعد دقيقة، وأعصابنا لا تزال على

توترها، مشينا أنا وجيم على الرصيف متجهين للمنزل، لم نهرب بل صرفتنا جيسي: فقبل أن يصل رنين المنبه إلى مداه وصلتْ إلى الغرفة وراحت تدفعنا نحو الخارج قائلة:

ـ هيا إلى المنزل.

تردد جيم عند الباب.

قالت جيسي:

ـ لقد حان وقت إعطائها الدواء.

لمحت جيسي والباب يغلق من خلفنا، وهي تسرع نحو سرير السيدة ديبوز.

وصلنا إلى المنزل في الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة، ولعبنا أنا وجيم بالكرة في الفناء الخلفي حتى موعد لقاء أتيكوس. أحضر أتيكوس قلمَي رصاص صفراوين لي ومجلة كرة القدم الأمريكية لجيم، وكان ذلك في تصوري مكافأة ضمنية لنا عن أول جلسة مع السيدة ديبوز. حكى له جيم ما حدث.

سأل أتيكوس:

ـ هل أخافتكما؟

ـ كلا يا سيدي، ولكنها كريهة جدًا. وتنتابها نوبات أو ما شابه، كما أنها تبصق كثيرًا.

ـ إنها لا تستطيع فعل شيء غير ذلك. حين يكون الناس مرضى فإنهم أحيانًا لا يبدون مقبولي الشكل.

قلت:

ـ لقد أخافتني.

نظر إليّ أتيكوس من فوق نظارته وقال:

ـ لست مضطرة للذهاب مع جيم كما تعلمين.

كان عصر اليوم التالي عند السيدة ديبوز كاليوم الأول، وهكذا الذي تلاه، حتى وضح لي تدريجيًا أن الأمور تسير على نفس الوتيرة: يبدأ كل شيء على نحو اعتيادي. أي أن السيدة ديبوز تطارد جيم لفترة بموضوعاتها المفضلة، بزهور الكاميليا الخاصة بها وبميول أبينا المتعلقة بحبه للزنوج، ثم تصمت تدريجيًا، وبعدها تغيب عن الوعي. وعندما يرن جرس المنبه تصرفنا جيسي ويصبح بقية النهار ملكًا لنا.

قلت لأتيكوس في إحدى الأمسيات:

ـ من هو بالضبط «محب الزنوج»؟

ـ عَبَسَ وجه أتيكوس.

ـ هل دعاك أحد بهذا اللقب؟

ـ لا يا سيدي، ولكن السيدة ديبوز تدعوك بهذا اللقب، فتمهد كل يوم لجلسة العصر بأن تدعوك «محب الزنوج»، كما أن فرانسيس دعاني بهذا اللقب في عيد الميلاد الماضي، وكانت تلك هي المرة الأولى التي سمعته يقولها.

سألني أتيكوس:

ـ ألهذا اشتبكتِ معه في شجار؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ إذن لماذا تسألينني عن معناه؟

حاولت أن أشرح لأتيكوس حقيقة الأمر وأن ما جعلني أغضب هو ليس القول ذاته بقدر ما كانت الطريقة التي قيل بها.

طريقة القول كانت وكأنها تشير إلى...

قال أتيكوس:

ـ يا سكاوت، إن تعبير «محب الزنوج» هو أحد التعبيرات التي لا تعني شيئًا، مثلها مثل...... ـ من الصعب تفسير ذلك ـ ولكن هنالك أشخاصًا تافهين وجهلاء يستخدمون هذا التعبير حين يظنون أن شخصًا ما يفضل الزنوج على نفسه، وبالتالي أصبحت عبارة مستخدمة مع بعض الناس من أمثالنا، حين يريدون أن يلقبوا شخصًا ما بلقبٍ وقح.

ـ فأنت إذًا لست «محبًا للزنوج»أليس كذلك؟

ـ بل أنا كذلك. أنا دائمًا أعمل ما في وسعي لأحب الجميع... وأحيانًا يكون ذلك صعبًا يا طفلتي. لا أعتقد أنه من المهين للإنسان أن يلقب بلقب يعتقد من يطلقه عليه أنه مهين. إن ذلك يكشف لنا كم هو مسكين ذلك الشخص. فلا تجعلي الأمر يؤثر فيكِ سلبًا، لذا لا تدعي السيدة ديبوز تحطم معنوياتك. إن لديها من المتاعب ما يكفيها.

وبعد مرور شهر وفي عصر أحد الأيام، شق جيم طريقه عبر مؤلفات سير وولتر سكاوت (Sir Walter Scout)، كما كان جيم يسميه، وأخذت السيدة ديبوز تصحح له في كل مناسبة، فإذا بالباب يطرق فجأة فصاحت هي من الداخل: «ادخل». ودخل أتيكوس. اتجه إلى السرير وأمسك بيد السيدة ديبوز وقال:

ـ كنت قادمًا من المكتب ولم أر ولديّ، فقلت في نفسي ربما لا يزالان هنا.

ابتسمت السيدة ديبوز، ولم أكن أصدق كيف يمكنها أن تجبر نفسها على محادثته في حين أنها تُكِنُّ له كل مشاعر الكراهية، وقالت:

ـ هل تعلم كم الساعة يا أتيكوس؟ إنها الخامسة وأربع عشرة دقيقة. جرس المنبه مضبوط على الساعة الخامسة والنصف. أريدك أن تعلم ذلك.

لقد خطر لي فجأة أننا كنا نبقى كل يوم فترة أطول قليلًا من اليوم السابق عند السيدة ديبوز، وأن الساعة كانت ترن متأخرة بضع دقائق كل يوم، حين كانت تغيب في إحدى نوباتها.

واليوم أخذت تعادي جيم لمدة ساعتين تقريبًا بدون أن تظهر عليها بوادر الإصابة بنوبة، وأحسست أني واقعة في الفخ دون أمل في النجاة، فانطلاق صوت المنبه هو الإشارة للحصول على حريتنا، فإن لم ينطلق في يوم من الأيام فما الذي سنفعله؟

قال أتيكوس:

ـ عندي إحساس أن الأيام التي يقرأ لها فيها جيم أصبحت معدودة. ربما لمدة أسبوع آخر، حتى نتأكد...

نهض جيم:

ـ ولكن.

رفع أتيكوس يده فصمت جيم. وفي الطريق إلى المنزل قال له جيم

إن الوعد بالقيام بتلك المهمة كان لمدة شهر والشهر قد انقضى وهذا ليس عدلًا، قال أتيكوس:

ـ أسبوع واحد آخر يا بني.

ـ لا.

ـ أجل.

وفي الأسبوع التالي وجدنا أنفسنا مرة أخرى في منزل السيدة ديبوز وقد توقف المنبه عن الرنين، إلا أن السيدة ديبوز كانت تصرفنا بعبارة: «هذا يكفي». كان ذلك قبيل المغرب حين كنا نعود للمنزل فنجد أتيكوس يقرأ في صحيفته. وبالرغم من اختفاء نوباتها فإن كل شيء آخر كان ينم عن خصال السيدة ديبوز نفسها: فحين أسهب السير وولتر سكوت في وصف الخنادق والقلاع، أصيبت السيدة ديبوز بالملل وشرعت في هجومها علينا:

ـ يا جيريمي فينش. قلت لك إنك ستعيش لتندم على تدمير أزهار الكاميليا، وأنت نادم على ذلك الآن، أليس كذلك؟

ـ ويؤكد جيم أنه بالفعل نادم.

ظننت أنك تستطيع أن تُهْلِكَ أزهاري، أليس كذلك؟ حسنًا، إن جيسي تقول إن رءوسها بدأت في النمو مرة أخرى. في المرة القادمة يجب عليك أن تعرف كيف تدمر تلك الأزهار بالطريقة المناسبة، أليس كذلك؟ يجب أن تقتلعها من جذورها، أليس كذلك؟

وأكد جيم أنه سيفعل ذلك.

لا تهمهم حين تخاطبني يا فتى. ارفع رأسك وقل: «نعم يا سيدتي». لا أظن أنك تشعر بالرغبة في رفع رأسك وأبوك على ما هو عليه.

ترتفع ذقن جيم وهو يحدق في السيدة ديبوز بوجه خال من الامتعاض، فخلال الأسابيع التي مرت استطاع أن يهيئ تعبيرًا لطيفًا محايدًا كان يرسمه لها ردًا على ابتكاراتها التي تجمد الدم.

وأخيرًا جاء اليوم الذي قالت فيه السيدة ديبوز في وقت العصر: «هذا يكفي، لقد انتهينا.... طاب يومكما».

لقد انتهى الأمر، تقافزنا على الرصيف في نشوة من الراحة المطلقة، ورحنا نثب ونصيح فرحًا.

بدا هذا الربيع جميلًا: فالأيام أصبحت أطول وراحت تمنحنا مزيدًا من الوقت للعب. شُغِل جيم معظم الوقت بالإحصائيات الحيوية المتعلقة بكل لاعبي كرة القدم في الكليات الجامعية للأمة كلها. وفي كل ليلة كان أتيكوس يقرأ لنا الصفحات الرياضية من الصحيفة. قد يشارك منتخب ولاية ألاباما في مباريات بطولة «الروز بول»[1] (Rose Bowl) مرة أخرى هذا العام، وذلك بناء على إمكانيات أعضاء المنتخب الذين ما كنا قادرين على لفظ اسم أي واحد منهم.

رن جرس الهاتف بينما كان أتيكوس منهمكًا في قراءة إحدى مقالات «ويندي سيتون» (Windy Seaton). رد على الهاتف، ثم اتجه إلى حامل القبعات وقال:

---

(١) الروز بول (Rose Bowl) هي المباريات التي تشارك فيها فرق جامعات كرة القدم الأمريكية. عادة ما تقام المباريات في اليوم الأول من شهر يناير من كل عام على الملاعب التي تحمل نفس الاسم في بسادينا؛ كاليفورنيا (Pasedena, California)، وقد بدأ هذا التقليد في ١ يناير ١٩٠٢ (المترجمة).

سأذهب لأرى السيدة ديبوز، وسأعود بعد قليل.

ولكن أتيكوس ظل هناك إلى ما بعد وقت النوم وعند عودته كان يحمل معه علبة من الحلوى. جلس أتيكوس في غرفة المعيشة ووضع العلبة على الأرض بالقرب من كرسيه فسأله جيم:

ـ ما الذي كانت تريده؟

كنا لم نر السيدة ديبوز منذ شهر، فلم نعد نراها تجلس في الفناء الأمامي عند مرورنا بمنزلها.

قال أتيكوس:

ـ لقد ماتت يا بني. ماتت منذ دقائق قليلة.

قال جيم:

ـ ياه... حسنًا.

قال أتيكوس:

ـ ما قلته صحيح، لأنه أمر حسن؛ فلم تعد تعاني بعد الآن، فقد كانت مريضة منذ فترة طويلة يا بني، ألم تعرف طبيعة تلك النوبات التي كانت تصيبها؟

هز جيم رأسه.

قال أتيكوس:

ـ السيدة ديبوز كانت مدمنة مورفين، كان بالنسبة لها مسكنًا للآلام منذ سنوات طويلة، الطبيب هو الذي وصفه لها ؛ فكان يمكن لها أن تقضي

بقية حياتها وهي تتناوله وأن تموت دون الإحساس بكل تلك الآلام، ولكنها شديدة العناد.

قال جيم:

ـ يا سيدي؟

قال أتيكوس:

ـ قبل مغامرتك الطائشة مباشرة استدعتني لأحرر لها وصيتها. لقد أخبرها الدكتور رينولدز بأن أمامها شهورًا قليلة قبل أن توافيها المنية، كانت أمورها المالية مرتبة تمامًا ولكنها قالت: «هناك شيء واحد غير مرتب بعد».

شعر جيم بالحيرة فقال:

ـ وما كان ذلك؟

ـ قالت إنها ستغادر هذا العالم وهي غير مدينة بالفضل لشيء أو لأحد. يا جيم، حين تكون مريضًا كما كانت هي، فإنه من الصواب أن تتناول أي شيء لتخفيف المرض، ولكنها لم تر ذلك صوابًا، قالت إنها تنوي أن تخلص نفسها من إدمان المورفين قبل أن تموت، وقد فعلت ذلك حقًا.

قال جيم:

ـ أتعني أن نوباتها تلك كانت بسبب ذلك؟

ـ نعم، هذا صحيح، فحين كنت تقرأ لها أشك في أنها كانت تسمع كلمة واحدة أغلب الوقت؛ فذهنها وجسدها كانا في كامل التركيز مع

المنبه، ولو لم تقع بين يديها بسبب غلطتك لكنت قد أرسلتك لتقرأ لها على أية حال. وربما كان ذلك بالنسبة لها نوعًا من صرف الانتباه، وكان هناك سبب آخر.

قال جيم:

ـ هل ماتت وقد تحررت من الإدمان؟

ـ حرة كهواء الجبل وكانت واعية حتى آخر لحظة تقريبًا... واعية.

وهنا ابتسم أتيكوس واستأنف قائلًا:

ـ ومشاكسة. كانت لا تزال تعارض تصرفاتي من كل قلبها، وقالت إني قد أقضي بقية عمري وأنا أدفع الكفالة المطلوبة لأخرجك من السجن يا جيم، وقد طلبت من جيسي أن تعد لك هذه العلبة.

أمسك أتيكوس بعلبة الحلوي وسلمها لجيم.

فتح جيم العلبة، فإذا بداخلها زهرة كاميليا بيضاء شمعية، محاطة بلفائف من القطن الرطب.

جحظت عينا جيم وصرخ وهو يرميها على الأرض:

ـ «يا للشيطانة العجوز، يا للشيطانة العجوز، لماذا لا تتركني وحالي؟».

وفي بادرة احتواء، أسرع أتيكوس بالنهوض. دفن جيم رأسه في صدر قميص أتيكوس الذي قال له: «اسكت... أعتقد أن هذه هي طريقتها كي تقول لك: كلُ شيء على ما يرام الآن يا جيم، كل شيء على ما يرام. أنت تعرف أنها سيدة عظيمة».

رفع جيم رأسه ووجهه قرمزي اللون وقال:

ـ سيدة عظيمة، أبعد كل هذه الأشياء التي قالتها عنك، ما زالت سيدة عظيمة؟

ـ أجل، كانت سيدة عظيمة، لها وجهات نظرها الخاصة، وهي تختلف كثيرًا عن وجهات نظري، ربما... يا بني، لقد قلت لك إنك لو لم تفقد عقلك وتفعل ما فعلته لكنت سأرسلك لتقرأ لها على أية حال. أردتك أن ترى فيها شيئًا خاصًا.... أردتك أن تعرف معنى الشجاعة الحقيقية، بدلًا من أن تفكر في الشجاعة على أنها رجل يحمل بندقية. الشجاعة تكون حين تعلم أنك خاسر حتى قبل أن تبدأ، ولكنك تبدأ على أية حال، وتحاول أن تصل بقضيتك الخاسرة إلى آخرها مهما كان الأمر. قد لا تكسب إلا نادرًا، ولكنك ستكسب على أية حال. لقد كسبت السيدة ديبوز معركتها، كل كيلو جرام من الكيلو جرامات الأربعين التي شكلت وزنها قد كسب تلك المعركة، ووفقًا لوجهة نظرها، فقد ماتت غير مدينة لشيء ولا لأحد. فكانت أشجع شخص عرفته في حياتي.

حمل جيم علبة الحلوى ورماها في النار، ثم التقط زهرة الكاميليا من على الأرض، وحين كنت ذاهبة إلى فراشي رأيته يداعب ورقات الزهرة بأصابعه.... بينما جلس أتيكوس يقرأ جريدته.

الجزء الثاني

الفصل الثاني عشر

كان جيم في الثانية عشرة وكان التعايش معه صعبًا، إذ صار مزاجيا متقلب الطباع، شَرِهًا على نحو مخيف، وقد طلب مني مِرارًا أن أكُف عن إزعاجه، حتى استشرت أتيكوس: «هل تعتقد أنه مصاب بالدودة الشريطية؟». نفى أتيكوس ذلك وقال إن كل ما في الأمر أن جيم يكبر وأن عليّ أن أكون أكثر صبرًا معه، وألا أزعجه إلا بأقل قدر ممكن.

أصاب هذا التغير جيم فيما لا يتعدى بضعة أسابيع، فلم تكن عظام السيدة ديبوز قد بردت في القبر بعد، ورغم أنه كان ممتنًا جدًا لصحبتي له حين كان يذهب ليقرأ لها، فما لبث أن بدا وكأنه تبنى مجموعة غريبة من القيم ومضى يحاول أن يفرضها عليّ. وقد وصل الأمر في مرات عديدة إلى حد أنه كان يُملي عليّ ما ينبغي أن أفعله. وقد انتهت إحدى مشاداتنا الكلامية بأن صاح في وجهي: «لقد حان الوقت لأن تصبحي فتاة وتتصرفي على نحو صحيح»، فانفجرت في البكاء وهربت باحثة عن كالبورنيا.

قالت:

لا تبالي كثيرًا بتصرفات السيد جيم.

السيد جيم؟

ـ أجل، لقد حان الوقت لأدعوه بالسيد جيم.

قلت:

ـ ليس كبيرًا إلى هذا الحد. كل ما في الأمر أنه في حاجة لأن يتلقى «علقة» ساخنة، وأنا لست كبيرة بما فيه الكفاية لأفعل ذلك.

قالت كالبورنيا:

ـ يا طفلتي، لا أستطيع أن أفعل شيئًا. فالسيد جيم يكبر وسوف يحتاج لأن يكون بمفرده الآن، وأن يتصرف كالصبيان، لذا عليكِ أن تأتي إلى هنا، إلى المطبخ، حين تشعرين بالوحدة، سنجد أشياءً كثيرة نقوم بها هنا.

بدأ ذلك الصيف بداية جيدة: أصبح باستطاعة جيم أن يفعل ما يريد، وحلت كالبورنيا بالنسبة لي محل ديل، وقد بدت سعيدة برؤيتي كلما جلست معها في المطبخ، وبينما كنت أراقبها بدأت أراجع نفسي وأكتشف أن الفتيات يتمتعن ببعض المهارات الخاصة.

حل الصيف ولم يأت ديل، ووصلتني رسالة منه ومعها صورة، كتب في الرسالة أن لديه أبًا جديدًا صورته مرفقة مع الرسالة، وأنه مضطر إلى البقاء في مدينة ميريديان لأنهما خططا لبناء مركب صيد. كان أبوه محاميًا مثل أتيكوس، ولكنه أصغر سنًا بكثير. كان أبو ديل الجديد وسيمًا مما جعلني أشعر بالسعادة لأن ديل قد حظي به، ولكني شعرت بالانسحاق وقد أنهى ديل رسالته قائلًا إنه سيحبني إلى الأبد وأن عليّ ألاّ أقلق، فهو سيأتي ليأخذني ويتزوجني عندما يحصل على ما يكفيه من المال، ورجاني أن أكتب إليه.

على الرغم من أن ديل كان خطيبي فإن ذلك لم يعوضني عن غيابه، ولم أكن قد فكرت في الأمر من قبل، ولكن الصيف كان يعني وجود ديل عند بركة السمك وهو ينفث دخان إحدى لفائفه، كما كان يعني التماع عينيه المتألقتين بخطط معقدة كفيلة باستدراج بو رادلي خارج منزله. كان الصيف يعني أيضًا السرعة التي كان ديل يمد بها رأسه ليقبلني بينما جيم ينظر باتجاه آخر، ومدى الشوق الذي كان كل منا يشعر أن الآخر يكنه له، فمعه... الحياة تمضي على وتيرة واحدة، وبدونه... الحياة لا تطاق. هكذا ظللت تعيسة ليومين.

وكأنما لم يكن ذلك كافيًا، فقد انعقد برلمان الولاية في جلسة طارئة وتركنا أتيكوس لمدة أسبوعين. كان الحاكم يسعى إلى تحريك عجلة الحكومة قليلًا، فقد كانت هناك اعتصامات في برمنجهام، وطالت صفوف الناس التي تنتظر الخبز، وأصاب الفقر سكان الريف، ولكن كانت تلك الأمور بعيدة عن عالمي أنا وجيم.

وفي صباح أحد الأيام دهشنا حين شاهدنا رسمًا كاريكاتيريًا في صحيفة «مونتجومري أدفرتايزر» (Montgomery Advertiser) فوق عنوان يقول: «مايكوم فينش»مُصَوّرَةً أتيكوس حافي القدمين يرتدي «بنطلونًا»قصيرًا وقد قيد ـ واقفًا ـ إلى مكتب بينما أخذ يكتب بعناية على لوح حجري وبعض الفتيات التافهات يَصِحْن تجاهه ويرددن عبارة «يو... هو».

قال جيم شارحًا:

هذا تكريم له. إنه يقضي وقته للقيام بأشياء ما كان يمكن أن تتم لولا أن هناك من يقوم بها.

ـ هـــه؟

وبالإضافة إلى الصفات الجديدة التي اكتسبها جيم أخيرًا، فقد أصبح أكثر حكمة بدرجة كانت تثير غضبي.

ـ آه يا سكاوت، هذا أشبه بإعادة هيكلة أنظمة الضرائب للمقاطعات وما شابه، فمعظم الناس يرونها مادة جافة إلى حد بعيد.

وكيف عرفت ذلك؟

ـ هيا اتركيني وشأني، فأنا أقرأ الصحف.

حصل جيم على أمنيته إذ انتقلت إلى المطبخ.

قالت لي كالبورنيا فجأة وهي تقشر البازلاء:

ـ ماذا تراني فاعلة يوم الأحد حين تحضران للصلاة معي في الكنيسة؟

ـ لا شيء، على ما أظن ؛ لقد ترك لنا أتيكوس ما نتبرع به.

ضاقت عينا كالبورنيا واستطعت أن أعرف ما الذي كان يدور في رأسها. قلت:

ـ يا كال! تعرفين أنه لن تبدر منا إلا التصرفات اللائقة؛ فمنذ أعوام لم نسئ التصرف في الكنيسة.

من الواضح أن كالبورنيا تذكرت أحد الأيام الممطرة حين كنا متحررين من سيطرة الأب والمدرسة كليهما، حينئذ، انطلق تلاميذ الفصل بحرية، فقمنا بربط الطفلة يونيس آن سيمبسون (Eunice Ann Simpson) في الكرسي ووضعها في غرفة الفرن، ثم نسيناها وذهبنا إلى الطابق العلوي للكنيسة، وحينما كنا نصغي بهدوء إلى

الموعظة الدينية صدرت ضجة مُدَوية من جهة أنابيب التدفئة، وظلت الضجة مستمرة حتى ذهب أحدهم ليستطلع الأمر فعاد بيونيس آن وهي تعلن عن عدم رغبتها في لعب «الاستغماية» بعد الآن. قال جيم فينش إنها ما كانت لتحترق لو كان لديها ما يكفي من الإيمان، ولكن الجو حارٌ هناك على أية حال، احتجت قائلة:

وبالإضافة إلى ذلك يا كال فإن هذه ليست المرة الأولى التي يتركنا فيها أتيكوس وحدنا.

ـ نعم، ولكنه يتأكد أولًا من أن مُدَرّسَتك ستكون هناك، ولم أسمعه يقول ذلك هذه المرة، أعتقد أنه قد نسي.

حَكّتْ كالبورنيا رأسها وابتسمت فجأة وقالت: «هل تريدين أنت والسيد جيم أن تأتيا معي إلى الكنيسة غدًا؟».

حقًا؟

ابتسمت كالبورنيا وقالت:

ـ ما رأيكما؟

لم يسبق لكالبورنيا أن تعهَّدتني بمثل تلك الرعاية الفائقة أثناء استحمامي ليلة السبت، فقد جعلتني أُدلك جسمي بالصابون مرتين، وأستخدم ماءً جديدًا لشطف الصابون من جسمي كل مرة، كما أدخلت رأسي في الحوض وغسلته بصابون الأوكتاجين والصابون المصنوع من زيت الزيتون، وعلى الرغم من أن كالبورنيا كانت تثق في جيم منذ سنوات فقد اقتحمت عليه حَمّامَه هذه المرة وجعلته ينفجر غيظًا ويصيح: «ألا يمكن أن يستحم أي شخص في هذا البيت دون أن تراه العائلة بأكملها»؟

وفي صباح اليوم التالي بدأت نشاطها مبكرًا كي «تتأكد من هندامنا»، وكانت كالبورنيا حين تبيت في منزلنا تستخدم سريرًا من النوع الذي يُطْوَى، تضعه في المطبخ، وفي ذاك الصباح كان السرير مغطى بملابسنا الخاصة بيوم الأحد، وكانت قد استخدمت كثيرًا من النشا على فستاني فبدا وكأنه خيمة منصوبة حين جلست وأنا أرتديه، كما جعلتني أرتدي «جونلة»داخلية وشدّت بقوة حزامًا من القماش حول خصري، ثم طلت حذائي المصنوع من الجلد بقطعة باردة من الخيش حتى أصبح كالمرآة المصقولة ترى وجهها فيها.

قال جيم:

ـ يبدو وكأننا ذاهبان إلى «الماردي جرا»[1] (Mardi Gras). ما الحكاية يا كال؟

ردت كال قائلة:

ـ لا أريد أن يقول أي شخص إني لا أعتني بأولادي. يا سيد جيم، لا يمكنك أبدًا أن ترتدي رباط عنق مع تلك «البدلة»، إنها خضراء.

ـ ما المشكلة في ذلك؟

ـ البدلة زرقاء، ألا ترى ذلك؟

زمجرت أنا ثم قلت:

---

(١) الماردي جرا أو «الثلاثاء السمين» هو اليوم السابق لـ «أربعاء الرماد» (Ash Wednesday) وهو آخر أيام المهرجان الذي يقع في الأيام الثلاثة التي تسبق بداية الصيام الكبير عند المسيحيين. ومن أهم المدن الأمريكية التي تحتفل بهذا المهرجان نيو أورلينز (New Orleans) ولويزيانا (Louisiana) وموبيل بولاية ألاباما. (Mobile, Alabama) (المترجمة).

ـ ها ها، جيم مصاب بعمى ألوان.

احمر وجهه غضبًا، ولكن كالبورنيا قالت:

ـ هيا لا نريد مزاحًا، عليكما الذهاب إلى «كنيسة الشراء الأول» (First Purchase) والابتسامة تعلو وجهيكما.

تقع كنيسة الشراء الأول الأفريقية الميثودية الأسقفية في الحي خارج الحدود الجنوبية للمدينة، عبر طريق نقل الخشب الترابي القديم، وكان مبنى الكنيسة قديمًا مصنوعًا من ألواح خشب مقشورة الدهان، وكانت الكنيسة الوحيدة في مايكوم التي لها برج وجرس، وكانت تسمى «الشراء الأول»لأن ثمنها دُفِعَ من الرواتب الأولى التي كسبها العبيد المحررون. وقد اعتاد الزنوج الصلاة فيها أيام الآحاد بينما كان البيض يلعبون فيها القمار بقية أيام الأسبوع.

صُنِعَ فناء الكنيسة من الطين الحجري وكذلك المقابر القريبة منه، وإذا توفي شخص ما خلال فترة الجفاف وانقطاع المطر، غُطِي الجثمان بقطع الثلج حتى يهطل المطر فتصبح الأرض طرية. كانت بعض القبور متهالكة، أما الحديثة منها فكانت حدودها مرسومة بقطع الزجاج اللامع الملون المكسورة وزجاجات الكوكاكولا المحطمة، أما مانعات الصواعق التي كانت تطل إطلالة الحارس على بعض القبور فقد كانت تقف شاهدةً على هؤلاء الموتى الذين يفتقرون إلى الراحة في نومتهم الأبدية، كما ظهرت شواهد القبور التي عَمَّرَهَا ساكنوها منذ وقتٍ غير بعيد فكانت مقبرة تَلفُّها السعادة.

حين دخلنا فناء الكنيسة، رحبت بنا الرائحة الحلوة المشوبة بالمرارة الدافئة، رائحة الزنجي النظيف: خليط من كريم الشعر من نوع «قلوب

الحب» الممزوج بالنشوق وكولونيا «هويت» والتبغ الممضوغ والنعناع وبودرة التلك.

ولما رأوني وجيم مع كالبورنيا، تراجع الرجال للخلف ورفعوا قبعاتهم، أما النساء فوضعن أيديهن على خصورهن وهي من علامات الاحترام التي تستخدم في غير أيام الآحاد، ثم أفسحوا الطريق لكي نمر نحو باب الكنيسة. مشت كالبورنيا بيني وبين جيم، وهي ترد على التحيات الصادرة عن جيرانها المرتدين الملابس زاهية الألوان.

قال صوت من خلفنا:

ـ ماذا تقصدين بذلك يا آنسة كال؟

التفت ذراعا كال حول أكتافنا فتوقفنا والتفتنا: كانت تقف خلفنا امرأة زنجية طويلة ترمي ثِقَلها على رجل واحدة وقد أسندت مرفقها الأيسر إلى منحنى ردفها وراحت تشير إلينا بكفٍ مقلوبة، كان رأسها أشبه بالرصاصة ولها عينان على شكل لوزتين وأنف مستقيم وفم يشبه القوس الهندي، بدت وكأن طولها يبلغ سبعة أقدام.

أحسست بيد كالبورنيا تحفر في كتفي ثم خاطبت المرأة بلهجة لم أسمعها من قبل: «ماذا تقصدين يا لولا؟» (Lula). تحدثت بأسلوب هادئ ولكنه ينم عن احتقار.

ـ أريد أن أعرف لماذا تحضرين أولادًا بِيضًا إلى كنيسة الزنوج؟

ـ هذان ضيفاي.

هذا ما قالته كالبورنيا ولكني شعرت مرة أخرى أن صوتها بدا غريبًا إذ كادت أن تتحدث كبقيتهم.

ـ حسنًا، وأظن أنك ضيفة في منزلة عائلة فينش بقية أيام الأسبوع.

سرت همهمة بين الحضور وهمست كالبورنيا في أذني: «لا تقلقي». واهتزت الزهور التي كانت في قبعتها من شدة السخط، وحين اقتربت «لولا» قاطعة الممر باتجاهنا قالت كالبورنيا:

ـ توقفي عندك يا زنجية.

توقفت لولا، ولكنها قالت:

ـ لا يجب عليك إحضار الأولاد البيض إلى هنا... إن لهم كنيستهم ولنا كنيستنا. هذه كنيستنا، أليس كذلك يا آنسة كال؟

قالت كالبورنيا:

ـ ولكنه نفس الإله، أليس كذلك؟

قال جيم:

ـ لنذهب إلى البيت يا كال، فهم لا يريدوننا هنا.

وافقت جيم؛ فنحن لم نَلْقَ الترحيب في ذلك المكان واعتراني شعور لم تؤيده عيناي بأننا محاصرون؛ فقد بدوا وكأنهم يقتربون أكثر فأكثر، ولكني حين نظرت إلى كالبورنيا رأيت عينيها ضاحكتين، وحين نظرت إلى الممر مرة أخرى وجدت «لولا» قد اختفت وظهر مكانها مجموعة كبيرة متماسكة من الملونين.

خطا أحدهم خارج المجموعة. كان زيبو عامل القمامة الذي قال: «يا سيد جيم، نحن في غاية السعادة أن تكونا بيننا، فلا تهتما بلولا، فهي مشاكسة لأن الكاهن سايكس (Reverend Sykes) قد هدد بتطهيرها،

إنها معروفة بمشاكساتها منذ زمن بعيد، ولديها أفكار غريبة، وأساليبها متعجرفة.... يسرنا وجودكما معنا».

بعد هذا قادتنا كالبورنيا إلى باب الكنيسة حيث حَيّانا الكاهن سايكس وقادنا إلى المقعد الأمامي.

كانت «كنيسة الشراء الأول» دون سقف ودون طلاء من الداخل وامتدت على جدرانها قناديل الكيروسين المعلقة على حوامل نحاسية، وكانت الدكك الخشبية المصنوعة من خشب الصنوبر تستخدم لجلوس المصلين. ظهرت خلف المنبر المصنوع من البلوط لافتة من الحرير الزهري الذي بَهَتَ لونه من القِدَم وقد كتب عليه: «الله محبة»، وهي الزينة الوحيدة الموجودة بالكنيسة باستثناء صورة فوتوغرافية وحيدة للوحة «هنت» (Hunt) المسماة بـ «نور العالم»[1]. لم يكن هناك أثر لبيانو أو أورج أو كتب التراتيل أو برامج الكنيسة، وهي الأشياء الكهنوتية المألوفة التي نراها كل أحد؛ فالكنيسة من الداخل كئيبة باردة تلاشى ما بها من رطوبة مع قدوم أفراد الرعية وتجمعهم، وعند كل مقعد كانت هناك مروحة رخيصة مصنوعة من الورق المقوى تحمل دعاية لشركة تجارية باسم شركة تندال هارد وير كو (Tyndal's Hardware Co). وتقول: «أنت تُسَمِّي الشيء ونحن نبيعه لك».

---

(١) لوحة رمزية لوليام هولمان هنت (William Holman Hunt) تصور السيد المسيح وهو يتأهب للطرق على باب مغلق يرمز للضمير الإنساني. تعتبر لوحة «نور الحياة»من أشهر أعمال هنت وأكثرها نجاحًا، وقد رسم صورة مكبرة منها في آخر أيام حياته وهي معروضة الآن في «كاتدرائية سانت بول» (St. Paul Cathedral) بلندن (المترجمة).

أشارت كالبورنيا إليّ وإلى جيم لنجلس في آخر الصف وجلست بيننا. بحثت في حقيبتها وأخرجت منديلها ثم فكت العقدة التي تربط بها المنديل وأعطتني عشرة سنتات كما أعطت جيم مثلها. همس لها جيم: «معنا نقودنا». ردت كالبورنيا: «احتفظا بها، أنتما ضيفاي». بدا على وجه جيم بعض التردد حول مدى أخلاقية احتفاظه بالمبلغ الخاص به، ولكن كياسته الفطرية تغلبت فوضع السنتات العشرة في جيبه. وفعلت كذلك بقطعتي دون تأنيب ضمير.

همست:

ـ كال، أين كتب التراتيل؟

ـ ليس لدينا كتب تراتيل.

ـ ولكن كيف...؟

أسكتتني.

وقف الكاهن سايكس وراء المنبر يحدق في الحاضرين حتى يصمتوا، وهو شخص قصير القامة ممتلئ يرتدي بدلة ورباط عنق أسود وساعة ذهبية تلمع مع انعكاس الضوء عليها من النوافذ ذات الزجاج المصفر.

قال:

ـ أيها الإخوة والأخوات، يسرنا أن نرحب بضيفينا هذا الصباح: السيد فينش وأخته الآنسة فينش، كلكم تعرفون أباهما. وقبل أن أبدأ، سأقرأ عليكم بعض التنويهات.

قلَّب الكاهن سايكس في بعض الأوراق واختار واحدة وأبَعَدها بمقدار مد ذراعه وقال:

ستجتمـع الجمعيــة التبشيريـة في مـنزل الأخـت أنيـت ريفـز (Sister Annette Reeves) يوم الثلاثاء القادم، أحضرن ما أنجزتن من أعمال الحياكة.

واسترسل في القراءة من ورقة أخرى:

ـ كلكم تعرفون مشكلة الأخ توم روبنسون، لقد كان عضوًا مخلصًا من أعضاء «الشراء الأول» منذ أن كان صبيًا. ستقدم التبرعات التي ستجمع اليوم وفي أيام الآحاد الثلاثة القادمة إلى زوجته هيلين (Helen) لمساعدتها على تدبير شئونها العائلية.

نخست جيم هامسًة:

ـ هذا هو المتهم الذي يدافع عنه أتيكوس.

ـ اسكتي.

التفت نحو كالبورنيا ولكنها أسكتتني قبل أن أفتح فمي، وبعد أن خضعت ركزت انتباهي على الكاهن سايكس الذي بدا وكأنه ينتظرني حتى أهدأ ثم قال:

ـ هل يسمح المشرف الموسيقي فيقودنا في أول ترتيلة؟

نهض زيبو من مقعده وسار على امتداد الممشى الأوسط حتى توقف أمامنا وواجه الحضور وهو يحمل كتاب تراتيل مهلهلًا، فتحه ثم قال: «سنغني الترتيلة رقم: مائتين وثلاثة وسبعين».

كان هذا فوق احتمالي. قلت:

كيف سنغني بدون كتاب تراتيل؟

ابتسمت كالبورنيا:

اسكتي يا طفلتي. سترين حالًا.

تنحنح زيبو وقرأ بصوت أشبه بضربات المدافع البعيدة:

«هناك أرض إلى ما وراء النهر».

وبصوت متناغم يتسم بالإعجاز، انطلقت مائة حنجرة تكرر ما قاله زيبو. أما المقطع الأخير الذي انتهى بهمهمة ذات بحّة، فقد تبعها صوت زيبو يقول:

«التي ندعوها الجميلة إلى الأبد».

علت الموسيقى مرة أخرى من حولنا: وتهادت النغمة الأخيرة حتى لحقها زيبو بالبيت التالي:

«ولن نصل إلى ذلك الشاطئ إلا بقوة الإيمان».

تردد الحضور ثم كرر زيبو البيت بنبرات واضحة، فتبعه المنشدون بالغناء وما إن انتهوا من الغناء حتى أغلق زيبو الكتاب، وهي إشارة إلى الحضور كي يتابعوا دون مساعدته.

ومع النغمات المتلاشية لـ«التهليلة» قال زيبو:

«في ذلك البعيد العذب إلى الأبد خلف النهر اللامع مباشرة».

وتتالت الأبيات وتبعتها الأصوات ضمن تناغم بسيط حتى انتهت الترتيلة بهمهمة حزينة.

نَظَرْتُ إلى جيم الذي كان ينظر إلى زيبو بجانبِ عينيه. لم أكن أصدق ذلك أيضًا، ولكننا سمعنا ما سمعناه معًا.

ثم دعا الكاهن سايكس الرب طالبًا منه أن يبارك المرضى والمساكين، وهو إجراء لا يختلف عما يحدث في كنيستنا عدا أن الكاهن سايكس أبدى الاهتمام بعدة حالات خاصة.

كانت موعظته شجبًا صريحًا للخطيئة، ودعمًا مشددًا للشعار الذي كان مكتوبا خلفه على الجدار: وقد حذر رعيته من شرور المشروبات المسكرة والقمار والنساء غير السويات. لقد أثار صانعو المشروبات الكحولية المصنعة محليًا ومن يتاجرون فيها الكثير من المشكلات في الحي، ولكن مشكلات النساء كانت أسوأ. وكما كان يحدث غالبًا في كنيستنا فقد ووجهت بمبدأ «عدم طهارة النساء»، والذي بدا أنه يشغل بال كل القساوسة.

كانت الموعظة تماثل تلك التي أستمع إليها أنا وجيم أسبوعيًا باستثناء اختلاف واحد؛ فقد كان الأب سايكس يستخدم منبره بحرية أكثر للتعبير عن آرائه في السقطات الفردية: فها هو جيم هاردي (Jim Hardy) قد تخلف عن الكنيسة لخمسة آحاد وهو ليس مريضًا، أما كونستانس هاردي (Constance Hardy) فالأفضل لها أن تنتبه إلى تصرفاتها فهناك احتمال كبير أن تتشاجر مع جيرانها، لأنها أقامت حاجزًا ينم عن الإحساس بالبغضاء وصار الوحيد من نوعه في تاريخ الحي.

أنهى الكاهن سايكس موعظته ثم وقف بالقرب من منضدة أمام المبنى وطلب تبرعات الصباح، وهو إجراء لم أعتد عليه لا أنا ولا جيم. تقدم الرعية، الواحد تلو الآخر، وراحوا يرمون بقطع الخمسة والعشرة

سنتات في وعاء للقهوة أسود اللون مطلي بالمينا، وتبعناهم أنا وجيم وتلقينا كلمات الشكر الخافتة حين صلصلت قطع السنتات.

ولَشَدَّ ما دُهِشْنا حين أفرغ الكاهن سايكس الوعاء على المنضدة وقَلّب النقود في كفه ثم رفع قامته وقال: «هذا لا يكفي؛ يجب أن نجمع عشرة دولارات».

وتحرك الرعية: «كلكم تعلمون لمن هذه التبرعات. لا يمكن لهيلين أن تترك أطفالها وتذهب إلى العمل وتوم في السجن، فإذا تبرع كل منكم بعشرة سنتات فسنحصل على العشرة دولارات»، ثم حرك الكاهن سايكس يده ونادى شخصًا في مؤخرة الكنيسة: «يا أليك Alec أغلق الأبواب؛ لن يغادر أحد هذا المكان حتى نحصل على عشرة دولارات».

بحثت كالبورنيا في حقيبة يدها وأخرجت حافظة نقود جلدية ممزقة. همس جيم: «كلا يا كال» حين أعطته ربع دولار لامع، واستأنف: «يمكننا أن نتبرع بنقودنا. أعطني عشرة سنتات يا سكاوت».

بدأ الهواء يتقلص داخل الكنيسة وخطر لي أن الكاهن سايكس قد صمم على أن يجعل رعيته يدفعون المبلغ المستحق من عرقهم، علت أصوات طقطقة المراوح وبدأت الأقدام تتراقص من التعب وأصبح ماضغو التبغ في حالة معاناة.

أذهلني الكاهن سايكس بقوله:

ـ يا كارلو ريتشاردسون (Carlo Richardson)، لم أرك هنا بعد.

تقدم رجل نحيل يرتدي بنطلونًا كاكي اللون عبر الممر ووضع قطعة نقود، وهمهم الرعية استحسانًا.

ثم قال الكاهن سايكس:

ـ أريد من كل من لا أطفال له أن يُضَحِي ويقدم عشرة سنتات أخرى، وعندها سنكون قد جمعنا المبلغ المطلوب.

هكذا جُمعت الدولارات العشرة على نحو بطيء مؤلم ثم فُتِحَ الباب فأعاد تيار الهواء الدافئ الحياة إلينا، وأنشد زيبو: «على ضفاف نهر الأردن العاصفة» وانتهت طقوس الكنيسة.

أردت البقاء واستكشاف المزيد، ولكن كالبورنيا دفعتني أمامها، وعند باب الكنيسة وبينما توقفتْ للتحدث مع زيبو وعائلته، تحدثنا أنا وجيم مع الكاهن سايكس، وكانت الأسئلة تتدافع في رأسي، ولكني قررت أن أنتظر حتى تجيبني كالبورنيا عنها.

قال الكاهن سايكس:

ـ يسعدنا أن تكونا معنا، هذه الكنيسة ليس لها صديقٌ أفضل من أبيكما.

وهنا تفجر فضولي فسألت:

ـ لِمَ كنتم تتبرعون جميعًا لصالح زوجة توم روبنسون؟

رد الكاهن سايكس:

ـ ألم تسمعي بالسبب؟ إن لدى هيلين ثلاثة أطفال صغار ولا يمكنها الذهاب للعمل.

ـ لم لا تأخذهم معها يا حضرة الكاهن؟

فقد كان من عادة عمال الحقول الزنوج الذين لهم أطفال صغار أن

يضعوا الأطفال في أي مكان أثناء العمل، وعادة ما كان الصغار يجلسون في الظل بين صفين من شجيرات القطن، أما الذين كانوا غير قادرين على الجلوس فكانوا يُحَمَلون على ظهور أمهاتهم ويربطون بقماشة كعادة الهنود الحمر أو يوضعون في أكياس القطن غير المستخدمة.

تردد الكاهن سايكس ثم قال:

ـ إذا أردت الحقيقة يا آنسة جين لويز، فإن هيلين تلاقي صعوبة في إيجاد عمل لها هذه الأيام... عندما يحين موعد جمع القطن أعتقد أن السيد لنك ديس (Link Deas) قد يسمح لها بالعمل عنده.

ـ ولم لا يا حضرة الكاهن؟

وقبل أن يستطيع الإجابة أحسست بيد كالبورنيا على كتفي، ولشعوري بثقلها قلت:

ـ نشكرك على السماح لنا بالدخول للصلاة.

كرر جيم ما قلته ثم اتجهنا نحو المنزل.

سألت:

ـ كال، أنا أعرف أن توم روبنسون في السجن، وأنه فعل شيئًا رهيبًا، ولكن لِمَ لا يقبل الناس تشغيل هيلين؟

كانت كالبورنيا تسير في ثوبها الأزرق الداكن الرقيق النسيج وقبعتها الكبيرة، بيني وبين جيم، فقالت:

ـ بسبب ما يقال عما فعله توم فإن الناس لا يرغبون في التعامل مع أي فرد من أفراد عائلته.

ـ ولكن ماذا فعل تحديدًا يا كال؟

تنهدت كالبورنيا:

ـ لقد اتهمه السيد بوب يوويل (Bob Ewell) بأنه اغتصب ابنته؛ وبالتالي فقد قُبِضَ عليه وسُجِن.

ـ السيد يوويل.

هنا بدأت ذاكرتي تنشط.

هل له علاقة بأولئك الأولاد من عائلة يوويل الذين يأتون إلى المدرسة في أول يوم ثم يذهبون بلا عودة؟ عجبًا، لقد قال أتيكوس إنهم مجرد حثالة.. وأنا لم أسمع أتيكوس يتحدث عن أي أشخاص بالطريقة التي تحدث بها عن عائلة يوويل. لقد قال...

ـ حسنًا، هم أولئك.

ـ إذن، ما دام كل شخص في مايكوم يعرف من هم هؤلاء اليوويل، فإنهم لن يمانعوا في تشغيل هيلين... ما هو الاغتصاب يا كال؟

ـ إنه شيء عليك أن تسألي السيد فينش عنه، فهو يستطيع شرحه أفضل مني، هل أنتما جائعان؟ لقد أطال الكاهن موعظته هذا الصباح، رغم أنه عادة لا يثير الملل.

قال جيم:

ـ إنه يشبه واعظنا تمامًا ولكن لماذا تنشدون التراتيل بهذه الطريقة؟

ـ هل تعني... في أبيات منفصلة؟

ـ وهل هذا ما تسمى به هذه الطريقة؟

ـ أجل هكذا تسمى، وهم ينشدونها بهذه الطريقة منذ زمن بعيد.. منذ أن وعت ذاكرتي تلك التراتيل.

قال جيم إن الرعية يستطيعون أن يجمعوا تبرعات عام بأكمله لشراء بعض كتب التراتيل.

ضحكت كالبورنيا:

ـ لا يمكن، فهم لا يستطيعون القراءة.

سألت:

ـ لا يستطيعون القراءة؟ كل أولئك الناس؟

ـ أجل، لا يستطيع القراءة سوى أربعة أشخاص من رعية كنيسة «الشراء الأول»... وأنا واحدة منهم.

سأل جيم:

ـ في أي مدرسة كنتِ يا كال؟

ـ لم أذهب إلى أي مدرسة، والآن لنرى من علمني يا ترى أول الحروف؟ إنها خالة الآنسة مودي أتكنسون، الآنسة بوفورد العجوز؟

ـ هل أنت عجوز إلى هذا الحد؟

ضحكت كالبورنيا وقالت:

ـ أنا قد أكون أكبر سنًا من السيد فينش، لا أعرف ما هو سني على أية حال، لقد حاولنا مرة، أنا والسيد فينش أن نعود بذاكرتنا لنحدد كم هو

عمري بالتحديد، وقد لاحظنا أنني أستطيع أن أتذكر بضع سنوات فقط أكثر مما يستطيع هو، لذا، فأنا لست أكبر منه بكثير، خاصة وأن الرجال لا يستطيعون على أية حال أن يتذكروا جيدًا كما تتذكر النساء.

ـ ومتي يوم ميلادك يا كال؟

ـ أنا أحتفل به يوم عيد الميلاد، فمن الأسهل تذكره بهذه الطريقة... على كل حال لا أعرف تحديدًا متى كان ميلادي.

احتج جيم:

ـ ولكنك يا كال لا تبدين في سن مقاربة لأتيكوس.

ـ الملونون لا يظهر عليهم أثر السن سريعًا.

ـ ربما لأنهم لا يستطيعون القراءة، كال! هل علمتِ زيبو القراءة؟

ـ نعم يا سيد جيم. لم تكن هناك مدارس حين كان صبيًا، وقد علَّمته على أية حال.

كان زيبو هو أكبر أبناء كالبورنيا، ولو أني تدبرت الأمر لعرفت أن كالبورنيا كانت متقدمة في السن، إذ إن لزيبو أولادًا تجاوزوا مرحلة الطفولة... ولكني لم أفكر في الأمر حينها.

سألتها:

ـ هل علمته من كتاب الصف الأول كما علمتنا؟

ـ لا بل جعلته يحفظ صفحة من الكتاب المقدس كل يوم. وكان هناك كتاب علمتني منه الآنسة بوفورد... وأراهن على أنكما لا تعرفان من أين حصلت عليه.

ـ لم نكن نعرف.

قالت كالبورنيا:

ـ لقد أعطاني إياه جدكما لأبيكما.

قال جيم:

ـ وهل كنت أنت أيضًا في «اللاندينج»؟ لم يسبق لك أن ذكرت ذلك أمامنا.

ـ طبعا يا سيد جيم، لقد تربيت هناك بين منزل عائلة بوفورد واللاندينج، كما قضيت كل أيامي في خدمة عائلة فينش وعائلة بوفورد، ثم انتقلت إلى مايكوم حين تزوج والداكما.

ـ ماذا كان عنوان الكتاب يا كال؟

ـ اسمه «تعليقات» لبلاكستون[1] (Blackstone's Commentaries).

صُعِق جيم:

ـ هل تعنين أنك علمت زيبو من ذلك الكتاب؟

ـ نعم يا سيدي. يا سيد جيم.

وهنا وضعت كالبورنيا أصابعها على فمها في حركة تدل على خجلها وقالت:

ـ كانا الكتابين الوحيدين اللذين كنت أملكهما، وكان جدك يقول إن السيد بلاكستون يكتب بلغة إنجليزية جيدة.

---

(١) كتاب صدر في القرن الثامن عشر تناول القانون في إنجلترا. لعب هذا الكتاب دورًا مهمًا في تطوير نظام القانون الأمريكي. (المترجمة).

قال جيم:

- لهذا إذن لا تتكلمين مثلهم.

- مثل من؟

- مثل الملونين يا كال، ولكنك تكلمت مثلهم في الكنيسة...

لم يكن قد خطر لي من قبل أن كالبورنيا تعيش حياة مزدوجة هكذا بكل بساطة، وفكرة أن لها وجودًا منفصلًا بعيدًا عن منزلنا كانت فكرة لم ترد على ذهني قط، ناهيك عن معرفتها الجيدة للغتين.

سألتها:

- يا كال! لماذا تتحدثين بلغة الزنوج مع أمثالك وأنت تعلمين أنها غير صحيحة؟

- أولًا، أنا سوداء اللون.

قال جيم:

- هذا لا يعني أن عليك أن تتكلمي بذلك الأسلوب ما دمت تعرفين الأسلوب الصحيح.

أمالت كالبورنيا قبعتها وحكت رأسها، ثم ضغطت قبعتها حتى غطت أذنيها وقالت:

- من الصعب الإجابة عن ذلك، ولكن افترض أنك وسكاوت تحدثتما بلغة الملونين في المنزل: ألن يكون ذلك غير مناسب؟ والآن، ماذا إذا تحدثت أنا بلغة البيض في كنيستي؟ ومع جيراني؟ سيظنون أنني أتصنع إلى أقصى حد.

قلت:

ـ ولكنك تعرفين اللغة الصحيحة يا كال؟

ـ ليس من الضروري أن يكشف المرء عن كل ما يعرفه، ليس ذلك مما يليق بالسيدات المحترمات، وثانيًا: لا يحب الناس أن يكون بالقرب منهم شخص يعرف أكثر مما يعرفون؛ إن ذلك يغضبهم، ولن تستطيعوا أن تغيروا الناس بالتحدث بلغة صحيحة، فعليهم أن يتعلموها بأنفسهم وحين لا يريدون التعلم فلا شيء يمكنك فعله إلا الصمت أو التحدث بلغتهم.

ـ كال! هل يمكن أن آتي لأراك أحيانا؟

نظرت إليّ وقالت:

ـ ترينني يا حبيبتي؟! أنت ترينني كل يوم.

قلت:

ـ أعني أن أزورك في بيتك، ربما بعد ساعات العمل؟ يمكن لأتيكوس أن يحضرني.

ـ يمكنك ذلك متى رغبتِ، ستسرنا زيارتك.

كنا على الرصيف بالقرب من منزل عائلة رادلي.

قال جيم:

ـ انظري إلى المدخل الأمامي هناك.

نظرت إلى منزل عائلة رادلي، وأنا أتوقع رؤية الشبح الساكن فيه وهو يتأرجح في الشمس، لكن الأرجوحة كانت خالية.

قال جيم:

ـ أعني مدخلنا نحن.

نظرتُ عبر الشارع وهناك رأيت العمة ألكسندرا، بكامل سلاحها وعتادها، معتدلة في جلستها على الكرسي الهزاز، مُعْتَدة في عناد كعادتها، وكأنها ألِفَتْ الجلوس في هذا المكان طول حياتها.

الفصل الثالث عشر

كان أول شيء قالته العمة ألكسندرا هو: «ضعي حقيبتي في غرفة النوم الأمامية يا كالبورنيا». أما ثاني شيء قالته فقد كان: «توقفي عن حَكّ رأسَكِ يا جين لويز».

حملت كالبورنيا حقيبة العمة الثقيلة وفتحت الباب. قال لها جيم: «أنا سأحملها» وأخذها منها. سمعتُ الحقيبة وهي تضرب أرض الغرفة بقوة، وكان لصوتها دوي كئيب.

سألتها: هل جئت في زيارة يا عمتي؟ كانت عمتي لا تغادر اللاندينج إلى منزلنا للزيارة إلا نادرًا، وكانت تسافر والتَرَفُ يَحُفُّهَا فهي تمتلك سيارة بويك فخمة خضراء اللون وسائقًا أسود اللون، وكان كلاهما في حالة من النظافة الفائقة التي تبعث على المرض، ولكني لم أر أيًا منهما اليوم.

سألتني:

ـ ألم يقل لكما أبوكما؟

هززت رأسي أنا وجيم بالنفي.

ـ ربما نسي ذلك. فهو لم يَعُدْ بعد، أليس كذلك؟

قال جيم:

ـ بلى، إنه عادة لا يعود إلا في وقت متأخر من العصر.

ـ حسنًا، لقد قررنا، أنا وأبوكما، أنه قد حان الوقت لأقيم معكما فترة من الزمن.

إن عبارة «فترة من الزمن» بالنسبة لأهالي مايكوم تعني أي فترة ما بين ثلاثة أيام وحتى ثلاثين عامًا. تبادلتُ النظرات مع جيم.

قالت لي:

ـ جيم يكبر الآن وأنتِ أيضًا. وقد قررنا أنه من الأفضل لكما أن يكون في حياتكما لمسة أنثوية، ولن تمر سنوات كثيرة يا جين لويز، إلا وتصبحين مهتمة بالملابس والشبان.

كان بإمكاني تقديم عدة ردود: فكالبورنيا أنثى مثلًا، وستمر سنوات طويلة قبل أن أبدأ الاهتمام بالشبان، ولن أهتم أبدًا بالملابس... ولكني بقيت صامتة.

سأل جيم:

ـ وماذا عن العم جيمي؟ هل سيأتي هو أيضاً؟

ـ لا، بل سيبقى في «اللاندينج» كي يتولى إدارته.

ولحظة أن قلت لها: «ألن تفتقديه؟» أدركت أنه لم يكن سؤالًا لبقًا. فوجود العم جيمي أو غيابه سواء، فهو لا ينطق أبدًا. تجاهلت العمة ألكسندرا سؤالي.

لم يخطر ببالي ما يمكن أن أضيفه وفي الحقيقة لم أستطع يومًا أن أقول لها شيئًا وأخذت أفكر في الحوارات الماضية المؤلمة التي جرت بيننا: كيف حالك يا جين لويز؟ في أحسن حال، شكرًا يا سيدتي، وكيف حالكِ أنت؟ في أحسن حال، شكرًا، ما الذي تفعلينه؟ لا شيء. لا تفعلين شيئًا؟ لا، لا بد أن لك أصدقاء؟ نعم يا سيدتي. إذن ما الذي تفعلينه مع أصدقائك؟ لا شيء.

كان من الواضح أن عمتي تعتقد أني غبية إلى حد بعيد، لأنني سمعتها مرة تقول لأتيكوس إني بليدة.

وهناك حكاية وراء كل ذلك، ولكني لم أرغب في انتزاعها منها. فاليوم الأحد والعمة ألكسندرا سريعة الغضب جدًا في يوم الرب. وأعتقد أن السبب هو المَشَدُّ (الكورسيه) الذي ترتديه يوم الأحد. لم تكن العمة ألكسندرا بدينة وإنما ممتلئة، وكانت تختار ملابس وقائية تشد صدرها لارتفاعات مثيرة لتُضَيِّق من خَصرها وتوسع من مؤخرتها، بما يوحي بأن قوامها أشبه ما يكون بساعة رملية، لقد كان قوامها رائعًا عند النظر إليها من أي زاوية.

مرت بقية فترة ما قبل المساء تَلفُّها مسحة الكآبة التي تطفو حين يظهر الأقارب، ولكن هذه الكآبة تلاشت حين سمعنا صوت سيارة قادمة. كان أتيكوس عائدًا من مونتجمري، فانطلق جيم يعدو معي ناسيًا وقاره. أمسك جيم بحقيبة ملابسه، وقفزت أنا بين ذراعيه، وأحسست بقبلته الجافة المحايدة، سألته: «هل جلبت لي كتابًا؟ هل تعلم أن عمتنا هنا؟»

أجاب أتيكوس على كلا السؤالين بنعم ثم قال: «ما رأيك في أن تأتي عمتك لتعيش معنا؟».

قلتُ إنني أرغب في ذلك كثيرًا، وكانت تلك كِذْبة، فعلى المرء أن يكذب أحيانًا في ظروف معينة، وفي كل الأوقات التي لا يكون للمرء حيلة تجاهها.

قال أتيكوس:

ـ لقد شعرنا أن الوقت قد حان وأصبحتما في حاجة إلى... اسمحا لي أن أشرح لكما الأمر: إن عمتكما تقدم لي معروفًا ولكما كذلك. لا أستطيع البقاء طول النهار معكما، وسيكون هذا الصيف صيفًا ساخنًا.

وافقته على فكرة أن وجود العمة ألكسندرا وظهورها على مسرح الأحداث لم يكن من فعل أتيكوس بل من فعلها هي. فلعمتنا أسلوب تصرح به عما «هو أفضل ما يكون للعائلة» وأعتقد أن قدومها للعيش معنا يحقق هذا التصور.

رحَّبت بلدة مايكوم بالعمة ألكسندرا وقامت الآنسة مودي أتكنسون بخبز كعكة لها، كما أمضت الآنسة ستيفاني كروفورد في زيارتها ساعات طويلة، وهي زيارات كانت تقتصر بمجملها على هز الآنسة ستيفاني أي لرأسها وقولها: «هه، هه». كما دعت الآنسة راتشيل، التي تعيش في المنزل المجاور مباشرة، عمتي إلى القهوة في وقت العصر، حتى السيد ناثان رادلي وصل به الأمر إلى حد أن اقترب من الفناء الأمامي لمنزلنا ليقول إنَّه سعيد برؤيتها.

وحين استقرت في منزلنا وعـادت الحياة إلى سابق عهدها، بدت العمة ألكسندرا وكأنها كانت تعيش معنا دائمًا في المنزل، كان للوجبات الخفيفة التي راحت تقدمها في حفلات الجمعية التبشيرية أثر في اكتسابها المزيد من الشهرة بوصفها مضيافة، ولم تكن تسمح

لكالبورنيا بصنع المأكولات اللذيذة المطلوبة لتغذية أفراد الجمعية خلال استماعهم إلى تقارير طويلة عن مسيحيِّ الأرز(١) كما أنها انضمت إلى نادي مايكوم للكتاب وأصبحت سكرتيرة له. كانت كل الأطراف التي تشارك بفعالية في أنشطة الحياة بالمقاطعة تنظر إلى العمة ألكسندرا بوصفها واحدة ممن يمثلن آخر من تبقى من جيلهن: فقد كانت تسلك سلوك السيدات الراقيات اللاتي يملكن زوارق نهرية ويتلقين تعليمهن في المدارس الداخلية، فحيثما يكون هناك نقاش حول الدين والأخلاق تجدها تدافع دفاعًا مجيدًا عن القيم. لقد كانت العمة ألكسندرا منذ مولدها مهتمة بشئون الآخرين، ولذا لم يَسْلَمْ أحد من لسانها وحين ذهبت إلى المدرسة، كان «الشك بالنفس» مفهومًا غير موجود بالكتب المدرسية، ولذا لم تعرف معناه. لم تعرف في حياتها الملل، وإذا ما مُنِحَتْ أقل فرصة فإنها مستعدة لممارسة حقوقها المَلَكِيَّة: مستعدة للتدبير والنصيحة والتحذير والوعيد.

لم تكن تترك فرصة واحدة تفوتها دون أن تشير إلى عيوب المجموعات القبلية الأخرى بالمقارنة بمجدنا الأعظم، وهي عادة تبعث في جيم شعورًا بالتسلية أكثر من الغيظ، مما كان يدعوه للقول: «الأفضل لعمتي أن تراقب الطريقة التي تتحدث بها: فإن معظم سكان مايكوم تربطنا بهم قرابة».

وحين أرادت عمتي أن تعلِّق على انتحار الشاب سام ميريوذر

---

(١) مسيحيو الأرز تعبير يشير إلى من تحولوا إلى المسيحية لقاء بقائهم على قيد الحياة. وكان المبشرون المسيحيون يكافئونهم بتزويدهم بالأرز إذا لم يكن عندهم ما يكفيهم من غذاء. وباختصار سَرَتْ مقولة «إن أردت أرزًا فاعتنق المسيحية». (المترجمة).

(Sam Merriweather) قالت إن انتحاره يعود إلى النزعة السوداوية للعائلة. وإذا ما ضحكت فتاة في السادسة عشرة خلال شدو الأناشيد بالكنيسة قالت عمتي: «هذا يدل على أن نساء عائلة بنفيلد (Penfield) طائشات. لقد بدا وكأن الجميع في مايكوم يعانون من لوثة ما: لوثة سكر أو لوثة قمار أو لوثة بخل أو لوثة ضحك.

وحين أكدت لنا عمتنا أن ميل الآنسة ستيفاني كروفورد للتدخل في شئون الآخرين كان وراثيًا، قال أتيكوس: «يا أختي، إذا تمهلت قليلًا وتدبرت الأمر ستجدين أن جيلنا هو بالفعل أول جيل من عائلة فينش لا يتزوج من أولاد وبنات الأعمام. هل ستقولين إن لعائلة فينش لوثة تجنب المحارم؟».

أجابت عمتنا بالنفي، وقالت إن ذلك هو السبب في أن لنا أيادي وأقدامًا صغيرة الحجم.

لم أفهم إطلاقا سبب انشغالها بالوراثة فقد تلقيت انطباعًا بأن «الناس الفضلاء» يتمتعون بحصافة الرأي التي تدفعهم للقيام بأجلِّ الأعمال، ولكن للعمة ألكسندرا رأيًا تعبر عنه على نحو غير مباشر فحواه أنه كلما استقرت العائلة في بقعة واحدة من الأرض، كانت أَسْمى وأرفع منزلة.

قال جيم: «هذا يجعل عائلة يوويل من فئة الفضلاء أيضًا». فقد كانت هذه القبيلة التي يشكل بوريس يوويل وإخوته جزءًا منها، تعيش في المكان نفسه خلف مقلب قمامة مايكوم، وتتكسب من الضمان الاجتماعي الذي تقدمه المقاطعة منذ ثلاثة أجيال.

وعلي أية حال فإن نظرية العمة ألكسندرا كانت لها قيمتها. فمايكوم بلدة عتيقة، تبعد عن «فنشز لاندينج» بمسافة عشرين ميلًا إلى الشرق

وهي تعتبر بلدة غير ساحلية. وكان من المفترض أن تكون مايكوم أقرب إلى النهر لولا ذكاء وبراعة شخص من عائلة سنكفيلد (Sinkfield) افتتح فندقًا صغيرًا عند ملتقى طريقين، وكان ذلك هو الفندق الوحيد في المنطقة. وكان سنكفيلد ـ الذي يفتقر إلى المشاعر الوطنية ـ يورِّدُ الذخيرة إلى الهنود والمستوطنين في آن، دون أن يعرف أو حتى يهتم بمعرفة ما إذا كان الشخص مواطنًا مقيمًا على أرض ألاباما، أم أحد أفراد قبيلة «الكريك» الهندية ما دامت تجارته رائجة. وأصبحت التجارة ممتازة حين أوفد الحاكم «ويليام وايت بيب» (William White Bibb)، الذي كان يهدف إلى توطيد الأمن المحلي في المقاطعة المنشأة حديثًا، أوفد اثنين من المسَّاحين ليحددا مكان ومركز الدائرة من المقاطعة ويؤسسا هناك مركزها الحكومي. وقد قام المسَّاحان، اللذان حلا ضيفين على سنكفيلد، بإعلامه بأنه موجود ضمن الحدود الإقليمية لمقاطعة مايكوم، وبَيّنَا له البقعة المحتملة التي سيتم تأسيس المركز الحكومي فيها. ولو لم يقم سنكفيلد بمناورة جريئة للمحافظة على ممتلكاته لكانت بلدة مايكوم قد أقيمت وسط مستنقع ونستون، وهو مكان خال تمامًا من أي تشويق. وبدلا من ذلك، نمت مايكوم وتوسعت من محورها الذي أصبح «فندق سنكفيلد الصغير» لأن سنكفيلد استطاع ذات مساء أن يجعل المساحين يثملان حتى اختلط عليهما الأمر فلم يعِيا ما أقدم عليه من حيل، وبالتالي دفعهما إلى إحضار خرائطهما ورسومهما، وبعد قفزة هنا وإضافة هناك، استطاع تعديل موقع مركز المقاطعة بحيث يوافق رغباته. وقد أعادهما في اليوم التالي مسلحين برسومهما وبخمس عبوات من الويسكي من فئة الربع جالون في سرجيهما، اثنتين لكل منهما وواحدة للحاكم.

ولأن السبب الأساسي في وجودها هو الحكومة، فإن مايكوم قد

سلمت من القذارة والفوضى التي كانت تميز معظم بلدات ولاية ألاباما المشابهة لها في الحجم. ففي البداية كانت أبنيتها متينة ودار المحكمة فخمة ضخمة وشوارعها عريضة تَدُل على حسن الذوق. وكانت نسبة عدد المهنيين إلى سكانها عالية: فقد كان موقع البلدة الشابة بعيدًا جدًا عن النوع الوحيد من وسائل النقل العام المتوفر في تلك الأيام، ألا وهو التنقل بالزوارق النهرية: وكان على الشخص الآتي من الطرف الشمالي من المديرية أن يَمْضِي يومين من السفر حتى يصل إلى مايكوم ويشتري البضائع من المخازن. ونتيجة لذلك ظل حجم البلدة ثابتًا لمدة مئة عام، جزيرة في بحر من حقول القطن والغابات.

وبالرغم من أن مايكوم غابت عن الأحداث خلال الحرب الأهلية الأمريكية فإن قانون «إعادة البناء» والدمار الاقتصادي أجبر البلدة على النمو. وقد نمت متجهةً إلى الداخل. ونادرًا ما كان أشخاص جدد يستقرون فيها، فتزوجت العائلات من بعضها البعض حتى أصبح سكان البلدة يبدون متشابهين إلى حد ما. وأحيانًا كان أحدهم يعود من بلدة مونتجومري أو موبيل مع زوجة غريبة، ولكن ما كان ذلك يشكل إلا موجة صغيرة ضمن التيار الهادئ للتشابه العائلي. وقد بقيت الأمور كما هي تقريبًا خلال سنوات طفولتي.

إن نظام الطوائف الاجتماعية موجود بالفعل في مايكوم غير أنني أظنه يخضع لاعتبارات معينه: فالسكان الأكبر سنًا، أي الجيل الحالي من الناس الذين عاشوا جنبًا إلى جنب لسنوات وسنوات، يمكنهم التنبؤ بتصرفات بعضهم البعض بدرجة متناهية الدقة: إذ كانوا يسلمون بشيوع المواقف وظلال الشخصيات وحتى الإيماءات بين أهل مايكوم وبانتقالها عبر الأجيال لتصقل مع مرور الزمن. وهكذا فإن الأقوال

المأثورة من نوع: «ألا يوجد فرد من عائلة كروفورد يمتنع عن التدخل في شئون غيره؟» و«عائلة ديلافيلد قوم كذابون» و«كل عائلة بوفورد يمشون هكذا» كل هذه الأقاويل المأثورة كانت بكل بساطة دليلًا يتبع في الحياة اليومية، لا تأخذ شيكًا من واحد من عائلة ديلافيلد دون أن تجري اتصالًا هاتفيًا بالبنك للتأكد من أنه قابل للصرف. يميل كتف الآنسة مودي أتكنسون إلى الانحناء لأنها كانت في الأصل من عائلة بوفورد، وإذا ما كانت السيدة جريس ميريوذر (Mrs. Grace Merriweather) ترشف مشروب الجِنْ من زجاجات ليديا إي بانكهام[1] (Lydia E. Pinkham) فذلك أمر عادي، فقد كانت أمها تفعل الشيء نفسه.

استقر المقام بالعمة ألكسندرا في عالم مايكوم، ولكن ليس في عالمنا أنا وجيم. فطالما تساءلت كيف يمكن لها أن تكون أختا لأتيكوس والعم جاك حتى إني استعدت حكايات نصف منسية كان جيم قد أَلَّفها منذ زمن طويل عن الأطفال الذين يُسْتَبدلون بغيرهم عند الولادة وعن جذور نبات تفاح الجن[2] (mandrake roots).

كانت تلك تأملات مجردة في الشهر الأول من إقامتها معنا، فلم يكن لديها الكثير لتقوله لي ولجيم، حيث كنا نراها عند تناول الوجبات وفي المساء قبل التوجه إلى الفراش. كان فصل الصيف قد حلَّ وكنا

(١) ليندا بانكهام (Linda E. Pinkham) (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) صَنَّعت أدوية من اختراعها في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. (المترجمة).
(٢) نبات تفاح الجن أو اللُفَّاح (mandrake roots) ينتمي إلى الفصيلة الباذنجانية. تشبه جذور هذا النبات جسم الإنسان إذ تتشكل على هيئة جذع وأطراف مما دعا إلى شيوع استخدامه في أعمال السحر. وتشير سكاوت هنا إلى حكايات السحر واستبدال الأطفال عند ولادتهم. (المترجمة).

نقضي الوقت خارج المنزل. وبالطبع حين كنت أجري إلى البيت في فترة بعد الظهر لأشرب كوبًا من الماء، كنت أجد غرفة الجلوس تتزاحم بسيدات مايكوم وهن يرشفن المشروبات ويهمسن ويُرَوِّحن بالمراوح وعندئذ تناديني عمتي قائلة: «يا جين لويز، تعالي وتحدثي إلى هؤلاء السيدات».

حين كنت أظهر عند المدخل، تبدو عمتي وكأنها ندِمَتْ على طلبها، فعادة ما أكون ملطخة بالطين أو معفرة بالتراب. قالت لي عصر ذات يوم بعد أن أمسكت بي في القاعة.

ـ تعالي لتتحدثي إلى ابنة عمك ليلى (Lily).

ـ مَنْ؟

ـ ابنة عمك ليلى بروك (Lily Brooke).

ـ أهي ابنة عمنا؟ لم أكن أعرف ذلك.

ابتسمت العمة ألكسندرا بطريقة عبرت بها عن اعتذار رقيق لابنة العم وتوبيخ صارم لي. وحين غادرت ابنة العم ليلى بروك البيت عرفت أني تورطت في المتاعب.

وقد أحزنني أن يكون أبي قد نسي أن يحدثني عن عائلة فينش بما فيه الكفاية، أو أن يغرس أي كبرياء في نفوس أولاده. قامت العمة باستدعاء جيم الذي كان يجلس بحرص على «الكنبة» إلى جانبي. غادرت الغرفة ثم عادت تحمل كتابًا ذا غلاف أرجواني وقد طبع عليه بأحرف ذهبية «تأملات جوشوا». سانت كلير (Meditations of Joshua S. St. Clair).

قالت العمة ألكسندرا:

ـ لقد كتب ابن عمكما هذا الكتاب. لقد كان شخصية رائعة.

تفحص جيم الكتاب الصغير الحجم وقال:

ـ هل هذا ابن العم «جوشوا» الذي سُجِن فترة طويلة؟

ـ وكيف عرفت ذلك؟

لقد قال أتيكوس إنه اختل عقليًا خلال فترة وجوده في الجامعة. كما قال إنه حاول أن يطلق الرصاص على رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وأن ابن العم جوشوا قال عن الرئيس إنه ليس إلا مفتش صرف صحي وحاول أن يقتله بمسدس قديم من النوع ذي المصراع المصنوع من الحجر الصوان ولكن المسدس انفجر في يده. كما قال أتيكوس إن العائلة تكلفت خمسمائة دولار لتخليصه من السجن...

وقفت العمة ألكسندرا متيبِّسة كطائر..... قالت:

ـ هذا يكفي.. سننظر في هذا الأمر لاحقًا.

وقبل وقت النوم كنت في غرفة جيم أحاول أن أستعير كتابًا حين طرق أتيكوس الباب ودخل. جلس على حافة سرير جيم ونظر إلينا بهدوء ثم ابتسم. تنحنح محاولًا أن يقول شيئًا ما تقديمًا لأشياء أخرى، وبصوت نابع من الحلق ظننت معه أنه أخيرًا أصبح رجلًا عجوزًا، ولكن مظهره لم يكن قد اختلف:

ـ لا أعرف كيف سأقول ما علي أن أقوله.

قال جيم:

ـ حسنًا قل ما تريد. هل ارتكبنا خطأً ما؟

تململ أبونا وقال:

ـ لا، ولكني أريد أن أشرح لكما أن... عمتكما ألكسندرا قد طلبت مني... يا بني، أنت تعرف أنك من عائلة فينش، أليس كذلك؟

ـ هذا ما قيل لي.

قال ذلك وهو ينظر بطرفَيّ عينيه وبدأ صوته في الارتفاع دون أن يسيطر عليه. واستأنف:

ـ ما الحكاية يا أتيكوس؟

وضع أتيكوس ساقًا فوق الأخرى ثم طوى ذراعيه وقال:

ـ أحاول أن أوضح لكما حقائق الحياة.

ازداد امتعاض جيم ثم قال:

أعرف كل ذلك.

ـ وفجأة أصبح أتيكوس جادًا فقال بلهجة المحامي ودون أي تغيير في طبقة صوته:

لقد طلبت مني عمتكما أن أحاول إفهامكما أنتَ وجين لويز أنكما لستما عاديين، فأنتما نتاج عدة أجيال من التربية الراقية.

هنا توقف أتيكوس وراقبني وأنا أحاول أن أحاصر بَقَّة على ساقي.

استأنف قائلًا بعد أن وجدتها وسحقتها:

ـ التربية الراقية، وأن عليكما التصرف بما يليق باسم عائلتكما.

ثابر أتيكوس على الكلام رغمًا عنا:

ـ لقد طلبت مني أن أقول لكما إن عليكما أن تتصرفا كما يليق بسيدة صغيرة وبجنتلمان، إذ إنكما تلك السيدة الصغيرة وذلك الجنتلمان. هي تريد أن تتحدث إليكما عن العائلة وما كانت تعنيه لمقاطعة مايكوم خلال الأعوام الطويلة، وبذلك ستكون عندكما فكرة عمن تكونان، وقد تجدان ما يحثكما على التصرف كما يليق بكما.

هكذا أنهى حديثه بسرعة كبيرة.

نظر كل منا إلى الآخر بذهول ثم نظرنا إلى أتيكوس، الذي كان يبدو وكأن قبعته تضايقه. ولم نتحدث إليه. وأمسكت بمشط من خزانة جيم ومَرَّرتُ أسنانه على حافتها.

قال أتيكوس:

ـ أوقفي هذه الضجة.

أصابتني غلظته بألم شديد. ألقيت بالمشط إلى الأرض قبل أن أستكمل مساره على خزانة جيم وبلا سبب شعرت بنفسي أنخرط في البكاء دون أن أستطيع التوقف. لم يكن ذاك أبي الذي أعرفه. فأبي ما كان ليفكر في مثل هذه الأفكار. لم يكن أبي ليتحدث بهذا الأسلوب. لقد أوحت له العمة ألكسندرا بذلك على نحو ما ومن خلال دموعي رأيت جيم غارقًا في بركة مشابهة من العزلة وقد أمال رأسه جانبًا.

لم يكن هناك مكان ما ألجأ إليه، ولكني اصطدمت بمقدمة صدر أتيكوس حين لففت أريد الرحيل. دفنت وجهي فيها واستمعت إلى

الأصوات الداخلية التي كانت تصدر من خلف القماش الأزرق الفاتح: دقات الساعة، والأصوات الخفيفة الصادرة من قميصه المُنَشَّى وصوت تنفسه الخافت.

قلت له:

ـ معدتك تزمجر.

ـ أعرف ذلك.

ـ الأفضل لك أن تشرب بعض الصودا.

ـ سأفعل.

ـ يا أتيكوس، هل هذا السلوك الحسن وغيره سيجعل الأمور تختلف؟ أعني هل أنك..

أحسست بيده على مؤخرة رأسي، وقال:

ـ لا تقلقي على أي شيء. لم يحن وقت القلق بعد.

حين سمعت ذلك، عرفت أنه عاد إلينا. عاد الدم في ساقي إلى التدفق مرة أخرى، ورفعت رأسي.

ـ هل تريد منا حقًا أن نفعل كل ذلك؟ لا أستطيع أن أتذكر كل ما هو مفترض من أفراد عائلة فينش أن يفعلوه...

ـ لا أريدك أن تتذكريه. انسِه.

ذهب إلى الباب ثم خرج من الغرفة مغلقًا الباب وراءه. كاد يغلق الباب بعنف، ولكنه تدارك نفسه في اللحظة الأخيرة وأغلقه برِقَّة.

وبينما كنا نحدق أنا وجيم في الباب، انفتح مرة أخرى وأطل منه أتيكوس. رفع حاجبيه وسقطت نظارته على أنفه وقال:

ـ أبدو كابن العم جوشوا يومًا بعد يوم، أليس كذلك؟ هل تعتقدان أن الأمر سيصل إلى أن أكلف العائلة خمسمائة دولار؟

ـ أعرف الآن ما الذي كان يحاول أن يفعله، ولكن أتيكوس كان رجلًا، ومثل ذلك العمل كان يتطلب وجود امرأة.

الفصل الرابع عشر

رغم أننا لم نعد نسمع شيئًا عن عائلة فينش من العمة ألكسندرا، فقد كنا نسمع الكثير عن عائلتنا من سكان البلدة. ففي أيام السبت، حين كنا نتسلح أنا وجيم بالقطع النقدية من فئة الخمسة سنتات، ويسمح لي جيم بمرافقته (أصبح الآن لديه حساسية مفرطة تجاه وجودي معه في مكان عام)، كنا نشق طريقنا على الأرصفة في مسارات ملتوية بين جموع السائرين الذين يتصببون عرقًا فنسمع أحيانا عبارة: «هذان طفلاه» أو «ها هما اثنان من عائلة فينش». وحين كنا نلتفت لنواجه من يوجهون اتهاماتهم إلينا، كنا لا نرى سوى اثنين من المزارعين يتفحصان بأعينهما الحقن الشرجية المعروضة في واجهة صيدلية مايكوم، أو كنا نرى فلاحتين قصيرتين بدينتين ترتديان قبعتين من القش جالستين في عربة هوفر.

«يمكنهم أن ينفلتوا من عقالهم ويغتصبوا الريف كله، ولن تهتم الحكومة وهي المسئولة»، كانت تلك إحدى الملاحظات الغامضة التي سمعناها توجه إلينا مباشرة من شخص نحيل كان يمر بجانبنا، وهذا ما ذكرني بأن لدي سؤالًا أود أن أطرحه على أتيكوس.

في تلك الليلة نفسها سألته:

ـ ما هو الاغتصاب؟

نظر أتيكوس من وراء صحيفته وكان يجلس في كرسيه بالقرب من النافذة. بعد أن كبرنا قليلًا، رأينا أنا وجيم أن من حسن الأدب أن نترك لأتيكوس ثلاثين دقيقة يختلي فيها بنفسه بعد العشاء.

تنهد ثم قال إن الاغتصاب هو الاتصال الجسدي العنيف بأنثى بالقوة ودون رضاها.

ـ حسنًا، إذا كان الأمر كذلك فلماذا أخرستني كالبورنيا حين سألتها عن هذا الموضوع.

بدا أتيكوس متأملًا:

ـ أعيدي عليَّ ما قلته.

ـ حسنًا، لقد سَأَلتُ كالبورنيا ونحن عائدون من الكنيسة ذلك اليوم عن معنى تلك الكلمة وطلبت مني أن أسألك ولكني نسيت ذلك والآن تذكرت.

كانت صحيفته قد استقرت في حجره:

ـ أعيدي عليَّ ما قلتِه مرة أخرى.

وحكيت له بالتفصيل عن رحلتنا إلى الكنيسة مع كالبورنيا. بدا أتيكوس وكأنه يستمتع بالحكاية، ولكن العمة ألسكندرا، التي كانت جالسة في أحد الأركان وهي تخيط في صمت، وضعت ما بيدها على حجرها وحدَّقت فينا.

ـ هل كنتم جميعًا عائدين من كنيسة كالبورنيا يوم الأحد ذاك؟

قال جيم:

ـ نعم يا سيدتي، لقد اصطحبتنا إلى هناك.

تذكرت شيئًا ما فقلت:

ـ نعم يا سيدتي وقد وعدتني بأن أذهب إلى منزلها في عصر أحد الأيام. يا أتيكوس سأذهب يوم الأحد القادم إذا وافقت. هل يمكنني أن أذهب؟ قالت كال إنها ستأتي لتصطحبنى إذا كنت ستخرج بالسيارة.

ـ لن تذهبي.

هذا ما قالته العمة ألكسندرا. التفتُّ إليها وقد أصابني الذهول ثم التفتُّ نحو أتيكوس في الوقت المناسب لالتقاط نظرته السريعة إليها، ولكن لم تكن هناك فرصة. قلت لها:

ـ أنا لم أسألك.

بالنسبة لشخص ضخم الحجم مثله، كان أتيكوس يستطيع أن ينهض ويجلس في الكرسي أسرع من أي شخص آخر عرفته في حياتي. نهض واقفًا على قدميه وقال:

ـ اعتذري لعمتك.

ـ أنا لم أسألها، بل سألتك أنت.

أدار أتيكوس رأسه وثبتني في الحائط بعينيه الثاقبتين. كان صوته مميتًا.

ـ اعتذري لعمتك أولًا.

همهمت:

ـ آسفة يا عمتي.

ـ والآن، هيا نوضح هذه المسألة: ستطيعين كالبورنيا وتطيعينني وتطيعين عمتك طوال وُجودها في هذا البيت، هل فهمت؟

لقد فهمت. فكرت قليلًا ثم توصلت إلى أن الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها الانسحاب مع الاحتفاظ بكرامتي هي أن أذهب إلى الحمام، حيث بقيت هناك فترة طويلة حتى جعلتهم يظنون أني كنت مضطرة فعلًا إلى الذهاب. وعندما عدت، تريَّثت قليلًا لأسمع جدالًا عنيفًا يجري في غرفة الجلوس. وعبر الباب استطعت مشاهدة جيم جالسًا على الكنبة وقد وضع مجلة كرة القدم أمام وجهه، ورأسه يتحرك كأن صفحاتها تحتوي على مباراة تنس حية.

كانت عمتي تقول:

ـ ..... عليك أن تفعل شيئًا بالنسبة لها. لقد تركت لها الحبل على الغارب فترة أطول من اللازم يا أتيكوس، أطول من اللازم حقًا.

لا أرى أي ضرر في ذهابها إلى هناك، فكال ستعتني بها هناك بقدر ما تعتني بها هنا.

من كانت تلك التي يتحدثان عنها؟ خفق قلبي: إنها أنا. أحسست كما لو كانت جدران سجن مبنية بالقطن الزهري اللون تطبق عليّ، وللمرة الثانية في حياتي فكرت في الهرب من البيت، وفورًا.

ـ أتيكوس، لا بأس أن تكون طيب القلب، أنت شخص لين الطباع، ولكن لديك ابنة وعليك أن تفكر فيها. وهي فتاة تكبر يومًا بعد يوم.

ـ هذا ما أفكر فيه.

ـ لا تحاول التهرب من الموضوع. عليك أن تواجه المسألة إن عاجلًا أو آجلا، ولعل الليلة أفضل وقت تحديدًا. لسنا في حاجة إليها الآن.

جاء صوت أتيكوس هادئًا:

ـ ألكسندرا، لن تغادر كالبورنيا هذا المنزل حتى ترغب هي في ذلك. قد يكون لك رأي آخر، ولكن ما كان يمكن لي أن أدبر الأمور طوال هذه السنوات لولا وجودها معنا. إنها فرد مخلص من أفراد هذه العائلة وعليك أن تقبلي الأمور كما هي وببساطة. وإلى جانب ذلك يا أختي، فإني لا أريدك أن تجهدي نفسك في التفكير فينا.. ليس هناك داعٍ لذلك. لا نزال في حاجة إلى وجود كال معنا كما كنا نحتاجها دائمًا.

ـ ولكن يا أتيكوس...

ـ وبالإضافة إلى ذلك، لا أظن أن الطفلين قد تأذيا إطلاقًا من تربيتها لهما. وعلى كل حال، فقد كانت أقسى عليهما في بعض الأمور من أي أم، فهي لم يسبق لها أن تركتهما يفلتان من عقاب على خطأ ارتكباه، كما أنها لم تدللهما إطلاقًا مثلما تفعل المربيات الملونات، لقد حاولت أن تربيهما وفق فلسفتها الخاصة في الحياة، وفلسفة كال جيدة جدًا، وهناك شيء آخر، إن الطفلين يحبانها.

تنفست الصعداء. إنهما لا يعنياني أنا، بل كانا يتكلمان عن كالبورنيا. وبعد أن رُدت إليّ الروح دخلت إلى غرفة الجلوس. عاد أتيكوس وراء

صحيفته وكانت العمة ألكسندرا تحاول جاهده العمل بالتطريز. غرست إبرتها في شكل دوائر مشدودة. توقفت وشدت القماش أكثر: ها هي تعود للعمل ولكنها ثائرة.

نهض جيم وعبر السجادة. أشار إليّ كي أتبعه. قادني إلى غرفته وأغلق الباب. كان وجهه ينم عن جدية.

ـ لقد تشاجرا يا سكاوت.

أنا وجيم كنا نتشاجر كثيرا هذه الأيام، ولكني لم أسمع ولم أر شخصًا يتشاجر مع أتيكوس، لم يكن ذلك بالمشهد المريح.

ـ سكاوت، حاولي ألا تعادي عمتنا، أتسمعينني؟

لا تزال ملاحظات أتيكوس تتردد في أذني، مما جعلني لا ألحظ لهجة الأمر في سؤال جيم. ثم انتفض ريشي فجأة:

ـ هل تحاول أن تأمرني بما أفعله؟

ـ لا، ولكن المسألة... هي أن أتيكوس لديه الكثير من المشاغل الآن، وليس علينا أن نقلقه بمشاكلنا.

ـ مثل ماذا؟

لم يكن يبدو على أتيكوس أنه مشغول بشيء ما على وجه التحديد.

ـ إنها قضية توم روبنسون التي تزعجه بشدة.

قلت إن أتيكوس ما كان لأي شيء أن يقلقه. وبالإضافة إلى ذلك، فإن القضية لا تزعجنا إلا مرة في الأسبوع وعلى أية حال لم يكن ذلك الإزعاج من النوع الذي يدوم.

قال جيم:

ـ السبب هو أنك لا تستطيعين الاحتفاظ بشيء ما في ذهنك إلا لفترة وجيزة. أما بالنسبة لنا نحن الكبار فالأمر يختلف، فنحن...

أصبح تَرَفُّعَه الذي يثير الجنون أمرًا لا يحتمل في هذه الأيام. لم يكن يرغب في أي شيء عدا القراءة والانفراد بنفسه. ومع ذلك فقد كان لا يزال يحكي لي عن كل ما يقرأه، ولكن مع وجود اختلاف الآن: ففي الماضي ظن أني قد أحب ما يقرأ، أما الآن فهو يحكي لي من أجل أن يثقفني ويعلمني.

ـ يا للرب يا جيم.. ومن تحسب نفسك؟

ـ إني أعني ما أقوله يا سكاوت. إذا عاديت عمتنا فسوف... سوف أضربك.

بعد هذا لم يعد في إمكاني أن أحتمل أكثر من ذلك.

ـ أيها الملعون، سأقتلك.

كان يجلس على الفراش وكان من السهل أن أمسك بخصلة شعره الأمامية وأوجه لكمة إلى فمه. صفعني فحاولت أن أسدد له لكمة يسارية أخرى، ولكن لكمة منه في المعدة طرحتني أرضًا. كادت أنفاسي تتقطع، ولكني لم أكترث لأني أدركت أنه كان يتعارك، كان يعاركني ويرد على ضرباتي بمثلها. كنا لا نزال متساويين.

صرخت وأنا أستأنف العراك من جديد: «لم تعد مترفعًا وقويًا الآن، أليس كذلك؟». كان لا يزال جالسًا على الفراش ولم أستطع أن أتخذ وضعًا ثابتًا، لذا رميت بنفسي عليه بأقوى ما أستطيع وأنا أضربه وأشد

شعره وأخدشه بأظافرى. وما بدأ كملاكمة أصبح عِراكًا حقيقيًا. كنا لا نزال نتعارك حين فصل بيننا أتيكوس.

ـ هذا يكفي. اذهبا إلى النوم فورًا.

شعرت بالشماتة فيه فها هو يُؤمر بالذهاب إلى الفراش في ميعاد نومي أنا.

ـ من الذي بدأ الشجار؟

هكذا سألنا أتيكوس مستسلمًا.

ـ بدأه جيم. كان يحاول أن يُملي عليّ ما يجب أن أفعله. ولكني لست مضطرة إلى طاعته، أليس كذلك؟

ابتسم أتيكوس وقال:

ـ فلنحتكم إلى قاعدة: ستطيعين جيم كلما استطاع إقناعك بذلك. هل هذا حل عادل؟

حضرت العمة ألكسندرا لكن في صمت، وحين نزلت إلى الردهة مع أتيكوس سمعناها تقول: «... هذا مجرد شيء مما كنت أقوله لك»، وقد جعلنا هذا نتصالح من جديد ونشكل جبهة واحدة.

كانت غرفتانا متلاصقتين يصل بينهما باب، وحين أغلقت الباب الذي بينهما، قال لي جيم: «طابت ليلتك يا سكاوت».

همهمت «طابت ليلتك» وأنا أشق طريقي عبر الغرفة لأطفئ النور. وحين مررت بالسرير خطوت فوق شيء دافئ ومَرِنْ ولكن أملس. لم يكن ذلك الشيء كالمطاط، وقد تولد لدي إحساس بأنه حي. كما أني سمعته يتحرك.

أضأت النور ونظرت إلى الأرض قرب السرير، فلم أجد ما قد خطوت عليه من قبل. قَرَعْتُ باب غرفة جيم.

قال:

ـ ماذا؟

ـ كيف يكون ملمس الحية؟

ـ خشنة. باردة. مغبرة. لماذا؟

ـ أظن أن هناك حية تحت سريري. هل يمكنك أن تأتي لتلقي نظرة؟

ـ هل تمزحين؟

فتح جيم الباب. كان يرتدي «بنطلون»بيجامته. وقد لاحظت، بكل أسى، أن آثار لكماتي ما زالت على فمه. وحين رأى أني كنت جادة فيما قلته. قال:

ـ إذا كنت تظنين أني سأواجه حية، فلا شك أنكِ مخطئة. انتظري لحظة.

ذهب إلى المطبخ وأحضر المكنسة. قال:

ـ الأفضل أن تصعدي فوق السرير.

سألته:

ـ هل تظن أن هناك حية بالفعل؟

ربما، فمنزلنا دون أقبية، مبنيٌ فوق أساسات من الحجر لا ترتفع إلا بضعة أقدام عن الأرض، فدخول الزواحف ليس بالأمر الصعب وإن

لم يكن شائعًا. ولذا كان العذر الذي تسوقه الآنسة راتشيل هافرفورد لتناولها كأسًا من الويسكي كل صباح هو أنها لا تستطيع مطلقًا أن تتغلب على خوفها من أن تجد حية وقد التفت حول نفسها في غرفة النوم، أو على غسيلها حين تذهب لتنشر قميصها الداخلي.

قام جيم بحركة تجريبية مسح بها بالمكنسة ما تحت السرير. ونظرت إلى نهاية السرير لأرى إن كانت هناك حية ستخرج. لم يخرج شيء. قام جيم بحركة مسح أعمق.

ـ هل تصدر الحيات أصوات زمجرة؟

قال جيم:

ـ إنها ليست حية بل شخص ما.

وفجأة انطلقت لفافة قذرة بُنِّيِة اللون من تحت السرير. رفع جيم المكنسة وضرب بها ولكنه أخطأ رأس «ديل» بمقدار بوصة من تحت السرير. ثم صاح:

ـ يا للرب العظيم!

شاهدنا ديل وهو يخرج بالتدريج. كان الفراغ تحت السرير قد جعله يحشر نفسه حشرًا هناك. نهض ثم أرخى كتفيه وأدار قدميه، وحَكَّ مؤخرة عنقه. وبعد أن استعاد دورته الدموية، قال «أهلًا».

توسل جيم إلى الله مرة أخرى. أما أنا ففقدت النطق.

قال ديل:

ـ أكاد أموت. هل لديكم أي شيء آكله؟

وكمن في حلم ذهبت إلى المطبخ وأحضرت له بعض اللبن ونصف رغيف من خبز الذرة كان قد تبقى من وجبة العشاء، التهم ديل الطعام وهو يمضغه بأسنانه الأمامية كعادته.

وأخيرًا استعدت صوتي فقلت له:

ـ كيف وصلت إلى هنا؟

وصلت بمشقة. وبمجرد أن استعاد حيويته، بدأ ديل يقص علينا حكايته: فبعد أن قيده أبوه الجديد الذي يكرهه بالسلاسل ليموت في القبو (في بلدة ميريديان توجد أقبية للمنازل). وما تلا ذلك من بقائه على قيد الحياة بفضل حبات البازلاء النيئة التي رماها إليه مزارع سمع استغاثاته (لقد قام الرجل الطيب برمي قرون البازلاء له عبر مروحة التهوية وذلك عن طريق دسها واحدة تلو الأخرى)، استطاع ديل أن يحرر نفسه من الحبس بانتزاع السلسلة من الجدران. وقد تجول مسافة ميلين خارج بلدة ميريديان وأساور القيد في معصميه، حتى صادف فرقة استعراض صغيرة للحيوانات ووجد عملًا على الفور، ألا وهو غسل الجِمَال. وقد سافر مع هذه الفرقة عبر الميسيسبي حتى وجَّهته حاسته، التي لا تخطئ أبدًا، بأنه أصبح في مقاطعة أبوت، التي تتبع ألاباما، وأن مايكوم تقع عبر النهر مباشرة. وقد مشى بقية الطريق.

سأله جيم:

ـ كيف وصلت إلى هنا؟

كان قد أخذ ثلاثة عشر دولارًا من حافظة نقود أمه، ولحق بقطار الساعة التاسعة القادم من ميريديان ونزل منه عند نقطة اتصال مايكوم،

ثم مشى مسافة عشرة أو أحد عشر ميلًا من الأميال الأربعة عشر التي هي المسافة حتى مايكوم، ولكن بعيدًا عن الطريق العام وبين الشجيرات المنخفضة حتى لا تطارده الشرطة، كما أنه أمضى بقية الطريق متعلقًا باللوح الخلفي لعربة قطن. وكان قد أمضى ساعتين تحت السرير، حسبما يظن، وقد سمعنا حين كنا في غرفة الطعام، وكان رنين الشوك والأطباق قد جعله يكاد يجن. لقد ظن أننا أنا وجيم، لن نأوي أبدًا إلى فراشنا، كما أنه فكر في الخروج لمساعدتي في التغلب على جيم حين تشاجرنا، حيث إن جيم قد أصبح أطول بكثير، ولكنه كان يعلم أن السيد فينش سيظهر في أية لحظة، فرأى أنه من الأفضل له البقاء حيث كان. كان مرهقًا، قذرًا إلى أقصى حد... وبلا مأوى.

قال جيم:

ـ يجب أن يعرفوا أنك هنا. وسنعرف على أية حال إن كانوا يبحثون عنك.

ابتسم ديل وقال:

ـ أعتقد أنهم لا يزالون يبحثون عني في كل دور السينما في ميريديان.

ـ يجب أن تخبر أمك عن مكانك، يجب أن تعرف أنك هنا.

لَمَعَتْ عينا ديل وهو ينظر إلى جيم، فنظر جيم إلى الأرض. ثم وقف وحطم ذلك العرف المتبقي منذ طفولتنا، إذ خرج من الغرفة ونزل إلى الردهة وسمعنا صوته ينادي من بعيد:

ـ أتيكوس، هل يمكنك أن تأتي إلى هنا يا سيدي؟

وتحت القذارة التي شكَّلها العرق في خطوط، شَحُبَ وجه ديل. أحسست بالغثيان وقد ظهر أتيكوس عند الباب الآن.

وصل إلى منتصف الغرفة وتوقف ويداه في جيبيه، وهو ينظر إلى ديل.

وأخيرًا استرجعت صوتي فقلت:

ـ لا بأس يا ديل. حين يريدك أن تعرف شيئًا فسيخبرك به.

نظر ديل إليّ فقلت:

ـ أعني أنه لا بأس. أنت تعرف أنه لن يزعجك، وتعرف أنك لا تخاف من أتيكوس.

همهم ديل:

ـ لست خائفًا.

ـ جائع فحسب، وأراهن على ذلك.

هكذا جاء صوت أتيكوس جافًا ولطيفًا كعادته، واستأنف قائلًا:

ـ يا سكاوت، لدينا ما هو أفضل من رغيف من خبز الذرة، أليس كذلك؟ أطعمي هذا الشخص حتى يشبع، وحين أعود سنرى ما سنفعله.

ـ يا سيد فينش، لا تخبر الآنسة راتشيل، لا تعيدني إليهم، أرجوك يا سيدي، وإلا سأهرب مرة أخرى.

قال أتيكوس:

ـ هوِّن عليك يا بني. لن يجعلك أي شخص تذهب إلى أي مكان

سوى إلى الفراش وسريعًا جدًا. كل ما سأفعله هو أني سأقول للآنسة راتشيل أنك هنا وأطلب منها أن تسمح لك بالمبيت عندنا الليلة. هذا ما تريده، أليس كذلك؟ وأرجوك أن تعيد إلى أرض المقاطعة ما أخذته منها، فتآكل التربة الطبيعي فيه ما يكفي من الأذى في حد ذاته.

حَدَّقَ ديل في والدي وهو ينسحب من الغرفة.

قلت:

ـ إنه يداعبك. إنه يعني أن عليك أن تستحم. هل رأيت؟ لقد قلت لك إنه لن يزعجك.

كان جيم واقفًا في أحد أركان الغرفة وعلى وجهه علامات الخيانة. قال:

ـ ديل، كان عليّ أن أخبره. لا يمكنك أن تهرب مسافة ثلاثمائة ميل دون أن تخبر والدتك.

تركناه دون أن نجيبه بكلمة واحدة.

أكل ديل ثم أكل وأكل. لم يكن قد أكل شيئًا منذ الليلة الماضية. فقد استخدم كل ما كان لديه من نقود ليشتري بها تذكرة القطار، وقد ركب القطار كما اعتاد أن يفعل مرات عديدة، وتبادل أطراف الحديث مع المفتش بكل برود، وكان شكل ديل مألوفا بالنسبة للمفتش، ولكنه لم يجرؤ على طلب تنفيذ النظام الخاص بالأطفال الصغار المسافرين وحدهم لمسافات طويلة: إذا كنت قد فقدت نقودك فإن على المفتش أن يُقْرِضَك بعض المال لتتناول الطعام وسيعيد أبوك إليه المال في المحطة.

كان ديل قد انتهى من تناول بقايا الطعام وأراد الوصول إلى علبة من لحم الخنزير والفاصوليا الموجودة في حجرة تخزين الأطعمة حين انطلق صوت الآنسة راتشيل في الردهة: «يا للمسيح!» وارتجف هو كالأرنب.

وقد تجلد حين قالت: «يجب أن أعيدك إلى بيتك. أهلك قد فقدوا عقولهم قلقًا عليك» ثم استكان حين سمعها تقول: «إن كل ما ورثته عن عائلة هاريس يخرج منك الآن» وابتسم حين أردفت: «أعتقد أن بإمكانك المبيت هنا ليلة واحدة» وعانقها حين عانقته أخيرًا.

رفع أتيكوس نظارته إلى الأعلى ومسح وجهه.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ أبوكما متعب.

وكانت تلك أول كلمات تتلفظ بها العمة ألكسندرا منذ ساعات كما بدا لي. فبالرغم من وجودها كانت صامتة معظم الوقت.

ـ هيا إلى الفراش أيها الأطفال.

تركناهم وهم في غرفة الطعام، وكان أتيكوس ما زال يمسح وجهه. سمعناه يضحك وهو يقول: «من الاغتصاب إلى الشغب إلى الفارين من بيوتهم وأتساءل عما ستجلبه يا ترى الساعتان التاليتان».

وبما أن الأمور سارت على أحسن حال، فقد قررنا أنا وديل أن نكون لطيفين مع جيم، وما دعانا لذلك أكثر، أنه كان على ديل أن يقاسمه فراشه، إذن لا بأس من التحدث إليه.

ارتديت بيجامتي وقرأت لفترة ثم وجدت نفسي فجأة غير قادرة على إبقاء عينيّ مفتوحتين. كان ديل وجيم هادئين الآن، وحين أطفأت مصباح القراءة لم يكن هناك شعاع من الضوء يتسلل من تحت الباب المؤدي إلى غرفة جيم.

لا بد وأني كنت قد غفوت لبعض الوقت. لأني حين أحسست بقرصة أيقظتني كان ضوء القمر الغارب ينيرها بخفوت.

ـ تحركي قليلًا يا سكاوت.

همهمت:

ـ يظن أنه كان من واجبه أن يفعل ما فعله. اغفر له.

دخل ديل السرير وتمدد بالقرب مني. قال:

ـ لست غاضبًا منه، ولكني أردت أن أنام بجانبك. هل استيقظت تمامًا؟

في ذلك الحين كنت قد استيقظت تمامًا، ولكن في تكاسل.

ـ لماذا فعلت ما فعلته؟

لم أتلق جوابًا.

ـ قلت لماذا هربت؟ هل كان كريهًا كما تقول؟

ـ لا.

ـ ألم تبنيا الزورق. كما كتبت لي؟

ـ قال إننا سنبنيه. ولكننا لم نفعل.

استندت على مرفقي مواجهة طيف ديل:

ـ ليس ذاك سببًا كافيًا للهروب. إنهم لا ينجزون عادة نصف ما يعدون بـه.

ـ لم يكن ذاك هو السبب، بل لأنهما لا يهتمان بي.

وكان ذلك أغرب سبب للهروب سَمِعْتُه في حياتي.

ـ وكيف ذلك؟

ـ حسنًا، كانا يتركان البيت معظم الوقت، وحين يعودان، يدخلان غرفتهما ويبقيان وحدهما.

ـ وما الذي كانا يفعلانه هناك في غرفتهما؟

ـ لا شيء، يجلسان ويقرآن فحسب، ولكنهما لم يرغبا في وجودي معهما.

دفعت الوسادة لمقدمة السرير وجلست:

ـ أتعلم؟ لقد كنت أفكر في الهروب الليلة لأنهم كانوا جميعًا هنا. هل حقًا تريدهما معك طوال الوقت يا ديل؟

تنهد ديل نصف تنهيدة في صبر.

ـ طاب مساؤك، فأتيكوس يغيب طوال النهار وأحيانًا إلى منتصف الليل وقد يغيب أيامًا في برلمان الولاية وغير ذلك... أنت لا تريدهما معك طوال الوقت. يا ديل، لا يمكنك أن تفعل شيئًا إذا كانا معك طوال الوقت.

ـ ليس الأمر كذلك.

وحين بدأ ديل يشرح وجهة نظره، شعرت أني أتساءل بيني وبين نفسي عن معنى الحياة لو أن جيم كان يختلف عما هو عليه، وحتى عما هو عليه الآن: ما الذي كنت سأفعله يا ترى لو أن أتيكوس لم يشعر بضرورة وجودي ومساعدتي ونصيحتي؟ عجبًا، إنه لا يستطيع أن يتدبر أموره يومًا واحدًا بدوني. وحتى كالبورنيا لا تستطيع أن تدبر أمورها ما لم أكن موجودة. إنهما يحتاجان إليّ.

ـ ديل، أنت لا تقول لي الحقيقة: لا يمكن لأسرتك أن تعيش بدونك. لا بد أنهما خسيسان معك. هل أقول لك ما تفعله معهما.

تابع ديل بصوته الثابت في الظلام:

ـ المسألة هي، أن ما أحاول أن أقوله هو: إنهما يكونان في حال أفضل بدوني، ولا أستطيع أن أقدم لهما شيئًا. إنهما ليسا خسيسين، فهما يشتريان لي كل ما أريد، ولكن المسألة هي: «الآن بعد أن حصلت على ما تريد اذهب والعب به وحدك.. لديك غرفة مليئة بكل الأشياء. لقد جئت لك بهذا الكتاب فاذهب واقرأه».

هنا حاول ديل أن يُعَمِّق صوته وتابع قائلًا:

ـ «لست صبيًا. الصبيان يخرجون ليلعبوا البيسبول مع الصبيان الآخرين. إنهم لا يبقون في المنزل ليزعجوا أسرهم».

عاد ديل الآن إلى صوته الحقيقي:

ـ لا، ليسا خسيسين. إنهما يقبلانك ويعانقانك عند النوم وعند الاستيقاظ في الصباح وعند الوداع ويقولان لك إنهما يحبانك: يا سكاوت هيا نحصل على طفل.

ـ من أين؟

كان هناك رجل سمع به ديل لديه زورق كان يجدف به حتى يصل إلى جزيرة ضبابية حيث كل الأطفال هناك، ويمكن أن يُطلب منه طفل.

ـ هذا كذب. عمتي قالت إن الله يسقطهم عبر المدخنة. على الأقل هذا ما أعتقد أنها قالته. تلك المرة الوحيدة التي لم يكن أسلوب عمتي فيها واضحًا جدًا.

ـ حسنًا، المسألة ليست كذلك. الناس تحصل على الأطفال من بعضها البعض. ولكن هذا الرجل... لديه كل الأطفال الذين ينتظرون من يوقظهم، إنه ينفخ فيهم الحياة.

غفا ديل مرة أخرى. طفت أشياء جميلة حول رأسه الحالم. كان أسرع مني في القراءة مرتين. ولكنه كان يفضل سحر اختراعاته. كان يستطيع أن يجمع ويطرح أسرع من البرق، ولكنه كان يفضل عالمه الشفقي الخاص به، عالم ينام فيه الأطفال، منتظرين أن يُقْطَفوا كزهور الليلك الصباحية. كان يتحدث مع نفسه ببطء حتى ينام وكان يجرني أنا أيضًا معه، ولكن في هدوء جزيرته الضبابية برزت صورة باهتة لمنزل رمادي له أبواب بنيّة حزينة.

ـ ديل؟

ـ نعم...؟

ـ لماذا في رأيك لم يحاول بو رادلي الهروب إطلاقًا؟

تنهد ديل تنهيدة طويلة ثم أدار ظهره لي:

ـ ربما ليس لديه مكان يهرب إليه.

الفصل الخامس عشر

بعد مكالمات هاتفية عديدة، ودفاع متواصل لصالح المتهم، ورسالة طويلة من أمه تمنحه الغفران، صدر الحكم الذي سمح لديل بالبقاء؛ فتمتعنا بأسبوع من الهدوء معًا. وبعد ذلك بقليل، بدا كما لو أن كابوسًا قد حل بنا.

بدأ ذلك في إحدى الأمسيات بعد العشاء. كان ديل في بيتنا، والعمة ألكسندرا تجلس في كرسيها عند الركن، وأتيكوس في كرسيه، أما أنا وجيم فجلسنا على الأرض نقرأ. كان أسبوعًا هادئًا: فقد أطَعْتُ فيه عمتي، وكان جيم قد بلغ سنًا جعلته يَعْزُف عن الصعود إلى كوخ الشجرة، ولكنه ساعدني أنا وديل في صنع سلم جديد من الحبال نرقى به إلى الكوخ. وكان ديل قد اهتدى إلى خطة مضمونة نستدرج بها بو رادلي للخروج من بيته دون أن يلحق بنا أي ضرر. وتتلخص الخطة في نثر نقاطٍ من عصير الليمون في خط يمتد من الباب الخلفي إلى الفناء الأمامي، كي يتبعه بو رادلي مثلما تفعل النملة. سمعنا طرقًا على الباب الأمامي، وقام جيم بفتح الباب ليعلن قدوم السيد هِك تيت.

قال أتيكوس:

ـ حسنًا، ادعه للدخول.

ـ لقد دعوته بالفعل، ولكن هناك بعض الرجال في الفناء، وهم يريدونك أن تخرج.

في مايكوم، يقف الرجال الراشدون خارجًا في الأفنية الأمامية لسببين: الموت والسياسة. وتساءلت عمن يكون قد مات يا ترى. ذهبنا أنا وجيم إلى الباب الأمامي، ولكن أتيكوس صاح: «ادخلا إلى المنزل».

أطفأ جيم أنوار غرفة الجلوس وألصق أنفه بالحاجز المنخلي للنافذة. احتجت العمة ألكسندرا، لكنه قال لها: «لحظة واحدة يا عمتي أريد أن أرى من هُمْ».

نظرت أنا وديل من نافذة أخرى. كان هناك مجموعة من الرجال يتجمهرون حول أتيكوس، وبدوا وكأنهم يتحدثون جميعًا في وقت واحد.

كان السيد تيت يقول:

ـ ..... سننقله إلى سجن المقاطعة غدًا. لا أريد أي مشكلات، ولكني لا أستطيع أن أضمن عدم حدوثها.

قال أتيكوس:

ـ لا تكن أحمق يا هِك، هذه مايكوم.

ـ قلت إني قلق فقط لا غير.

هِك، لقد حصلنا على تأجيل واحد لهذه القضية حتى نضمن عدم وجود ما نقلق بشأنه. اليوم السبت وستبدأ المحاكمة يوم الإثنين على

الأرجح. بإمكانك أن تبقيه ليلة واحدة، أليس كذلك؟ لا أعتقد أنه في مثل هذه الأوقات العصيبة سيكون في مايكوم من يَودُّ أن يحرمني من عميلي.

صدرت همهمة مرحة سرعان ما تلاشت فجأة حين قال السيد لينك ديس:

ـ لا أحد هنا يريد أن يثير أي مشكلات، ولكن ما يقلقني هو عصابة أولد ساروم... ألا يمكنك يا هِك الحصول على تلك التي تسمى... ماذا تسمى؟

قال السيد تيت:

ـ نقل المحاكمة إلى بلدة أخرى. لم يعد ذلك ممكنًا الآن، أليس كذلك؟

قال أتيكوس شيئًا غير مسموع. التفت نحو جيم الذي أشار لي بأن أصمت.

كان أتيكوس يقول:

ـ... وإلى جانب ذلك، لستم خائفين من تلك العصابة، أليس كذلك؟

ـ.... أنت تعرف كيف يتصرفون وهم سُكَارى.

قال أتيكوس:

ـ إنهم عادة لا يشربون يوم الأحد، بل يذهبون إلى الكنيسة ويقضون معظم اليوم فيها.

قال أحدهم:

ـ هذه مناسبة خاصة على أية حال.

همهموا وغمغموا حتى قالت العمة إن على جيم أن يضيء نور غرفة الجلوس وإلا فإنه سيُخزي العائلة. ولكن جيم لم يسمع لها.

ـ ... لا أرى السبب في أنك أخذت هذه القضية على عاتقك.

كان المتحدث هو السيد لينك ديس الذي تابع الكلام قائلًا:

ـ ستخسر كل شيء بسبب هذه القضية يا أتيكوس، أعني كل شيء فعلًا.

ـ هل تعتقد ذلك فعلًا؟

كان ذلك هو سؤال أتيكوس الخطير. «هل تعتقدين فعلًا يا سكاوت أنك تريدين أن تقومي بهذه النقلة؟ وما إن يطرح سؤاله حتى تتهاوى قطعي من فوق لوحة الشطرنج. هل تعتقد ذلك فعلا يا بني؟ اقرأ هذا الكتاب إذن، ويظل جيم بقية المساء في جهاد ليفهم ما يقرأه من خطابات هنري و. جرادي» (Henry W. Grady).(١)

كان صوت أتيكوس هادئا وهو يقول:

ـ يا لينك، قد يذهب ذلك الشاب إلى الكرسي الكهربائي، ولكنه لن يذهب إليه حتى تظهر الحقيقة. وأنت تعرف ما هي الحقيقة.

كانت هناك همهمة بين مجموعة الرجال، صارت تنذر بالسوء أكثر

---

(١) هنري و. جرادي (١٨٥١ ـ ١٨٨٩) صحفي وخطيب أمريكي قام بدور بارز في إعادة دمج الولايات الكونفدرالية في الاتحاد الفدرالي للولايات المتحدة. وكانت هذه الولايات قد انشقت عن الدولة المركزية. (المترجمة).

حين تراجع أتيكوس نحو آخر درجة في السلم الأمامي وزاد اقتراب الرجال منه.

وفجأة صاح جيم: «أتيكوس، الهاتف يرن».

تحرك الرجال قليلًا ثم انتشروا. كانوا أشخاصًا نراهم كل يوم: تجارًا ومزارعين من سكان البلدة. وكان هناك الدكتور رينولدز والسيد آفري أيضًا.

صاح أتيكوس:

ـ حسنًا ارفع السماعة وأجِبْ.

ضحك الجميع فشتتت الضحكات جمعهم، وحين أضاء أتيكوس أنوار السقف في غرفة الجلوس وجد جيم واقفًا، شَاحِبَ اللون فيما عدا علامة حمراء على أنفه من أثر التصاقه بالباب المنخلي.

سألنا:

ـ لماذا يا ترى تجلسون جميعًا في الظلام؟

راقبه جيم وهو يتجه إلى الكرسي ويمسك بصحيفة المساء. أعتقد أحيانًا أن أتيكوس قد أخضع كل أزمة من أزمات حياته إلى تقييم هادئ خلف صحيفة «موبيل ريجيستر» أو «برمنجهام نيوز» أو «مونتوجمري أدفيرتايزر».

قال له جيم:

ـ إنهم يلاحقونك، أليس كذلك؟ يريدون النيل منك، أليس كذلك؟

خفض أتيكوس صحيفته وأطال النظر إلى جيم، ثم سأله: «ما الذي كنت تقرؤه؟» ثم قال بلطف: «لا يا بني. أولئك كانوا أصدقاءنا».

ـ ألم تكن تلك عصابة؟

كان جيم ينظر من جانب عينيه.

حاول أتيكوس جاهدًا أن يبتسم ولكنه لم ينجح. قال: «لا، ليس لدينا غوغاء أو ما شابه ذلك في مايكوم. في حياتي كلها لم أسمع بوجود عصابة في مايكوم».

لقد لاحقت عصابة «كوكلاكس»[1] (Ku Klux) الكاثوليك في إحدى المرات.

لم أسمع بوجود الكاثوليك في مايكوم أيضًا. لقد تشابه عليك الأمر. في الماضي، أي في حوالي عام ١٩٢٠ كانت هناك «عصابة»، ولكنها كانت تنظيمًا سياسيًا لا أكثر ولا أقل. علاوة على ذلك، فإنها لم تجد من تُرهبه. وقد قاموا باستعراض في إحدى الليالي قرب منزل السيد سام ليفي (Mr. Sam Levy)، ولكن سام وقف عند المدخل الأمامي من منزله وقال لهم إن الأمور قد وصلت إلى حالة سيئة. لقد احتال عليهم ثم جعلهم يخجلون من أنفسهم إلى حد أنهم رحلوا بعيدًا.

كانت تنطبق على عائلة ليفي جميع معايير «الناس الأفاضل»: فقد كانوا يتمتعون بالحِس السليم إلى أقصى حد ممكن، كما كانوا يعيشون على قطعة الأرض نفسها في مايكوم منذ خمسة أجيال.

---

(١) الكوكلاكس (Ku Klux) جماعة أمريكية سرية يتخفى أعضاؤها في زي من الأقنعة والأرواب يتركز وجودها في الجنوب الأمريكي وتؤمن بسيادة الجنس الأبيض. وقد نشأت هذه الجماعة في أعقاب الحرب الأهلية الأمريكية، ولجأت إلى أساليب الإرهاب والتخويف ضد الزنوج، كما لجأت إلى محاكمات صورية لهم عادة ما كانت تنتهي بإعدامهم شنقًا على فروع الأشجار. (المترجمة).

قال أتيكوس:

ـ لقد رحلت عصابة كوكلاكس، ولن تعود أبدًا.

مشيت مع ديل حتى منزل الآنسة راتشيل ثم عدت في الوقت الملائم لأسمع أتيكوس وهو يقول لعمتي: «... لصالح المرأة الجنوبية بقدر ما هو لصالح أي شخص، ولكن لا يمكن تفضيل الخيال الروائي اللطيف على حياة بشر». وكان ذلك تصريحًا جعلني أشك في أنهما كانا يتشاجران مرة أخرى.

بحثت عن جيم فوجدته في غرفته على السرير غارقًا في التفكير. سألته:

ـ هل يتشاجران؟

ـ نوعًا ما، إنها تدأب على ملاحقته بشأن توم روبنسون، وكادت أن تقول إن أتيكوس يخزي اسم العائلة. يا سكاوت... أنا خائف.

ـ لماذا أنت خائف؟

ـ خائف على أتيكوس. قد يؤذيه شخص ما.

كان جيم يفضل أن يحيط نفسه بجو من الغموض، وكانت إجابته المعتادة عما أسأله هي أن أتركه وشأنه وأنصرف لحالي.

كان اليوم التالي يوم أحد. وفي الفترة ما بين مدرسة الأحد ووقت الصلاة في الكنيسة حين كانت الرعية تتجول هنا وهناك، رأيت أتيكوس واقفًا في فناء الكنيسة مع مجموعة أخرى من الرجال. كان السيد هِك تيت حاضرًا وتساءلت في نفسي إن كان قد نزل عليه وحي من الرب، فقد

كان لا يذهب إلى الكنيسة مطلقًا. وحتى السيد أندروود كان هناك. السيد أندروود لم يكن يمارس أي نشاط في أي مؤسسة عدا صحيفة «مايكوم تريبيون» التي كان هو مالكها ومحررها وعامل طباعتها الأوحد. كان يقضي أيامه على منضدة الطباعة، حيث ينعش نفسه بين الحين والآخر من وعاء من خمر الكرز من سعة جالون واحد يضعه في متناوله دائمًا. وقد كان نادرًا ما يجمع الأخبار بل كان الناس يجلبونها إليه. ويقال إنه قام بتحرير جميع إصدارات صحيفته وحده وسجلها على منضدة الطباعة. وكان ذلك أمرًا يمكن تصديقه. ولكن شيئًا ما قد حدث جعل السيد أندروود يخرج من مكتبه.

رأيت أتيكوس وهو يدخل من الباب. قال إن توم روبنسون نُقل إلى سجن مايكوم. كما قال مخاطبًا نفسه أكثر مما كان يخاطبني إنه لو كان قد احتجز في سجن مايكوم منذ البداية لَمَا حدثت أي مشكلات. رأيته يجلس على مقعده في الصف الثالث من الأمام، وسمعته يهمهم بترتيلة «أقرب إليك يا ربي»، متأخرًا عن بقيتنا عدة أبيات. لم يكن يجلس معنا على الإطلاق، أي مع العمة ومعي أنا وجيم. كان يحب أن يكون وحده في الكنيسة.

أصبح السلام المصطنع الذي يسود أيام الآحاد أكثر إزعاجًا مع وجود العمة ألكسندرا، فأتيكوس يهرب إلى مكتبه بعد الغداء مباشرة. ولكن أحيانًا كنا نجده يقرأ وهو جالس في كرسيه الدوار. أما العمة ألكسندرا فتنام ساعتين في فترة بعد الظهر وتحذرنا من أن نقوم بأي ضجة في الفناء، فالحي كله في حالة راحة، كما كان جيم في أيام «شيخوخته» الآن يأوي إلى غرفته مع مجموعة من مجلات كرة القدم الأمريكية. ولِذا كنت أمضي أيام الآحاد مع ديل نلعب صامتين في «مرعى الغزلان».

كان الصيد محظورًا أيام الآحاد، لذا كنت ألعب مع ديل بكرة القدم الخاصة بجيم حول المرعى لفترة، ولم يكن في ذلك متعة ما. سألني ديل إذا كنت أرغب في تسديد وخزة ما إلى بو رادلي. قلت إني لا أظن أنه من اللائق إزعاجه، وقضيت بقية فترة العصر أحكي لديل عن حوادث الشتاء الماضي. وقد تأثر تمامًا بما حكيته له.

افترقنا عند وقت العشاء، وبعد تناول الوجبة كنا أنا وجيم قد تأهبنا لقضاء أمسية روتينية، حينئذ قام أتيكوس بعمل شيء أثار اهتمامنا: دخل غرفة الجلوس حاملًا سلكًا كهربائيًا طويلًا وفي نهايته مصباح كهربائي.

قال:

ـ سأخرج لبعض الوقت. حين أعود ستكونون نائمين، لذا أتمنى لكم ليلة سعيدة من الآن.

وبعد أن قال ذلك وضع قبعته على رأسه وخرج من الباب الخلفي. قال جيم: «لقد استقل سيارته».

كان لأبينا بعض التصرفات الغريبة: منها مثلًا أنه لا يأكل الحلوى أو الفاكهة بعد الطعام، ومنها أيضًا أنه كان يحب المشي. وإذا عدت إلى أولى ذكرياتي فإني أتذكر سيارة شيفروليه (Chevrolet) في حالة ممتازة تقف دائمًا في الجراج، وكان أتيكوس يستعملها كثيرًا حين يسافر في عمل، ولكنه في مايكوم كان يمشي من المنزل إلى المكتب أربع مرات في اليوم قاطعًا حوالي ميلين سيرًا على الأقدام. كان يقول إن المشي هو رياضته الوحيدة. وفي مايكوم إذا مشى شخص دون هدف محدد في ذهنه، فقد يُعتقد أن عقل هذا الشخص قاصر.

وفيما بعد تمنيت لعمتي ولأخي «ليلة سعيدة»، وكنت قد انهمكت في قراءة أحد الكتب حين سمعت جيم يخشخش في غرفته. كانت الضجة التي يُحْدِثُها عادة حين يريد النوم مألوفة جدًا لدي، ولكن كانت هذه مختلفة. طرقت بابه وسألته:

ـ لِمَ لا تريد أن تأوي إلى فراشك؟

ـ سأنزل إلى البلدة لبعض الوقت.

كان يغير بنطلونه.

ـ لماذا؟ الساعة العاشرة تقريبًا يا جيم.

كان يعرف ذلك، ولكنه يود الذهاب على أية حال.

ـ إذن، سأذهب معك وافقت أم لم توافق، هل تسمعني؟

رأى جيم أن عليه أن يتعارك معي حتى يبقيني في المنزل، وأعتقد أنه ظن أن الشجار قد يثير غضب عمتي، ولذا استسلم ولكن بقليل من الكياسة.

ارتديت ملابسي بسرعة. انتظرنا حتى أطفأت عمتي نور غرفتها، ثم هبطنا السلم الخلفي بهدوء. لم تكن الليلة مُقْمِرَة.

همست:

ـ سيرغب ديل في المجيء أيضًا.

قال جيم بكآبة:

ـ حسنًا. فليجئ.

قفزنا عبر جدار الممر، وتجاوزنا فناء الآنسة راشيل الجانبي ومضينا نحو شباك ديل. صَفَّرَ جيم مقلدًا صوت طائر «البوب وايت»: ظهر وجه ديل عند الحاجز المنخلي، ثم اختفى، وبعد خمس دقائق، رفع مزلاج الحاجز المنخلي وتسلل خارجًا. وبما أنه كان جنديًا قديمًا محنكًا، فلم يتحدث حتى أصبحنا على الرصيف. قال:

ـ ما الحكاية؟

إن جيم مصاب بمرض الفضول، وهو مرض تقول كالبورنيا إن كل الصبيان في سنه يصابون به.

ـ كل ما في الأمر أن لدي إحساسًا خاصًا.

مررنا قرب منزل السيدة ديبوز، الذي كان يقف خاويًا مغلق المصاريع، وقد نمت شجيرات الكاميليا ضمن الأعشاب الضارة وأعشاب الجونسون. كان هناك ثمانية منازل أخرى حتى نصل إلى زاوية مكتب البريد.

كان الطرف الجنوبي من الساحة مهجورًا ووقفت الشجيرات عند كل زاوية وبينها مربط معدني يلمع تحت أنوار الشارع. وكانت دورة المياه العمومية مضاءة، وخلاف ذلك فدار المحكمة مُعْتِمَة. وكان هناك ساحةٌ كبيرة من المخازن تحيط بساحة دار المحكمة الأصغر، ومن أعماقها ظهرت أنوار خافتة ترسل بصيصًا ضعيفًا.

كان مكتب أتيكوس داخل دار المحكمة حين بدأ ممارسة المحاماة، ولكنه نقله بعد سنوات إلى مكان أهدأ في مبنى «بنك مايكوم». وحين التففنا حول زاوية الساحة، رأينا سيارته واقفة أمام البنك. قال جيم: «إنه بالداخل».

ولكنه لم يكن هناك.

حتى تصل إلى مكتبه كان عليك أن تسير في ردهة طويلة. نظرنا عبر الردهة، وكان من المفترض أن نرى لافتة كُتِبَ عليها: «أتيكوس فينش، محام قانوني» بأحرف صغيرة ينعكس عليها الضوء الخارج من باب مكتبه. ولكن الظلام كان دامسًا.

حدق جيم في باب البنك ليتأكد. أدار مقبض الباب ولكنه كان مقفلًا. قال: «لنذهب حتى نهاية الشارع. ربما يقوم بزيارة السيد أندروود».

لم يكن السيد أنـدروود يدير مكتب صحيفة «مايكوم تريبيون» فحسب، بل كان يسكن فيه أيضًا،أعني أنه كان يسكن الطابق العلوي من مبنى الصحيفة، وكان يغطي أخبار دار المحكمة والسجن عن طريق النظر ـ هكذا بكل بساطة ـ من شباك غرفته في الطابق العلوي. يقع المبنى الذي يضم مكتبه في الزاوية الشمالية الغربية من الميدان، وللوصول إليه كان علينا المرور من أمام السجن.

سَجْن مايكوم هو أكثر أبنية المقاطعة مهابةً وقبحًا، وكان أتيكوس يقول إن تصميمه لا يختلف كثيرًا عما يمكن لابن العم جوشوا سانت كلير (Joshua St. Clair) أن يتخيله إذا ما طلب إليه ذلك. كان، لا شك، نتاج حلم راود مصممه. فهذا المبنى ذو وضع غريب في وسط بلدة ذات مخازن مربعة الواجهات ومنازل ذات أسطح مائلة. وهو لا يزيد عن كونه نكتة قوطية مصغرة. فعرضه زنزانة واحدة وارتفاعه زنزانتان، تعلوه الشرفات المُفرَجَة وتحيطه الدُعَامَات المرفوفة. أما الفانتازيا الدائرة حوله فقد تعمقت بفضل واجهته المبنية بالطوب الأحمر والقضبان الفولاذية التي تحمي ما يشبه نوافذ الكنيسة. لم يكن مبنى السجن يقف منفردًا

فوق التل بل محشورًا كالإسفين بين «مخازن خردوات تيندال» ومكتب صحيفة «مايكوم تريبيون». ويعد الكلام عن السجن هو المادة الوحيدة لأحاديث أهالي مايكوم: فقد كان المنتقصون من قدره يقولون إنه يشبه مرحاضًا من الطراز الفيكتوري، أما المعجبون به فيقولون إنه يمنح البلدة مظهرًا جيدًا وراسخًا ويدعو إلى الاحترام، وما كان لأي غريبٍ أن يشك أبدًا في أنه يَغُصُ بالزنوج.

وبينما كنا نسير على الرصيف، شاهدنا نورًا وحيدًا يلمع من بعيد. قال جيم: «هذا أمر غريب، فالسجن ليس له نور خارجي».

قال ديل:

ـ يبدو وكأن النور مُعَلَّقٌ على الباب.

كان سلك كهربائي طويل يمتد من بين قضبان نافذة الطابق الثاني وينزل حتى جانب المبنى. وتحت نور المصباح الكهربائي جلس أتيكوس وهو يستند إلى الباب الأمامي. كان يجلس على أحد كراسي مكتبه، ويقرأ، متجاهلًا حشرات الليل التي تتراقص فوق رأسه.

تَهيَّأتُ للجري، ولكن جيم أمسك بي. قال: «لا تذهبي إليه، فقد لا يحب ذلك. إنه بخير، فلنذهب إلى البيت. كنت أريد أن أعرف أين هو فحسب».

اختصرنا الطريق عبر الميدان وحينها رأينا أربع سيارات يعلوها الغبار قادمة من الطريق العام المؤدي إلى بلدة ميريديان، وكانت تتحرك ببطء في صف واحد. دارت حول الساحة وتجاوزت بناء البنك ثم توقفت أمام السجن.

لم يخرج أحد منها. رأينا أتيكوس ينظر من خلف صحيفته. أغلقها ثم طواها بعناية، ورماها في حجره ثم دفع بقبعته إلى مؤخرة رأسه. بدا عليه وكأنه كان يتوقع وصولهم.

همس جيم: «هيا بنا». قطعنا الميدان عبر الشارع حتى احتمينا عند باب «چتني چنجل» (Jitney Jungle). ألقى جيم نظرة خاطفة عبر الرصيف.

قال: «يمكننا الاقتراب أكثر». جرينا حتى باب محل مواد البناء المسمى «تيندال». أصبحنا الآن قريبين إلى حد كبير، وفي الوقت نفسه دون أن يرانا أحد.

خرج الرجال من السيارات مثنى وفرادى. أصبحت الظلال مادة ملموسة حين كشف النور أشكالًا صلبة تتحرك نحو باب السجن. بقي أتيكوس حيث هو في مكانه. وصار الرجال يخفونه عن أنظارنا.

سأله أحد الرجال:

ـ هل هو في السجن هنا؟

أجابه أتيكوس:

ـ نعم، وهو نائم. لا توقظوه.

وإطاعة لما قال أبي، بدأ مشهد أدركت فيما بعد أنه كان مظهرًا كوميديًا مقززًا لموقف غير كوميدي: فقد راح الرجال يتحدثون بلهجة أقرب إلى الهمس.

قال رجل آخر:

ـ أنت تعرف ما نريد. ابتعد عن الباب يا سيد فينش.

قال أتيكوس بلهجة لطيفة:

ـ بإمكانك أن تدور للخلف ثم تعود إلى بيتك مرة أخرى يا وولتر. إن هِك تيت في مكان قريب من هنا.

قال أحد الرجال:

ـ ليذهب إلى الجحيم. في هذا الوقت لا بد وأن يكون قد توغل مع مجموعته في قلب الغابات ولن يخرجوا منها قبل الصباح.

ـ فعلًا؟ وكيف ذلك؟

كان الجواب البليغ هو:

ـ لقد خرجوا في رحلة صيد. ألم تسمع بذلك يا سيد فينش؟

ـ لقد فكرت فيه، ولكني لم أصدقه. إذن، فهذا قد يغير من الأمر، أليس كذلك؟

قال أبي هذه الجملة الأخيرة دون أن يتغير صوته.

صدر صوت عميق آخر، صدرعن مجرد ظل: بلى.

ـ هل تعتقد ذلك فعلًا؟

كانت تلك هي المرة الثانية التي أسمع أتيكوس يطرح هذا السؤال خلال يومين، وكان ذلك يعني أن شيئًا ما سيحدث. إذن يجب ألا أفوِّت عليَّ الفرصة. أفلتُ من قبضة جيم وجريت بأسرع ما أستطيع نحو أتيكوس.

صرخ جيم وحاول أن يلحق بي، ولكني كنت قد سبقته هو وديل.

قطعت طريقي عبر أجساد تنبعث منها الروائح الكريهة واندفعت نحو دائرة الضوء.

ـ مرحبًا يا أتيكوس.

ظننت أنه سيفاجأ مفاجأة سارة، ولكن وجهه اغتال فرحتي. كانت هناك لمعة من الخوف الواضح تخرج من عينيه سرعان ما تزايدت حين شق ديل وجيم طريقهما نحو النور.

ملأت رائحة الويسكي العفن وحظيرة الخنازير المكان، وحين نظرت حولي اكتشفت أن هؤلاء الرجال غرباء. لم يكن هؤلاء هم الرجال الذين رأيتهم في الليلة الماضية فارتبكت ارتباكًا شديدًا: فقد قفزت مدفوعة بنشوة الانتصار وسط حلقة من الناس لم يسبق لي أن عرفتهم.

نهض أتيكوس من كرسيه، ولكنه تحرك ببطء، كرجل عجوز، أنزل الصحيفة بحرص، وراح يمسح على تجعداتها بأصابع متمهلة. وارتجفت أصابعه قليلًا.

قال:

ـ اذهب إلى البيت يا جيم، وخذ معك سكاوت وديل.

كنا معتادين على الطاعة الفورية، إن لم تكن الطاعة المرحة دائمًا لتعليمات أتيكوس، ولكن بدا من وقفة جيم أنه لم يكن يفكر في التحرك.

ـ قلت لك أن تذهب إلى البيت.

هز جيم رأسه. وكما وضع أتيكوس قبضتيه على فخذيه، كذلك فعل

جيم، وبينما كانا يواجهان أحدهما الآخر، استطعت أن أرى تشابهًا قليلًا بينهما: فشعر جيم الكستنائي الناعم وعيناه البنيتان ووجهه البيضاوي وأذناه المتقنتا الصنع موروثة كلها عن أُمِّنا، وهي تتباين بحدة مع شعر أتيكوس الأسود الذي غطاه الشيب وملامحه العريضة، ولكنهما كانا متشابهين على نحو ما. جعلهما التحدي المتبادل متشابهين.

ـ يا بني، قلت اذهب إلى البيت.

هز جيم رأسه.

ـ سأرسله أنا إلى البيت.

هذا ما قاله رجل فظ، ثم أمسك بجيم بخشونة من رقبته وكاد يرفعه إلى أعلى.

ـ إياك أن تلمسه.

ورفست الرجل بسرعة. ورغم أني كنت حافية، فقد دهشت لأن أراه يتراجع في ألم حقيقي. كنت أنوي أن أرفس قصبة ساقه ولكن تصويبي جاء أعلى من الهدف بكثير.

وضع أتيكوس يده على كتفي وقال: «هذا يكفي يا سكاوت، لا ترفسي الناس. كلا...».

كنت أحاول أن أجد مبررًا، قلت:

ـ لن يعامل أي شخص جيم بهذا الأسلوب.

زمجر أحدهم:

ـ حسنًا يا سيد فينش، أخرجهم من هنا. أمامك خمس عشرة ثانية حتى تخرجهم من هنا.

وسط هذا الاجتماع الغريب، وقف أتيكوس وهو يحاول أن يجعل جيم يطيعه. ولكن رد جيم الثابت على تهديدات أتيكوس وأوامره كان: «لن أذهب». وأخيرًا قال له أتيكوس: «أرجوك يا جيم، خذهما إلى البيت».

كنت قد بدأت أشعر بالضجر من كل ذلك ولكني شعرت أن لجيم أسبابه الخاصة فيما كان يفعله، نظرًا لما كان يتوقعه إذا ما أفلح أتيكوس في إرساله إلى البيت. تجولت بنظري مستطلعة الجمهرة. كانت الليلة صيفًا، ولكن معظم الرجال كانوا يرتدون أفرولات وقمصانًا من القطن مزررة حتى أعلى. ظننت أنهم من الأشخاص ذوي الطبيعة الحساسة للبرد، حيث كانت أكمامهم أيضًا مزررة عند المعصم. فبعضهم يرتدي قبعات غطت حتى آذانهم. فهم رجال ذوو وجوه متجهمة، وعيون نصف نائمة ويبدو عليهم أنهم غير معتادين على السهر حتى ساعات متأخرة. بحثت مرة أخرى عن وجه مألوف، وفي مركز نصف الدائرة من الرجال، وجدت وجهًا أعرفه.

ـ مرحبًا يا سيد كانينجهام.

لم يَبْدُ على الرجل أنه سمعني.

ـ مرحبًا يا سيد كانينجهام. كيف حال قضية «ملكك الموقوف»؟

كانت مشكلات السيد وولتر كانينجهام القانونية معروفة تماما بالنسبة لي، فقد وصفها أتيكوس لي مطولًا ذات مرة. رمش الرجل الضخم بعينيه وشبَّك إبهاميه في حمالتي أفروله. بدا عليه الانزعاج. تنحنح ونظر بعيدًا. لقد فشل عرضي الودي فشلًا تامًا.

لم يكن السيد كانينجهام يرتدي قبعة، وكان الجزء العلوي من جبهته أبيض على عكس وجهه الذي صفعته الشمس، مما جعلني أتأكد من أنه يرتدي قبعة معظم الأيام. تبادل الوقوف على قدم بعد أخرى وكان يرتدي حذاء عمل ثقيلًا.

ـ ألا تتذكرني يا سيد كانينجهام؟ أنا چان لويز فينش. لقد جلبت لنا بعض الجوز مرة من المرات، ألا تتذكر؟

بدأت أحس بانعدام الجدوى التي يشعر بها المرء حين لا يتعرف إليه شخص سبق له أن قابله مرة بالمصادفة.

بدأت محاولتي من جديد:

ـ أنا أذهب إلى المدرسة مع وولتر. إنه ابنك، أليس كذلك؟ أليس كذلك يا سيدي؟

اضطر السيد كانينجهام إلى أن يومئ برأسه إيماءةً خفيفةً. لقد عرفني أخيرًا.

قلت:

ـ إنه في صفي، وهو تلميذ ممتاز. إنه ولد طيب، ولد طيب حقًا. لقد اصطحبناه مرة ليتناول طعام الغداء معنا. ربما حكى لك عني، فقد ضربته مرة ولكنه تقبل الأمر بلطف. بلغه سلامي، من فضلك.

قال أتيكوس مرة إنه من حسن الأدب أن نتحدث إلى الناس حول اهتماماتهم وليس حول اهتماماتنا نحن. لم يُبْدِ السيد كانينجهام أي اهتمام بابنه. لذا تطرقت مرة أخرى إلى ملكه الموقوف وذلك في محاولة أخيرة يائسة حتى أجعله يشعر بالألفة.

نصحته قائلة إن الأملاك الموقوفة شيء سيئ، حين اكتشفت ببطء حقيقة أني كنت أخاطب الحشد كله. كان الرجال جميعهم ينظرون إليّ، وبعضهم بفمٍ نصف مفتوح. توقف أتيكوس عن نخس جيم: وقفا معًا بالقرب من ديل. تصاعد اهتمامهم حتى وصل إلى حد الافتتان. حتى فم أتيكوس كان نصفَ مفتوح، وهو وضعٌ وصفه هو ذات مرة بأنه فظ وغير مألوف. تقابلت عيوننا فأغلق هو فمه.

ـ حسنا يا أتيكوس، كل ما في الأمر أني كنت أقول للسيد كانينجهام إن الأملاك الموقوفة شيء سيئ، وهذا كل ما في الأمر، ولكنك قلت إنه ليس عليه أن يقلق، فقد تتطلب القضية فترة طويلة حتى تجد لها حلًا... وأنكم ستخرجون منها رابحين في النهاية.

بدأت أفقد رصيدي من الكلام ببطء، متسائلة في نفسي عن مدى الحماقة التي ارتكبت، فالأملاك الموقوفة قد تكون موضوعًا مناسبًا لأحاديث غرفة الجلوس.

بدأت أحس بالعرق يتجمع عند أطراف شعري: كان بإمكاني احتمال أي شيء إلا تحديق مجموعة من الناس فيّ. فجميعهم صامتون تمامًا.

سألت:

ـ ما المسألة؟

لم يقل أتيكوس شيئًا. نظرت فيما حولي ثم نحو السيد كانينجهام الذي تجمد وجهه بالقدر نفسه. ثم فعل شيئًا عجيبًا. فقد جلس القرفصاء وأمسكني من كتفي وقال:

ـ سأبلغه سلامك أيتها السيدة الصغيرة.

ثم نهض واقفًا ولوَّح بقبضة كبيرة ثم صاح:

ـ هيا ننصرف. هيا بنا يا شباب.

وكما جاءوا، تحرك الرجال مثنى وفرادى عائدين إلى سياراتهم المتداعية. انصفقت الأبواب، وتعثرت المحركات في الدوران ثم رحلوا بعيدًا.

التفت نحو أتيكوس، ولكن أتيكوس كان قد توجه نحو السِّجن واستند إليه ووجهه تجاه الحائط. ذهبت إليه وشددت كمه: «هل يمكننا الذهاب إلى البيت الآن؟» أومأ برأسه، ثم أخرج منديله ومسح وجهه بأكمله وتمخط بعنف.

ـ يا سيد فينش؟

جاء الصوت أجش هادئًا من أعلى حيث الظلام:

ـ هل رحلوا؟

خطا أتيكوس للخلف ونظر إلى الأعلى وقال:

ـ لقد رحلوا. نَمْ يا توم. لن يزعجوك بعد الآن.

ومن جهة أخرى قطع صوت آخر صمت الليل بحدة:

ـ بل لن يعودوا أبدًا. لقد كنت أحميك طوال الوقت ببندقيتي.

كان السيد أندروود وبندقية رش ذات فوهتين ينحنيان الآن عبر نافذته فوق مكتب «مايكوم تريبيون».

مضى وقـت طويـل على ميعاد نومي، وكنت أشعر بتعب متزايد.

لقد بدا أن أتيكوس والسيد أندروود سيتحدثان بقية الليل كله، أطلَّ السيد أندروود من النافذة وأتيكوس متطلعًا إليه من الأسفل. وأخيرًا عاد أتيكوس، أطفأ النور فوق باب السجن، وحمل كرسيه.

سأله ديل:

ـ هل يمكن أن أحمله عنك يا سيد فينش؟

لم يكن ديل قد نطق بكلمة واحدة طوال الوقت.

ـ لم لا، شكرًا يا بني.

مشينا تجاه المكتب، وتلكأنا أنا وديل خلف أتيكوس وجيم. أعاق الكرسي طريق ديل، فأصبحت خطواته أبطأ. سبقَنا أتيكوس وجيم كثيرًا، وافترضت أن أتيكوس كان يلومه بشدة لعدم ذهابه إلى البيت، ولكني كنت على خطأ. فبينما كانا يمران تحت أحد أعمدة الإنارة، مد أتيكوس يده ومسح بها على شعر جيم، وهي الحركة الوحيدة التي اعتاد أن يعبر بها عن حبه.

الفصل السادس عشر

سَمِعني جيم. دفع برأسه من الباب الذي يصل بين غرفتينا. وحين وصل إلى السرير أُضِيئت غرفة أتيكوس. بقينا في مكاننا حتى انطفأ النور وسمعناه يتقلب في فراشه، وانتظرنا حتى هدأ ثانيةً.

أخذني جيم إلى غرفته ووضعني في السرير إلى جانبه. قال: «حاولي أن تنامي، ربما ينتهي الموضوع بعد غد».

كنا قد دخلنا البيت بهدوء حتى لا نوقظ العمة. أطفأ أتيكوس محرك السيارة عند الممر المؤدي إلى المنزل وترك السيارة تنساب ببطء نحو موقعها من الجراج. ذهبنا إلى الباب الخلفي ثم توجهنا لغرفتينا دون كلمة واحدة. كنت منهكة القوى ورأيت وأنا بين النوم واليقظة صورة أتيكوس وهو يطوي صحيفته بهدوء ويدفع بقبعته إلى مؤخرة رأسه تتحول إلى صورته وهو يقف مترقبًا في منتصف شارع مهجور، دافعًا بنظارته إلى الأعلى. لقد صدمتني المعاني وراء حوادث الليلة وبدأت أبكي. ولكن جيم استقبل الأمر ببساطة: فللمرة الأولى لم يذكرني بأن الأشخاص الذين قاربوا التاسعة من العمر لا يفعلون مثل تلك الأفعال.

وفي الصباح لم نُقْبِل على طعامنا بشهية، عدا جيم؛ فقد أكل ثلاث

بيضات. راقبه أتيكوس بإعجاب صريح، أما العمة ألكسندرا فقد كانت تَرْتشِفُ قهوتها وتُشِعُ موجاتٍ من الاستنكار. إن الأطفال الذين يتسللون خارج المنزل ليلًا عارٌ على العائلة. قال أتيكوس إنه سعيد جدًا بأن هذا العار قد وصل إلى حيث كان، فقالت العمة «هذا هراء، فقد كان السيد أندروود هناك طوال الوقت».

قال أتيكوس:

ـ أتعلمين؟ إني أعجب لموقف براكستون، فهو يحتقر الزنوج، ولا يحتمل أن يقترب أحدهم منه.

فالرأي السائد في البلدة أن السيد أندروود رجلٌ ضئيل الحجم، انفعالي وبذيء اللسان، أسماه أبوه في نوبة من نوبات المرح «براكستون براج»[1] (Braxton Bragg)، وهو اسم بذل السيد أندروود قصارى جهده حتى لا يخلص منه. قال أتيكوس إن تسمية الناس بأسماء الجنرالات الكونفدراليين (الجنوبيين) خلقت أناسًا يفتقدون للفطنة وهم يدمنون الشراب.

كانت كالبورنيا تقدم المزيد من القهوة للعمة ألكسندرا، وقد هزت رأسها تعبيرًا عن الرفض لما تصورتُ أنه نظرة توسل ناجحة من جانبي. قالت: «ما زلتِ صغيرة جدًا، وسأخبرك حين أرى أنك كبرت» قلت إن ذلك قد يساعد معدتي فقالت: «حسنًا»، ثم جلبت فنجانًا من الخزانة وصبت فيه ملء ملعقة صغيرة من القهوة وملأت الفنجان حتى آخره بالحليب. عبرت عن شكري بمد لساني لأرشف القهوة. ونظرت إلى

---

(١) براكستون براج (Braxton Bragg) (١٨١٧ ـ ١٨٧٦) قائد الجيش الكونفدرالي أثناء الحرب الأهلية الأمريكية. (المترجمة).

أعلى لأرى عمتي وقد علت علامات التحذير وجهها العابس. ولكنها كانت تقطِبُ في وجه أتيكوس.

انتظرت حتى ذهبت كالبورنيا إلى المطبخ ثم قالت:

ـ لا تتحدث هكذا أمامهم.

ـ أتحدث بماذا أمام من؟

ـ هكذا أمام كالبورنيا. لقد قلت: «براكستون أندروود يحتقر الزنوج» أمامها مباشرة.

ـ حسنًا، أنا على ثقة من أن كال تعرف ذلك. كل شخص في مايكوم يعرف ذلك.

كنت قد بدأت أُلاحظ تغييرًا في والدي هذه الأيام، وكان هذا التغيير يظهر حين يتحدث إلى عمتي ألكسندرا. كان نوعًا من العناد الهادئ وليس الغضب، وقد اتسم صوته بنوع من القسوة حين قال:

كل ما يمكن قوله على المائدة يمكن أن يقال أمام كالبورنيا. إنها تعرف قدرها لدى العائلة.

ـ لا أعتقد أن تلك عادة طيبة يا أتيكوس. إنها تشجّعهم، أنت تعرف كيف يتحدثون فيما بينهم. إن كل ما يجري في البلدة يصل إلى حَيّهم قبل الغروب.

وضع والدي سكينه جانبًا وقال:

ـ لا يوجد قانون يمنعهم من التحدث. وربما لو لم نكن نعطيهم كل تلك المادة للحدبث لصمتوا. لم لا تشربين قهوتك يا سكاوت؟

كنت ألهو بتحريك ملعقتي في الفنجان، فقلت:

ـ كنت أحسب أن السيد كانينجهام صديق لنا. لقد قلت لي ذلك منذ زمن بعيد.

ـ إنه لا يزال صديقنا.

ـ ولكنه أراد إيذاءك الليلة الماضية.

وضع أتيكوس شوكته إلى جانب سكينته ودفع بطبقه جانبًا وقال:

ـ السيد كانينجهام في حقيقته رجل طيب، ولكن لديه كما لدى كل واحد منا نقاط ضعفه.

قال جيم:

ـ لا تسمي تلك نقطة ضعف. كان مستعدًا لأن يقتلك الليلة الماضية حينما وصل إلى هناك.

ـ ربما كان سيؤذيني قليلًا، ولكنك ستبدأ يا بني في فهم الناس على نحو أفضل حين تكبر. إن الغوغاء هم بشر في كل الأحوال. والسيد كانينجهام كان الليلة الماضية فردًا من مجموعة الغوغاء، ولكنه لا يزال إنسانًا، والغوغاء في كل بلدة جنوبية صغيرة تتكون دائمًا من أشخاص تعرفهم... إنه رأي لا يصب في صالحهم، أليس كذلك؟

قال جيم:

ـ بلى، إني أوافقك.

ـ لذا تَطَلَّبَ الأمر أن تُعِيدهم طفلة في الثامنة من العمر إلى رشدهم. أليس كذلك؟ وهذا يثبت شيئًا ما: إن عصابة من الوحوش يمكن أن

تُوقَف عند حدها لأن أفرادها ما زالوا بشرًا.. ها.. ربما نحتاج إلى قوة شرطة مؤلفة من الأطفال... أنتم الأطفال جعلتم السيد كانينجهام يحس بورطتي للحظات. وكان ذلك كافيًا.

ـ حسنًا، كنت آمل أن جيم سيفهم الناس على نحو أفضل حين يصبح أكبر سنًا، أما أنا فلن أفهم. قلت بلهجة مشددة:

ـ أول يوم يعود وولتر إلى المدرسة سيكون آخر أيامه.

قال أتيكوس بصوتٍ خفيض:

ـ لن تلمسيه أبدًا. لا أريد أيًا منكما أن يحمل ضغينة لأحد فيما يتعلق بهذا الموضوع، مهما يحدث.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ ها أنت ترى ما ينتج عن أمور كهذه. لا تقل إني لم أحذرك.

قال أتيكوس إنه لن يقول شيئًا من هذا القبيل، ودفع كرسيه إلى الخلف ونهض قائلًا:

ـ بقي يوم واحد، لذا اعذروني. يا جيم، لا أريد منك ومن سكاوت النزول إلى البلدة اليوم، أرجوكما.

حين رحل أتيكوس، وصل ديل وهو يقفز من الردهة إلى غرفة الطعام، ثم أعلن قائلًا:

ـ البلدة كلها تتحدث عن الموضوع، وكيف تمكنا من صدِّ مائة شخص بأيدينا المجردة من أي سلاح.

حدقت به العمة ألكسندرا حتى أخرسته، ثم قالت:

ـ لم يكن هناك مائة شخص، ولم يصد أحد أحدًا. ليسوا إلا مجموعة من عائلة كانينجهام السُكَارى الفوضويين.

قال جيم:

ـ حسنا يا عمتي، هذه طريقة ديل في النظر إلى الأمور فحسب.

ثم أشار إلينا لنتبعه.

قالت ونحن نتجه إلى المدخل الأمامي:

ـ لا تبرحوا الفناء اليوم.

بدا الأمر وكأنه يوم سبت إذ كان الناس يمرون من أمام منزلنا قادمين من الطرف الجنوبي للمقاطعة في تيار متمهل لكنه لا ينقطع.

مرّ السيد دولفوس رايموند (Mr. Dolphus Raymond) وهو يترنح على جواده الأصيل.

همهم جيم:

ـ ألا ترون كيف يجلس على ذلك السرج؟ كيف يمكن للمرء أن يَثْمَل قبل الثامنة صباحا؟

مرت عربة محملة بالسيدات وهي تتأرجح بالقرب منا. كن يرتدين قبعات شمسية وأثوابًا من القطن، وكان يقودها رجل مُلتحٍ يرتدي قبعة صوفية. قال جيم لديل: «هؤلاء بعض أفراد جماعة المينونايت[1] (Mennonites) وهن لا يستعملن الأزرار أبدًا».

---

(١) المينونايت (Mennonites) طائفة مسيحية تنتمي إلى كنيسة الإصلاح الراديكالي، اشتق اسمها من مينو سيمنز (Menno Simons) (١٠٦١ ـ ١٤٦٦) ويلتزم أفرادها بسياسة عدم العنف وترسيخ مفهوم الخدمة الطوعية. (المترجمة).

عاش هؤلاء القوم في أعماق الغابات وأقاموا معظم مقايضاتهم عبر النهر ونادرًا ما أتوا إلى مايكوم. أثار الأمر اهتمام ديل فشرح له جيم: «لهم جميعًا عيون زرقاء، ولا يجوز للرجال أن يحلقوا ذقونهم بعد الزواج فنساؤهم يفضلن أن يداعبهن الرجال بلحاهم الطويلة.

مرّ أيضًا السيد «إكس بيلابس» (Mr. X Billups) على بغل ولوَّح لنا. قال جيم: «إنه رجل مضحك، واسمه «إكس» وليس هذا أول حرف من اسمه فحسب، وقد مثُل إحدى المرات أمام المحكمة وسُئِل عن اسمه، فقال إنه «إكس بيلابس». طلب منه الكاتب أن يهجوه فقال: إكس. وسأله مرة أخرى فقال: إكس. وظلوا يسألونه حتى كتب حرف X على ورقة ورفعها أمام أعين الجميع ليروها. وسألوه من أين جاء بذلك الاسم، فقال إن أهله سجلوه بهذا الاسم حين وُلِد».

وبينما كان سكان المقاطعة يمرون بنا، قام جيم بتزويد ديل بتاريخ الشخصيات المهمة وما اتخذته من مواقف عامة: لقد صوّت السيد «تنسو جونز» (Mr. Tensaw Jones) ضد القائمة الانتخابية التي كانت مع منع الخمور، الآنسة «إميلي دافيز» (Miss Emily Davis) تتعاطى النشوق سرًا، السيد «بايرون وولر» (Mr. Byron Waller) يعزف الكمان، السيد «جاك سليد» (Mr. Jake Slade) طلب طاقمًا ثالثًا من الأسنان.

ظهرت عربة مُحَملة بمجموعة من المواطنين ذوي الوجوه الكالحة على غير العادة، وحين أشاروا إلى فناء الآنسة مودي أتكينسون المتألق بالأزهار الصيفية، خرجت الآنسة مودي بنفسها إلى المدخل الأمامي. كانت الآنسة مودي تثير عجبنا، فعلى الرغم من عدم تمييزنا ملامحها عن بعد فإننا نستطيع دائمًا أن نعرف مزاجها من الطريقة التي تقف بها.

كانت تقف الآن وذراعاها على خَصْرِها وكتفاها متهدلتان قليلًا، ورأسها يميل إلى جانب واحد ونظارتها تعكس ضوء الشمس. عرفنا أنها كانت تبتسم على نحو يميل إلى القسوة.

أبطأ الحوذي من سرعة بغاله، وصاحت امرأة ذات صوتٍ حاد: «ذاك الذي يأتي بكبرياء يذهب في الظلام»[١].

أجابت الآنسة مودي:

ـ «القلب الفرحان يجعل الوجه طلقًا»[٢].

وما إن رأيت الحوذي يسرع السير ويطلق العنان لبغاله حتى داخلني شعور بأن «غاسلي الأقدام» ظنوا أن الشيطان يقتبس من الكتاب المقدس لأغراضه الخاصة، وقد ظل اعتراضهم على فناء الآنسة مودي أمرًا غامضًا، زاد من غموضه عندي ما لاحظته من تمكن الآنسة مودي من آيات الكتاب المقدس على نحو يثير الإعجاب وخصوصًا إذا ما وضعنا في الاعتبار أنها تقضي النهار خارج المنزل.

سألها جيم، وكنا قد مشينا إلى حيث وقفت:

ـ هل ستذهبين إلى المحكمة اليوم؟

ـ لا، لا شأن لي بالمحكمة هذا الصباح.

سألها ديل:

ـ ألن تذهبي لمشاهدة ما يجري؟

---

(١) سفر الجامعة، الإصحاح السادس، الآية الرابعة. (المترجمة).

(٢) سفر الأمثال، الإصحاح الخامس عشر، الآية الخامسة عشرة. (المترجمة).

ـ لا، لن أذهب. إن مراقبة شخص مسكين، وهو يحاكَم بتهمة عقوبتها الموت أمرٌ يبعث فيّ الكآبة. انظر إلى هؤلاء الناس، هذا أشبه بكرنفال روماني.

قلت:

ـ إنهم مضطرون إلى محاكمته علنًا، لا تجوز محاكمته بغير هذه الطريقة.

ـ أنا مدركة لهذا تمامًا، ولكني لست مضطرة للذهاب لأن المحاكمة علنية، أليس كذلك؟

وصلت الآنسة ستيفاني كروفورد وهي ترتدي قبعة وقفازًا، قالت:

هم.. هم.. انظروا إلى كل هؤلاء الناس.. يكاد المرء يظن أن «ويليام جيننجز بريان»[1] (William Jennings Bryan) سيخطب.

سألتها الآنسة مودي:

ـ إلى أين يا ستيفاني؟

ـ إلى «چيتني چنجل».

قالت الآنسة مودي إنها لم تر طوال حياتها الآنسة ستيفاني وهي ترتدي قبعة لتذهب إلى «چيتني چنجل».

---

(١) وليام جيننجز براين (William Jennings Bryan) (١٨٦٠ ـ ١٩٢٥) كان مرشح الحزب الوطني الديمقراطي لمنصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في ١٨٦٩، ١٩٠٠، ١٩٠٨. عَمِلَ بالمحاماه، وأصبح وزير الخارجية الأمريكية في فترة رئاسة وودرو ولسون (Woodrow Wilson). عُرِفَ برايان بدفاعه الصريح عن الديمقراطية الشعبية ونقده للنظام المصرفي (المترجمة).

قالت الآنسة ستيفاني:

ـ حسنًا، خطر ببالي أن ألقي نظرة على دار المحكمة من الداخل لأرى ما ينوي أتيكوس أن يفعل.

ـ الأفضل أن تحذري منه لئلا يسلمك أمرًا قضائيًا بالمثول أمام المحكمة.

طلبت من الآنسة مودي أن تفسّر ما تلفظت به، فقالت إنه يبدو وكأن الآنسة ستيفاني تعرف الكثير عن القضية حتى إنه يمكن استدعاؤها للشهادة.

انتظرنا حتى الظهر وحين عاد أتيكوس إلى البيت ليتناول الغداء قال إنهم أمضوا الصباح وهم يختارون هيئة المحلفين. وبعد الغداء، انتظرنا ديل ثم ذهبنا إلى البلدة.

كانت مناسبة أشبه بالاحتفال. لم يكن هناك مكان واحد خالٍ لربط دابة أخرى عند مربط الدواب العمومي، وقد وقفت الدواب والعربات تحت كل شجرة بالمكان. كانت ساحة دار المحكمة مغطاة بالمتنزهين الجالسين على الصحف يشربون الحليب الدافئ من أباريق الفاكهة مع البسكويت. وكان بعض الناس يلتهمون قطع الدجاج ولحم الخنزير البارد. أما الأكثر غنىً فكانوا يشربون مع الطعام الكوكاكولا وذلك من أكواب الصودا الشبيهة بالمصباح الكهربي، كما كان هناك أطفال ذوو وجوه قذرة يلعبون لعبة «الاستغماية» والدوران في حلقة وسط هذه المجموعة، وأطفال يرضعون على صدور أمهاتهم.

وفي زاوية بعيدة من الميدان، جلس الزنوج بهدوء في الشمس،

يتناولون طعام الغداء المكون من السردين والخبز المحمص والنكهات الأكثر حيوية لمشروب الـ «نيهي كولا». كان السيد دولفوس رايموند جالسًا معهم.

قال ديل: «يا جيم، إنه يشرب من كيس».

بدا السيد دولفوس رايموند وكأنه يفعل ذلك: فقد كانت هناك مصاصتان صفراوان تتجهان من فمه إلى أعماق كيس ورقي بني اللون.

همهم ديل:

ـ لم أر أحدًا يفعل مثل هذا من قبل: كيف يستطيع أن يبقي على ما في الكيس بداخل الكيس؟

ضحك جيم وقال:

ـ داخل الكيس زجاجة كوكاكولا مليئة بالويسكي وبذلك فإنه لا يسبب حرجًا للسيدات. ستراه وهو يأتي على ما فيها طوال فترة ما بعد الظهر، ثم ستراه يغيب لوهلة ليملأها مرة أخرى.

ـ ولماذا يجلس مع الملونين؟

ـ إنه يفعل ذلك دائمًا، إنه على ما أعتقد يحبهم أكثر مما يحبنا. وهو يعيش وحيدًا عند حدود المقاطعة، كما أنه على علاقة بامرأة ملونة ولديه منها أطفال مخلطون. سأريك بعضهم إذا صادفناهم.

قال ديل:

ـ لا يبدو عليه أنه من الحثالة.

ـ هو ليس كذلك، فهو يملك كل ذلك الجانب من ضفة النهر هناك، كما أنه من عائلة عريقة جدًا.

ـ إذن لِمَ يتصرف هكذا؟

ـ هذا أسلوبه في الحياة. يقولون إنه لم يتغلب على ما حدث يوم زفافه حتى الآن. فقد كان من المفترض أن يتزوج فتاة من عائلة.. عائلة سبنسر Spencer على ما أظن. وكان مُخططًا أن يقام لهما حفل زفاف كبير، ولكن ذلك لم يحدث: فبعد الانتهاء من بروفة الاحتفال الذي سيجري في الكنيسة، صعدت العروس إلى الطابق العلوي وفجرت رأسها ببندقية رش. لقد ضغطت على الزناد بأصابع قدمها.

ـ هل عرف أحد السبب؟

قال جيم:

ـ لا، لم يعرف أحد السبب الحقيقي عدا السيد دولفوس. ويقال إنها انتحرت لأنها اكتشفت علاقته بتلك المرأة الملونة، بينما اعتقد هو أن استمرار علاقته بها لا يحول دون زواجه من أخرى. ومنذ ذلك اليوم وهو مخمور دائمًا، ومع ذلك فهو طيب جدًا مع أولئك الأطفال.

سألته:

ـ يا جيم ما هو الطفل المخلط؟

ـ الطفل المخلط نصفه أبيض ونصفه ملون. لقد رأيتهم يا سكاوت. أتعرفين ذلك الصبي ذا الشعر الأحمر المجعد الذي يعمل موزعًا بالمحل. إنه نصف أبيض. إنهم بؤساء حقًا.

ـ بؤساء لماذا؟

ـ لأنهم لا ينتمون إلى أي من الطرفين. الملونون لا يقبلونهم لأنهم

نصف بيض والبيض لا يقبلونهم لأنهم ملونون، لذا فهم في المنطقة الحرام، لا ينتمون إلى أي طرف. ولكن السيد دولفوس، كما يقولون، قد أرسل اثنين من أولاده هؤلاء إلى الشمال ففي الشمال لا تمييز ضدهم. إليك أحدهم هناك.

مشى صبي صغير يمسك بيد امرأة زنجية باتجاهنا. بدا بالنسبة لي زنجيًا تمامًا: كان لونه بلون الشوكولاته الحقيقية، ذا فتحات أنف عريضة وأسنان جميلة، يقفز أحيانا بسعادة، ولكن المرأة الزنجية كانت تشد على يده حتى يتوقف.

انتظر جيم حتى مرّا ثم قال:

ـ هذا أحد أولئك الأولاد.

قال ديل:

ـ كيف يمكن التمييز؟ بالنسبة لي بدا أسود.

ـ أحيانًا لا يمكنك تمييزهم، إلا إذا كنت تعرف من هو أبوهم. ولكن نصفه ينتمي إلى عائلة رايموند على أية حال.

سألته:

ـ ولكن كيف يمكنك التمييز؟

ـ لقد قلت لك يا سكاوت إن عليك أن تعرفي من هم.

ـ حسنًا، كيف نعرف أننا لسنا زنوجًا؟

ـ يقول العم جاك فينش إننا لا نعرف حقًا. كما يقول إننا لو تبعنا شجرة عائلة فينش فسنجد أننا لسنا زنوجًا، ولكن ربما نكون قد أتينا من إثيوبيا مباشرة أيام «العهد القديم».

ـ حسنًا، لو خرجنا منذ أيام «العهد القديم» فالمسألة إذًا قديمة جدًا بحيث لم يعد لها تأثير.

قال جيم:

ـ هذا ما ظننته، ولكن في هذه المنطقة، يكفي أن يكون فيك نقطة دم زنجية واحدة حتى تتحول إلى رجل أسود تمامًا. ها! انظر...

كانت إشارة ما غير مرئية قد جعلت جميع من يتناولون طعام الغداء في الميدان ينهضون وينثرون حولهم قطعًا من الجرائد وورق السيلوفان وأوراق اللف. التصق الأطفال بأمهاتهم، وحملت النساء أطفالهن الرضع على جوانبهن، بينما بدأ الرجال المرتدون القبعات المشبعة بالعرق يجمعون أسرهم عبر أبواب المحكمة. في الزاوية البعيدة من الميدان نهض الزنوج والسيد دولفوس رايموند ونَفَضُوا الغبار عن «بنطلوناتهم». وكان بينهم قلة من النساء والأطفال، مما بدا وكأنه يُبدّد جو العطلة السائد. انتظروا بصبر عند الأبواب خلف عائلات البيض.

قال ديل:

ـ هيا بنا ندخل.

قال جيم:

ـ لا، الأفضل أن ننتظر حتى يدخل الجميع، قد ينزعج أتيكوس إذا رآنا.

كانت دار المحكمة الخاصة بمقاطعة مايكوم تذكر إلى حد ما ببلدة أرلنجتون من ناحية واحدة: فقد كانت أعمدتها التي تدعم سقفها الجنوبي أضخم كثيرًا مما يحتاجه الثقل الخفيف القائم فوقها. تلك الأعمدة هي

كل ما تبقى منتصبًا بعد الحريق الذي تعرّضت له دار المحكمة عام ١٨٦٥ وقد بنيت دار محكمة أخرى حول تلك الأعمدة. ومن الأفضل أن نقول إنها بنيت رغمًا عنها. أما بالنسبة للمدخل الجنوبي للدار، فقد كان من الطراز الفيكتوري القديم وكان يمثل منظرًا مؤذيًا إذا ما شوهد من الشمال. ومن ناحية أخرى، على أية حال، فإن الأعمدة المصممة للإيحاء بالطراز الإغريقي تتناقض مع برج الساعة الكبير من طراز القرن التاسع عشر الذي يأوي تلك الآلة الصدئة غير الموثوق بدقتها، وهو على أية حال مشهد يدل على شعب مصمم على الاحتفاظ بكل ذرة من ذرات الماضي.

وكي يصل المرء إلى غرفة المحكمة في الطابق الثاني يتعين عليه أن يمر بعدة مكاتب معتمة تابعة للمقاطعة: مكتب تقدير الضرائب، ومكتب تحصيل الضرائب، ومكتب كاتب المقاطعة، ومحامي المقاطعة، وكاتب الدائرة، أما قاضي الأمور الحسبية فكان يَقْبَع في غرفة صغيرة باردة معتمة تفوح منها روائح السجلات العتيقة المختلطة بروائح الأسمنت الرطب والبول الراكد. كان من الضروري إضاءة الأنوار خلال النهار، كما كانت هناك دائمًا طبقة من الغبار على ألواح الأرضية الخشبية الخشنة. كان موظفو هذه المكاتب مخلوقات نابعة من بيئتها: فهم رجال ذوو وجوه رمادية لم تلمسها الريح ولا الشمس.

عرفنا أن هناك ازدحامًا، ولكننا لم نتوقع تلك المجاميع في مدخل الطابق الأرضي. انفصلت عن جيم وديل، ولكني شققت طريقي نحو الحائط القريب من بئر السلم، لأني أعلم أن جيم سيأتي في النهاية باحثًا عني. وجدت نفسي وسط جماعة «نادي الكسالى» فأخفيت نفسي قدر الإمكان، وكانوا مجموعة من الرجال المسنّين يرتدون قمصانًا بيضاء

وبنطلونات كاكية اللون ذات حمالات، وقد أنفقوا حياتهم لا يفعلون شيئًا ويمضون أيامهم الأخيرة جالسين على المقاعد المصنوعة من خشب الصنوبر والموضوعة تحت شجرات البلوط في الميدان. وهم كما يقول أتيكوس نقاد يقظون لأعمال دار المحكمة، ويعرفون عن القانون بقدر ما يعرف رئيس المحكمة، وذلك بسبب سنوات المراقبة الطويلة. وعادة ما يكونون جملة الحاضرين في قاعة المحكمة، واليوم يبدو عليهم الامتعاض بسبب عدم قدرتهم على ممارسة نظامهم المعتاد. وحين تحدثوا بدا حديثهم مهمًا، وكان موضوعه هو أتيكوس.

قال أحدهم:

ـ .... أظن أنه يعرف ما يفعله.

قال آخر:

ـ لا أوافق على ذلك، فأتيكوس فينش قارئ متعمق، قارئ متعمق جدًا.

تهكمت جماعة النادي حين قال أحدهم:

ـ إنه يقرأ جيدًا، وهذا كل ما يفعله.

قال ثالث:

ـ سأوضح لك الأمر يا «بيلي»، أنت تعرف أن المحكمة عينته ليدافع عن ذلك الزنجي.

ـ أجل، ولكن أتيكوس يهدف إلى الدفاع عنه، وهذا ما لا يعجبني في هذه المسألة.

كان ذلك خبرًا جديدًا، خبرًا يلقي ظلالًا مختلفة على الأمور: فأتيكوس مضطر للدفاع عن ذلك الزنجي سواء شاء أم أبي، واعتقدت أنه من الغريب ألا يكون قد قال لنا أي شيء حول هذا الموضوع: كنا نستطيع الاعتماد على ذلك مرات عديدة للدفاع عنه وعن أنفسنا. إنه مضطر لذلك، ولهذا السبب كان عليه أن يدافع عن ذلك الزنجي، كان من شأن معرفتنا بذلك أن تجعل المشاجرات أقل وتخفّف كذلك كل تلك الضجة. ولكن هل كان ذلك يفسّر موقف البلدة؟ لقد عيّنت المحكمة أتيكوس للدفاع عنه. وكان أتيكوس يهدف إلى الدفاع عنه. وهذا ما كانوا لا يحبونه في الموضوع. ذلك أمرٌ محيّر.

بعد أن انتظر الزنوج حتى صعد البيض إلى الطابق العلوي، بدءوا في الدخول. قال أحد أعضاء النادي: «هيه. انتظروا لحظة». وكان يرفع عكازه عاليًا ثم أردف: «لا تجعلوهم يصعدون إلى الطابق العلوي لفترة أخرى».

بدأ أعضاء النادي صعودهم معتمدين على مفاصل متيبسة واصطدموا بديل وجيم وهما ينزلان السلم باحثين عني. مرّا بصعوبة عبر هؤلاء وصاح جيم: «تعالي يا سكاوت، لم يعد هناك مقعد واحد فارغ. سنضطر إلى الوقوف».

قال بغضب: «انظروا إلى هناك» بينما الزنوج يصعدون إلى الطابق العلوي كالموج. كان العجائز الذين سبقوهم يحتلون معظم أماكن الوقوف وكنا سيئي الحظ وذلك كله بسبب غلطتي أنا، وقد أخبرني جيم بها. وقفنا بائسين عند الحائط.

ـ ألم تستطيعوا الدخول؟

كان المتكلم هو الكاهن سايكس الذي كان واقفًا يتطلع إلينا حاملًا قبعته السوداء في يده.

قال جيم:

ـ مرحبًا يا سيدي الكاهن. لا لم نستطع، لأن سكاوت أفسدت الأمر كله.

ـ حسنا، لنر ما نستطيع عمله.

شق الكاهن سايكس طريقه إلى الطابق العلوي ثم عاد خلال دقائق قليلة وقال: «لا يوجد أي مقعد في الطابق السفلي. هل تعتقدون أنه من المناسب أن تأتوا إلى الشرفة معي؟».

قال جيم: «طبعًا طبعًا». وأسرعنا سعيدين نسبق الكاهن سايكس إلى طابق غرفة المحكمة. من هناك صعدنا سلمًا مغطى وانتظرنا عند الباب. جاء الكاهن سايكس وراءنا وهو يلهث، ثم قادنا بلطف عبر صفوف الزنوج الجالسين في الشرفة. نهض أربعة زنوج وأعطونا مقاعدهم في الصف الأول.

كانت شرفة الملونين تمتد على طول ثلاثة جدران من غرفة المحكمة كشرفة للطابق الثاني ومنها كنا نستطيع مشاهدة كل شيء.

جلس المحلّفون إلى اليسار تحت نوافذ طويلة. بدوا وكأنهم جميعًا مزارعون، حيث كانوا من ذوي البشرة المحروقة من الشمس والقامة النحيلة، ولكن كان ذلك طبيعيًا: فنادرًا ما كان سكان البلدة يُختارون ليكونوا محلفين، فقد كانوا إما منشغلين أو لديهم أعذار أو معذورين. كان واحد أو اثنان من المحلفين يبدوان نوعًا ما وكأنهما من عائلة

كانينجهام إنما بملابس لائقة. في هذه اللحظات كان المحلفون يجلسون في مقاعدهم مستقيمين ويقظين.

جلس المدعي العام ورجل آخر وأتيكوس وتوم روبنسون إلى مناضد وقد اتجهت ظهورهم لنا. كان هناك كتاب بني اللون وبعض أوراق الكتابة الصفراء على منضدة ممثل الادعاء. أما منضدة أتيكوس فكانت فارغة. وداخل الحجز الذي يفصل الحاضرين عن المحكمة، جلس الشهود على كراسي مصنوعة من جلد البقر. وكانت ظهورهم إلينا.

جلس القاضي تايلور على المنبر كقرش عجوز، بينما كاتبه يجلس في مكان خفيض عنه ويُدَوِّن شيئًا ما بسرعة. بدا القاضي تايلور كمعظم القضاة الذين سبق لي ورأيتهم: ودودًا، أبيض الشعر ذا وجه مائل للحمرة، كما كان رجلًا يدير شئون محكمته على نحو غير رسمي إلى حد مزعج: فقد كان يرفع قدميه عاليًا في بعض الأحيان أو غالبًا ما ينظف أظافر أصابعه بمطواة صغيرة. وفى جلسات الإنصات، وبخاصة إن كانت بعد وجبة الغداء، كان يوحي للموجودين بأن النعاس يغالبه، ولكنه انطباع تبدد حين قام أحد المحامين مرة بإسقاط مجموعة من الكتب إلى الأرض عمدًا في محاولة يائسة منه لإيقاظه. وبدون أن يفتح عينيه، همهم القاضي تايلور: «يا سيد وايتلي (Mr Whitley)، إذا كرّرت هذا فسيكلفك مائة دولار غرامة».

كان رجلًا متعمقًا في القانون، ورغم أنه كان يبدو كمن يمارس عمله دون اهتمام زائد فقد كان في الواقع يحكم قبضته على أية محاكمة تجري أمامه. ولمرة واحدة شوهد القاضي تايلور وقد أسقط في يده حين أخرجته عائلة كانينجهام عن طبيعته. فقد كانت «أولد ساروم» وهي

منتجعهم المفضل، قد احتلتها عائلتان كانتا منفصلتين ومستقلتين في البداية، ولكنهما ولسوء الحظ تحملان نفس الاسم. فقد تزوجت عائلة كانينجهام (Cunningham) من عائلة كوننجهام (Coningham) وسرعان ما أصبح هجاء الاسمين واحدًا، وذلك حتى قام أحد أفراد عائلة كانينجهام (Cunningham) بالاحتكام إلى القانون ضد أحد أفراد عائلة كوننجهام (Coningham) بسبب خلافهما على حقوق ملكية قطعة من الأرض. ووسط الجدل الدائر، أفاد جيمس كانينجهام (Jeems Cunningham) بأن أمه كانت تكتب على الصكوك وما شابهها اسم العائلة على أنه كانينجهام (Cunningham)، ولكنها كانت بالفعل من عائلة كوننجهام (Coningham) فقد كانت لا تحسن هجاء الكلمات، كما كانت قليلة الاطلاع وقد اعتادت في بعض الأحيان أن تسرح بنظرها بعيدًا، وهي تجلس في المساء في الشرفة الأمامية. وبعد تسع ساعات من الإصغاء إلى عجائب سكان «أولد ساروم»، رمى القاضي تايلور بالقضية إلى خارج المحكمة، وحين سُئِل عن الأساس الذي استند إليه في ذلك، قال: «تواطؤ بغرض تقديم المال من أجل إنجاح دعوى قضائية»وعَبّرَ عن أمله في أن يكون المتقاضون قد اقتنعوا بأنهم استطاعوا التعبير عن وجهات نظرهم جهرًا. وقد حدث ذلك. وكان ذلك هو هدفهم أولًا وأخيرًا.

كانت للقاضي تايلور عادة تثير الاهتمام. فقد سمح بالتدخين في غرفة المحكمة ولكنه لم يسمح لنفسه بذلك: وفي بعض الأحيان، وحين يكون الشخص محظوظًا، فإنه يحظى بمراقبته وهو يضع سيجارًا طويلًا جافًا في فمه ويمضغه بهدوء، ثم يتلاشى السيجار ببطء ليعود للظهور بعد بضع ساعات على هيئة كتلة لزجة مسطحة، وقد انتزع ما بداخله واختلط بعصارات القاضي تايلور الهضمية. ومرة سألت أتيكوس كيف

تستطيع السيدة تايلور أن تحتمل تقبيله، ولكن أتيكوس قال إنهما لا يقبّلان بعضهما كثيرًا.

كانت منصة الشهود إلى يمين القاضي تايلور، وحين وصلنا إلى مقاعدنا كان السيد هك تيت جالسًا على تلك المنصة.

الفصل السابع عشر

قلت:

- يا جيم، هل الجالسون هناك من عائلة يوويل؟

قال جيم:

- اسكتي، السيد هك تيت يُدلي بشهادته.

كان السيد تيت قد ارتدى ما يليق بهذه المناسبة، فقد ارتدى بدلة عمل عادية تجعله يبدو كأي رجل آخر، فلم يظهر مرتديًا الحذاء ذا الرقبة العالية والمعطف ذا المربعات والحزام الذي ثبت به طلقات الرصاص. ومنذ تلك اللحظة لم يعد يخيفني. كان يجلس منحنيًا إلى الأمام ويداه بين ركبتيه، وهو يُصْغِي باهتمام إلى ممثل الادعاء.

لم يكن السيد جيلمر (Mr. Gilmer) ممثل الادعاء معروفًا لنا، فهو من بلدة «أبوتسفيل»، وكنا لا نراه إلا عند انعقاد المحكمة، وكان ذلك نادرًا ما يحدث، فالمحكمة لم تكن من الأمور التي تهمنا أنا وجيم. كان رجلًا بسيط الوجه أصلع، يتراوح عمره بين الأربعين والستين. ورغم أن ظهره كان في اتجاهنا، فإننا كنا نعرف أن إحدى عينيه بها حَوَل وكان

يستغلها لمصلحته: فحين يبدو عليه أنه ينظر إلى شخص ما، لم يكن يفعل ذلك في الواقع، ولذا كان المحلفون والشهود يعانون منه كثيرًا. كان المحلفون، الذين يظنون أنهم يخضعون لمراقبة دقيقة، يصغون باهتمام، وكذلك الشهود الذين كانوا يظنون الظن نفسه.

كان السيد جيلمر يقول:

ـ ... بالكلمات التي استعملتها أنت بنفسك يا سيد تيت.

قال السيد تيت وهو يلمس نظارته بيده ويتحدث منكفئًا تجاه ركبتيه:

ـ حسنًا، لقد استدعيت.

ـ هل يمكنك أن توجه كلامك إلى هيئة المحلفين يا سيد تيت؟ شكرًا. من الذي استدعاك؟

قال السيد تيت:

ـ لقد جاء بوب لاصطحابي... أعني بوب يوويل الجالس هناك، ففي إحدى الليالي...

ـ أية ليلة بالضبط يا سيدي؟

ـ كانت ليلة الحادي والعشرين من نوفمبر. كنت على وشك مغادرة مكتبي للذهاب إلى البيت حين دخل بو... السيد يوويل، وكان في حالة هياج شديد وطلب مني أن أذهب إلى منزله بسرعة لأن أحد الزنوج قد اغتصب ابنته.

ـ وهل ذهبت؟

ـ بكل تأكيد. لقد ركبنا السيارة وانطلقنا بأسرع ما يمكن.

ـ وما الذي رأيته؟

ـ لقد رأيتها ممددة على الأرض عند منتصف الغرفة الأمامية، وهي الغرفة التي تقع إلى اليمين عند الدخول إلى المنزل، كان يبدو عليها أنها ضُرِبَت ضربًا مبرحًا، ولكني ساعدتها في الوقوف على قدميها وغسلت وجهها في دلوٍ كان في ركن الغرفة، وقالت إنها على ما يرام. وقد سألتها عمن ضربها فقالت إنه توم روبنسون.

رفع القاضي تايلور عينيه عن أظافر أصابعه التي ظل يتأملها منذ بداية الجلسة ونظر أمامه وكأنه يتوقع اعتراضًا ما، ولكن أتيكوس لم يُحَرّك ساكنًا.

ـ .... وقد سألتها إن كان هو الذي ضربها فقالت نعم هو الذي ضربني. وسألتها إن كان قد اعتدى عليها فردت بالإيجاب. ولذا ذهبت إلى منزل السيد توم روبنسون وعدت به إلى هناك. وقد تَعَرفَتْ إليه بوصفه من اعتدى عليها، ولذا ألقيت القبض عليه. هذا كل ما في الأمر.

قال السيد جيلمر:

ـ شكرًا.

قال القاضي تايلور:

ـ أية أسئلة يا أتيكوس؟

رد أبي، وكان جالسًا خلف منضدته وكرسيه يميل على جانب واحد وقد وضع ساقا فوق الأخرى وذراعه مستقر فوق ظهر كرسيه: «نعم».

سأل أتيكوس الشاهد:

ـ هل استدعيت طبيبًا يا حضرة المأمور؟ هل استدعى أحد طبيبًا؟

قال السيد تيت:

ـ لا يا سيدي.

ـ لم تستدع طبيبًا؟

كرر السيد تيت:

ـ لا، يا سيدي.

ـ ولم لا؟

كانت لهجة أتيكوس حادة.

ـ حسنًا سأقول لك لماذا. لم يكن ذلك ضروريًا يا سيد فينش. لقد كانت مضروبة ضربًا مبرحًا. كان واضحًا أن شيئًا ما قد حدث بكل تأكيد. كان ذلك واضحًا.

ـ ولكن لم تستدع طبيبًا؟ بينما كنت هناك، هل استدعى شخص ما طبيبًا، أو أحضر طبيبًا، أو حملها إلى الطبيب؟

ـ لا يا سيدي.

هنا تدخل القاضي تايلور قائلًا:

ـ لقد أجابك عن سؤالك ثلاث مرات يا أتيكوس. إنه لم يستدع طبيبًا.

قال أتيكوس:

ـ لقد أردت أن أتأكد يا حضرة القاضي.

فابتسم القاضي.

رأيت يد جيم التي كانت تستريح على سور الشرفة تحكم من قبضتها عليه. تنهد فجأة. نظرت إلى أسفل فلم أجد في قاعة المحكمة من بدر عنه رد فعل مشابه لما فعله جيم، وتساءلت إن كان جيم يحاول أن يُضَخِّم الأمور. كان ديل يراقب بهدوء، وكذلك الكاهن سايكس إلى جانبه. همست: «ما بك؟» فأجابني جيم بإيجاز: «اسكتي».

كان أتيكوس يقول:

ـ يا حضرة المأمور، قلت إنها كانت مضروبة ضربًا مبرحًا. كيف كان ذلك؟

ـ حسنًا.

ـ صِفْ جروحها فحسب يا هِكْ.

ـ حسنًا، كانت مصابة في المناطق المحيطة بالرأس، وكانت هناك كدمات على ذراعيها، فقد كان الحادث قد جرى قبل ثلاثين دقيقة من وصولي.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ابتسم السيد تيت وقال:

ـ آسف، هذا ما قالوه. على أية حال كانت كلها مغطاة بالكدمات حين وصلت إلى هناك، كانت إحدى عينيها مسودة من شدة الضرب.

ـ أية عين؟

رمش السيد تيت ومشط شعره بيده ثم قال بصوت خفيض:

ـ دعني أتذكر.

ثم نظر إلى أتيكوس وكأنه يعتبر السؤال طفوليًا.

سأله أتيكوس:

ـ ألا تستطيع أن تتذكر؟

أشار السيد تيت إلى شخص لا نراه على بعد خمس بوصات منه وقال:

ـ عينها اليسرى.

قال أتيكوس:

ـ لحظة يا حضرة المأمور، هل كانت تلك عينها اليسرى وهي تواجهك أم عينها اليسرى وهي تقف بجانبك؟

قال السيد تيت:

ـ صحيح! تذكرت الآن، فعلًا إنها عينها اليمنى إذن. لقد كانت عينها اليمنى، يا سيد فينش. أتذكر الآن، لقد كانت مضروبة على هذا الجانب من وجهها.

رمش السيد تيت مرة أخرى، وكأن الأمر صار واضحًا فجأة. ثم أدار رأسه ونظر فيما حوله تجاه توم روبنسون الذي رفع رأسه تلقائيًا.

وكأن أمرًا ما صار واضحًا لأتيكوس أيضًا، وهذا ما جعله ينهض واقفًا:

ـ يا حضرة المأمور، كرّر من فضلك ما قلته.

ـ قلت إنها كانت عينها اليمنى.

ـ لا.

مشى أتيكوس حتى مكتب كاتب المحكمة وانحنى فوق يد الكاتب التي تدون بقوة وسرعة. توقفت اليد، قلبت الصفحات وقرأ كاتب المحكمة: «يا سيد فينش، أتذكر الآن أنها كانت مضروبة على هذا الجانب من وجهها».

نظر أتيكوس إلى السيد تيت وقال:

ـ أي جانب يا هك؟ هل لك أن تكرر؟

ـ الجانب الأيمن يا سيد فينش، ولكن كانت هناك كدمات أخرى... هل تود أن أتحدث عنها؟

بدا وكأن أتيكوس يود أن يطرح سؤالًا آخر ولكنه رأى أنه من الأفضل ألا يطرحه، فقال:

ـ نعم، ما هي الكدمات الأخرى؟

وبينما كان السيد تيت يجيب، استدار أتيكوس ونظر إلى توم روبنسون وكأنه يقول إن ذاك كان شيئًا لم يكن في الحسبان.

ـ .... كانت الكدمات تغطي ذراعيها، كما أنها أرتني عنقها. وعلى حنجرتها آثار أصابع واضحة.

ـ حول حنجرتها كلها؟ في مؤخرة عنقها؟

ـ أرجح حول عنقها كله يا سيد فينش.

ـ تُرَجّحْ؟

ـ أجل يا سيدي، فعنقها صغير، وأي شخص كان يستطيع الإحاطة به بـ...

أجب عن السؤال بنعم أو بلا من فضلك يا حضرة المأمور.

هكذا قال أتيكوس بلهجة جافة وصمت السيد تيت.

عاد أتيكوس إلى مقعده وأشار إلى ممثل الادعاء الذي هزّ رأسه باتجاه القاضي الذي أومأ برأسه إلى السيد تيت فنهض متيبسًا ونزل من منصة الشهود.

استدارت الرءوس من أسفلنا واحتكت الأقدام بالأرضية، ونقل الأطفال إلى الأكتاف، وهرب أطفال آخرون من قاعة المحكمة. تهامس الزنوج الجالسون خلفنا بصوتٍ خفيض فيما بينهم، كان ديل يسأل الكاهن سايكس عما يحدث، ولكن الكاهن سايكس قال إنه لا يعرف. حتى الآن، كانت الأمور مُمِلّة تمامًا: لم يرتجف أحد، ولم تتعال الأصوات بين ممثل الادعاء والمحامي، ولم تكن هناك أي مواقف درامية، بل بدا الأمر وكأن الحضور قد أصيبوا بخيبة أمل عميقة. كان أتيكوس يمارس عمله بودٍ وكأنه منهمك في جدال حول حق ملكية. وبقدرته اللامحدودة على تهدئة البحار الهائجة كان يستطيع أن يجعل دعوى اغتصاب تبدو في جفاف موعظة في الكنيسة. لقد ولى الرعب الذي كان يسكن قلبي، الرعب الممزوج بالويسكي المغشوش، وروائح الحظائر والرجال ناعسي العيون، والصوت الأجش الذي يصيح في ظلام الليل: «يا سيد فينش؟ هل رحلوا؟» لقد تلاشى الكابوس مع ضوء النهار، وسيعود كل شيء كما كان.

كان الحضور كلهم في حالة استرخاء، مثلما كان القاضي تايلور، باستثناء جيم، فقد كان فمه ملويًا بنصف ابتسامة تكشف عن أمر ما يدور في ذهنه، وكانت عيناه سعيدتين، كما أنه قال شيئًا عن الأدلة المساندة مما جعلني واثقة من أنه كان يتباهى بعلمه.

.... روبرت إي. لي. يوويل.

وفي استجابة لصوت الكاتب المدوي، نهض رجل ضئيل الحجم يوحي شكله بالمشاكسة ومشى في خيلاء نحو المنصة، وكانت مؤخرة عنقه قد علتها حُمْرَة عند سماعه لاسمه. وحين استدار ليحْلِفَ اليمين، رأينا وجهه وقد احمرّ كعنقه. لم نر أي تشابه بينه وبين ابنه. تهدلت خصلة من شعره الخفيف على جبهته وبدا أنه قد غسله منذ قليل. كان أنفه نحيلًا، مدببًا ولامعًا، لم تكن له ذقن تقريبًا، بل بدت وكأنها جزء من عنقه المجعد.

صاح: «...فليساعدني الرب».

لكل بلدة في حجم مايكوم عائلات كعائلة يوويل. لم يكن من شأن أي تقلّبات اقتصادية أن تغيرّ أوضاعها: فأفراد عائلة يوويل كانوا يعيشون كضيوف على المقاطعة في أوقات اليسر كما في أوقات الكساد الاقتصادي. لم يكن أي موظف لضبط التغيّب ليستطيع أن يضبط حضور بَنيهم في المدرسة، كما لم يكن هناك موظف صحة يستطيع تحريرهم من عيوبهم الخلقية، ولا من الأنواع المختلفة من الديدان المعوية، والأمراض التي ابتلوا بها بسبب إقامتهم في بيئة تغلب عليها القذارة.

كان أفراد عائلة يوويل يعيشون وراء مقلب قمامة البلدة في كوخ كان ذات يوم مسكنًا للزنوج. وقد دُعمت ألواح الكوخ الخشبية بألواح

من الحديد المُموَّج، كما كان سطحه مغطىً بعلب صفيح طُرِقَتْ حتى سُطِّحَت، فإذا ما أردنا أن نستكشف تصميمه الأصلي فليس هناك ما نستعين به على ذلك سوى تكوينه العام: فهو مربع، يتكون من أربع غرف صغيرة مفتوحة على ردهة بينها، والكوخ نفسه يستقر بصعوبة على أربع كتل غير منتظمة من الحجر الجيري. نوافذه عبارة عن فراغات مفتوحة في الجدران، غُطيت في الصيف بشرائط لزجة من أغلفة الجبن لإبعاد القوارض التي تتغذى على قمامة مايكوم.

وكانت القوارض تعاني المجاعة لأن عائلة يوويل تقوم بجرد يومي كامل للقمامة، وكانت مخلفات الجرد (أي ما لا يؤكل مما يلتقطونه من القمامة) تجعل الأرض المحيطة بالكوخ تبدو وكأنها بيت دمية لطفل مجنون: فما تتصور أنه سور يكون في واقع الأمر كومة من بقايا الأشجار وأيدي المكانس وبعض الأدوات، وكلها تعلوها مطارق صَدِئة وفئوس ومعازق، وقد ثُبِّتَتْ إلى بعضها البعض بقطع من الأسلاك الشائكة. ويحيط هذا السور المتراس بفناء قذر يحتوي على حطام سيارة فورد (موديل T) مرفوعة على قوالب حجرية، وكرسي طبيب أسنان غير مستعمل، وبراد عتيق بالإضافة إلى مواد أخرى أقل حجمًا: أحذية عتيقة، وأجهزة راديو مهلهلة، وإطارات لوحات وبرطمانات مربى، وبين هذا كله دجاجات هزيلة تتجول وتنقر الأرض على أمل أن تلتقط غذاءها.

غير أن إحدى زوايا الفناء أثارت حيرة أهل مايكوم. فعلى امتداد السور، وفي صف منتظم كانت هناك ستة أوعية قذرة من النوع المطلي بالمينا المكسور تحمل زهور الجيرانيوم الحمراء المتألقة جمالًا والتي كانت موضع عناية رقيقة كتلك التي كانت الآنسة مودي آتكنسون لَتوليها

إياها لو أنها تنازلت فسمحت لتلك الزهور بالعيش في فنائها. كان الناس يقولون إنها زهور مايلا يوويل (Mayella Ewell).

لم يكن هناك من يعرف بالتحديد عدد الأولاد في ذلك الكوخ. فالبعض قال إنهم ستة، وقال آخرون تسعة: فقد كان هناك دائمًا عدة أطفال ذوي وجوه قذرة خلف النوافذ يراهم كل من يمر من هناك، ولم تكن هناك مناسبة للمرور من هناك سوى في عيد الميلاد، حين تقوم الكنيسة بتوزيع الهدايا وحين يطلب منا محافظ البلدة أن نساعد عامل القمامة بأن نلقي بأنفسنا أشجار عيد الميلاد والنفايات في مقلب القمامة.

اصطحبنا أتيكوس معه في عيد الميلاد الماضي حين استجاب لطلب المحافظ. كان هناك طريق تُرابي يتفرع من الطريق العام في اتجاه مقلب القمامة، وينتهي الطريق إلى مستوطنة زنجية صغيرة تبعد خمسمائة ياردة إلى ما وراء كوخ عائلة يوويل. وكان من الضروري إما العودة إلى الطريق العام أو قطع الدرب كله ثم الالتفاف، التف معظم الناس عند المرور بالأفنية الأمامية لأكواخ الزنوج. ففي غسق شهر ديسمبر المثلج، تبدو أكواخهم نظيفة دافئة يخرج من مداخنها دخان أزرق فاتح اللون أما مداخلها فتتوهج بلون العنبر من نيران المدافئ. فاحت روائح طيبة في المكان: الدجاج، ولحم الخنزير المقلي الهش كنسيم الغسق. ظننت أنا وجيم أنهم يطبخون السناجب، ولكن رجلًا ريفيًا عجوزًا كأتيكوس هو الذي ميز روائح قلي لحم «البوسوم» والأرانب، وهي روائح تلاشت لدى عودتنا بالسيارة مرورًا بمسكن عائلة يوويل.

كل ماكان لذلك الرجل الضئيل الحجم الجالس على منصة الشهود من سمات تميزه عن أقرب جيرانه هو أنك إذا كشطت بشرته بالصابون القلوي والماء الساخن جدًا فسترى أنها بيضاء.

سأله السيد جيلمر:

ـ أأنت السيد روبرت يوويل؟

أجاب الشاهد:

ـ هذا هو اسمي يا سيدي.

تصلب ظهر السيد جيلمر قليلًا، وشعرت بالأسف عليه. ربما كان من الأفضل أن أشرح شيئًا ما هنا. لقد سمعت أن أطفال المحامين، إذا ما شاهدوا آباءهم في المحكمة، وسط جدال، يستقر انطباع خاطئ في نفوسهم بأن ممثل الادعاء عدو شخصي للأب المحامي، ولذا يعانون من الآلام ويدهشون حين يرونهما خلال الاستراحة الأولى يخرجان من قاعة المحكمة يتأبط كل منهما ذراع معذبه. لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لي أو لجيم؛ فنحن لم نتلق أي صدمات من جراء مراقبة أبينا يخسر أو يكسب. يؤسفني أني لا أستطيع تزويدكم بأية أحداث درامية بهذا الخصوص، ولو أني حاولت لبدا ذلك غير حقيقي. كنا نستطيع على أية حال أن نعرف متى تصبح المناظرة لاذعة وليس بالأحرى حِرَفية، ولكن هذا ما لاحظناه من مراقبة محامين آخرين غير والدنا. لم أسمع أتيكوس يرفع صوته على الإطلاق في حياتي، إلا إذا كان يخاطب شاهدًا ثقيل السمع. كان السيد جيلمر يؤدي واجبه وكذلك أتيكوس. وإلى جانب ذلك، كان السيد يوويل هو شاهد السيد جيلمر ولم يكن من شأنه أن يكون فظًا معه على غير عادته مع الناس جميعًا.

كان السؤال التالي هو:

ـ هل أنت والد مايلا يوويل؟

وكان الجواب:

ـ حسنًا إنْ لم أكن أبوها فلا حيلة لي الآن فأمها قد ماتت.

استدار القاضي تايلور بكرسيه نحو الشاهد ونظر اليه نظرة محايدة اسكتت الضحكات الصادرة عن الجالسين في القاعة السفلى للمحكمة فجأة:

ـ هل أنت والد مايلا يوويل؟

أجاب السيد يوويل بخنوع:

ـ أجل يا سيدي.

استمر القاضي تايلور في لهجته التي تدل على النية الطيبة:

ـ هل هذه هي المرة الأولى التي تَمْثُل فيها أمام المحكمة؟ لا أتذكر أنه سبق لي رؤيتك هنا.

وبعد أن أجاب الشاهد بإيماءة من رأسه، استأنف القاضي كلامه قائلًا:

ـ حسنًا، لندخل في الموضوع مباشرة. لن أسمح بصدور أي بذاءات حول أي موضوع من أي شخص في هذه المحكمة ما دمت أعتلي هذه المنصة. هل تفهم؟

أومأ السيد يوويل برأسه، ولكني لا أعتقد أنه فهم، فقد تنهد القاضي وقال:

ـ تفضل يا سيد جيلمر.

ـ شكرًا يا سيدي. يا سيد يوويل، هل لك من فضلك أن تحكي لنا مستخدما كلماتك أنت ما الذي حدث في مساء يوم الحادي والعشرين من نوفمبر؟

ابتسم جيم ورفع شعره إلى الوراء. فعبارة «مستخدما كلماتك أنت» كانت من العلامات التجارية المميزة للسيد جيلمر. غالبًا ما كنا نتساءل إن كان الشاهد سيستخدم كلمات شخص آخر، ومن هو ذلك الشخص يا ترى؟

ـ حسنًا، في ليلة الحادي والعشرين كنت قادما إلى البيت من الغابات حاملًا بعض الحطب وما إن وصلت إلى السور حتى سمعت مايلا تصرخ داخل المنزل كخنزير مطعون في حنجرته.

هنا نظر القاضي بحدة إلى الشاهد ولابد أنه لاحظ أن تأملاته خالية من الشر، فقد استرخى ناعسًا.

ـ في أي وقت حدث ذلك؟

ـ قبل الغروب مباشرة. حسنًا، قلت لنفسي إن صراخ مايلا المجنون قد يجعلها تضرب حتى المسيح لو كان أمامها.

ولكن نظرة أخرى من المنبر أخرست السيد يوويل.

قال السيد جيلمر:

ـ حسنًا، هل كانت تصرخ؟

نظر السيد يوويل بحيرة نحو القاضي ثم قال:

ـ حسنًا، كانت مايلا تصيح ذلك الصياح المقدس ولذا أسْقَطْتُ

ما أحمل وجريت بأسرع ما أستطيع ولكني اصطدمت بالسور، وحين استطعت أن أتجاوزه، أسرعت نحو النافذة ورأيت...

وهنا تحول وجه السيد يوويل إلى اللون القرمزي. نهض وأشار بإصبعه إلى توم روبنسون وقال:

ـ رأيت ذاك الزنجي الأسود يغتصب ابنتي ماييلا.

كانت قاعة محكمة القاضي تايلور هادئة جدًا حتى إنه لم يستعمل مطرقته سوى مرات قليلة، ولكنه ظل يطرق بها خمس دقائق كاملة. نهض أتيكوس واقفًا واتجه إلى المنصة وهو يقول شيئًا للقاضي. وبصفته أعلى ضابط شرطة مرتبةً في المقاطعة، وقف السيد هيك تيت في الممر الأوسط وهو يُهدئ قاعة المحكمة المكتظة بالناس. ومن خلفنا بَدَتْ مجموعة من الملونين غاضبة.

انحنى الكاهن سايكس فوق ديل وفوقي وهو يشد جيم من مِرْفَقِه وقال:

ـ يا سيد جيم، الأفضل أن تأخذ الآنسة چان لويز إلى البيت. يا سيد جيم، هل تسمعني؟

التفت جيم وقال:

ـ سكاوت، اذهبي إلى البيت. يا ديل، اذهبا أنتما الاثنان إلى البيت.

ـ قلت وأنا أتذكر قولًا مأثورًا لأتيكوس:

ـ عليك أن تجبرني على ذلك بالقوة.

قطب جيم بسخط في وجهي، ثم قال للكاهن سايكس:

ـ أعتقد أنه لا بأس من بقائها يا حضرة الكاهن، فهي لا تفهم على أية حال.

جُرِحت مشاعري جرحًا قاتلًا فقلت:

ـ بل أفهم بكل تأكيد، وأستطيع أن أفهم كل ما تفهمه أنت.

ـ اسكتي. إنها لا تفهم يا حضرة الكاهن، فهي لم تبلغ التاسعة بعد.

كانت عينا الكاهن سايكس السوداوان قلقتين. قال:

ـ هل يعرف السيد فينش أنكم هنا؟ ليس هذا مناسبًا للآنسة چان لويز، ولا حتى لكما أيها الصبيان.

هز جيم رأسه وقال:

ـ لا يستطيع أن يرانا من هذا البعد. لا بأس يا حضرة الكاهن.

كنت أعرف أن جيم سيكسب لأني أدركت أن لا شيء سيجعله يغادر الآن. إذن كنا أنا وديل في أمان، على الأقل لفترة ما: فأتيكوس يستطيع أن يرانا من موقعه، هذا إذا نظر في اتجاهنا.

وحين طرق القاضي تايلور بمطرقته، كان السيد يوويل جالسًا باعتداد في كرسي الشهود، وهو يراقب ما صنعته يداه. فبعبارة واحدة حوّل المتنزهين السعداء إلى جمهور عابس متوتر، منوَّم مغناطيسيًا ببطء على ضربات المطرقة التي خفت حدتها فأصبح الصوت الوحيد في قاعة المحكمة مجرد نقرات خفيفة كما لو كان القاضي يضرب منضدته بقلم رصاص.

وبعد أن أحكم القاضي تايلورالسيطرة على قاعة المحكمة مرة

أخرى، استرخى من جديد في كرسيه. بدا متعبًا فجأة، فقد ظهرت عليه بوادر الشيخوخة، وفكرت فيما قاله أتيكوس: فهو والسيدة تايلور لم يَعُدْ يُقَبِّل أحدهما الآخر فقد قَارَبَ السبعين.

قال القاضي:

ـ كان هناك طلب بإخلاء القاعة من الحضور، أو من النساء والأطفال على الأقل، ولكننا سنرفض هذا الطلب مؤقتًا. يرى الناس عادة ما يبحثون عنه، ويسمعون ما يصغون إليه، ولهم الحق في إخضاع أولادهم لذلك، ولكني سأؤكد على أمر واحد: عليكم أن تسمعوا وتروا ما تسمعونه وترونه في صمت وإلا ستغادرون هذه القاعة، ولكنكم لن تغادروها حتى تتم محاكمتكم جميعًا بتهمة إهانة المحكمة. يا سيد يوويل، عليك أن تبقي شهادتك باللغة الإنجليزية المسيحية إذا أمكن. تفضل يا سيد جيلمر.

ذكرني السيد يوويل بالصم والبكم. كنت على ثقة من أنه لم يسمع كلمات القاضي تايلور الموجهة إليه: فقد كان فمه يناضل ضدها بصمتٍ، ولكن وجهه أظهر تأثيرها فيه. لم يعد الاعتداد باديًا عليه، بل حَلَ محله نوع من الجدية التي لم تَخْدَعِ القاضي على الإطلاق: فطوال مكوث السيد يوويل على منصة الشهادة، كانت عينا القاضي لا تتحولان عنه، وكأنه يتحداه أن يقوم بحركة خاطئة.

تبادل السيد جيلمر وأتيكوس النظرات. كان أتيكوس قد جلس مرة أخرى، وقد أبقى قبضته على خده وكنا نستطيع مشاهدة وجهه. كان السيد جيلمر يبدو يائسًا نوعًا ما. ولكن سؤالًا بدر عن القاضي جعله يسترخي، إذ قال:

ـ يا سيد يوويل، هل شاهدت المتهم يقيم علاقة جنسية مع ابنتك؟

ـ نعم لقد رأيته.

كان الجمهور هادئًا، ولكن المتهم قال شيئًا. همس أتيكوس بشيء ما فصمت توم روبنسون.

سأل السيد جيلمر:

ـ قلت إنك كنت عند النافذة؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ وكم تبعد النافذة عن الأرض؟

ـ قرابة ثلاثة أقدام.

ـ هل كنت قادرًا على رؤية الغرفة بوضوح؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ كيف بدت الغرفة؟

ـ حسنًا، كانت في حالة من الفوضى وكأنها ساحة عِراك.

ـ وماذا فعلت حين رأيت المتهم؟

ـ حسنًا، لقد لففت حول المنزل لأدخل، ولكنه خرج من الباب الأمامي قبلي مباشرة. وقد ميزته جيدًا. ولكني كنت منشغلًا جدًا بمايلا بحيث لم ألحق به. أسرعت إلى داخل البيت وكانت ممددة على الأرض وهي تصرخ..

ـ إذن ماذا فعلت؟

ـ حسنًا، لقد جريت إلى مكتب السيد تيت بأسرع ما استطعت. فقد كنت أعرف الفاعل جيدًا إذ إنه يعيش في وكر الزنوج القريب ويمر بالقرب من المنزل كل يوم. يا حضرة القاضي، إني أطالب المقاطعة منذ خمسة عشر عامًا بأن تطهر ذلك الوكر القريب من منزلي، فهؤلاء الناس جيرة غير آمنة يُخشى جانبهم، بالإضافة إلى ذلك فإن وجودهم يخفض من قيمة ممتلكاتي.

قال السيد جيلمر بلهجة مستعجلة:

ـ شكرًا يا سيد يوويل.

هبط الشاهد بسرعة من على المنصة واصطدم بقوة في أتيكوس الذي نهض ليستجوبه. سمح القاضي للحاضرين بالضحك.

قال أتيكوس بلطف:

ـ لحظة يا سيد يوويل. هل يمكنني أن أسألك سؤالًا أو سؤالين؟

عاد السيد يوويل إلى منصة الشهود، ثم جلس وراقب أتيكوس بارتياب متعال، وهو تعبير شائع لدى شهود مقاطعة مايكوم حين يواجهون بمحامي الخصم.

قال أتيكوس:

ـ يا سيد يوويل، يبدو أن الجميع قاموا بالجري في تلك الليلة. هيا نراجع ما حدث: فأنت تقول إنك جريت إلى المنزل، وجريت إلى النافذة، وجريت إلى الداخل، وجريت إلى مايلا وجريت إلى السيد تيت. هل خلال كل هذا الجري جريت نحو الطبيب؟

ـ لم يكن هناك داع لذلك. فقد رأيت ما حدث.

ـ ولكن هناك شيئًا لا أفهمه. ألم تكن مهتمًا بحالة مايلا؟

ـ كنت مهتمًا جدًا. لقد رأيت من فعل ذلك.

لا، أعني حالتها الصحية. ألم تفكر بأن طبيعة جروحها تتطلب اهتمامًا طبيًا عاجلًا؟

ـ ماذا؟

ـ ألم تجد أنه من الضروري أن تجلب لها طبيبًا على الفور؟

قال الشاهد إنه لم يفكر في ذلك قط، فهو لم يستدع طبيبًا لأي من أولاده طوال حياته، ولو أنه اضطر إلى ذلك فسيكلفه ذلك خمسة دولارات. ثم أضاف:

ـ أهذا كل ما في الأمر؟

قال أتيكوس ببساطة:

ـ ليس تمامًا. يا سيد يوويل، لقد سمعت شهادة المأمور. أليس كذلك؟

ـ ماذا تعني؟

كنت في قاعة المحكمة حين كان السيد هك تيت على منصة الشهود، أليس كذلك؟ لقد سمعت كل ما قاله، أليس كذلك؟

درس السيد يوويل المسألة بعناية وبدا أنه توصل إلى أن السؤال آمن. قال:

ـ بلى.

ـ هل توافق على وصفه لجروح مايلا؟

نظر أتيكوس نحو السيد جيلمر وابتسم. بدا على السيد يوويل أنه مصمم على ألا يمنح الدفاع فرصة لتسجيل أي انتصار.

ـ لقد شهد السيد تيت قائلًا إن عينها اليمنى محاطة بالسواد وأنها كانت مصابة فيما حول...

قال الشاهد:

ـ حسنًا، حسنًا، أوافق السيد تيت على كل ما قاله.

سأله أتيكوس برقة:

ـ هل توافق فعلًا؟ كل ما أريده هو أن أتأكد من الموضوع.

ثم سار نحو كاتب المحكمة، وقال له شيئًا، فقام الكاتب بتسليتنا عدة دقائق بإعادة قراءة شهادة السيد تيت بطريقة بدت وكأنها استعراض لأسعار سوق الأسهم: «... أجل حسنًا، إنها عينها اليمنى إذن. لقد كانت عينها اليمنى يا سيد فينش. أتذكر الآن لقد كانت مضروبة». ثم قَلَبَ الصفحة وقرأ: «على هذا الجانب من وجهها يا حضرة المأمور كرر من فضلك ما قلته. قلت إنها كانت عينها اليمنى».

قال أتيكوس:

ـ شكرًا يا بيرت Bert. لقد سمعت الشهادة مرة أخرى يا سيد يوويل. هل لديك ما تضيفه على ذلك؟ هل توافق على ما قاله المأمور؟

ـ أؤيد تيت. كانت عينها محاطة بالسواد وكانت قد تعرضت لضرب شديد.

بدا الرجل الضئيل وكأنه نسي الإذلال الذي تعرض له سابقًا من القاضي. فمن الواضح أنه كان يظن أن أتيكوس نِدًا سهلًا. وبدأ وجهه في الاحمرار ليشبه ديكًا صغيرًا أحمر اللون. وظننت أن قميصه سيتمزق عند سؤال أتيكوس التالي:

ـ يا سيد يوويل، هل تستطيع أن تقرأ وتكتب؟

هنا قاطع السيد جيلمر قائلًا:

ـ أعترض. لا أرى علاقة لقُدْرَة الشاهد على القراءة والكتابة بالقضية، وأعتقد أن السؤال لا علاقة له بالموضوع وليس له أهمية.

كاد القاضي يقول شيئًا ولكن أتيكوس سبقه فقال:

ـ يا سيدي القاضي، إذا سمحت بهذا السؤال اللاحق فستعرف فورًا علاقته بالموضوع.

قال القاضي:

ـ حسنًا، لنر، ولكن أريدك أن تعرفنا يا أتيكوس. الاعتراض مرفوض.

بدا على السيد جيلمر الفضول بشأن علاقة ثقافة السيد يوويل بالقضية.

قال أتيكوس:

ـ سأكرر السؤال: هل تستطيع القراءة والكتابة؟

ـ طبعًا.

ـ هل لك أن تكتب اسمك وتُرِينا كيف تفعل ذلك؟

ـ سأفعل ذلك. كيف تظن أني أوقع شيكات الإعانة إذن؟

كان السيد يوويل يحاول كسب ود مواطنيه من الجمهور. وكانت الهمسات والضحكات الخافتة الصادرة عن الطابق الأول تدور كلها حوله، وكم هو مسكين!

بدأت أشعر بالتوتر. بدا أتيكوس وكأنه يعرف ما يريد أن يفعل، ولكن بدا الأمر لي وكأنه ذاهب لصيد الضفادع دون كشاف للإضاءة. محظور محظور محظور على أي محامٍ أن يسأل شاهدًا سؤالًا لايعرف الجواب عنه مُسْبقًا، وكانت تلك قاعدة شربتها مع حليب الرضاعة. فإذا ارتكب محامٍ هذا الخطأ فإنه يحصل غالبًا على إجابة لا يود سماعها، إجابة قد تكلفه خسارة الدعوى.

كان أتيكوس يبحث في جيب سترته عن شيء ما. أخرج ظرفًا ثم أخرج قلمه من الصديري. كان يتحرك ببطء، وقد التفت بحيث يراه المحلفون جيدًا. فتح غطاء قلمه وركبه على القلم بلطف. ثم هز القلم قليلًا وسلمه مع الظرف إلى الشاهد، وقال له:

ـ هل لك أن تكتب اسمك عليه؟ أريده واضحًا حتى يراك المحلفون تفعل ذلك.

كتب السيد يوويل على ظهر الظرف ثم رفع نظره وهو راضٍ عن نفسه تمام الرضا ليرى القاضي يحدق فيه وكأنه زهرة جاردينيا عطرة في أوج تفتحها على منصة الشهادة، وليرى السيد جيلمر وهو نصف جالس ونصف واقف في آنٍ عند منضدته. راقبه المحلفون، وقد انحنى أحدهم إلى الأمام ويداه فوق الحاجز.

سأل:

ـ ماذا في الأمر؟

قال القاضي:

ـ إنك أعسر يا سيد يوويل.

استدار السيد يوويل بغضب نحو القاضي وقال إنه لا يرى علاقة بين كونه أعسر وبين هذه القضية، وإنه رجل يهاب المسيح وأن أتيكوس فينش يحتال عليه. إن المحامين الماكرين من أمثال أتيكوس فينش يحتالون عليه طوال الوقت بأساليبهم الماكرة. لقد أخبرهم بما حدث، وسيقول ذلك مرارًا وتكرارًا، وقد فعل ما وعد به: فكل ما سأله أتيكوس بعد ذلك لم يجعله يغير ما قاله، فقد نظر من النافذة ثم جرى فهرب الزنجي، ثم جرى إلى المأمور وأخيرًا صرفه أتيكوس.

سأله السيد جيلمر سؤالًا آخر:

بالنسبة لكتابتك باليد اليسرى، هل أنت قادر على استعمال كلتا يديك بالكفاءة نفسها يا سيد يوويل؟

ـ بكل تأكيد. أستطيع استعمال أي يد كالأخرى تمامًا. أي منهما كالأخرى.

ثم نظر بغضب إلى منضدة الدفاع.

بدا جيم وكأنه غائب في نوبة هدوء: إذ كان يضرب حاجز الشرفة برقة، وهمس مرة قائلًا:

ـ لقد أمسكنا به.

لم أكن أتفق مع هذا الرأي، فقد كان أتيكوس يحاول أن يظهر ـ كما بدا لي ـ أنه من المحتمل أن يكون السيد يوويل هو الذي ضرب مايلا. لقد استطعت أن أتابع الأمر حتى ذلك الحد. إذا كانت عينها اليمنى هي المحاطة بالسواد من أثر الضرب، وكانت إصابتها في معظمها في الجهة اليمنى من الوجه، فهذا سيظهر أن الذي ضربها شخص يستخدم يده اليسرى. كان شرلوك هولمز (Sherlock Holmes) [1] وجيم فينش حَرِيَّان بالموافقة على ذلك. ولكن، ألا يمكن أن يكون توم روبنسون أعسر هو الآخر؟

فعلت ما فعله السيد هك تيت من قبل وتخيلت شخصًا في مواجهتي، ومضى خيالي يؤدي الحركات وانتهيت إلى أنه قد يكون قد أمسك بها بيده اليمنى وكال لها اللكمات باليسرى. ونظرت إليه من موقعي أعلى القاعة، كنت لا أرى إلا ظهره ولكني لحظت منكبيه العريضين ورقبته الغليظة كرقبة الثور، ما أسهل أن يكون قد قام بمثل تلك الفعلة. وظننت أن جيم يستبق الأحداث.

---

(١) شرلوك هولمز هو شخصية من ابتكار الكاتب البريطاني سير آرثر كونان دويل (Sir Arthur Conan Doyle) وقد اشتهر بحل ألغاز الجرائم الغامضة. (المترجمة).

الفصل الثامن عشر

وانطلق صوتٌ جهوريٌّ صائحًا:

مايبلا فايوليت يوويل...

اتجهت فتاة شابة نحو منصة الشهادة. وبينما كانت ترفع يدها وتقسم أن الشهادة التي ستقدمها ستكون هي الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة وليساعدها الله على ذلك، بدا عليها أنها رقيقة التكوين، ولكن حين جلست وأصبحت في مواجهتنا على كرسي الشهود، ظهرت على حقيقتها: فتاة ذات بنية قوية معتادة على العمل الشاق.

كان من السهل في مقاطعة مايكوم أن تعرف الشخص الذي يستحم بانتظام، فبالمقارنة مع أولئك الذين يستحمون مرة في السنة كان للسيد يوويل مظهر يبدو به وكأنه مسلوق، فقد نقع جسده في الماء طيلة ليلة كاملة مما حرمه طبقات القذارة الوقائية، وبدت بشرته وقد صارت عُرْضَة للتأثير المباشر للجو وعناصر الطبيعة الأخرى. أما مايبلا فبدت وكأنها فتاة تحاول أن تُبْقِي نفسها في حالة من النظافة، وتذكرت صفوف زهور الجورانيوم في فناء منزل عائلة يوويل.

طلب السيد جيلمر من مايلا أن تدلي للمحلفين بأقوالها عمّا حدث مساء يوم الحادي والعشرين من نوفمبر من العام الماضي، بكلماتها هي بالضبط إذا تفضلت.

جلست مايلا صامتة.

بدأ السيد جيلمر بصبر:

ـ أين كنت عند الغسق في ذلك المساء؟

ـ عند المدخل الأمامي.

ـ أي مدخل أمامي؟

ـ لا يوجد سوى مدخل أمامي واحد، الأمامي.

ـ ما الذي كنت تفعلينه عند المدخل الأمامي؟

ـ لا شيء.

قال القاضي تايلور:

ـ احْكِ لنا ما حدث فحسب، دون زيادة أو نقصان، تستطيعين أن تحكي لنا ما حدث،أليس كذلك؟

حدقت مايلا فيه ثم غطت فمها بيديها وانخرطت في بكاء مرير، سمح لها القاضي بالبكاء لفترة ثم قال: «يكفي هذا الآن. لا تخافي من أي شخص موجود هنا، ما دمت تقولين الحقيقة. كل ما حولك غريب عليك، أعرف ذلك، ولكن ليس عليك أن تخجلي أو تخافي من أي شيء. ما الذي تخافينه؟».

تلفظت مايلا بشيء ما ويداها على فمها.

سألها القاضي:

ـ ماذا قلتِ؟

ـ هذا الرجل.

بكت وهي تشير إلى أتيكوس.

ـ السيد فينش؟

أومأت برأسها بشدة قائلة:

ـ لا أريده أن يفعل بي ما فعله بأبي، فقد حاول أن يجعله يبدو وكأنه يستخدم يده اليسرى.

حَكَّ القاضي تايلور شعره الأبيض الكثيف. من الواضح أنه لم يواجه مشكلة من هذا النوع من قبل. سألها.

ـ كم عمرك؟

ـ تسعة عشر عامًا ونصف العام.

تنحنح القاضي وعندما لم تُجدِ محاولاته لأن يتحدث بلطف،انطلق زئيره عاليًا:

ـ ليس لدى السيد فينش أية نية في تخويفك، ولو فعل فأنا هنا لأمنعه. وهذا شيء من بين أشياء أخرى هي من صميم عملي. والآن. هيا ؛ فأنت فتاة كبيرة. ارفعي رأسك وقولي لنا... قولي لنا ما حدث لك. يمكنك ذلك، أليس كذلك؟

همست لجيم:

ـ هل لديها حدس سليم؟

كان جيم ينظر نحو منصة الشهادة. قال:

ـ لا نستطيع أن نعرف بعد. لديها من العقل ما يكفي لجعل القاضي يتفاعل معها، ولكنها قد تكون مجرد... أوه، لا أعرف.

وبعد أن هدأت، قامت مايلا ورمت أتيكوس بنظرة أخيرة تنطق بالرعب وقالت للسيد جيلمر:

ـ حسنًا يا سيدي، لقد كنت واقفة عند المدخل الأمامي... ومرَّ هو وكما ترى، كانت هناك تلك الخزانة في الفناء التي جلبها والدي لتحويلها إلى حطب... قال لي والدي إن عليّ أن أفعل ذلك وهو في الغابات، ولكني لم أكن أشعر بالقوة الكافية، وجاء هو...

ـ من هو؟

أشارت مايلا إلى توم روبنسون.

قال السيد جيلمر:

ـ سأضطر إلى أن أطلب منك أن تكوني أكثر تحديدًا. أرجوك. فالكاتب لا يستطيع أن يسجل الإشارات بشكل جيد.

قالت:

ـ ذلك الذي هناك. روبنسون.

ـ ثم ماذا؟

ـ قلت له: «تعالى إلي هنا يا زنجي وكسِّر لي هذه الخزانة، وسأعطيك خمسة سنتات». كان يستطيع أن يفعل ذلك بكل سهولة. وهكذا دخل الفناء ودخلت المنزل لأحضر له السنتات الخمسة ثم التفتّ فجأة وقبل أن أدرك ما حدث كان قد انقض عليَّ. لقد تسلل خلفي، أنا واثقة أنه تسلل خلفي. لف ذراعه حول عنقي وهو يشتمني ويقول كلامًا بذيئًا... صارعته وصرخت، ولكنه كان قد أمسك بي من عنقي. وأخذ يضربني المرة تلو المرة.

انتظر السيد جيلمر حتى استعادت مايلا رباطة جأشها: كانت تلوي منديلها الذي تحول إلى ما يشبه حبلًا مبتلًا بالعرق، وحين فتحته لتمسح وجهها كان قد تحول تحت ضغط يديها الدافئتين إلى كتلة مكرمشة من القماش. انتظرت السيد جيلمر حتى يسألها سؤالًا آخرًا، وعندما لم يفعل، قالت:

ـ رماني إلى الأرض وهو يمسكني من عنقي ثم اغتصبني.

سأل السيد جيلمر:

ـ هل صرخت؟ هل صرختِ ودافعتِ عن نفسك؟

ـ أعتقد أني فعلت، فقد صرخت بأقوى ما استطعت، ورفست وصِحْتُ بأعلى ما استطعت.

ـ ثم ماذا حدث؟

ـ لا أتذكر جيدًا، لكن ما أذكره بعد ذلك هو أني وجدت أبي في الغرفة يقف إلى جواري ويصرخ: «من الذي فعل ذلك؟ من هو؟» ثم أغمى عليَّ، وأذكر كذلك السيد تيت وهو يرفعني عن الأرض ويقودني إلى دلو من الماء.

من الواضح أن سَرْدَ مايلا للقصة قد منحها الثقة، ولكنها لم تكن من نوعية ثقة أبيها الوقحة: فقد كان هناك شيء ما فيها يوحي بالتزامها الحذر، وكأنها قطة ذات عينين ثابتتين وذيل مرتعش.

سألها السيد جيلمر:

ـ قلت إنك دافعت عن نفسك بأقوى ما تستطيعين. دافعت بالأسنان والأظافر؟

ـ لقد فعلت ذلك بكل تأكيد.

ـ هل أنت متأكدة من أنه اغتصبك بمعنى الكلمة؟

التوت قسمات وجهها، وخشيت أن تنخرط في البكاء مرة أخرى. ولكنها بدلًا من ذلك قالت:

ـ لقد فعل ما كان ينويه.

لفت السيد جيلمر الانتباه إلى حرارة اليوم بأن مسح رأسه بيده. قال بلطف:

ـ حسنًا، هذا كل ما هنالك الآن. ولكن ابقَي هنا. فأنا أتوقع من السيد فينش، هذا الرجل الضخم الشرير، أن يسألك بعض الأسئلة.

همهم القاضي تايلور بلهجة متزمتة:

ـ لا يجوز لممثل النيابة أن يجعل الشاهد يتحامل على الدفاع، على الأقل ليس هذه المرة.

نهض أتيكوس مبتسمًا، ولكنه بدلًا من أن يسير نحو منصة الشهود فتح معطفه وعلّق إبهاميه على جانبي الصديري ثم مشى ببطء عبر القاعة

نحو النوافذ. نظر إلى الخارج، ولكنه لم يَبْدُ مهتمًا تمامًا بما رآه، ثم التفت وسار بسرعة نحو منصة الشهود. ومن سنوات طويلة من الخبرة، استطعت أن أعرف أنه كان يحاول الوصول إلى قرار حول شيء ما.

قال مبتسمًا:

ـ آنسة ماييلا، لن أحاول إخافتك لفترة ما، لم يئن الأوان بعد. ولكن هيا نتعرّف على بعضنا البعض. كم يبلغ عمركِ؟

ـ سبق أن قلت إني في التاسعة عشرة، قلت ذلك إلى القاضي هناك.

وهنا أشارت ماييلا برأسها نحو منبر القاضي بامتعاض.

ـ أجل، لقد فعلت ذلك، أجل يا سيدتي. عليك أن تحتمليني يا آنسة مايلا، فأنا أكبُرُ في السن ولا أستطيع الآن أن أتذكر جيدًا كما كنت أفعل سابقًا. قد أسألك عن أشياء سبق لك أن قلتها، ولكنك ستجيبينني، أليس كذلك؟ حسنًا.

لم أستطع أن أرى أي شيء في تعبيرات مايلا يبرر افتراضه بأنه قد ضمن تعاونها الكامل معه. فقد كانت تنظر إليه بسخطٍ شديد.

قالت:

ـ لن أجيب على كلمة واحدة تقولها إذا ما واصلت السخرية مني.

سألها أتيكوس وهو مذهول:

ـ ماذا يا سيدتي؟

ـ ما دمت تهزأ بي.

قال القاضي تايلور:

ـ السيد فينش لا يهزأ بك. ماذا بكِ؟

نظرت مايلا من تحت جفنيها المسدلين إلى أتيكوس، ولكنها قالت للقاضي:

ـ ما دام يدعوني بسيدتي ويقول لي يا آنسة مايلا فلست مضطرة إلى قبول طريقته في إهانتي، لست مضطرة إلى ذلك.

استأنف أتيكوس حركته نحو النوافذ وترك للقاضي تايلور معالجة هذا الموضوع. لم يكن القاضي تايلور من ذلك النوع من الأشخاص الذين يثيرون الشفقة، ولكني أحسست بالشفقة عليه وهو يحاول الشرح. قال لمايلا:

هذا هو أسلوب السيد فينش. لقد عملنا معًا في هذه المحكمة منذ سنوات طويلة، والسيد فينش مهذب دائمًا مع الجميع. إنه لا يحاول أن يسخر منهم، بل يحاول أن يكون مهذبًا. هذا هو أسلوبه فحسب.

عاد القاضي ليسند ظهره على كرسيه، وقال:

ـ يا أتيكوس، هيا نتابع الإجراءات، وعلى الكاتب أن يسجل أن الشاهد لم يتعرض للسخرية، بل العكس هو الصحيح.

تساءلت في نفسي إن كان قد سبق لأي شخص أن ناداها بـ«سيدتي» أو «الآنسة مايلا»، ربما لا، حيث إنها انزعجت من مجرد سماعها لتعبير روتيني مهذب. فكيف يكون شكل حياتها يا ترى؟ سرعان ما وجدت الجواب.

استأنف أتيكوس:

ـ تقولين إنك في التاسعة عشرة، ما عدد إخوتك الذكور والإناث؟

ثم سار من عند النوافذ عائدًا إلى المنصة.

أجابت:

ـ سبعة.

وتساءلت في نفسي إن كانوا كلهم من تلك العينة التي رأيتها في أول أيام المدرسة.

ـ هل أنت أكبرهم سنًا؟

ـ نعم.

ـ منذ متى ماتت أمكم؟

ـ لا أعرف. منذ وقت طويل.

ـ هل سبق لك أن ذهبت إلى المدرسة؟

ـ أكتب وأقرأ جيدًا مثل أبي الذي يجلس هناك.

ذكرتني مايبلا بشخصية في كتاب قرأته اسمها «السيد چنجل»[1] (Mr. Jingle).

ـ كم قضيت في المدرسة؟

---

(١) هي شخصية ظهرت في رواية «أوراق بيكويك» (The Pickwick Papers) لتشارلز ديكنز (Charles Dickens). وكان السيد چنجل عادة ما يعبر عن نفسه باستخدام جمل غير مترابطة. (المترجمة).

ـ سنتان... ثلاث.... لا أدري.

ببطء ولكن بثقة بدأت أرى نمط أسئلة أتيكوس: فيطرح أسئلة كان السيد جيلمر لا يجدها متصلة بالموضوع أو غير أساسية بحيث يعترض عليها، كان أتيكوس يرسم، وببطء، أمام المحلفين صورة للحياة العائلية لأسرة يوويل. فقد عرفت هيئة المحلفين ما يلي: كانت شيكات الإعانة غير كافية إطلاقًا لإطعام العائلة، وكان هناك شكٌّ كبير في أن الأب ينفقها على الشراب... فقد كان يغيب أحيانًا في المستنقع لأيامٍ بأكملها ويعود مريضًا: نادرًا ما كان الطقس باردًا بما فيه الكفاية ليتطلب ارتداء حذاء، ولكن حين كانوا يحتاجون إلى حذاء، كانوا يصنعونه من قطع العجلات القديمة. كانت العائلة تجلب الماء من نبع كان ينبثق من أحد أطراف مقلب القمامة ـ وكانوا يبقون المنطقة المحيطة به نظيفة من القمامة ـ وبالنسبة للنظافة كان على كل واحد منهم أن يعتني بنفسه: إذا أردت أن تغتسل فعليك أن تحضر الماء بنفسك. كان الأطفال الأصغر سنًا مصابين بالزكام الدائم ويعانون من مرض الحكة المزمنة. وكانت هناك سيدة تأتي أحيانًا وتسأل مايلا عن السبب في عدم استمرارها بالمدرسة: وقد سجلت الجواب كما يلي: ما دام في العائلة اثنان يستطيعان الكتابة والقراءة فلا حاجة للباقين منهم أن يتعلموا: فقد كان أبي بحاجة إلى وجودهم في البيت.

قال أتيكوس مرغمًا:

ـ يا آنسة مايلا... إن فتاة مثلك في التاسعة عشرة من العمر لا بد وأن يكون لها أصدقاء. من هم أصدقاؤك؟

قطبت الشاهدة كأنها وقعت في مأزق. قالت:

ـ أصدقاء؟

ـ أجل، ألا تعرفين أحدًا من سنك أو أكبر قليلًا، أو أصغر؟ شبان وفتيات؟ مجرد أصدقاء عاديين؟

اشتعل عداء ماييلا مرة أخرى بعد أن كان قد خمد متحولًا إلى حيادية حاقدة، فقالت:

ـ أتسخر مني مرة أخرى يا سيد فينش؟

ترك أتيكوس سؤالها يجيب عن سؤاله.

كان السؤال التالي:

ـ هل تحبين أباك يا آنسة مايلا؟

ـ أحبه! ماذا تعني؟

ـ أعني، هل هو طيب معك، هل التعامل معه سهل؟

ـ إنه محتمل إلّا حين...

ـ إلا حين ماذا؟

نظرت مايلا إلى أبيها، الذي كان جالسًا وكرسيه يميل على السور؛ فعدّل من جلسته وراح ينتظر إجابتها.

قالت مايلا:

ـ إلا حين لا شيء. قلت إنه يمكن احتماله.

مال السيد يوويل في كرسيه مرة أخرى.

سألها أتيكوس بلطف شديد:

ـ إلا حين يشرب.

أومأت مايِيلا برأسها موافقة.

ـ هل يضربك؟

ـ ماذا تعني؟

ـ حين يكون غاضبًا، هل يضربك عادة.

نظرت مايِيلا من حولها، ثم نحو كاتب المحكمة، ثم إلى القاضي.

قال القاضي:

ـ أجيبى عن السؤال يا آنسة مايِيلا.

صرخت بثباتٍ:

ـ لم يسبق لأبي أن مسَّ شعرة في رأسي طوال حياتي. لم يلمسني مرة واحدة.

كانت نظارة أتيكوس قد انزلقت قليلًا، فدفعها نحو أعلى أنفه. قال:

لقد كانت محادثتنا جيدة حتى الآن يا آنسة مايِيلا، والآن أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نعالج القضية. تقولين إنك طلبت من توم روبنسون أن يأتي ليكسر لك... ما كان ذلك؟

ـ خزانة، خزانة عتيقة ذات أدراج من جانب واحد.

ـ هل كنت على معرفة جيدة بتوم روبنسون؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني هل كنت تعرفين من هو، وأين يعيش؟

أومأت مايلا برأسها وقالت:

ـ كنت أعرف من هو، فقد كان يمرّ بالقرب من المنزل كل يوم.

ـ هل كانت تلك أول مرة تطلبين منه أن يدخل إلى ما وراء السور؟

قفزت مايلّا قليلًا لدى سماعها السؤال. كان أتيكوس يقوم برحلته المقدسة نحو النوافذ بخطى وئيدة، كما كان يفعل طوال الوقت: كان يطرح سؤالًا ثم ينظر إلى الخارج وينتظر الإجابة. لم ير حركتها اللاإرادية ووثبتها في مكانها وهي جالسة، ولكن بدا لي أنه يعرف أنها تحركت. استدار ثم رفع حاجبيه وقال:

ـ هل كانت تلك...؟

ـ نعـم.

ـ ألم يسبق لك أن طلبت منه أن يدخل إلى ما وراء السور؟

الآن كانت جاهزة للإجابة:

ـ لم أفعل، وبكل تأكيد لم أفعل.

قال أتيكوس بهدوء:

ـ إن «لم أفعل» واحدة تكفي. ألم تطلبي منه أن يؤدي لك خدمات كتلك من قبل؟

تراجعت مايلا قائلة:

ـ ربما أكون قد فعلت ذلك. كان هناك عدة زنوج حولنا.

ـ هل تتذكرين أي مناسبات أخرى؟

ـ لا.

ـ حسنًا، والآن إلى ما حدث. قلت إن توم روبنسون كان خلفك في الغرفة حين التفتِّ، هل هذا صحيح؟

ـ نعم.

ـ قلت إنه «لف ذراعه حول عنقك وهو يشتمك ويقول كلامًا بذيئا». هل هذا صحيح؟

ـ نعم صحيح.

وفجأة أصبحت ذاكرة أتيكوس حادة. قال:

ـ تقولين: «رماني وأمسك بي من عنقي واغتصبني»... هل هذا صحيح؟

ـ هذا ما قلته.

ـ هل تذكرين أنه ضربك على وجهك؟

ترددت الشاهدة.

ـ تبدين واثقة تمامًا بأنه أمسك بك من عنقك. وفي تلك الأثناء كنت تدافعين عن نفسك، ألا تتذكرين؟ فأنت «رفسته وصرخت بأقوى ما استطعت». هل تتذكرين أنه ضربك على وجهك؟

صمتت مايلا. بدا أنها تحاول أن توضح شيئًا ما لنفسها. واعتقدت

لفترة وجيزة أنها كانت تمارس حيلة السيد تيت وحيلتي في التظاهر بأن شخصًا ما كان أمامها. نظرت إلى السيد جيلمر.

ـ إنه سؤال سهل يا آنسة مايبلا، لذا سأبذل محاولة أخرى. هل تذكرين أنه ضربك على وجهك؟

كان صوت أتيكوس قد فقد تلك الراحة التي يوحي بها عادة، فأصبح يتحدث بصوته القاسي الحيادي المهني:

ـ هل تتذكرين أنه ضربك على وجهك؟

ـ لا، لا أذكر إن كان ضربني. أعني إني أتذكر، لقد ضربني. أجل.

ـ هل كانت آخر جملة لك هي الجواب؟

ـ ماذا؟ نعم، لقد ضربني... لا أستطيع أن أتذكر، هذا كل ما في الأمر... لقد حدث كل ذلك بسرعة كبيرة.

نظر القاضي تايلور بصرامة نحو مايبلا. قال:

ـ لا تبكي أيتها الشابة...

ولكن أتيكوس قاطعه قائلًا:

ـ فلتبك إذا أرادت يا سيدي القاضي. لدينا من الوقت ما يكفي.

أصدرت مايبلا صوتًا عاليًا من منخاريها ينم عن غضبها ونظرت إلى أتيكوس وقالت:

ـ سأجيب عن أي سؤال... أجلسني هنا واسخر مني، هل لك أن تفعل ذلك؟ سأجيب عن كل سؤال.

قال أتيكوس:

ـ هذا حسن. لم يتبق إلا القليل من الأسئلة. يا آنسة ماييلا، لا أريد أن أكون مملًا، ولكنك أفدت بأن المتهم قد ضربك، أمسك بك من عنقك، وخنقك، واغتصبك. أريدك أن تكوني متأكدة من الشخص الصحيح. هل لك أن تتعرفي إلى الشخص الذي اغتصبك؟

ـ سأفعل، إنه هناك.

التفت أتيكوس نحو المتهم وقال:

ـ قِفْ يا توم. دع الآنسة مايلا تنظر إليك جيدًا. هل هذا هو الرجل يا آنسة مايلا؟

كانت كتفا توم روبنسون القويتان تتموجان تحت قميصه الرقيق. نهض ووقف ويده اليمنى على ظهر كرسيه. بدا عليه أنه غير متوازن إلى حد كبير، ولكن ذلك لم يكن بسبب طريقة وقوفه، إذ كانت ذراعه اليسرى أقصر من اليمنى بمقدار خمس عشرة بوصة، وكانت تتدلى إلى جانبه دون حراك. وفي نهايتها يد صغيرة عاجزة، ومن هذا المكان البعيد، من الشرفة، كنت أستطيع أن أرى أنها يد عاطلة تمامًا.

همس جيم:

ـ سكاوت، سكاوت انظري، يا حضرة الكاهن، إنه مشلول.

انحنى الكاهن سايكس من فوق وهمس لجيم:

لقد انحشرت في محلجة للقطن، في محلجة السيد دولفوس رايموند حين كان صبيًا... وقد نزف حتى كاد أن يموت... وقد تمزقت كل عضلات ذراعه وانفصمت عن عظامها.

قال أتيكوس:

ـ هل هذا هو الرجل الذي اغتصبك؟

ـ إنه هو بكل تأكيد.

كان سؤال أتيكوس التالي في كلمة واحدة:

ـ كيف؟

كانت مايلا الآن في حالة هياج:

ـ لا أعرف كيف فعل ذلك، ولكنه فعلها... قلت إن كل شيء حدث بسرعة كبيرة وإلى حد أني...

ـ والآن هيا ندرس الموضوع بهدوء...

هكذا بدأ أتيكوس، ولكن السيد جيلمر قاطعه باعتراض: لم يكن السؤال غير متصل بالموضوع أو غير أساسي، ولكن أتيكوس كان يُرْهِب الشاهدة.

ضحك القاضي تايلور فورًا:

ـ اجلس يا هوريس (Horace)، إنه لا يفعل ما تقوله. بل العكس هو الصحيح فالشاهدة هي التي تُرهبُ أتيكوس.

كان القاضي تايلور هو الشخص الوحيد الذي ضحك في القاعة. حتى الأطفال الرضع كانوا صامتين، وتساءلت فجأة إن كانوا قد اختنقوا على صدور أمهاتهم.

قال أتيكوس:

ـ والآن، يا آنسة مايبلا، لقد شهدت بأن المتهم قد خنقك وضربك. لم تقولي إنه تسلل من خلفك وضربك خلسة فأفقدك الوعي، بل إنك التفت فوجدته هناك خلفك...

كان أتيكوس قد عاد إلى منضدته، وقد شدد على كلماته بأن راح يضرب بأصابعه عليها:

ـ هل تريدين إعادة النظر في شهادتك؟

ـ هل تريدينني أن أقول ما لم يحدث؟

ـ لا يا سيدتي، أريدك أن تقولي ما حدث فعلًا، قولي لنا مرة أخرى من فضلك، ما الذي حدث؟

ـ لقد قلت لك ما حدث.

ـ لقد شهدت بأنك التفت فوجدته خلفك. هل خنقك عندئذ؟

ـ أجـل.

ـ ثم ترك عنقك وضربك؟

ـ قلت إنه فعل.

ـ وقد ضربك بقبضته اليمنى على عينك اليسرى حتى اسودت؟

ـ لقد تفاديت الضربة... وقد طاشت، لقد طاشت فعلًا. لقد تفاديتها وطاشت.

لقد نزل الوحي على مايبلا أخيرًا.

ـ لقد اتضح الأمر لك فجأة، فمنذ قليل كنت لا تستطيعين التذكر جيدًا، أليس كذلك؟

ـ قلت إنه ضربني.

ـ حسنًا. لقد خنقك، ضربك ثم اغتصبك، هل هذا صحيح؟

ـ صحيح بكل تأكيد.

ـ أنت فتاة قوية، ما الذي كنت تفعلينه طوال الوقت، هل كنت تقفين مستسلمة؟

ـ قلت لك إني صرخت ورفست وقاتلت...

مد أتيكوس يده وخلع نظارته، ثم أدار عينه اليمنى السليمة نحو الشاهدة، وأمطرها بالأسئلة. قال القاضي تايلور:

سؤال واحد في كل مرة يا أتيكوس. امنح الشاهدة فرصة للجواب.

ـ حسنًا، لماذا لم تهربي؟

ـ حاولت.

ـ حاولت ماذا؟ ما الذي منعك؟

ـ أنا... لقد طرحني أرضًا. هذا ما فعله. لقد طرحني أرضًا وارتمى فوقي.

ـ هل كنت تصرخين طوال ذلك الوقت؟

ـ كنت أصرخ بكل تأكيد.

ـ لماذا إذن لم يسمعك الأطفال الآخرون؟ أين كانوا؟ عند مقلب القمامة؟

ـ أين كانوا؟

ـ لا جواب.

ـ لماذا لم تجعلهم صرخاتك يهرعون مسرعين؟ مقلب القمامة أقرب من الغابات، أليس كذلك؟

ـ لا جواب.

ـ أو أنك لم تصرخي إلى أن شاهدت والدك عند النافذة؟ لم تفكّري في الصراخ إلا حينذاك، أليس كذلك؟

ـ لا جواب.

ـ هل وجهت صراخك إلى والدك بدلًا من توم روبنسون؟

ـ لا جواب.

ـ من ضربك؟ توم روبنسون أم أبوك؟

ـ لا جواب.

ـ ما الذي رآه أبوك عند النافذة، أرأى جريمة اغتصاب ذاتها أو وسيلة دفاعك عنها؟ لم لا تقولين الحقيقة يا طفلتي؟ ألم يضربك بوب يوويل؟

حين التفت أتيكوس مبتعدًا عن ماييلا بدا وكأن معدته تؤلمه، ولكن وجه ماييلا كان مزيجًا من الرعب والغضب. جلس أتيكوس متعبًا، ومسح نظارته بمنديله.

وفجأة نطقت ماييلا:

ـ لدي شيء أقوله.

رفع أتيكوس رأسه:

ـ هل تريدين أن تقولي لنا ما حدث؟

ولكنها لم تلتفت للشفقة التي كانت في اقتراحه.

ـ لدي ما أقوله ثم لن أقول أي شيء آخر بعد ذلك. ذلك الزنجي هناك اغتصبني، وإن لم تقوموا أنتم أيها الرجال الأكابر بأي إجراء... يتعلق بذلك، فلستم سوى جبناء عفنين، جبناء عفنين كلكم. إن تصرفاتكم الرفيعة لا تساوي شيئًا... إن «سيدتي»، و«الآنسة مايلا» لا تساوي شيئًا يا سيد فينش...

ثم انفجرت باكية بدموع حقيقية. اهتزت كتفاها من البكاء الغاضب. وقد التزمت بكلمتها. فلم تعد تجيب عن أي أسئلة، حتى حين حاول السيد جيلمر أن يعيدها إلى إجراءات المحاكمة. وأعتقد أنها لو لم تكن فقيرة وجاهلة إلى ذلك الحد، لكان القاضي تايلور قد سجنها لما أبدته من احتقار لكل من كان في قاعة المحكمة. على أية حال كان أتيكوس قد أصابها بضربات موجعة إلى حد كبير وبأسلوب لم يكن واضحًا لي، ولكنه لم يشعر بالسعادة إزاء فعل ذلك فقد كان يجلس ورأسه إلى الأرض. ولم أر من قبل شخصًا يحدق في شخص آخر بمثل ذلك الحقد الذي كانت تُظهره مايلا، بينما كانت تغادر منصة الشهادة وتمر بالقرب من منضدة أتيكوس.

وحين قال السيد جيلمر للقاضي تايلور إن الادعاء قد استوفى جانبه من الدعوى، قال القاضي: «لقد حان الوقت لنأخذ جميعًا قسطًا من الراحة. سنستريح مدة عشر دقائق».

تقابل أتيكوس مع السيد جيلمر أمام منبر القاضي وتهامسا، ثم غادرا قاعة المحكمة عبر باب يقع خلف منصة الشهود، وكانت تلك إشارة لنا جميعًا للاسترخاء. لقد اكتشفت أني كنت أجلس على حافة المقعد الطويل، ولذا أصابني إحساس بالخدر. نهض جيم وتثاءب وكذلك فعل ديل، ومسح الكاهن سايكس وجهه بقبعته. كانت الحرارة تسعين درجة فهرنهايت على الأقل كما قال.

كان السيد براكستون أندروود، الجالس بهدوء في كرسي مخصص للصحافة، يمتص الدلالات بإسفنجة عقله، ويسمح لعينيه الساخرتين بالتجوال عبر شرفة الملونين، وحين قابلتا عينيّ أصدر صوتًا ثم نظر بعيدًا.

قلت:

ـ جيم، لقد رآنا السيد أندروود.

ـ حسنًا، لن يقول لأتيكوس، بل سينشرها في الزاوية الاجتماعية من صحيفة تريبيون (Tribune).

ثم التفت جيم نحو ديل وراح يفسر له النواحي الأدق في المحاكمة، ولكني تساءلت في نفسي عما تكون تلك. لم تكن هناك أية مجادلات مطولة بين أتيكوس والسيد جيلمر حول أية نقاط. وبدا على السيد جيلمر أنه يمارس الادعاء على مضضٍ تقريبًا. فقد كان الشهود يقادون من أنوفهم كالحمير، مع اعتراضات قليلة جدًا من قبله. ولكن أتيكوس قال لنا مرة إنه في محكمة القاضي تايلور ينتهي أي محام يفسر الأدلة تفسيرًا حرفيًا إلى أن يتلقى تعليمات صارمة من المنصة، وقد اختصر ذلك كله لي بأنه يعني أن القاضي تايلور قد يبدو كسولًا ويعمل وهو نائم، ولكن

نادرًا ما كان ينقض أي حكم يصدره، وكان ذلك هو البرهان على مدى براعته. قال أتيكوس إنه كان قاضيًا جيدًا.

عاد القاضي تايلور الآن وصعد إلى كرسيه الدوّار. أخذ سيجارًا من جيب جاكتته وفحصه بدقة. قَرَصْتُ ديل. وبعد أن اطمأن القاضي تايلور على جودة سيجاره انقض عليه بأسنانه انقضاضًا شريرًا. شرحت له: «أحيانًا نأتي لنراقبه، وسيستغرقه ذلك بقية فترة ما بعد الظهر. راقبه وسترى». ودون إدراك منه للعيون التي تراقبه من علٍ، تخلص القاضي تايلور من طرف السيجار بوضعه بين شفتيه بمهارة خبير حاذق ثم بدفعة واحدة قذف به نحو المبصقة فنزل فيها وسمعنا صوت ارتطامه بها.

همهم ديل:

ـ لا شك أنه كان ماهرًا جدًا في لعبة الكرة الممضوغة.

تعني الاستراحة بشكل عام خروج الجميع من القاعة، ولكن الناس لم تبرح أماكنها حتى أعضاء نادي الكسالى الذين لم ينجحوا في بث شعور الخجل في نفوس الشباب الجالسين كي يُفْسِحُوا لهم المكان ليجلسوا، ظلوا ملتصقين بالجدران، وأعتقد أن السيد هك تيت قد حجز مرحاض المديرية ليستعمله العاملون بالمحكمة.

عاد أتيكوس والسيد جيلمر، ونظر القاضي تايلور إلى ساعته. قال: «الساعة تقترب من الرابعة»، وكان ذلك محيرًا حيث كان يجب على ساعة دار المحكمة أن تكون قد دقّت مرتين على الأقل عند تمام الساعة. لم أسمعها ولم أسمع حتى اهتزازاتها.

قال القاضي تايلور:

ـ هل سنحاول إنهاء الدعوى اليوم؟ ما رأيك يا أتيكوس؟

قال أتيكوس:

ـ أعتقد أننا نستطيع ذلك.

ـ كم شاهدًا لديك؟

ـ واحد.

ـ حسنًا، استدعه.

الفصل التاسع عشر

مد توماس روبنسون يده اليمنى إلى ما تحت ذراعه الأيسر ثم رفعه. وجَّه يده نحو الكتاب المقدس وحاولت يده الأشبه بالمطاط أن تتواصل مع الغلاف الأسود للكتاب. وعندما رفع يده اليمنى، انزلقت الأخرى عن الكتاب المقدس واصطدمت بالمنضدة. كان يحاول مرة أخرى حين زأر القاضي تايلور:

ـ حسنًا يا توم. لا بأس بذلك.

أقسم توم ثم سار نحو كرسي الشهود. وقد حَفَّزه أتيكوس على أن يحكي لنا بسرعة ما يلي:

كان توم في الخامسة والعشرين، متزوجًا وله ثلاثة أطفال، وقد سبق له أن خالف القانون من قبل: فقد حكم عليه مرة بالحبس ثلاثين يومًا لإدانته في حادث شغب.

قال أتيكوس:

ـ لا بد أن الحادث اتسم بالشغب، ما الذي ارتكبته؟

ـ تشاجرت مع رجل حاول أن يجرحني.

ـ وهل نجح في ذلك؟

ـ نعم يا سيدي، بعض الشيء ولكن ليس بصورة مؤذية. أنت ترى أني...

وهنا حرك توم كتفه الأيسر.

قال أتيكوس:

ـ نعم يا سيدي، وكان عليَّ أن أقضي فترة السجن لأنه لم يكن معي من المال ما يكفي لدفع الغرامة. أما الآخر فقد دفعها.

انحنى ديل وتخطاني وسأل جيم عما كان أتيكوس يفعله. قال جيم إن أتيكوس كان يُري المحلفين أن توم ليس لديه ما يخفيه.

سأله أتيكوس:

ـ هل كنت على معرفة بمايبلا فايوليت يوويل؟

ـ نعم يا سيدي، فلا بد لي من المرور بالقرب من منزلها عند ذهابي إلى الحقل وعودتي منه كل يوم.

ـ حقل من؟

ـ أنا أعمل في جني القطن عند السيد لينك ديس (Link Deas).

ـ هل كنت تقوم بهذا العمل في شهر نوفمبر؟

ـ لا يا سيدي، أنا أعمل في فنائه في الخريف والشتاء. وأنا منتظم في العمل عنده طوال العام، فهو يمتلك أشجار «بيكان» كثيرة وغير ذلك من الأشجار.

ـ تقول إنك لا بد أن تمر بمنزل عائلة يوويل في طريق ذهابك إلى العمل وعودتك منه. هل هناك طريق آخر غيره؟

ـ لا يا سيدي، لا يوجد طريق آخر أعرفه.

ـ يا توم، هل سبق لها أن تحدثت إليك؟

ـ نعم يا سيدي، فأنا أرفع قبعتي حين أمرّ بالقرب من منزلها، وفي أحد الأيام طلبت مني أن أعبر السور وأدخل، وأن أكسر لها خزانة الأدراج.

ـ ومتى طلبت منك أن تكسر تلك... الدولاب؟

ـ يا سيد فينش، لقد كان ذلك في الربيع الماضي. وأتذكر تلك الحادثة لأن الوقت كان وقت تكسير الأخشاب، وكانت معي أداتي قلت لها إني لا أحمل إلا فأسًا صغيرة، ولكنها قالت إن لديها بلطة. وقد أعطتني البلطة وكسرت لها الدولاب. قالت: «أعتقد أن عليّ أن أعطيك خمسة سنتات، أليس كذلك؟» فقلت لها: «لا يا سيدتي، فعلت ذلك بلا مقابل». ثم ذهبت إلى البيت. كان هذا في الربيع الماضي يا سيد فينش أي منذ أكثر من سنة مضت.

ـ هل دخلت مرة أخرى إلى ذلك المكان؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ متى؟

ـ حسنًا، مرات كثيرة.

مدّ القاضي تايلور يده إلى مطرقته كما تعوّد، ولكنه ترك يده تسقط، فالهمهمة التي سرت في القاعة السفلى سكنت دون تدخل منه.

ـ ما الذي دعاك لذلك؟

ـ عفوا يا سيدي؟

ـ لماذا تخطيت السور عدة مرات؟

استرخى جبين توم روبنسون وقال:

ـ كانت تدعوني إلى الدخول يا سيدي. فكلما مررت من هناك كان لديها شيء ما أفعله لها... تكسير الأخشاب، أو نقل الماء. كانت تسقي تلك الزهور الحمراء كل يوم.

ـ هل كنت تأخذ أجرًا مقابل خدماتك؟

ـ لا يا سيدي، ليس بعد أن عرضت عليّ خمسة سنتات في المرة الأولى. لقد كنت سعيدًا بأداء تلك الخدمات، فلم يبد أن السيد يوويل يساعدها على الإطلاق، وكذلك الأطفال، وكنت أعرف أنه ليس لديها الكثير من تلك السنتات الخمسة.

ـ وأين كان الأطفال الآخرون؟

كانوا دائمًا موجودين في كل مكان، كانوا دائمًا هناك، يراقبونني دائمًا وأنا أعمل، هذا عن بعضهم، أما البعض الآخر فكان يجلس عند النافذة.

ـ هل كانت الآنسة مايلا تتحدث إليك؟

ـ نعم يا سيدي، كانت تتحدث إليّ.

وبينما كان توم روبنسون يدلي بشهادته، فكرت في أن مايلا يوويل كانت دون شك أكثر الأشخاص في العالم شعورًا بالوحدة. كانت أكثر وحدة حتى من بو رادلي، الذي لم يخرج من منزله منذ خمسة وعشرين

عامًا. وحين سألها أتيكوس إن كان لديها أصدقاء، بدا عليها أنها لم تفهم ما يعنيه، ثم ظنت أنه كان يهزأ بها. كانت حزينة ـ كما فكرت ـ كأولئك الأطفال الذين سماهم جيم بـ «المخلطين»: فالبيض لا يكترثون بها لأنها كانت تعيش بين الخنازير، والزنوج لا يكترثون بها لأنها بيضاء. ما كان يمكنها أن تعيش مثل السيد دولفوس رايموند، الذي كان يُفَضِّل صحبة الزنوج، لأنها لم تكن تملك ضفة نهر ولم تكن من عائلة عريقة غنية. لم يقل أحد عن عائلة يوويل: «تلك هي طريقتهم في الحياة». كانت مايكوم تقدم لهم سلال الهدايا في عيد الميلاد ونقود المعونة الاجتماعية ومَنّت عليهم بذلك كله، كان توم روبنسون، على الأرجح، هو الشخص الوحيد الذي يعاملها باحترام. لكنها تقول إنه اغتصبها، وحين وقفت بعد أداء الشهادة نظرت إليه وكأنه حثالة.

قاطع أتيكوس تأملاتي قائلًا:

ـ هل حدث أن دخلت منزل عائلة يوويل في أي وقت من الأوقات... هل حدث أن دخلت إلى منزل عائلة يوويل دون دعوة واضحة من أحدهم؟

ـ لا يا سيدي، يا سيد فينش، لم أفعل ذلك مطلقًا. ولا يمكن أن أفعل مثل ذلك يا سيدي.

كان أتيكوس يقول أحيانًا إن الطريقة الوحيدة لمعرفة ما إذا كان الشاهد كاذبًا أو صادقًا هو أن تُصْغِي إليه وليس أن تراقبه: وقد طبقت هذا الاختبار... لذا أنكر توم روبنسون الأمر ثلاث مرات في نَفَسٍ واحد، ولكن بهدوء، دون أي علامة انتحاب في صوته، وقد وجدت نفسي أصدقه، رغم احتجاجاته الكثيرة. بدا أنه زنجي محترم، والزنجي المحترم لا يمكن أن يدخل فناء شخص ما بمبادرة منه.

ـ يا توم، ما الذي حدث لك مساء يوم الحادي والعشرين من نوفمبر من العام الماضي؟

إلى الأسفل منا، كان الحضور قد أمسكوا كلهم بأنفاسهم ومالوا بأجسادهم إلى الأمام. وفعل الزنوج نفس الشيء من خلفنا.

كان توم زنجيًا ذا لون أسود مخملي، ليس لامعًا، بل مخمليًا أسود ناعمًا. كان بياض عينيه يلمع في وجهه، وحين كان يتحدث كنا نرى بريق أسنانه اللامعة. لو كان دون عاهة لكان نموذجًا جميلًا للإنسان.

قال:

ـ يا سيد فينش، كنت ذاهبًا إلى بيتي كالعادة في ذلك المساء، وحين مررت بمنزل عائلة يوويل كانت الآنسة مايلا في المدخل الأمامي لمنزلها، كما ذكرت. كان المكان هادئًا ولم أدرك لماذا. كنت أفكر في السبب، وأنا أمرّ من هناك، حين طَلَبَتْ مني أن أدخل لأساعدها مدة دقيقة واحدة. حسنًا، دخلت وتخطيت السور ونظرت فيما حولي أبحث عن حطب لأكسره، ولكني لم أجد أي حطب، وقالت: «لا، عندي شيء آخر لك لتفعله في المنزل. فالأبواب القديمة قد تخلخلت مفصّلاتها وتكاد تقع» قلت: «هل لديك مِفَك يا آنسة مايلا؟» قالت إن لديها واحدًا بالتأكيد. حسنًا، صعدت السلم وأشارت إليّ بالدخول، ودخلت إلى الغرفة الأمامية ونظرت إلى الباب. قلت يا آنسة مايلا هذا الباب يبدو جيدًا. حَرّكْتُه إلى الخلف وإلى الأمام وكانت مفصلاته جيدة. ثم أغلقت هي الباب في وجهي. يا سيد فينش، كنت أتساءل عن سبب الهدوء في المنزل، وقد فهمت أنه لم يكن هناك طفل واحد في المكان، ولا واحد منهم، وقلت يا آنسة مايلا أين الأطفال؟

بدأت بشرة توم السوداء المخملية في اللمعان، ومرّر يده على وجهه.

ـ قلت لها أين الأطفال؟ قالت ـ وكانت تضحك بطريقة ما ـ إنهم ذهبوا جميعًا لشراء الآيس كريم. قالت: «لقد استغرق مني جمع سبع قطع من فئة الخمسة سنتات سنة كاملة، ولكني نجحت في ذلك أخيرًا. لقد ذهبوا جميعًا إلى البلدة».

لم يكن انزعاج توم نابعًا من رطوبة الجو. قال له أتيكوس:

وماذا قلت لها يا توم؟

ـ قلت لها، يا آنسة مايبلا، خيرًا فعلتِ. فقالت: «هل تظن ذلك؟» لا أظن أنها فهمت ما كنت أعنيه... كنت أعني أن حرصها على توفير النقود ورقتها في التعامل مع إخوتها جديران بالإعجاب.

قال أتيكوس:

ـ أفهمك يا توم. استمر.

ـ حسنًا، قلت لها إني أفضل الذهاب ما دام لا يوجد ما أفعله من أجلها، فقالت نعم أستطيع أن أفعل شيئًا من أجلها، فسألتها عنه، وقالت إن عليّ أن أقف على كرسي هناك وأُنزِلَ لها صندوقًا من فوق الخزانة.

ـ أليست تلك هي الخزانة نفسها التي كسرتها؟

ابتسم الشاهد وقال:

ـ لا يا سيدي، واحدة أخرى. كانت ترتفع إلى سقف الحجرة. وهكذا فعلت ما طلبته، وحين كنت أحاول الوصول إلى الصندوق، وجدتها وقد

أمسكت بي من ساقيّ، أمسكت بي من ساقيّ يا سيد فينش. لقد أخافتني حتى إني وقعت وقلبت الكرسي... كان ذاك هو الشيء الوحيد، قطعة الأثاث الوحيدة التي تحركت من مكانها في تلك الغرفة، يا سيد فينش، وذلك قبل أن أغادرها. وأقسم بالله على ذلك.

ـ ما الذي حدث بعد أن قلبت ذلك الكرسي؟

كان توم روبنسون قد وصل إلى حالة صمت كاملة. نظر إلى أتيكوس، ثم إلى المحلفين، ثم إلى السيد أندروود الجالس عبر الغرفة.

ـ يا توم، لقد أقسمت أن تقول الحقيقة كلها. هل لك أن تقولها؟

مرّر توم يده بعصبية فوق فمه.

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ قال القاضي تايلور وقد تلاشى ثلث سيجاره:

أجب عن السؤال.

ـ يا سيد فينش، لقد نَزَلْتُ من على ذلك الكرسي والتفتُ، ولكنها ألقت بنفسها عليّ بطريقة ما.

ـ ألقت بنفسها عليك؟ بعنف؟

ـ لا يا سيدي... لقد... لقد ضمتني. ضمتني من خصري.

في هذه المرة نزلت مطرقة القاضي بعنف، وحين حدث ذلك أضيئت الأنوار في السقف. لم يكن الظلام قد حل بعد، ولكن شمس العصر كانت قد انحسرت عن النوافذ. وسرعان ما استعاد القاضي النظام.

ـ وماذا فَعَلَتْ؟

ابتلع الشاهد ريقه بصعوبة ثم قال:

ـ تطاولت حتى قبلتني على هذا الجانب من وجهي. قالت إنها لم يسبق لها أن قبلت رجلًا راشدًا من قبل وأنها لا تمانع في أن تقبل زنجيًا. وقالت إنها لا يهمها ما سيفعل أبوها بها. قالت: «قبلني أيها الزنجي». قلت: «يا آنسة مايلا، دعيني أخرج من هنا» وحاولت أن أجري ولكنها ألصقت ظهرها بالباب وكان عليّ أن أدفعها. لم أكن أريد إيذاءها يا سيد فينش، وقلت لها: «دعيني أخرج»، ولكن حين كنت أقول ذلك راح السيد يوويل يصرخ عبر النافذة.

ـ وماذا قال؟

ابتلع توم روبنسون ريقه بصعوبة مرة أخرى، واتسعت عيناه.

ـ قال شيئًا لا يليق بي قوله... لا يليق بأطفال هؤلاء الناس الجالسين هنا أن يسمعوه.

ـ ما الذي قاله يا توم؟ يجب أن تقول للمحلفين ما قاله.

أغلق توم روبنسون عينيه بشدة وقال:

ـ لقد قال «أيتها العاهرة الملعونة، سأقتلك».

ـ ثم ماذا حدث؟

ـ يا سيد فينش، رحت أعدو بأسرع ما أستطيع حتى إنيّ لا أعرف ما حدث.

ـ يا توم، هل اغتصبت مايلا يوويل؟

ـ لا يا سيدي.

ـ هل آذيتها بأية طريقة كانت؟

ـ لا يا سيدي.

ـ هل قاومت محاولاتها؟

ـ يا سيد فينش، لقد حاولت ألا أكون فظًا معها. لم أكن أرغب في أن أكون فظًا، لم أكن أريد أن أدفعها أو ما شابه ذلك.

خطر لي أن سلوك توم روبنسون، بطريقته الخاصة، كان جيدًا بقدر سلوك أتيكوس. لم أكن قد فهمت صعوبة موقف توم حتى شرحه لي أبي فيما بعد: فهو لم يكن ليجرؤ على ضرب امرأة بيضاء في ظل أي ظروف ثم يتوقع أن يعيش طويلًا، ولذا انتهز أول فرصة وهرب... وهو دليل أكيد على الإدانة.

قال أتيكوس:

ـ فلنعد يا توم إلى السيد يوويل، هل قال لك شيئًا؟

ـ لم يقل شيئًا يا سيدي. ربما يكون قال شيئًا، ولكني لم أكن هناك...

قاطعه أتيكوس بحدة:

ـ حسنًا، ماذا سمعت، مع من كان يتكلم؟

ـ يا سيد فينش، كان يتحدث إلى الآنسة مايلا وينظر إليها.

ـ ثم جريت؟

ـ لقد فعلت ذلك بالتأكيد يا سيدي.

ـ لماذا جريت؟

ـ كنت خائفًا يا سيدي.

ـ ولم كنت خائفًا؟

ـ يا سيد فينش، لو كنت زنجيًا مثلي، لخِفتَ أنت أيضًا.

جلس أتيكوس. كان السيد جيلمر في طريقه نحو منصة الشهادة، ولكن قبل أن يصل إلى هناك، نهض السيد لينك ديس من مكانه بين الجمهور وأعلن:

أريد منكم جميعًا أن تعرفوا أمرًا واحدًا الآن. يعمل هذا الشاب عندي منذ ثماني سنوات ولم يسبب لي مشكلة واحدة ولو صغيرة، ولا حتى ذرة من مشكلة.

ـ اسكت يا سيدي!

هكذا صاح القاضي تايلور الذي استيقظ تمامًا الآن وراح يزمجر وقد أصبح وجهه وردي اللون، ومن العجيب أن صوته خرج واضحًا خاليًا من أثر تدخينه للسيجار. صاح:

ـ يا لينك ديس، إن كان لديك ما تقوله، يمكنك ذلك بعد القسم وفي الوقت المناسب، ولكن حتى يحين ذلك عليك أن تخرج من هذه القاعة، أتسمعني؟ اخرج من هذه القاعة يا سيدي، أتسمعني؟ وسأكون ملعونًا إذا نظرت هذه الدعوى مرة أخرى.

حدج القاضي تايلور أتيكوس بنظرات كالسكين في حدتها وكأنه يتحداه أن يقول شيئًا، ولكن أتيكوس كان قد أطرق برأسه وراح يضحك

ووجهه منكفئ تجاه الأرض. تذكرت شيئًا ما كان قد قاله حول ملاحظات القاضي تايلور التي تنم عن انتشائه بالسلطة والتي كانت تتجاوز حدود واجباته أحيانًا، وأن من تصدى لها لا يزيد عن حفنة من المحامين. نظرت إلى جيم، ولكن جيم هز رأسه. قال: «الأمر يختلف إذا تحدث أحد المحلفين، حينها سيكون الأمر مختلفًا على ما أعتقد. لقد كان السيد لينك يخل بنظام المحكمة أو ما شابه ذلك».

وجَّه القاضي تايلور كاتب المحكمة لأن يشطب كل ما كتب بعد جملة «يا سيد فينش لو كنت زنجيًا مثلي لخفت أنت أيضًا». كما أصدر توجيهًا للمحلفين بتجاهل ما كان من أمر مقاطعة السيد لينك ديس. نظر بارتياب نحو الممشى الأوسط وانتظر على ما افترضت، حتى يخرج السيد لينك ديس نهائيًا. ثم قال:

ـ تفضل يا سيد جيلمر.

سأل السيد جيلمر:

ـ لقد سجنت ثلاثين يومًا لإدانتك في جنحة شغب؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ كيف كان حال ذلك الزنجي بعد أن انتهيت من تعاملك معه؟

ـ لقد ضربني يا سيد جيلمر.

ـ أجل، ولكن حكمًا بالإدانة صدر ضدك، أليس كذلك؟

رفع أتيكوس رأسه وقال:

ـ لقد كانت تلك جنحة بسيطة وكل شيء موجود في الملف يا سيدي القاضي.

ـ ظننت أنه يبدو متعبًا.

قال القاضي بتعب مماثل:

ـ سيجيب الشاهد على كل حال.

ـ بلى يا سيدي صدر ضدي حكم بالحبس ثلاثين يومًا.

كنت أعرف أن السيد جيلمر سيمضي مخلصًا في إقناع المحلفين بأن كل من أدين في جنحة بسيطة يمكنه أن يُضْمِرَ في نفسه نية اغتصاب مايلا يوويل، وما كان ليهتم بإيجاد دافع آخر، رغم أن تلك الدوافع قد تؤتي ثمارها.

ـ يا روبنسون، أنت ماهر جدًا في تكسير الخزائن بيد واحدة، أليس كذلك؟

ـ بلى يا سيدي. أعتقد ذلك.

ـ هل أنت قويّ إلى حد أنك تستطيع أن تخنق امرأة بيد واحدة وترميها إلى الأرض؟

ـ لم أفعل ذلك يا سيدي.

ـ ولكنك قوي بما فيه الكفاية لتفعل ذلك؟

ـ أعتقد ذلك يا سيدي.

ـ كنت تراقبها منذ زمن طويل، أليس كذلك أيها الولد؟

ـ لا يا سيدي، لم أنظر إليها مطلقًا.

ـ إذن كنت لطيفًا جدًا معها حتى تقوم بكل ذلك التكسير ونقل الماء، أليس كذلك؟

ـ كنت أحاول مساعدتها فحسب يا سيدي.

ـ كان ذلك كرمًا كبيرًا منك، فقد كان لديك في البيت أعمال أخرى تقوم بها بعد عودتك من عملك اليومي، أليس كذلك؟

ـ بلى يا سيدي.

ـ لماذا لم تكن تؤدّي تلك الأعمال بدلًا من أن تخدم الآنسة يوويل؟

ـ لقد كنت أؤدي هذه وتلك.

ـ لا بد وأنك كنت مشغولًا جدًا. لماذا؟

ـ لماذا ماذا يا سيدي؟

ـ لماذا كنت حريصًا على القيام بتلك الخدمات لتلك المرأة؟

تردد توم روبنسون وهو يبحث عن جواب. ثم قال:

ـ بدت وكأن لم يكن هناك من يساعدها، كما كنت أقول...

ـ رغم وجود السيد يوويل وسبعة أطفال في المنزل يا ولد؟

ـ حسنًا، قلت إن الأمر بدا وكأنهم لم يكونوا يمدون لها يد العون.

ـ وهل قمت بذلك التكسير وبتلك الأعمال لمجرد طيبة قلبك يا ولد؟

ـ حاولت مساعدتها كما قلت.

ابتسم السيد جيلمر ابتسامة صفراء مواجهًا المحلفين وقال:

أنت شاب طيب جدًا على ما يبدو... هل فعلت كل ذلك ولم تتلق سنتًا واحدًا في المقابل؟

ـ نعم يا سيدي. لقد شعرت بالشفقة عليها، فقد بدا عليها أنها كانت تحاول بذل جهدها أكثر من بقيتهم.

ـ لقد «شعرت» بالشفقة «عليها»، شعرت «بالشفقة» عليها؟

بدا السيد جيلمر وكأن صدمة زلزلته وأثارت غضبه.

أدرك الشاهد خطأه وتحرك بضيق في كرسيه، ولكن سبق السيف العَذَل، لم يعجب جواب توم روبنسون أحدًا. وتوقف السيد جيلمر فترة طويلة حتى يستقر الإحساس في وجدان الحضور ثم قال:

ـ والآن، ذهبت إلى البيت كالعادة، في الحادي والعشرين من شهر نوفمبر الماضي، وطلبت هي منك أن تدخل لتكسر لها الخزانة؟

ـ لا يا سيدي.

ـ هل تنكر دخولك المنزل؟

ـ لا يا سيدي، قالت إن لديها شيئًا ما أفعله لها داخل المنزل...

ـ إنها تقول إنها طلبت منك أن تكسر لها خزانة، أهذا صحيح؟

ـ لا يا سيدي، ليس صحيحًا.

ـ إذن فأنت تقول إنها تكذب يا ولد؟

نهض أتيكوس ولكن توم روبنسون لم يكن في حاجة إليه.

لم أقل إنها تكذب يا سيد جيلمر، بل أقول إنها على خطأ.

وردًا على الأسئلة العشرة التالية التي ألقاها السيد جيلمر مسترجعًا أقوال مايلا حول الحادثة، كان جواب الشاهد هو أنها على خطأ.

ـ ألم يطردك السيد يوويل من المنزل يا ولد؟

ـ لا يا سيدي، لا أظن أنه فعل ذلك.

ـ ألا تظن ذلك، ماذا تعني؟

ـ أعني أني لم أبق في المنزل مدة كافية حتى يتاح له أن يطردني.

ـ أنت صريح جدًا حول هذا الموضوع. لماذا هربت بهذه السرعة؟

ـ قلت إني كنت خائفًا يا سيدي.

ـ إذا كنت غير مذنب، فلماذا تخاف؟

ـ كما قلت سابقًا، لم يكن وجود زنجي في مثل تلك... الورطة أمرًا سهلًا.

ـ ولكنك لم تكن في ورطة... لقد قلت إنك كنت تقاوم الآنسة يوويل. هل كنت خائفًا من أنها قد تؤذيك، فهربت وأنت ذلك الرجل الضخم؟

ـ لا يا سيدي، كنت خائفًا أن أقدم إلى المحاكمة كما يحدث لي الآن.

ـ خائف من إلقاء القبض عليك، خائف من أن تواجه بما ارتكبته؟

ـ لا يا سيدي، بل كنت خائفًا من أن أواجه بما لم أرتكبه.

ـ هل تتواقح معي يا ولد؟

ـ لا يا سيدي، لم أحاول ذلك.

كان ذلك هو كل ما استطعت سماعه من استجواب السيد جيلمر، لأن جيم جعلني أصطحب ديل إلى الخارج. لسبب ما، بدأ ديل في البكاء ولم يستطع أن يتوقف: بكي بكاءً صامتًا في البداية ثم ارتفع صوت بكائه

حتى سمعه عدة أشخاص جلسوا في الشرفة. قال جيم إني إذا لم أذهب معه فسيجبرني على ذلك، وقال الكاهن سايكس إنه من الأفضل لي أن أذهب، ولذا ذهبت. بدا على ديل أنه في حالة جيدة ذلك اليوم، ولكني أعتقد أنه لم يكن قد شُفي بعد تمامًا من مسألة فراره من منزل أمه.

ـ ماذا بك يا ديل؟

هكذا سألته حين وصلنا إلى أسفل السلم.

حاول ديل أن يتماسك حين هبطنا السلم الجنوبي. كان السيد لينك ديس الشخص الوحيد على درجة السلم العليا. سألني حين مررت بالقرب منه: «ما الأمر يا سكاوت؟» فأجبته وأنا ألتفت نصف التفاتة: «لا شيء يا سيدي. ديل مريض».

ـ احتميا تحت الأشجار، فربما تأثرتما من شدة الحر.

اخترنا أضخم شجرة بلوط مزدهرة وجلسنا تحتها.

قال ديل:

ـ لم أستطع احتماله، هذا كل ما في الأمر.

ـ من.. توم؟

ـ ذلك السيد جيلمر العجوز الذي راح يعامله بتلك الطريقة ويتحدث إليه بذلك الأسلوب الكريه.

ـ يا ديل، هذا عمله. عجبًا، لو لم يكن لدينا وكلاء نيابة... لما أمكن وجود محامي الدفاع، كما أعتقد.

تنفس ديل بصبر:

ـ أعرف كل ذلك يا سكاوت. ولكن الطريقة التي كان يتحدث بها جعلتني أشعر بالغثيان، بالغثيان التام.

ـ من المفترض أن يتصرف كذلك يا ديل، كان..

ـ لم يكن يتصرف بتلك الطريقة حين كان يستجوب...

ـ يا ديل، كان أولئك هم شهوده هو.

ـ حسنًا، السيد فينش لم يتصرف بتلك الطريقة مع مايبلا والعجوز يوويل حين كان يستجوبهما. إن طريقة ذلك الرجل في مخاطبته بكلمة «ولد» طوال الوقت والاستخفاف به وتطلعه نحو المحلفين في كل مرة يجيب فيها...

ـ حسنًا يا ديل، ولكنه مجرد زنجي على أية حال.

ـ لا يهمني ذلك أبدًا. لا حق لهم، لا حق لهم في معاملتهم بتلك الطريقة. لا حق لأحد أن يتكلم بتلك الطريقة... لقد جعلني أشعر بالغثيان.

ـ هذا هو أسلوب السيد جيلمر ولا شيء آخر يا ديل، إنه يتصرف بهذه الطريقة مع الجميع. لم تره بعد وهو يضرب ضربته الأخيرة. حين... حسنًا، بدا السيد جيلمر اليوم وكأنه كان لا يمارس حتى نصف ما يمارسه عادة. إنهم دائمًا يتصرفون هكذا، أعني معظم المحامين.

ـ السيد فينش لا يتصرف بتلك الطريقة.

ـ إنه ليس مثالًا يا ديل، إنه...

كنت أحاول أن أبحث في ذاكرتي عن عبارة حادة من عبارات الآنسة

مودي أتكنسون. وقد وجدتها: «إنه في قاعة المحكمة كما هو في الشارع العام».

قال ديل:

ـ ليس هذا ما أعنيه.

ـ أعرف ما تعنيه يا ولد.

صدر هذا من صوت جاء من الخلف. وظنناه يأتي من جذع الشجرة، ولكنه كان صوت السيد دولفوس رايموند. كان يحدق فينا من وراء جذع الشجرة.

ـ لست ضعيفًا، غير أن هذه القضية أثّرَتْ في نفسك، أليس كذلك؟

الفصل العشرون

تعال هنا يا بني، فلدي شيء يشفي معدتك.

وبما أن السيد دولفوس رايموند كان رجلًا شريرًا فقد قبلت دعوته على مضض، ولكني لحقت بديل. لم أكن أظن أن أتيكوس سيوافق على مصادقتنا للسيد رايموند، وكذلك العمة ألكسندرا.

قال لديل وهو يعرض عليه كيسه الورقي الذي تخرج منه المصاصات الورقية:

ـ ها هو. خذ رشفة قوية، ستهدئك.

رشف ديل من المصاصات، وابتسم ثم أخذ رشفة طويلة.

ضحك السيد رايموند الذي بدا عليه أنه يستمتع بفكرة قيامه بتدليل طفل.

حذّرت ديل قائلة.

ـ احذر يا ديل.

ترك ديل المصاصات وابتسم وقال:

ـ يا سكاوت، لم تكن تلك سوى كوكاكولا.

استند السيد رايموند على جذع شجرة وهو جالس. كان متمددًا على العشب قبل ذلك. قال:

ـ لن تَشِيا بي أيها الصغيران، فهذا سيلطخ سمعتي.

ـ هل تعني أن كل ما تشربه من ذلك الكيس هو الكوكاكولا؟ مجرد كوكاكولا فحسب؟

ـ نعم يا آنستي.

وأومأ السيد رايموند برأسه. أحببت رائحته. كانت مزيجًا من رائحة الجلد والجياد وبذور القطن. كان يرتدي حذاء الركوب الإنجليزي ذا العنق المرتفع؛ الوحيد الذي رأيته في حياتي.

ـ هذا كل ما أشربه، معظم الوقت.

ـ إذن، فأنت تدّعِي أنك نصف...؟ اعذرني يا سيدي... لم أكن أعني...

ضحك السيد رايموند، فهو لم ينزعج على الإطلاق، وحاولت أن أؤلِّف سؤالًا حذرًا:

ـ لِمَ تفعل ما تفعله؟

ـ لِمَ أفعل... أوه حسنا، تعنين لماذا أتظاهر؟ حسنًا، الأمر بسيط جدًا. بعض الناس لا يتظاهرون... كما أفعل أنا. والآن أستطيع أن أقول فليذهبوا إلى الجحيم. لا يهمني سواء أحبوا ذلك أو كرهوه. وأنا أقول إني لا أكترث إذا لم يعجبهم الأمر، هذا حق بما فيه الكفاية... ولكني لا أقول فليذهبوا إلى الجحيم. هل فهمتما ما أعني؟

قلنا أنا وديل:

ـ لا يا سيدي.

أحاول أن أمنحهم سببًا، أترىيان معي الآن؟ إن ذلك يساعد الناس على إيجاد سبب إذا لم يستطيعوا إيجاده. حين أنزل إلى البلدة، وهو أمر نادر، فإني لو تمايلت قليلًا وشربت من هذا الكيس، سيقول الناس دولفوس رايموند واقع تحت سيطرة الخمر... ولذا لن يغير من أساليبه. إنه لا يستطيع مغالبة نفسه، ولذا يعيش حياته بهذه الطريقة.

ـ ليس هذا من الأمانة في شيء يا سيد رايموند، أي أن تجعل نفسك أسوأ مما أنت عليه.

ـ ليس من الأمانة في شيء، ولكنه يساعد الناس كثيرًا. بيني وبينك يا آنسة فينش، لست بذلك السكير، ولكنك ترين أنهم لن يستطيعوا أبدًا أن يفهموا أني أعيش بهذه الطريقة لأن تلك هي الطريقة التي أريدها.

أحسست بأنه لا يجب عليّ أن أوجد هنا وأنا أصغي لهذا الرجل الآثم الذي أنجب أطفالًا مخلَّطين ولا يهتم بمن يعرف ذلك أو لا يعرفه. ولكنه كان رجلًا يثير الدهشة. فلم يسبق لي أن قابلت كائنًا يرتكب عن عمد تزويرًا ضد نفسه. ولكن لماذا باح إلينا بأعمق أسراره؟ سألته عن السبب فقال:

ـ لأنكما طفلان ويمكنكما أن تفهما ذلك، ولأني سمعت أن ذلك الطفل...

وهنا أشار برأسه نحو ديل واستأنف قائلًا:

ـ لم تتأثر غرائز ذلك الطفل بعد بالأمور السائدة هنا. بعد أن يكبر

قليلًا لن يصاب بالغثيان ويبكي. وربما سيصطدم بها على أساس أنها... ليس كذلك بالضبط، ولكنه لن يبكي بعد أن يكبر سنوات أخرى قليلة.

ـ يبكي من أي شيء يا سيد رايموند؟

كانت علامات الذكورة عند ديل قد بدأت تظهر.

يبكي بسبب العذاب الذي يسلطه بعض الناس على البعض الآخر... دون حتى التفكير. يبكي بسبب العذاب الذي يُنْزِلُه البيض بالملونين، دون أن يتوقفوا ليفكروا حتى في أن هؤلاء بشر أيضًا.

همهمت:

ـ يقول أتيكوس إن خداع رجل ملوّن أسوأ بعشر مرات من خداع رجل أبيض. يقول إنّه أسوأ شيء يمكن للمرء أن يفعله.

قال السيد رايموند:

ـ لا أظن... يا آنسة چان لويز، أنت لا تعرفين أن أباكِ ليس إنسانًا عاديًا، غير أن الأمر سيتضح لكِ بمرور الوقت، فخبرتك بالعالم من حولك ما زالت محدودة. إنك لم ترين هذه البلدة على أقل تقدير، ولكن ما عليك إلا العودة إلى قاعة المحكمة.

ذكرني هذا بأنه قد فاتنا الجانب الأكبر من استجواب السيد جيلمر لروبنسون. نظرت إلى الشمس، وكانت تهبط مسرعة وراء أسطح المخازن على الجانب الغربي من الساحة. وبما أني كنت متحيرة بين نارين، فلم أستطع أن أقرر أيهما أريد أن أوليه كل اهتمامي: السيد رايموند أم محكمة الدائرة الخامسة القضائية.

قلت:

ـ تعال يا ديل. هل أنت أحسن حالًا الآن؟

ـ لقد سعدت بلقائك يا سيد رايموند، وشكرًا للشراب. لقد خفف آلام معدتي كثيرًا.

أسرعنا عائدين إلى المحكمة وصعدنا الدرج ثم مجموعتين من السلالم، وشققنا طريقنا نحو حاجز الشرفة. كان الكاهن سايكس قد احتفظ لنا بمقعدينا.

كانت قاعة المحكمة هادئة، وتساءلت من جديد أين كان أولئك الأطفال. تحول سيجار القاضي تايلور الآن إلى بقعة بنية في منتصف فمه.

كان السيد جيلمر يكتب على إحدى رزمتي الأوراق الصفراء الموضوعة على منضدته، محاولًا أن يسبق كاتب المحكمة الذي كانت يده تهتز بسرعة. همهمت: «يا لسوء الحظ، لقد فاتنا الكثير».

كان أتيكوس قد وصل إلى منتصف مرافعته أمام المحلفين. ومن الواضح أنه قد أخرج بعض الأوراق من محفظته التي صارت موضوعة على كرسيه، بعد أن كانت على منضدته. كان توم روبنسون يعبث بهذه الأوراق.

.... عدم توفر أي دليل مؤكد، فهذا الرجل قد اتُّهم بجناية ويحاكم الآن وقد يدفع حياته ثمنًا لذلك...

قَرَصْتُ جيم:

ـ هل بدأ منذ زمن طويل؟

ـ لقد انتهى من إثبات الدليل، ولسوف نفوز يا سكاوت. لا أرى كيف لا يمكننا ذلك. إنه يترافع منذ خمس دقائق. لقد جعل الأمر يبدو بسيطًا وسهلًا... حسنًا، كنت أتمنى أن أشرحه لك، ولكنك لن تفهمي الأمر.

ـ هل السيد جيلمر...

ـ اسكتي. لا جديد، المعتاد فحسب. اسكتي الآن.

نظرنا إلى أسفل من جديد. كان أتيكوس يتحدث بطلاقة، بذلك النوع من التجرد الذي يستعمله حين يُمْلِي رسالة. كان يمشي ببطء ذهابًا وإيابًا أمام المحلفين، وبدا على المحلفين أنهم يصغون باهتمام: كانت رءوسهم مرفوعة وكانوا يتبعون خطى أتيكوس فيما بدا وكأنه تقدير له. وأعتقد أن ذلك يرجع إلى أن أتيكوس كان لا يهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور.

توقف أتيكوس، ثم فعل شيئًا لم يكن من عادته. فك ساعته وسلسلتها ووضعهما على المنضدة قائلًا:

ـ إذا سَمَحَتْ المحكمة...

أومأ القاضي تايلور برأسه، ثم فعل أتيكوس شيئًا لم أره يفعله قبل ذلك ولا بعده، في السر أو في العلانية: فكّ أزرار الصديري، ثم أزرار ياقته، وأرخى ربطة عنقه قليلًا ثم خلع معطفه. لم يكن من عادته أن يفعل أيًا من هذه الأشياء إلا بعد أن يدخل غرفته في وقت النوم، وبالنسبة لي ولجيم، فقد بدا لنا هذا مساويًا لوقوفه أمامنا وهو عارٍ تمامًا. تبادلنا نظرات مروِّعة.

وضع أتيكوس يديه في جيبيه، ثم استدار نحو المحلفين، رأيت زر ياقته الذهبي ورأسي قلميه الحبر والرصاص وهما يلمعان تحت النور.

قال:

ـ أيها السادة.

تبادلنا أنا وجيم النظرات: كان أتيكوس يقولها على نحو عادي وبالطريقة التي يخاطبني أنا بها حتى كأنّ صوته قد فقد حدته وتجرده، وكان يتحدث إلى المحلفين وكأنهم أشخاص واقفون عند مكتب البريد.

كان يقول:

ـ «أيها السادة، لن أطيل عليكم، ولكني أريد أن أستعمل ما تبقى لي من وقت لديكم لأذكّركم بأن هذه الدعوى ليست بالدعوى الصعبة، ولا تحتاج إلى تمحيص وقائع معقدة، ولكنها تتطلب منكم أن تكونوا واثقين دون أي شك يقبله العقل بأن المتهم مذنب. أولًا: هذه الدعوى ما كان يجب أن تطرح أساسًا على المحكمة. هذه القضية بسيطة وواضحة وضوح الفرق بين الأبيض والأسود».

«لم تقدم النيابة ولو ذرة واحدة من الأدلة الطبية تثبت أن الجريمة المتهم بها توم روبنسون قد حدثت بالفعل، بل اعتمدت النيابة بدلًا من ذلك على شهادة اثنين لم تكن الأدلة التي ساقاها موضع الارتياب فحسب خلال الاستجواب، بل إن المتهم قد نقضها كليةً. المتهم ليس مذنبا، ولكن المتهم شخص موجود في هذه القاعة».

«لا أحمل بداخلي سوى مشاعر الشفقة تجاه شاهد الادعاء الأول،

ولكن شفقتي لن تمتد إلى درجة أن أسمح لها بتهديد حياة إنسان، فقد فعلت ما فعلت لتبعد عن نفسها الشعور بالذنب.

«وأقول ذلك أيها السادة، لأنه هو الذي دفعها إلى أن تفعل ما فعلته. إنها لم ترتكب جريمة، بل كان ما فعلته مجرد كسر لمجموعة أعراف صارمة من أعراف مجتمعنا، أعراف متزمتة إلى حدّ أن أي شخص يكسرها سيُنبذ من قِبَلِنَا كأنما لا يليق به أن يعيش بيننا. إنها ضحية الفقر القاسي والجهل، ولكني لا أستطيع أن أتعاطف معها، فهي بيضاء. كانت تعرف تمامًا بشاعة فعلتها، ولكنها صممت على كسر تلك الأعراف لأن رغباتها كانت أقوى منها. وقد ثابرت على ذلك، وكان رد فعلها التالي شيئًا عرفناه كلنا في وقت من الأوقات. لقد فَعَلَتْ شيئًا مارسه كل طفل: حاولت أن تبعد دليل جُرْمِها عن نفسها. ولكنها في هذه الحالة لم تكن طفلًا يخبئ الشيء المحرم الذي سرقه: بل صوبت ضربتها نحو ضحيتها ـ يجب بالضرورة أن تبعده عن نفسها ـ يجب أن يُزالَ من أمام ناظريها ومن هذا العالم. يجب أن تدمر دليل جُرْمها».

«وما هو دليل جُرْمِها؟ إنه توم روبنسون، الكائن البشري. عليها أن تبعد توم روبنسون عنها. فتوم روبنسون هو الشيء الذي يذكّرها يوميًا بما ارتكبته. وما هو الإثم الذي ارتكبته؟ لقد حاولت إغواء رجل زنجي».

«إنها بيضاء، وقد حاولت إغواء زنجي. لقد حاولت فعل شيء يعتبر في عرف مجتمعنا أمرًا محظورًا: لقد قبّلت رجلًا أسود. ليس عمًّا عجوزًا، بل شابًا زنجيًا قويًا. لم تكن تهتم بالعرف قبل أن تخرقه، ولكنها أحست بوطأته فيما بعد».

«لقد شاهد والدها ما حدث، وقد أفاد الشاهد بذلك. ما الذي

فعله والدها؟ لا نعرف، ولكن هناك دليلًا ماديًا يشير إلى أن مايلا يوويل تعرضت لضربٍ وحشي من قِبَل شخص استعمل يده اليسرى على وجه التحديد. نحن نعرف ما فعله السيد يوويل إلى حد ما: لقد فعل ما كان سيفعله أي رجل أبيض محترم دءوب يخاف الله في مثل تلك الظروف... لقد أقسم على تقديم دليل، ووقّعه دون شك بيسراه، والآن يجلس أمامكم توم روبنسون وقد أقسم بيده السليمة الوحيدة التي يملكها: يده اليمنى».

«وهكذا، فإن زنجيًا هادئ الطباع، محترمًا ومتواضعًا حدث أن تهوَّر تهورًا كاملًا فأحس «بالشفقة» على امرأة بيضاء، وها هو يضطر الآن إلى أن يضع شهادته مقابل شهادة شخصين أبيضين. لا أحتاج إلى تذكيركم بمظهرهما وسلوكهما على منصة الشهادة... فأنتم قد شاهدتموهما بأنفسكم. إن شاهديّ النيابة، وأستثني هنا مأمور مقاطعة مايكوم، قد قدما نفسيهما إليكم أيها السادة، وإلى هذه المحكمة، وهما واثقان من أنه لن يجري التشكيك بشهادتيهما، وواثقان من أنكم أيها السادة ستوافقون على ما يقولانه استنادًا إلى افتراض آثم يذهب إلى أن «كل» الزنوج يكذبون، وأن «كل» الزنوج أشخاص لا أخلاق لهم من الأساس، وأن «كل» الذكور الزنوج لا يمكن الوثوق بهم فيما يخص نساءنا، وهو افتراض يستدعي إلى الذهن ما تتسم به قدراتهم العقلية».

«وهذه أيها السادة كذبة سوداء في حد ذاتها بقدر سواد بشرة توم روبنسون، كذبة لست مضطرًا إلى أن ألفت انتباهكم إليها. فأنتم تعرفون الحقيقة، والحقيقة هي: بعض الزنوج يكذبون، وبعض الزنوج لا أخلاق لهم، وبعض الذكور الزنوج لا يمكن الوثوق بهم فيما يخص النساء... سواء سوداوات أو بيضاوات. ولكن هذه حقيقة تنطبق على الجنس

البشري بأكمله وليس على عنصر بعينه. ليس في هذه المحكمة شخص لم يتفوّه بكذبة في حياته، أو لم يرتكب عملًا لا أخلاقيًا، ولا يوجد رجل حيّ لم ينظر في حياته إلى امرأة ما دون شهوة».

توقف أتيكوس وأخرج منديله. ثم خلع نظارته ومسحها، ورأينا فيه شيئًا آخر للمرة الأولى: فنحن لم يسبق لنا أن رأيناه وقد كساه العرق... كان واحدًا من أولئك الرجال الذين لا تتعرق وجوههم، ولكن وجهه كان لامعًا الآن.

«إضافة أخرى أيها السادة قبل أن أُنهي مرافعتي. قال «توماس جفرسون»[(١)] (Thomas Jefferson) مرة إن كل الناس قد خلقوا متساوين، وهي عبارة يُغْرَمُ اليانكي والجانب النسوي[(٢)] من السلطة التنفيذية في واشنطن برمينا بها. هناك ميل في هذا العام (١٩٣٥) لدى بعض الناس لاستعمال هذه الجملة خارج سياق معناها حتى تنطبق على كل الحالات، والمِثال الأكثر هزلية الذي أستطيع التفكير فيه هو أن المسئولين عن التربية يُسوون بين التلاميذ الأغبياء والكسالى وزملائهم المجتهدين. وذلك لأن كل الناس قد خُلِقوا متساوين ـ هكذا سيقول لك المربّون

---

(١) توماس جفرسون (Thomas Jefferson) (١٧٤٣ ـ ١٨٢٦) هو الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية من ١٨٠١ إلى ١٨٠٩. ينسب إليه معظم ما جاء بنص «إعلان الاستقلال» (١٧٧٦) الذي جاءت فيه عبارة «إن كل الناس قد خلقوا سواسية» (المترجمة).

(٢) الجانب النسوى إشارة إلى الدور الذي لعبته إليانور روزفلت حرم الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت، والتي عرفت بمواقفها المناهضة للتمييز العنصري، وقد تعرضت لنقد شديد من أهل الجنوب الأمريكي من جراء إفصاحها عن تلك الآراء (المترجمة).

ـ فالأطفال الذين يرسبون في صفوفهم يعانون من مشاعر نقص رهيبة. نحن نعرف أن الناس لم يُخلقوا كلهم متساوين بالمعنى الذي يريد بعض الناس أن يقنعونا به: فبعض الناس أكثر ذكاء من غيرهم، والبعض لديهم فرصة أكبر لأنهم وُلِدوا والفرصة متاحة لهم، والبعض الآخر يَجْمعون من المال أكثر من الآخرين، وبعض السيدات يُجِدْنَ صنع الحلوى أكثر من غيرهن... بعض الناس ولدوا وهم يتمتعون بموهبة تفوق المستوى العادي للغالبية».

«ولكن هناك طريقة واحدة في هذا البلد ـ يخلق فيها الناس جميعًا متساوين ـ هناك مؤسسة إنسانية واحدة تجعل الفقير يتساوى مع فرد من عائلة «روكفلر» [1] (Rockefeller)، والأحمق يتساوى مع شخص مثل أينشتين[2] (Einstein)، والجاهل يتساوى مع عميد كلية هذه المؤسسة، أيها السادة، هي المحكمة».

«ويمكن أن تكون تلك هي «المحكمة العليا للولايات المتحدة» أو أكثر المحاكم تواضعًا في البلد كلها، أو هذه المحكمة الموقّرة التي تعملون في خدمتها. إن لمحاكمنا أخطاءها، كما لأية مؤسسة إنسانية، ولكن في هذا البلد محاكمنا هي المساوي الأكبر بين البشر، وفي محاكمنا كل الناس خُلِقوا متساوين».

«لست بالمثالي حتى أؤمن بحزم بنزاهة المحاكم وبنظام المحلفين،

---

(١) عائلة روكفلر (Rockefeller) من أشهر العائلات الأمريكية ثراءً (المترجمة).

(٢) ألبرت أينشتين (Albert Einstein) (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) عالم فيزياء ألماني الأصل حاصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٢١ وهو صاحب نظرية «النسبية» (المترجمة).

فهذه ليست مثالية بالنسبة لي، بل هي واقع حي فعال. أيها السادة، ليست المحكمة سوى كل شخص منكم يجلس أمامي هنا على منصة المحلفين. والمحكمة تكون قويمة بقدر ما يكون محلفوها كذلك، وتكون هيئة المحلفين قويمة بقدر ما يتصف هؤلاء الأشخاص بهذه السِّمة. أنا واثق من أنكم أيها السادة ستراجعون دون انفعال الشهادات التي استمعتم إليها، وتصلون إلى قرار، وتعيدون هذا المتهم إلى عائلته. أناشدكم بالله أن تقوموا بواجبكم».

انخفض صوت أتيكوس، وحين استدار مبتعدًا عن المحلفين قال شيئًا ما لم أسمعه. قال ذلك لنفسه أكثر مما قاله للمحكمة. قَرَصْتُ جيم:

ـ ماذا قال؟

ـ «أناشدكم باسم الله أن تصدقوه». أعتقد أنه قال ذلك.

انحنى ديل من فوقي وجيم:

ـ انظرا هناك.

تابعنا إصبعه بقلوبٍ واجفة. كانت كالبورنيا تتقدم نحو منتصف الممشى بين صفي المقاعد وتتجه مباشرة نحو أتيكوس.

الفصل الحادي والعشرون

توقّفَت في خجل عند الحاجز وانتظرتُ حتى ينتبه القاضي تايلور إليها. كانت ترتدي مريلة نظيفة وتحمل ظرفًا في يدها.

رآها القاضي تايلور وقال:

ـ أنت كالبورنيا، أليس كذلك؟

قالت:

ـ بلى يا سيدي. هل يمكنني أن أسلم هذه الرسالة للسيد فينش يا سيدي؟ لا علاقة لهذه بالـ... بالمحاكمة.

أومأ القاضي برأسه وأخذ أتيكوس الظرف من كالبورنيا. فتحه وقرأ محتوياته وقال:

ـ سيدي القاضي، هذه رسالة من أختي. وهي تقول إن طفليّ مفقودان، فهما لم يعودا إلى البيت منذ وقت الظهر... إني... هل يمكنك...

ـ أعرف أين هما يا أتيكوس.

هكذا ارتفع صوت السيد أندروود، ثم استأنف:

ـ إنهما هناك في الشرفة الخاصة بالملونين... وهما هناك منذ الساعة الواحدة وثماني عشرة دقيقة ظهرًا بالتحديد.

التفت أبونا ونظر إلى الأعلى وصاح:

ـ جيم، انزل من هناك.

ثم قال للقاضي شيئًا لم نسمعه. نزلنا متجاوزين الكاهن سايكس وشققنا طريقنا نحو السلم.

كان أتيكوس وكالبورنيا في انتظارنا في الطابق السفلي. بدت كالبورنيا في حالة من الغيظ، أما أتيكوس فبدا مُتعبًا.

كان جيم يقفز في حالة استثارة:

ـ لقد كسبنا. أليس كذلك؟

قال أتيكوس بإيجاز:

ـ لا أعرف. هل كنتما هنا فترة بعد الظهر كلها؟ اذهبا مع كالبورنيا إلى البيت وتناولا عشاءكما... وابقيا في المنزل.

توسل جيم:

ـ يا أتيكوس... اسمح لنا بالبقاء. أرجوك اسمح لنا بسماع الحكم. أرجوك يا سيدي..

ـ قد يخرج المحلفون ويعودون خلال دقيقة، لا نعرف...

ولكننا لاحظنا أن أتيكوس كان يلين أمام فكرة السماح لنا بالبقاء.

ـ حسنًا، لقد شهدتما المحاكمة كلها، فلا بأس من أن تشهدا ما تبقى.

أأقول لكما؟ يمكنكما العودة بعد أن تتناولا طعام العشاء... كلوا ببطء فلن يفوتكما شيء ذو أهمية وإذا كان المحلفون ما زالوا خارج القاعة، فبإمكانكما الانتظار معنا. ولكني أتوقع أن تنتهي الأمور قبل عودتكما.

سأل جيم:

ـ هل تعتقد أنهم سيبرئونه بهذه السرعة؟

فتح أتيكوس فمه ليجيب، ولكنه أغلقه وتركنا.

تمنيت أن يحفظ لنا الكاهن سايكس مقاعدنا، ولكني صرفت النظر عن ذلك حين تذكرت أن الناس نهضوا وبدءوا يغادرون في جماعات حين خرج المحلفون من القاعة... وكنت أعرف أنهم سيرتادون في هذه الليلة محل بائع العصير و«السندوتشات»، ومقهى «الأوكي» والفندق، هذا إذا لم يكونوا قد أحضروا معهم وجبات عشائهم أيضًا.

سارت بنا كالبورنيا إلى المنزل قائلة:

ـ سأسلخ جلد كل منكم وهو حي، لا أستطيع أن أتصور مجرد تصور فكرة إصغائكم أيها الأطفال لكل ذلك. يا سيد جيم، ألا تعرف أنه ليس من المفترض أن تأخذ أختك الصغيرة إلى تلك المحاكمة؟ ستصاب السيدة ألكسندرا بالشلل حتمًا حين تعرف. ليس لائقًا بالأطفال أن يسمعوا...

كانت أنوار الشارع مضاءة، وحين مررنا من تحتها لمحنا جانب وجه كالبورنيا المتأزم.

ـ يا سيد جيم، كنت أظن أنَّ لك رأسًا تنمو على كتفيك، لا أستطيع أن أتصور مجرد تصور! إنها أختك الصغيرة. لا أستطيع أن أتصور ذلك يا سيدي. لا بد أنك خجلان من نفسك تمامًا... ألا تَعقِل الأمور أبدًا؟

كنت منتشية تمامًا، فقد حدثت أمور كثيرة حتى الآن وبسرعة كبيرة شَعُرْتُ معها أنني سأقضي سنوات عديدة قبل أن أستطيع تفسيرها، وها هي كالبورنيا الآن تتخلى عن جيم الغالي على قلبها. ترى ما الذي سيجلبه المساء من مفاجآت أخرى؟

كان جيم يضحك:

ـ ألا تريدين أن تسمعي ما حدث يا كال؟

ـ اسكت يا سيدي. أنت تضحك بينما عليك أن تطأطئ رأسك خجلًا.

أعادت كالبورنيا عليه سلسلة من التهديدات التي علاها الصدأ والتي لم تزعج جيم إطلاقًا، ثم صعدت السلم الأمامي وهي تَصِيح بجملتها المشهودة: «إذا لم يؤدبك السيد فينش فأنا سأفعل ذلك... ادخل إلى المنزل يا سيدي».

دخل جيم مبتسمًا، وأومأت كالبورنيا برأسها موافقةً على مشاركة ديل لنا طعام العشاء: «هيا اتصل بالآنسة راتشيل على الفور فهي تبحث عنك كالمجنونة في كل مكان. واحذر أن ترسلك في المركب إلى ميريديان في الصباح الباكر».

جاءت العمة ألكسندرا للقائنا، وكاد أن يُغْمى عليها حين أخبرتها كالبورنيا عن المكان الذي كنّا فيه. وأعتقد أن مشاعرها قد جُرحت حين قلنا لها إن أتيكوس قال إن بإمكاننا العودة، لأنها لم تنطق بكلمة واحدة أثناء العشاء. كانت تعيد ترتيب الطعام في طبقها، وتنظر إليه في حزن بينما قامت كالبورنيا على خدمتنا، أنا وجيم وديل، وقد تملكتها

نزعة انتقام. صبت كالبورنيا الحليب، ووضعت سلطة البطاطس ولحم الخنزير وهي تهمهم: «يجب أن تخجلوا من أنفسكم» وأخذت تكررها بدرجات مختلفة الحدّة. وكان آخر أوامرها: «فلتأكلوا كلكم ببطء».

كان الكاهن سايكس قد احتفظ لنا بمقاعدنا. وقد دهش عندما وجد أننا تغيبنا نحو ساعة تقريبًا، وكنا مندهشين أيضًا عندما وجدنا قاعة المحكمة كما تركناها فيما عدا بعض التغييرات الطفيفة: كانت منصة المحلفين خالية، والمتهم قد رحل، وكذلك القاضي تايلور، ولكنه ظهر مرة أخرى عندما كنا نتخذ مقاعدنا.

قال جيم:

ـ لم يغادر أحد مكانه تقريبًا.

قال الكاهن سايكس:

ـ لقد ماجت القاعة بالحركة بعض الشيء حين خرج المحلفون. لقد أحضر الرجال في القاعة السفلى العشاء للنساء، وقد أطعمن أطفالهن.

سأل جيم:

ـ منذ متى غادر المحلفون القاعة؟

ـ منذ ثلاثين دقيقة تقريبًا. السيد فينش والسيد جيلمر ترافعا مرة أخرى، أما القاضي تايلور فقد أصدر تعليماته للمحلفين.

ـ وكيف بدا؟

ـ ماذا أقول؟ حسنًا، لقد أحسن عمله. لا اعتراض عليه على الإطلاق لقد كان عادلًا تمامًا. لقد قال لهم: إذا صدقتم هذا، سيكون لديكم حكم

واحد تصدرونه، وإذا صدقتم ذاك فسوف تصدرون حكمًا آخر. أعتقد أنه كان يميل إلى جانبنا قليلًا.

ثم حَكَّ الكاهن سايكس رأسه.

ابتسم جيم وقال بحكمة:

ـ ليس من الواجب أن يميل إلى أحد يا سيدي الكاهن، ولكن لا تضايق نفسك، فقد كسبنا الدعوى. لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن لأي هيئة محلفين أن تُدِين المتهم بناءً على ما سمعناه.

ـ لا تكن واثقًا إلى هذا الحد يا سيد جيم، فأنا لم أر في حياتي هيئة محلفين تُصْدر قرارًا لصالح رجلٍ ملون ضد رجل أبيض.

لكن جيم أبدى اعتراضه على ما قاله الكاهن وجعل يحدثنا حديثًا مطولًا راجع من خلاله الأدلة، ودعمها بأفكاره حول القوانين ذات الصلة بجريمة الاغتصاب: لا يكون الأمر اغتصابًا إذا سمحت المرأة للرجل بذلك، ولكن يجب أن تكون في الثامنة عشرة من عمرها ـ هذا في ولاية ألاباما ـ وماييلا كانت في التاسعة عشرة. طبعًا عليها أن ترفس وتصرخ، وعليها أن تُغْلَب وتُداس بالأقدام، والأفضل أن تُضرب حتى يغمى عليها. إذا كانت أقل من الثامنة عشرة، لا يكون كل هذا ضروريًا حتى يُتهم الرجل بالاغتصاب.

اعترض الكاهن سايكس قائلًا:

ـ يا سيد جيم، ليس من اللائق أن تسمع السيدات الصغيرات مثل هذا الكلام.

ـ إنها لا تعرف عمَّ نتحدث. يا سكاوت أنتِ أصغر من أن تفهمي هذه الأمور. أليس كذلك؟

ـ ليس الأمر كذلك، فأنا أفهم كل كلمة تقولها.

ربما كانت لهجتي مقنعة أكثر من اللازم، لأن جيم سكت ولم يناقش الموضوع مرة أخرى.

سأل جيم:

ـ كم الساعة يا سيدي الكاهن؟

ـ إنها تقترب من الثامنة.

نظرت إلى أسفل القاعة فشاهدت أتيكوس يتمشّى في المكان ويداه في جيبيه: مشى قرب النوافذ ثم سار محاذيًا للحاجز وحتى منصة المحلفين. نظر داخلها، ثم تفحص القاضي تايلور المتربّع على عرشه، ثم عاد من حيث بدأ. حاولت أن ألفت نظره، وحين نجحت في ذلك لوّحت له. وقد ردّ على تحيتي بإيماءة بالرأس ثم استأنف جولته.

كان السيد جيلمر واقفًا عند النوافذ يتحدث إلى السيد أندروود. بينما كان «بيرت»، كاتب المحكمة، يدخن سيجارة تلو الأخرى دون أن يطفئ أيًا منها: كان يجلس وقدماه فوق المنضدة.

أما موظفو المحكمة، أولئك الحاضرون منهم: أتيكوس والسيد جيلمر والقاضي تايلور الغارق في النوم، و«بيرت»، فقد كانوا الوحيدين الذين بدا أنهم يتصرفون على طبيعتهم. لم يسبق لي أن رأيت قاعة محكمة مكتظة بالبشر وساكنة إلى هذا الحد. أحيانًا كنت تسمع طفلًا يبكي أو آخر يخرج عدوًا، لكن الكبار كانوا يجلسون أو يقفون كأنهم في كنيسة. أما في الشرفة فكان الزنوج يجلسون أو يقفون من حولنا يستمدون صبرهم من إيمانهم.

عانت ساعة المحكمة القديمة من التوتر التمهيدي ثم دقت مُعْلِنة تمام الساعة، ثماني دقات تَصُمُّ الآذان وتَهزُّ العظام.

وحين دقت إحدى عشرة مرة كُنتُ قد فَقدتُ كل شعور. فبعد مغالبتي للنوم، سمحت لنفسي بأن أغفو غفوة قصيرة على ذراع الكاهن سايكس وكتفه المريح. ثم استيقظت وبذلت جهدي في محاولةٍ لأن أبقى كذلك، وذلك بالنظر إلى أسفل والتركيز على الرءوس التي تحتنا: كان هناك ستة عشر رأسًا صلعاء وأربعة عشر رجلًا يمكن أن نعدهم من أصحاب الشعر الأحمر، وأربعون رأسًا ألوانها ما بين البني والأسود، وتذكرت شيئًا كان جيم قد شرحه لي مرة حين صب اهتمامه، لفترة قصيرة، على البحث الفيزيائي: قال إن مجموعة كبيرة من الناس ـ مثلًا استاد رياضي يغص بالناس ـ لو ركزت كلها على شيء واحد، كأن تشعل نارًا في شجرة في غابة، فالشجرة ستشتعل من تلقاء نفسها، ولهوت بفكرة أن يُطلب من كل شخص في القاعة أن يركز على إطلاق سراح توم روبنسون، ولكني فكرت في أنهم إذا كانوا منهكين بقدر ما أنا منهكة، فلن تنجح الحيلة.

كان ديل غارقًا تمامًا في النوم ورأسه على كتف جيم، أما جيم فكان صامتًا.

سألته:

ـ ألم يطيلوا مداولتهم؟

قال بسعادة:

ـ طبعًا يا سكاوت.

ـ ولكن ما فهمته منك جعلني أتصور أن المداولة ستستغرق خمس دقائق فحسب.

رفع جيم حاجبيه وقال:

ـ هناك أمور لا تفهمينها.

وكنت متعبة إلى حد أني لم أجادله.

ولكن لا بد أني كنت مستيقظة إلى حد معقول، وإلا لما كنت قد أحسست بذلك الانطباع الذي كان يتسلل إلى داخلي. ولم يكن يختلف كثيرًا عن ذلك الشعور الذي انتابني في الشتاء الماضي، وقد ارتجفت، رغم أن الليلة كانت حارة. وقد نما ذلك الشعور حتى أصبح الجو في قاعة المحكمة أشبه بصباح يوم بارد من أيام فبراير، حين سكتت الطيور المحاكية وتوقف النجارون عن الطرق في منزل الآنسة مودي الجديد، وحين أُغلق كل باب خشبي في الحي بذلك الإحكام الذي تُغْلق به أبواب منزل عائلة رادلي. شارع خالٍ مهجور في حالة من الانتظار، وقاعة محكمة مكتظة بالناس. لم تعد الليلة الصيفية الحارة تختلف عن صباح يوم شتوي بارد. أما السيد هك تيت، الذي دلف إلى قاعة المحكمة وجعل يتحدث إلى أتيكوس، فقد كان مرتديًا على الأرجح حذاءه ذا الرقبة العالية وجاكتته ذات المربعات. كان أتيكوس قد أوقف رحلته الهادئة ووضع قدمه على الدعامة السفلى لأحد الكراسي. وبينما كان يصغي إلى ما يقوله السيد تيت، كان يمرر يده ببطء على فخذه صعودًا ونزولًا، وتوقعت من السيد تيت أن يقول في أية لحظة: «إليك يا سيد فينش...».

ولكن السيد تيت قال: «المحكمة ستنعقد من جديد» وقد قالها بصوت فيه سلطة، وارتفعت الرءوس التي تحتنا فجأة. غادر السيد تيت القاعة ثم عاد بتوم روبنسون. أوصل توم إلى مكانه بالقرب من أتيكوس

ووقف هناك. تنبه القاضي تايلور فجأة وجلس معتدًا وهو ينظر إلى منصة المحلفين.

ولكن ما حدث بعد ذلك كانت له صفة أشبه بالحلم: ففي الحلم رأيت المحلفين يعودون، وهم يتحركون كمن يسبح تحت الماء، وجاء صوت القاضي تايلور من بعيد، وكان صوتًا هامسًا. ورأيت شيئًا ما ليس من المتوقع أن يراه أو يتوقعه إلا ابنة محامٍ، وكان ذلك أشبه بمراقبة أتيكوس وهو يمشي في الشارع، ويرفع بندقيةً إلى كتفه ثم يجذب الزناد، ولكني كنت أراقب طوال الوقت مدركة أن البندقية كانت فارغة.

ليس من عادة هيئة المحلفين إن أدانت متهمًا أن تنظر في اتجاهه، وحين دخلت تلك الهيئة، لم ينظر أي منهم نحو توم روبنسون. سلم رئيسها قطعة من الورق إلى السيد تيت الذي سلمها بدوره إلى القاضي.

أغلقت عيني. كان القاضي تايلور يعلن آراء المحلفين الذين أدلى كل منهم بصوته: «مذنب... مذنب... مذنب... مذنب....»اختلست النظر إلى جيم: كانت يداه بيضاوين من شدة قبضه على حاجز الشرفة، وكانت كتفاه تنتفضان وكأن كلمة مذنب في كل مرة بمثابة طعنة تلو أخرى تُسدد إلى ما بين كتفيه.

كان القاضي تايلور يقول شيئًا ما. كانت مطرقته في يده، ولكنه لم يكن يستعملها. شاهدت بغير وضوح أتيكوس وهو يدفع بأوراقه من منضدته إلى داخل حقيبة يده. أغلقها، توجه نجو كاتب المحكمة وقال له شيئًا ما، ثم أومأ برأسه للسيد جيلمر، ثم توجه نحو توم روبنسون وهمس له بشيء ما. كان أتيكوس يضع يده على كتف توم حين همس له. رفع أتيكوس جاكتته من ظهر الكرسي ووضعها على كتفيه. ثم غادر القاعة

ولكن ليس من المخرج المعتاد. ربما كان يريد الذهاب إلى البيت من أقصر طريق، لأنه كان يمشي بسرعة عبر الممشى الأوسط متجهًا نحو المخرج الجنوبي. لاحقت بنظري أعلى رأسه وهو يشق طريقه نحو الباب. لم ينظر إلى الأعلى.

كان أحدهم يقرصني، ولكني كنت غير راغبة في أن أبعد عينيّ عن الناس في القاعة السفلى أو عن صورة أتيكوس وهو يمشي وحيدًا عبر الممشى.

ـ يا آنسة چان لويز؟

نظرت فيما حولي. كانوا قد شرعوا بالوقوف. كل من حولنا ومن في الشرفة على الناحية الأخرى من الزنوج كانوا يَهُمُّون بالقيام، كان صوت الكاهن سايكس بعيدًا بُعد صوت القاضي تايلور.

ـ يا آنسة چان لويز، هيا؛ قفي احترامًا، فوالدك يمر بنا مغادرًا المحكمة.

الفصل الثاني والعشرون

جاء دور جيم في البكاء الآن. فقد خطَّت دموع الغضب مسارها على وجنتيه ونحن نشق طريقنا وسط الجمع السعيد. كان يهمهم قائلًا: «ليس عدلًا» طوال طريقنا تجاه ركن الميدان حيث وجدنا أتيكوس في انتظارنا. كان أتيكوس واقفًا بجوار عمود النور وقد بدا عليه وكأن شيئًا لم يكن: كانت أزرار الصديري مقفلة، وياقته وربطة عنقه في مكانهما الصحيح، وسلسلة ساعته تلتمع. لقد عاد من جديد إلى هدوئه المعتاد.

قال جيم:

ـ ليس عدلًا.

ـ أجل يا بني، ليس عدلًا.

ثم سرنا نحو البيت.

كانت العمة ألكسندرا مازالت مستيقظة تنتظر، مرتدية روب النوم، وأكاد أقسم أنها كانت ترتدي المشد من تحته. همهمت: «آسفة يا أخي». وبما أني لم يسبق أن سمعتها تنادي أتيكوس بـ «أخي» من قبل، فقد اختلست نظرة إلى جيم، ولكنه لم يكن يصغي. كان ينظر إلى أتيكوس ثم

إلى الأرض وتساءلت، أتراه كان يعتقد أن أتيكوس مسئولًا نوعًا ما عن إدانة توم روبنسون.

سألت عمتي مشيرة إلى جيم:

ـ هل هو بخير؟

قال أتيكوس:

ـ سيكون بخير الآن. كانت التجربة أقوى قليلًا مما يستطيع احتماله.

تنهد أبونًا ثم استأنف قائلًا:

ـ أنا ذاهب لأنام، وإذا لم أستيقظ في الصباح فلا توقظوني.

لم أكن أعتقد أنه من الحكمة أولًا وقبل كل شيء أن أدعهما...

قال أتيكوس:

ـ إنها بلدتهما يا أختي. لقد جعلناها لهما على هذه الصورة ويجدر بهما أن يتعلّما كيف يتغلبان على الصعاب.

ـ ولكن ليس عليهما الذهاب إلى المحكمة والاستغراق في وقائعها.

ـ إنها جزء من حياة مايكوم مثلها مثل حفلات الشاي لجمعية التبشير.

قالت العمة ألكسندرا وقد بدا القلق في عينيها:

ـ يا أتيكوس، أنت آخر شخص كنت أفكر في أنه قد يمتعض من ذلك.

ـ لست ممتعضًا بل أنا مرهق فحسب. سأذهب إلى الفراش.

قال جيم وقد علته الكآبة:

ـ أتيكوس.

التفت أتيكوس في الممشى وقال:

ـ ماذا يا بني؟

ـ كيف لهم أن يفعلوا ما فعلوه؟ كيف؟

ـ لا أعرف، ولكنهم فعلوه. لقد فعلوا ذلك من قبل وفعلوه الليلة وسيفعلونه من جديد وحين يفعلونه... يبدو أن الأطفال وحدهم هم الذين يبكون. فلتصبح على خير.

تبدو الأشياء دائما أفضل في الصباح. نهض أتيكوس في موعده المعتاد وكان في غرفة المعيشة عندما دخلناها، جالسًا يمسك بصحيفة «موبيل ريجيستر». كان وجه جيم في الصباح ينم عن السؤال الذي كانت شفتاه الساكنتان تحاولان جاهدتين نطقه.

قال له أتيكوس ونحن ندخل حجرة الطعام ليبعث الطمأنينة في نفسه: «لم يحن أوان القلق بعد، فالأمر لم ينته عند هذا الحد. سيكون هناك استئناف للحكم، يمكنك الاعتماد على ذلك. يا إلهي يا كال، ما هذا كله؟» وكان يحدق في طبق إفطاره.

قالت كالبورنيا:

ـ لقد أرسل لك والد توم روبنسون هذه الدجاجة هذا الصباح، وقد طهوتها لك.

ـ قولي له إني فخور بذلك... وإني على ثقة بأنهم لا يتناولون في «البيت الأبيض» دجاجًا على الفطور. وما هذه؟

قالت كالبورنيا:

ـ إنها أقراص خبز أرسلتها إستيلا (Estelle) من الفندق.

نظر إليها أتيكوس بحيرة فقالت:

ـ الأفضل أن تدخل المطبخ وتنظر ما بداخله يا سيد فينش.

لحقنا به. كانت مائدة مليئة بطعام يكفي لإيراد أفراد العائلة جميعهم موارد التهلكة: قطع ضخمة من الخنزير المملح، طماطم، فاصولياء، ... وحتى العنب. ابتسم أتيكوس ابتسامة عريضة حين وجد برطمانًا من «كوارع الخنزير» المُخللّة.

سألت:

ـ أتعتقد أن عمتي ستسمح لي بأكل هذه في حجرة الطعام؟

قالت كالبورنيا:

ـ كان هذا كله موجودًا على السلم الخلفي حين وصلت هذا الصباح. إنهم... إنهم يقدرون ما فعلته يا سيد فينش. إنهم... إنهم يحاولون أن يقدموا ما يفوق إمكانياتهم، أليس كذلك؟

دَمَعَت عينا أتيكوس. سكت لبُرْهَة ثم قال:

ـ قولي لهم إنني ممتن جدًا، قولي لهم... قولي لهم إن عليهم ألا يفعلوا ذلك مرة أخرى. فهذه أوقات عصيبة.

غادر المطبخ وذهب إلى حجرة الطعام وانسحب معتذرًا للعمة ألكسندرا، ثم ارتدى قبعته وانطلق نحو البلدة.

سمعنا خطوات ديل في القاعة، ولذا تركت كالبورنيا فطور أتيكوس الذي لم يلمسه على المائدة. وبين القضمات المتتالية الأقرب شبهًا بقضمات الأرانب أخبرنا ديل عن ردّ فعل الآنسة راتشيل تجاه أحداث الليلة الماضية، ونقل عنها قولها: إذا أراد رجل كأتيكوس فينش أن ينطح في الصخر، فذاك رأسه وله كامل الحرية في التصرف فيه.

قال ديل وهو يُعمل أسنانه في فخذ دجاجة:

ـ كنت أود أن أقول لها ولكنها لم تبد وكأنها ستستمع إليّ هذا الصباح. قالت إنها استيقظت في منتصف الليل وتساءلت أين تُرَى أكون في مثل تلك الساعة من الليل، وقالت إنها أرادت أن تبلغ المأمور للبحث عني ولكنه كان في المحكمة.

قال جيم:

ـ يا ديل، عليك ألا تغادر المنزل بعد الآن دون أن تبلغها بذلك، إنك تزيد من غضبها عليك إن لم تفعل.

تنهد ديل مبديًا صبره. ثم قال:

ـ لقد أخبرتها عن وجهتي حتى بُحّ صوتي... ولكن الحكاية وما فيها أنها ترى وراء كل ما أفعله أمرًا مُبيتًا، أراهن على أن تلك المرأة تشرب ما يعادل لترًا من الخمر على الفطور كل صباح... وأعرف يقينًا أنها تشرب ملء كأسين، فقد رأيتها تفعل ذلك.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ لا تتحدث بهذه الطريقة يا ديل. هذا لا يليق بطفل. إنها طريقة.. ساخرة.

ـ ليس الأمر كما تقولين يا عمة ألكسندرا. إن قول الحقيقة لا يعد من قبيل السخرية، أليس كذلك؟

ـ ولكن الطريقة التي تقول بها الحقيقة توحي بذلك.

حدج جيم العمة ألكسندرا بنظرات حادة، ولكنه قال لديل:

ـ لنذهب يمكنك أن تأخذ معك وِرْك تلك الدجاجة.

حين ذهبنا إلى المدخل الأمامي، كانت الآنسة ستيفاني كروفورد مشغولة بالحديث مع الآنسة مودي أتكنسون والسيد آفري. نظروا تجاهنا واستمروا في الحديث. تذمر جيم. تمنيت لو كان معي سلاح.

قال ديل:

ـ أكره نظرات الكبار إلينا. فهذا يشعرنا أننا ارتكبنا خطأً.

صاحت الآنسة مودي مستدعية جيم.

قفز جيم من الأرجوحة.

قال ديل: «سنذهب معك».

دفع الفضول الآنسة ستيفاني لالتقاط الأخبار، أرادت أن تعرف من أعطانا الإذن بالذهاب إلى المحكمة... لم تكن قد رأتنا ولكن تواجدنا في شرفة الملونين كان قد شاع في أنحاء البلدة مع الصباح. هل وضعنا أتيكوس هناك كي...؟ ألم تكن هناك في وسط أولئك الـ...؟ هل فهمت سكاوت كل الذي...؟ ألم نصب بالجنون ونحن نرى أبانا يُهزم؟

جاءت كلمات الآنسة مودي جافةً. قالت:

ـ اسكتي يا ستيفاني. لا أستطيع قضاء فترة الصباح كلها هنا في المدخل الأمامي... يا جيم فينش، لقد ناديت عليك لأدعوك ورفيقيك كي تتناولوا الحلوى معي. لقد استيقظت منذ الخامسة صباحًا لأعِدَّها، لذا من الأفضل أن توافقوا. اعذرينا يا ستيفاني. صباحك جميل يا سيد آفري.

وجدنا كعكة كبيرة وكعكتين صغيرتين على مائدة مطبخ الآنسة مودي. كان من المفروض أن تكون هناك ثلاث كعكات. لم يكن من شأن الآنسة مودي أن تنسى ديل، ولا شك أننا قد عبرنا لها عن ذلك دون كلمة واحدة. ولكننا فهمنا كل شيء حين قطعت الآنسة مودي قطعة من الكعكة الكبيرة وأعطتها إلى جيم.

وبينما كنا نأكل، شعرنا أن ما يحدث كان وسيلة الآنسة مودي في التعبير عن موقفها بأن شيئًا لم يتغير فيما يتعلق بها. كانت تجلس بهدوء في كرسي المطبخ وتراقبنا.

وفجأة تحدثت:

ـ لا تتذمر يا جيم، فالأمور لا تكون عادة بذلك السوء الذي تبدو عليه.

داخل البيت، وحين تريد الآنسة مودي أن تطيل حديثها فإنها تضع راحتيها على ركبتيها وتثبت جسر الأسنان الاصطناعية في محله داخل فمها. لقد فعلت كل ذلك وانتظرناها.

أريد أن أقول لكم ببساطة إن هناك بعض الناس في هذا العالم قد خُلقوا ليؤدوا الأعمال التي نأنف أن نتولاها نيابة عنا. وأبوكما واحد من هؤلاء.

قال جيم:

ـ هممم... حسنًا.

أجابت الآنسة مودي وقد أدركت ما عناه جيم بتلك الهمهمات التي تعبر عن استسلام لما يأتي به القدر:

ـ لا تقل لي هممم ـ حسنًا يا سيدي ـ فلستَ كبيرًا بما فيه الكفاية لتُقوِّم وتفهم ما قُلته.

كان جيم يحدق في قطعة الكعك التي أكل نصفها. قال:

ـ لقد كنت أشبه ما يكون بدودة في شرنقتها، كشيء نائم ومغلف ومحفوظ في مكان دافئ. كنت أظن دائمًا أن سكان مايكوم هم أفضل الناس في العالم، أو على الأقل هكذا كانوا يبدون لي.

قالت الآنسة مودي:

ـ نحن أكثر الناس أمانًا في هذا العالم، فمن النادر أن تضعنا الظروف في مواقف نضطر معها لإظهار روحنا المسيحية الحقيقية، وحين يحدث ذلك، فإن أشخاصًا مثل أتيكوس يكونون خير من يعبرون عن مواقفنا.

ابتسم جيم في كآبة:

ـ أتمنى لو كانت كل المقاطعة تفكر بطريقتك.

ـ ستدهش لو علمت أنهم كثيرون.

علا صوت جيم وهو يقول:

ـ من هم؟ من فعل في هذه البلدة شيئًا واحدًا يساعد به توم روبنسون؟ قولي من؟

ـ أصدقاؤه الملونون وأشخاص مثلنا. أشخاص كالقاضي تايلور، كالسيد هيك تيت. توقف عن الطعام وابدأ في التفكير يا جيم. هل سبق لك أن فكرت في أن تعيين القاضي تايلور لأتيكوس للدفاع عن ذلك الشاب لم يكن مجرد مصادفة؟ وأن للقاضي تايلور أسبابه في تعيين أتيكوس؟

كانت تلك مجرد فكرة، فالقضايا التي تعين فيها المحكمة محامي الدفاع تحال عادة إلى «ماكسويل جرين» (Maxwell Green) وهو آخر محام انضم إلى النقابة وتعوزه الخبرة. كان على ماكسويل جرين أن يتولى الدفاع عن توم روبنسون.

كانت الآنسة مودي تقول:

ـ فكروا في ذلك، فالأمر لم يكن مجرد مصادفة. كنت جالسة في المدخل الأمامي هناك في الليلة الماضية، وكنت أنتظر. انتظرت وانتظرت ورأيتكم تعودون جميعًا وأنتم تمشون على الرصيف. وبينما كنت أنتظر فكرت في أن أتيكوس فينش لن يكسب الدعوى، فهو لا يستطيع أن يكسبها، ولكنه الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يجعل هيئة المحلفين تستمر في المداولة كل تلك المدة الطويلة في قضية كهذه. وقد فكرت في الآتي: إننا نتقدم خطوة... حسنًا إنها خطوة صغيرة جدًا، ولكنها خطوة على أية حال.

همهم جيم:

ـ لا بأس في أن ننظر إلى الأمر كذلك... ولكن هل يستطيع القضاة والمحامون المسيحيون أن يعالجوا ما أفسده محلفون وثنيون؟ ما إن أكبر...

قالت الآنسة مودي:

ـ ذاك أمر يجدر بك أن تناقشه مع أبيك.

هبطنا درجات السلم الجديدة لمنزل الآنسة مودي الجديد وعدنا إلى الشمس، فوجدنا السيد آفري والآنسة ستيفاني كروفورد لا يزالان في المكان. كانا قد سارا قليلًا على امتداد الرصيف ووقفا أمام منزل الآنسة ستيفاني. وكانت الآنسة راتشيل تشير في اتجاهها.

قال ديل:

ـ أعتقد أني سأكون مهرجًا حين أكبر.

توقفنا أنا وجيم عن السير.

ـ نعم يا سيدي، سأكون مهرجًا. فليس هناك في هذا العالم ما أستطيع أن أفعله تجاه الناس سوى الضحك، لذا سأنضم إلى السيرك وأضحك ملء فمي.

قال جيم:

ـ لقد فهمت الأمر معكوسًا يا ديل، فالمهرجون يملؤهم الحزن، والناس هم من يضحكون عليهم.

ـ حسنًا، سأصبح نوعًا جديدًا من المهرجين. سأقف في منتصف الحلقة وأضحك على الناس. انظروا إلى هناك، يبدون وكأنهم سحرة وساحرات يمتطون المكانس الخشبية، والخالة راشيل قد سبق لها أن ركبت واحدة.

كانت الآنسة ستيفاني والآنسة راتشيل تلوِّحان لنا بحماسة، بطريقة لم تلفت انتباه ديل.

قال جيم:

ـ يا إلهي. أعتقد أنه سيكون من غير الممكن أن نتجاهلهما.

كان هناك شيء ما على غير ما يرام. فالسيد آفري كان محمرَّ الوجه من نوبة عطس أصابته وكاد يعصف بنا خارج الرصيف حين اقتربنا منه. كانت الآنسة ستيفاني ترتجف من الإثارة، وأمسكت الآنسة راتشيل بكتف ديل وقالت له:

ـ ادخل إلى الفناء الخلفي وابق هناك. هناك خطر قادم.

سألت:

ـ ما الأمر؟

ـ ألم تسمعي بعد؟ لقد انتشر الخبر في كل أنحاء البلدة.

في هذه اللحظة خرجت العمة ألكسندرا إلى الباب ونادت علينا، ولكنها كانت قد تأخرت كثيرا. فقد استمتعت الآنسة ستيفاني بإبلاغنا بأن بوب يوويل قد أوقف أتيكوس عند ركن مكتب البريد هذا الصباح وبصق في وجهه، وقال له إنه سينتقم منه حتى لو اضطر إلى أن ينتظر طيلة حياته كلها.

الفصل الثالث والعشرون

كان التعليق الوحيد الذي صدرعن أتيكوس هو: كنت أتمنى لو أن السيد يوويل لا يمضغ التبغ.

على أية حال، وفقًا لرواية الآنسة ستيفاني كروفورد، كان أتيكوس على وشك أن يغادر مكتب البريد حين اقترب منه السيد يوويل، وشتمه، وبصق عليه، وهدده بالقتل. وقالت الآنسة ستيفاني ـ التي كانت هناك ورأت كل شيء إذ كانت تمر بالقرب من محلات چيتني چنجل ـ إن أتيكوس لم يرمش له جفن، بل أخرج منديله ومسح وجهه ووقف هناك وترك السيد يوويل يكيل له ألفاظ سباب يستحيل أن تُجْرِيها هي على لسانها على أي نحو. بدا السيد يوويل وكأنه محارب قديم في حرب أغفلها الزمان، أضف إلى ذلك رد فعل أتيكوس الهادئ، مما دعا يوويل لأن يقول له: «أنت أكثر اعتدادا بنفسك من أن تتشاجر معي، أليس كذلك يا محبّ الزنوج؟» وقالت الآنسة ستيفاني إن أتيكوس قال: «لا، بل بلغت من الكِبَر ما يجعلني أرغب عن ذلك»، ثم وضع يديه في جيبيه وسار في طريقه. وقد علقت الآنسة سيتفاني بأن مثل تلك المواقف تناسب شخصًا كأتيكوس فينش، فهو أحيانًا يستطيع أن يَمْلِكَ زِمَامَ نفسه.

ولكننا أنا وجيم لم نأخذ المسألة ببساطة.

قلت:

ـ على أية حال، فقد كان أعظم رامٍ في المقاطعة في يوم من الأيام. كان يستطيع...

قال جيم:

ـ أنتِ تعرفين أنه يرفض حمل البندقية. وهو حتى لا يملك واحدة... وتعرفين أنه حتى في تلك الليلة عند السجن لم يكن يحمل بندقية. قال لي مرة إن حمل البندقية هو دعوة لغيره كي يطلقوا النار عليك.

قلت:

ـ الأمر الآن مختلف، سنطلب منه أن يستعير واحدة.

ـ وقد طلبنا منه ذلك فقال:

ـ هذا هُرَاء.

قال ديل إن مخاطبة الجانب الخيِّر من شخصية أتيكوس سيؤتي ثماره. وعلى أية حال فإننا سنموت جوعًا إذا قتله بوب يوويل، بالإضافة لذلك فإن العمة ألكسندرا هي التي ستتولى تربيتنا، وكنا نعرف جميعًا ما الذي ستفعله قبل أن يُدفَن أتيكوس: فهي ستطرد كالبورنيا. قال جيم إن أتيكوس قد يتأثر إذا أصابتني نوبة بكاء حتى الانهيار، حيث إني فتاة صغيرة، غير أن محاولاتي ذهبت هباءً.

ولم يلبث أتيكوس أن لاحظ ندرة تحركنا في الجوار وعُزُوفَنا عن الطعام وعن الاهتمام بما اعتدنا القيام به من ألعاب فإذا به يكتشف مقدار

ما يتملكنا من ذعر، وقد قام في إحدى الليالي بإغراء جيم بمجلة لكرة القدم الأمريكية ولما رأى جيم يقلّب الصفحات ثم يلقيها جانبًا، قال:

ـ ما الذي يضايقك يا بني؟

أجابه جيم وهو يتكلم في صلب الموضوع:

ـ السيد يوويل.

ـ ما الذي حدث؟

ـ لم يحدث شيء. نحن خائفان عليك ونعتقد أن عليك أن تفعل شيئًا حياله.

ابتسم أتيكوس بسخرية وقال:

ـ وماذا أفعل؟ هل أوقع معه معاهدة سلام؟

ـ حين يقول رجل ما إنه سينال منك، فيبدو أنه يعني ما يقوله.

قال أتيكوس:

ـ لقد عني ما قاله حين هدّدني يا جيم، عليك أن تحاول النظر إلى الأمور من وجهة نظر بوب يوويل ولو لدقيقة واحدة، لقد حرمته في تلك المحاكمة آخر قدر من المصداقية حاول أن يحتمي وراءه، هذا إن كان لديه من الأساس. وكان على هذا الرجل أن ينتقم بطريقة ما، فهو ينتمي لذلك النوع من الناس. وهكذا، فإن كان البصق في وجهي وتهديده لي قد أنقذا مايلا يوويل من فاصل آخر من الضرب، فأنا سعيد بما حدث. لقد كان عليه أن ينفث ضيقه في أحد وأُفضِّلُ أن أكون أنا ذلك الشخص وليس بالأحرى أولئك الأطفال الذين يملؤون منزله. هل تفهمني؟

أومأ جيم برأسه.

دخلت العمة ألكسندرا الغرفة بينما كان أتيكوس يقول:

ـ ليس علينا أن نخشى بوب يوويل إطلاقًا، فقد أخرج كل ما عنده في ذلك الصباح.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ يجب ألَّا تكون واثقًا إلى هذا الحد يا أتيكوس. فهو من ذلك النوع من الناس الذين قد يفعلون أي شيء ليثأروا لأمرٍ ما. أنت تعرف كيف يكون هؤلاء الناس عادة.

ـ ما الذي يمكن أن يفعله يوويل لي يا أختي؟

قالت العمة:

ـ قد يبيِّت لك أمرًا، عليك أن تضع ذلك في الحسبان.

أجاب أتيكوس:

ـ ليس لدى أي شخص في مايكوم فرصة كبيرة ليبقي أي شيء طي الكتمان.

بعد ذلك، لم نعد خائفين. كان الصيف على وشك الانتهاء، وقد استمتعنا بما تبقى منه قدر الإمكان. وقد أكّد لنا أتيكوس أن توم روبنسون لن يمسه سوء حتى تنظر المحكمة العليا قضيته، وأن أمامه فرصة لإطلاق سراحه، أو على الأقل محاكمته من جديد. كان الآن في سجن إنفيلد بريزون فارم (Enfield Prison Farm)، الذي يبعد سبعين ميلًا، والواقع ضمن حدود مقاطعة تشستير (Chester County)، وسألت أتيكوس إن كان يُسمح لزوجة توم وأولاده بزيارته. فأجاب بالنفي.

وسألته في إحدى الأمسيات:

ـ إذا خسر الاستئناف، ما الذي سيحدث له؟

قال أتيكوس:

ـ سيُعدم على الكرسي الكهربائي، ما لم يخفف حاكم الولاية من عقوبته. لم يحن وقت القلق بعد يا سكاوت. وأمامنا فرصة طيبة للفوز.

كان جيم ممددًا على الأريكة يقرأ في مجلة «بوبيلار ميكانيكس». (Popular Mechanics) رفع عينيه وقال:

ـ هذا ليس عدلًا. فهو لم يقتل أحدًا حتى لو كان مذنبًا بالفعل بما اتُّهم به. إنه لم يقض على حياة أحد.

قال أتيكوس:

ـ أنت تعرف أن الاغتصاب في ولاية ألاباما جريمة يعاقب عليها بالموت.

ـ نعم يا سيدي، ولكن هيئة المحلفين لم تكن مضطرة إلى الحكم عليه بالموت... ولو أرادت لحكمت عليه بالسجن عشرين عامًا.

قال أتيكوس:

ـ توم روبنسون ملوّن يا جيم. ليس في بلادنا هيئة محلفين تقول: «نعتقد أنك مذنب، ولكن لست مذنبًا جدًا» وذلك فيما يتعلق بتهمة كهذه. فالمسألة إما تبرئة مباشرة أو لا شيء على الإطلاق.

كان جيم يهز رأسه:

ـ أعرف أن ذلك ليس صوابًا، ولكني لا أستطيع أن أعرف مصدر الخطأ.... ربما لا يجب أن يكون الاغتصاب جريمة يعاقب عليها القانون بالموت...

رمى أتيكوس صحيفته بالقرب من كرسيه. قال إنه لا يرى رأيًا يخالف التشريعات الخاصة بجريمة الاغتصاب، بل ليس لديه أدنى اعتراض على تلك التشريعات، ولكنه يشعر بارتياب عميق كلما طالب الادعاء بتوقيع عقوبة الإعدام وأقرت هيئة المحلفين العقوبة على أساس من أدلة ظرفية وحدها، أدلة ظرفية خالصة. ثم نظر إليّ فرآني أستمع فتبَّسط في الكلام: «أعني، قبل أن يُحكم على شخص بالإعدام لأنه ارتكب جريمة قتل، مثلًا، يجب أن يكون هناك شاهد عيان أو شاهدان. يجب أن يكون هناك شاهد يقول: (نعم لقد كنت هناك ورأيته وهو يجذب الزناد).

قال جيم:

ـ ولكن أشخاصًا كثيرين شُنِقوا بناء على دليل ظرفي.

ـ أعرف ذلك، وربما كان كثيرون منهم يستحقون الشنق فعلًا، ولكن ما لم يوجد شاهد العيان، فهناك دائمًا شك ما، وأحيانًا قدر يَسيرٌ من الشك. القانون يسميه «شك معقول»، ولكني أعتقد أن المتهم له الحق كل الحق في الاستفادة من هذا الشك المعقول. إذ إن احتمال البراءة قائم وإن خالف ما هو متوقع.

قال جيم بعناد:

ـ إذن، فالمسألة تعود في النهاية إلى هيئة المحلفين. يجب أن نتخلص من نظام المحلفين.

بذل أتيكوس جهدًا حتى لا يبتسم، ولكنه لم يستطع مغالبة الابتسام. قال:

ـ أنت تقسو علينا نوعًا ما يا بني. أعتقد أن هناك طريقة أفضل. يجب تغيير القانون. تغييره بحيث يكون للقضاة فقط حق تحديد العقوبة بالنسبة للقضايا التي تتعلق بالإعدام.

ـ إذن، فلتذهب إلى مونتجومري وتغيِّر القانون.

ـ ستدهش إذا عرفت مدى صعوبة ذلك. لن أعيش لأرى القانون يتغير، وإذا عشتَ لتراه فستكون شيخًا تقدمت به السن.

لم يعجب ذلك جيم فقال:

ـ لا يا سيدي، يجب التخلص من نظام المحلفين فالرجل لم يكن مذنبًا في الأصل، وقالوا إنه مذنب.

ـ لو كنت واحدًا من أولئك المحلفين يا بني، ومعك أحد عشر صبيًا مثلك، لكان توم رجلًا حرًا الآن. فأنت حتى الآن لم تشهد في حياتك ما يؤثر في فكرك. أما أولئك المحلفون في قضية توم فهم اثنا عشر رجلًا يتسمون بالتعقل في حياتهم اليومية، ولكنك لاحظت أن شيئًا ما كان يَحُولُ بينهم وبين التفكير العقلاني، كما شاهدت الشيء نفسه في تلك الليلة أمام السجن، وحين ابتعد أولئك الرجال لم يكن ذلك لأنهم أشخاص عاقلون، بل ابتعدوا لأننا كنا هناك. هناك شيء ما في عالمنا هذا يجعل الناس يفقدون عقولهم: وفي هذه الحالة لا يستطيعون أن يعدلوا حتى ولو حاولوا. في محاكمنا، حين تكون هناك شهادة رجل أبيض ضد شهادة رجل أسود، فالأبيض هو الرابح دائمًا. إنها حقيقة بشعة جدًا، ولكنها من حقائق الحياة.

قال جيم بإصرار:

ـ هذا بعيد عن العدل.

ثم ضرب ركبتيه بيديه برفق وقال:

ـ لا يمكنك أن تُدِين شخصًا بمثل ذلك الدليل، أليس كذلك؟

ـ لا يمكنك «أنت»ذلك، ولكنهم استطاعوا ذلك وفعلوه. وسترى مثل ذلك كثيرًا كلما تقدمت بك السنون، المكان الوحيد الذي يجب أن يعامل فيه الإنسان بعدلٍ هو قاعة المحكمة، مهما كان لونه، ولكن للناس أسلوبهم الخاص في حمل مشاعر البغض الخاصة بهم إلى منصة المحلفين. وحين تكبر، سترى البيض وهم يغشون السود في كل يوم من أيام حياتك، ولكن دعني أقل لك شيئًا يجب ألا تنساه: كلما غش رجل أبيض رجلًا أسود، أيًا كان ذلك الرجل، ومهما بلغت ثروته أو عراقة أسرته، فإنه لا شك شخص وضيع.

كان أتيكوس يتحدث بهدوء حتى إن كلمته الأخيرة صَكَّتْ آذاننا. نظرت نحوه، فرأيت وجهه يشتعل حماسة.

ـ ليس هناك ما يثير اشمئزازي أكثر من رؤية رجل أبيض تافه يستغل جهل الزنجي. لا تتجاهلوا الأمر، فهو يتفاقم، وفي يوم من الأيام سندفع ثمن ذلك. وآمل ألا يكون ذلك في فترة حياتكما أيها الطفلان.

كان جيم يحكّ رأسه. وفجأة اتسعت عيناه وقال:

ـ يا أتيكوس، لماذا لا يُختار أشخاص مثلنا ومثل الآنسة مودي بين هيئة المحلفين؟ أنت لا ترى شخصًا واحدًا من بلدة مايكوم ضمن هيئة المحلفين: فكلهم من منطقة الغابات.

استند أتيكوس إلى الوراء في كرسيه الهزاز. ولسبب ما بدا عليه أنه سعيد بجيم. قال:

كنت أتساءل في نفسي: متى يا ترى سيرد هذا الخاطر في ذهنك؟ على كل حال هناك أسباب كثيرة. منها مثلًا أن الآنسة مودي لا يمكن أن تكون ضمن هيئة المحلفين لأنها امرأة...

شعرت بالنقمة فقلت:

ـ أتعني أن النساء في ألاباما لا يمكنهن....

ـ نعم، وأعتقد أن الهدف من ذلك هو حماية سيداتنا الرقيقات من حضور دعاوى كدعوى توم. وبالإضافة إلى ذلك فإني أشك في أن يتم البَتُّ في أي دعوى في مثل تلك الحالة، فالسيدات سيقاطعن باستمرار ليطرحن الأسئلة.

ضحكنا أنا وجيم. كان وجود الآنسة مودي ضمن هيئة محلفين أمرًا مؤثرًا. وفكرت في السيدة ديبوز العجوز على كرسيها ذي العجلات... وهي تقول: «أوقف ذلك الطرق يا جون تايلور، فأنا أريد أن أسأل هذا الرجل سؤالًا». ربما كان أجدادنا حكماء.

كان أتيكوس يقول:

ـ بالنسبة لأناس مثلنا... هذه هي الضريبة التي يجب أن ندفعها. وفي العادة لا نجد إلا المحلفين الذين نستحقهم. إن سكان مايكوم الشجعان غير مهتمين أولًا، أما ثانيًا فهم خائفون. ثم هم...

سأل جيم:

ـ خائفون، لماذا؟

ـ ماذا لو أن السيد لينك ديس هو الذي سيقرر قيمة التعويضات التي ستؤدى على الآنسة مودي لو حدث مثلًا أن الآنسة راتشيل صدمتها بسيارة. إن السيد لينك ديس لن يفكر في أن يخسر أيًا منهما باعتبارهما عميلتين لمتجره، أليس كذلك؟ ولذا فإنه يقول للقاضي تايلور إنه لا يستطيع أن يكون ضمن هيئة المحلفين لأنه ليس لديه من يهتم بمتجره خلال غيابه. وهكذا يلتمس القاضي تايلور له العذر أحيانًا، وأحيانًا أخرى يستشيط غضبًا وهو يضطر إلى قبول عذره.

سألت:

ـ وما الذي سيجعله يظن أن إحداهما ستتوقف عن الشراء من محله؟

قال جيم:

ـ الآنسة راتشيل ستفعل ذلك، ولكن ليس الآنسة مودي. ولكن تصويت المحلفين يظل سريًا، أليس كذلك؟

ضحك أبونا وقال:

ـ أمامك الكثير لتتعلمه يا بني. من المفروض أن يبقى تصويت المحلفين سرًا. ولكن كون المرء محلفًا يجبره على أن يقرر شيئًا ويدلي برأيه فيه. لا يحب الناس ذلك. ففي بعض الأحيان يكون ذلك أمرًا لا يدعو للسرور.

همهم جيم:

ـ ولكن محلفي توم وصلوا إلى قرارهم بسرعة.

تحركت أصابع أتيكوس نحو ساعة جيبه:

ـ لا لم يكن الأمر كذلك.

قالها بهمس وكأنه يتحدث إلى نفسه. ثم استأنف:

ـ كان ذلك هو الشيء الذي جعلني أفكر بأنه سيكون تمهيدًا لما هو قادم. لقد أمضى المحلفون ساعات قليلة حتى وصلوا إلى قرار. كان قرارهم أمرًا لا مفر منه، فهم سيدينون المتهم، ولكنهم يصلون إليه عادة في بضع دقائق. في هذه المرة...

وهنا قطع حديثه ونظر إلينا:

ـ ربما تودون أن تعرفوا أن هناك شخصًا واحدًا بذل جهدًا كبيرًا... وفي البداية كان هذا الشخص يزمجر مطالبًا بالبراءة الكاملة.

دهش جيم فسأل:

ـ مــن؟

التمعت عينا أتيكوس وقال:

ـ لا أستطيع أن أقول من، ولكني سأخبركم بشيء واحد ولن أذهب أبعد من ذلك: كان واحدًا من أصدقائكم القدامى من «أولد ساروم»....

صاح جيم بصوت كالنباح:

ـ أحد أفراد أسرة كانينجهام؟ واحد من... لم أميز أي واحد منهم ضمن هيئة المحلفين... لا شك أنك تمزح.

ثم نظر إلى أتيكوس نظرة جانبية.

ـ إنه واحد من أقاربهم. كان يمكنني أن أشطب اسمه من قائمة المحلفين، ولكني اعتمدت على حدسي ولم أفعل. قال جيم وقد غلب عليه شعور بالاحترام العميق.

ـ يا للسماء، يحاولون قتله أمس ثم يسعون لإطلاق سراحه اليوم... لا يمكن لي أن أفهم هؤلاء البشر طوال حياتي.

قال أتيكوس إن كل ما على المرء أن يفعله هو أن يعرفهم. وإن عائلة كانينجهام لم تأخذ أو تنتزع شيئًا من أي شخص منذ أن هاجر أفرادها إلى «العالم الجديد»، قال إن الأمر الآخر المتعلق بهم هو أنك ما إن تكسب احترامهم فإنهم يساندونك بكل ما فيهم من قوة. وإن لديه شعورًا، ولكنه مجرد شعور لا أكثر، بأنهم غادروا السجن في تلك الليلة يحملون احترامًا كبيرًا لعائلة فينش. ثم إنه حتى يغير أحد أفراد عائلة كانينجهام رأيه فلا بد من حدوث صاعقة، وزيادة عليه لابد أن يقوم فرد آخر من عائلة كانينجهام بإقناع هذا الشخص. ثم قال: «لو كان لدينا اثنان من أفراد تلك المجموعة التي هاجمت السجن، لكان لدينا هيئة محلفين لا تستطيع اتخاذ أي قرار».

قال جيم ببطء:

ـ هل تعني أنك وضعت بالفعل ضمن هيئة المحلفين رجلًا أراد قتلك قبل ذلك بليلة واحدة؟ كيف أمكنك أن تخاطر بمثل تلك الطريقة يا أتيكوس، كيف؟

ـ حين تحلّل الموقف، سترى أن المخاطرة كانت يسيرة. لا فرق بين شخص عقد النية على الإدانة وآخر عقد عزمه على الإدانة أيضًا، أليس كذلك؟ ولكن هناك فرقًا بسيطًا بين إنسان قرر أن يدين وآخر مشوش

العقل قليلًا، أليس كذلك؟ لقد كان المجهول الوحيد على اللائحة كلها.

سألت:

ـ ما صلة القرابة بين ذلك الرجل والسيد وولتر كانينجهام؟

نهض أتيكوس، وتمطى وتثاءب. لم يكن قد حان وقت نومنا بعد. ولكننا فهمنا أنه أراد أن نتيح له فرصة لقراءة صحيفته. التقطها، وفتحها ثم نقرني على رأسي نقرة خفيفة. دندن متحدثًا إلى نفسه:

ـ لنر الآن. لقد تذكرت. إنه ابن عمه وابن خالته في الوقت نفسه.

ـ وكيف يمكن ذلك؟

ـ تزوجت أختان من أخَّين. هذا كل ما لدي لأقوله لك، وعليك أن تحللها بنفسك.

قدحت زناد فكري ثم وصلت إلى حل هو أني لو تزوجت جيم وكان لديل أخت وتزوجها فسيكون أولادنا أولاد عم وأولاد خالة في الوقت نفسه. ثم قلت لجيم، وكان أتيكوس قد غادر الغرفة: «عجبًا يا جيم، إن عائلة كانينجهام أشخاص مضحكون. هل سمعت ما قيل يا عمتي؟».

كانت العمة ألكسندرا تخيط سجادة صغيرة، ولم تكن تراقبنا. كانت تجلس في كرسيها وسلة الحياكة بجوارها، وقد فردت السجادة على رجلها. وقد حيرني دومًا أمر السيدات اللاتي كن يخطن السجاجيد الصغيرة في أيام الليالي الحارة.

قالت:

ـ سمعته.

تذكرت ذلك الحادث المأساوي الذي وقع في الماضي البعيد حين أسرعت للدفاع عن وولتر كانينجهام الصغير. والآن أنا سعيدة لأني فعلت ما فعلته. قلت: «ما إن تبدأ المدرسة حتى أدعو وولتر في البيت على الغداء»هكذا خططت وقد نسيت قراري الخاص بأن أضربه في المرة التالية التي سأراه فيها. «يمكنه البقاء معنا أحيانًا بعد المدرسة أيضًا. يمكن لأتيكوس أن يأخذه بالسيارة إلى (أولد ساروم). وربما سيستطيع أن يقضي الليل معنا أحيانًا، ما رأيك يا جيم؟ موافق؟».

قالت العمة ألكسندرا: «سنرى»، وفي العادة يكون مثل هذا التصريح منها وعيدًا، وليس وعدًا. ولدهشتي التفتُّ إليها وقلت:

ـ لم لا يا عمتي؟ إنهم أناس طيبون.

نظرت إليّ من فوق النظارة التي تستخدمها حين تنشغل بالخياطة وقالت:

ـ يا چان لويز، لا أشك أبدًا أنهم أناس طيبون. ولكنهم ليسوا مثلنا.

قال جيم:

ـ إنها تعني أنهم جاهلون يا سكاوت؟

ـ وما هو الجاهل؟

ـ أوه، إنَّه ذو الذوق الرديء، إنهم يحبون الموسيقى الريفية وما شابه.

ـ وأنا أيضًا.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ لا تكوني حمقاء يا چان لويز، فالمسألة هي أنك تستطيعين أن تَحُكِّين وولتر كانينجهام حتى يلمع جلده، وتستطيعين أن تلبسيه حذاء وبذلة جديدين، ولكنه لن يكون مثل جيم أبدًا. بالإضافة إلى ذلك، فإن لدى أفراد تلك العائلة نزعة إلى الثمالة لا يباريهم فيها أحد. إن نساء عائلة فينش لا يبدين اهتمامًا بمثل هذا النوع من الناس.

قال جيم:

ـ يا عمتي، إنها لم تبلغ التاسعة بعد.

ـ ولكن من الأفضل أن تتعلم ذلك منذ الآن.

ها قد تحدثت العمة ألكسندرا، وقد استعدتُ بوضوح ذكرى آخر مرة قامت فيها بالاعتراض بشدة، لم أعرف السبب على الإطلاق... وكان ذلك حين كنت منهمكة في ترتيبات زيارة منزل كالبورنيا: كنت فضولية ومهتمة بالموضوع، وكنت أريد أن أكون «ضيفتها»، وأرى كيف كانت تعيش ومن هم أصدقاؤها. ربما كان ذلك أشبه بمن يريد أن يرى الوجه الآخر للقمر. في هذه المرة كانت التكتيكات مختلفة، ولكن هدف العمة ألكسندرا كان هو نفسه. ربما كان هذا هو السبب الذي دفعها لتأتي وتعيش معنا: لتساعدنا على اختيار أصدقائنا. سأحاول أن أصدها على قدر ما أستطيع لذا قلت:

ـ إن كانوا أناسًا طيبين. لِمَ لا أستطيع إذن أن أكون لطيفة مع وولتر؟

ـ لم أقل إن عليك ألا تكوني لطيفة معه. يجب أن تكوني ودودًا ومهذبة معه، يجب أن تكوني متأدبة مع الجميع يا عزيزتي. ولكن لا يجب أن تدعيه إلى البيت.

ـ وماذا لو كان من أقاربنا؟

ـ إنه ليس من أقاربنا، ولكن حتى ولو كان كذلك، فسأعطيك الإجابة نفسها.

قال جيم مدافعًا:

ـ يا عمتي، يقول أتيكوس إن المرء يستطيع اختيار أصدقائه ولكنه لا يستطيع حتمًا اختيار أفراد عائلته، سيبقون أقاربه سواء اعترف بذلك أم لا، وحين لا يقرّ بذلك فإنه سيبدو غبيًا تمامًا.

ـ هذا هو أبوكما وهذا رأيه منذ زمن بعيد، ولكني ما زلت أقول إن چان لويز لن تدعو وولتر كانينجهام إلى هذا المنزل. وحتى لو كان هو ابن عمها وابن خالتها في آن واحد، فإنه لن يُستقبل في هذا البيت ما لم يكن ذلك ليقابل أتيكوس في شأن يخص العمل. أعتقد أن هذا هو الأمر.

كانت قد قالت: «لا» ولكن عليها أن تشرح أسبابها هذه المرة، لذا سألتها:

ـ ولكني أريد أن ألعب مع وولتر يا عمتي، فلم لا أستطيع؟

خلعت نظارتها ثم حدَّقت فيّ وقالت:

ـ سأقول لك لم لا. لأنه... حثالة، لهذا لا أريدك أن تلعبي معه. لن أسمح لك بالتواجد معه حتى لا تتعلمين عاداته وما لا يعرف سوى الرب ماذا أيضًا. أنت كما أنت الآن مشكلة كافية لأبيك.

لا أعرف ما الذي كنت سأفعله، ولكن جيم أوقفني عند حدّي. فقد أمسكني من كتفي ووضع ذراعه حولي، وقادني وأنا أبكي بجنون إلى

غرفة نومه. سمعنا أتيكوس فأطل برأسه من باب غرفته، ولكن جيم قال له بصرامة: «لا شيء يا سيدي. كل شيء على ما يرام»، فعاد أتيكوس إلى غرفته.

قال جيم: «هل تودين مضغ بعض اللبان؟» ثم مد يده إلى جيبه وأخرج بعضًا منها من النوع الفاخر. وقد استغرقت مني تلك اللبانة بضع دقائق حتى تحولت إلى حشوة مريحة داخل فمي بعد أن استمتعت بامتصاص سكرها.

كان جيم يعيد ترتيب بعض الأمور. كان شعره دهنيًا كثيفًا في الخلف وفي الأمام، وقد تساءلت في نفسي إن كان شعره سيبدو مثل شعر الرجال في المستقبل... ربما لو أزاله كله وبدأ ينمو من جديد، فقد يعود شعره إلى ما كان عليه. كان حاجباه قد صارا أكثف، كما لاحظت أنه أصبح أشد رشاقة وأكثر طولًا.

حين تلفّتُّ، لا بد وأنه ظن أني قد بدأت أبكي من جديد، لأنه قال:

ـ سأريك شيئًا بشرط ألا تفشي السر.

قال ذلك وهو يفك أزرار قميصه ويبتسم بخجل.

ـ حسنًا ما هو؟

ـ ألا تستطيعين أن تريه؟

ـ لا.

ـ إنه شعر.

ـ أين؟

ـ هنا. هنا تمامًا.

لقد كان لطيفًا معي هذه الليلة لذا قلت له إنه يبدو جميلًا، ولكني لم أر شيئًا.

ـ إنه جميل فعلًا يا جيم.

ـ وتحت إبطي أيضًا. سأذهب لألعب كرة القدم الأمريكية في العام القادم. سكاوت، لا تجعلي العمة تثير غضبك.

لقد بدا لي أنه كان يقول لي بالأمس فحسب أن عليّ ألا أُثِير غضب العمة.

ـ أنت تعرفين أنها غير معتادة على التعامل مع البنات، أو في أحسن الأحوال البنات من أمثالك. إنها تحاول أن تصنع منك سيدة محترمة. ألا يمكنك أن تتعلمي الخياطة أو ما شابه ذلك.

ـ لا بحق الجحيم. إنها لا تحبني، هذا كل ما في الأمر، وأنا لا يهمني. إن تسميتها لوولتر كانينجهام بالحثالة هو الذي جعلني أغضب وليس ما قالته عن أني أمثل مشكلة لأتيكوس. فقد وضّح لي هو موقفه مني ذات مرة بصراحة، فقد سألته إن كنت أمثّل مشكلة له، وقال إني لست بالمشكلة الكبيرة، وفي أسوأ الحالات فإني مشكلة يستطيع حلها، وأن عليّ ألّا أفكر لثانية واحدة بأنني مصدر إزعاج له. لا لقد غضبت بسبب وولتر، فهو ليس حثالة يا جيم. إنه ليس كعائلة كانينجهام.

رفس حذاءه ثم وضع رجليه على السرير. أسند نفسه على وسادة وأضاء مصباح القراءة ثم قال:

ـ أتعرفين يا سكاوت؟ لقد فهمت القضية كلها الآن. لقد فكرت بها

كثيرًا أخيرًا وقد استطعت فهمها كلها. هناك أربعة أنواع من الناس في العالم: هناك النوع العادي من أمثالنا والجيران، وهناك النوع من أمثال عائلة كانينجهام الذين يعيشون في الغابات، والنوع من أمثال عائلة يوويل هناك عند مقلب القمامة، والزنوج.

ـ وماذا عن الصينيين، والكاجون[1] الذين يقطنون مقاطعة بولدوين (Baldwin County)؟

ـ أنا أعني سكان مقاطعة مايكوم. والمسألة هي أن نوعنا لا يحب نوع عائلة كانينجهام، وهؤلاء لا يحبون أمثال عائلة يوويل، وعائلة يوويل تكره الأشخاص الملونين وتحتقرهم.

هنا قلت لجيم إنه لو كان كلامه صحيحًا، فلماذا لم يبرئ المحلفون توم، وهم كلهم أشخاص شبيهون بعائلة كانينجهام، لم يبرئوا توم نكاية في عائلة يوويل؟

طوّح جيم بسؤالي بعيدًا على أساس أنه طفولي. قال:

ـ هل تعلمين أني رأيت أتيكوس يضرب الأرض عندما يكون هناك عزف على الكمان في الراديو؟ وأنه يحب شوربة الخضراوات أكثر من أي شخص آخر عرفته....؟

ـ إن هذا سيقرب المسافة بيننا وبين عائلة كانينجهام. لا أرى السبب في أن عمتي....

ـ لا، دعيني أنهي حديثي أولًا... كلامك صحيح ولكننا لا نزال

---

(١) جماعة إثنية تقطن «لويزيانا» (Louisiana) وتتحدث الفرنسية بلهجة خاصة (المترجمة).

نختلف عنهم على نحو ما. قال أتيكوس مرة إن السبب في أن عمتي مولعة بالعائلة هو أن كل ما تملك هو الخلفية الاجتماعية، وليس لدينا سنت واحد يدعم هذه الخلفية.

ـ حسنًا يا جيم لا أعرف... لقد قال لي أتيكوس مرة إن معظم ما يقال عن «العائلات العريقة» كلام فارغ، لأن عائلة كل شخص قديمة قدم عائلة أي شخص آخر. وسألته إن كان يشمل الأشخاص الملونين والإنجليز. فرد عليّ بالإيجاب.

قال جيم:

ـ الخلفية الاجتماعية لا تعني العائلة العريقة. بل تعني منذ متى كانت عائلة الشخص تقرأ وتكتب. يا سكاوت، لقد درست هذه المسألة كثيرًا، وهذا هو السبب الوحيد الذي اكتشفته. في قديم الزمان حين كانت عائلة فنش لا تزال في مصر، لا بد أن أحدهم تعلم شيئًا من الهيروغليفية، وعلّمها لابنه.

وهنا ضحك جيم ثم استأنف قائلًا:

ـ تصوري أن عمتي فخورة بأن أبا جدّها كان يستطيع القراءة والكتابة... إن السيدات يخترن أشياء مضحكة ليفخرن بها.

ـ حسنًا، أنا سعيدة أنه كان يستطيع فعل ذلك، وإلا فمن كان سيعلم أتيكوس والآخرين؟ ولو أن أتيكوس لا يستطيع القراءة، لكنا في ورطة. ولكني لا أعتقد أن هذه هي الخلفية الاجتماعية يا جيم.

ـ حسنًا، كيف تفسرين إذن أن عائلة كانينجهام مختلفة عنا؟ السيد وولتر لا يستطيع كتابة اسمه، لقد رأيته. كل ما في الأمر أننا كنا نعرف القراءة والكتابة قبلهم بزمن بعيد.

ـ لا، بل يجب على كل شخص أن يتعلم، فلا أحد يولد وهو متعلم. إن وولتر ذكي جدًا، ولكنه يتخلف أحيانًا لأن عليه أن يبقى في البيت ليساعد أباه. إنه لا ينقصه أي شيء. لا يا جيم أعتقد أن هناك نوعًا واحدًا من الناس. إنه الناس.

التفت جيم وضرب مخدته. وحين عاد ليستند عليها كان وجهه يعلوه الغموض. كان قد غرق الآن في إحدى نوبات إحساسه بالإحباط، وكنت قد شعرت بالتعب. عقد حاجبيه، وتحول فمه خطًا رفيعًا. صمت لفترة.

قال أخيرًا:

ـ هذا ما فكرت فيه أنا أيضًا حين كنت في مثل عمرك. ولكن إن كان هناك نوع واحد من الناس فلماذا لا يتفاهمون معًا؟ وإذا كانوا كلهم متشابهين، فلماذا ينحرفون عن المسار ليحتقر الواحد منهم الآخر؟ يا سكاوت، أظن أني بدأت أفهم شيئًا ما. أظن أني بدأت أفهم السبب في أن بو رادلي بَقِي حبيسًا في المنزل كل هذه السنوات وقد أغلقت عليه النوافذ والأبواب... السبب في ذلك هو أنه «يريد» أن يبقى في الداخل.

الفصل الرابع والعشرون

كانت كالبورنيا ترتدي إحدى مرايل المطبخ التي تحرص على أن تُشبعها بالنشا عند غسلها كي تبدو مشدودة تماما، وكانت تحمل صينية من حلوى الشارلوت[1] (charlotte). استندت إلى الباب المروحي، ثم دفعته برفق. أعجبت بالمرونة والرشاقة اللتين ظهرتا في تعاملها مع ما تحمله من الأشياء اللذيذة، على ثقلها. ولا بد أن العمة ألكسندرا قد شاركتني هذا الشعور بالإعجاب، على ما أعتقد؛ لأنها سمحت لكابورنيا بأن تقدم الحلوى اليوم.

كان شهر أغسطس يلوِّح مودعًا مفسحًا الطريق لشهر سبتمبر، سيذهب ديل إلى ميريديان غدًا. أما اليوم فقد ذهب هو وجيم إلى «دوامة باركر». إذ اكتشف جيم اكتشافًا مدهشًا أثار الغضب في نفسه، وهو أن أحدًا لم يهتم بتعليم ديل السباحة، بينما يعتبرها هو نوعًا من المهارات الأساسية مثلها مثل المشي. كانا قد أمضيا فترة العصر ليومين متتاليين عند النهر، وقالا إنهما سيسبحان عاريين ولذا لا أستطيع مرافقتهما، وهكذا وزعت وقتي ما بين كالبورنيا والآنسة مودي.

---

(١) حلوى الشارلوت تصنع من قاعدة من البسكويت تعلوها طبقات من الفاكهة وحلوى الكسترد (المترجمة).

اليوم شاركت العمة ألكسندرا أعضاء الجمعية التبشيرية التي ترأسها في خوض غمار الحرب المقدسة وترددت أصواتهن في أرجاء البيت. وفي المطبخ، وصل إلى سمعي صوت السيدة جريس مريوذر تُقَدِّم تقريرًا في غرفة الجلوس حول الحياة البائسة التي تعيشها قبيلة «المرونا» (Mrunas)[1]، على ما أظن، فقد كانت هذه القبيلة تنبذ النساء في أكواخ حين يعانين السكرات الأخيرة، ولم أفهم ما يعني ذلك على أية حال، ولم ترع تلك القبيلة صلة الرحم ـ كنت أعرف أن هذا سَيُحْزن عمتي ـ كما كانت تُخضع الأطفال لتجارب رهيبة حين يَصِلُون إلى سن الثالثة عشرة. كانوا مبتلين بالأمراض وكانت الديدان تسكن آذانهم وكانوا يمضغون لحاء إحدى الأشجار ثم يبصقونه في وعاء كبير يستخدمونه جميعًا ثم يشربون ما في الوعاء وقد تحول إلى خمر مسكرة.

انفض الاجتماع لتناول المرطبات والمأكولات الخفيفة.

لم أكن أعرف أكان عليّ الدخول إلى حجرة الطعام أم البقاء بعيدًا. كانت العمة ألكسندرا قد طلبت مني أن أنضم إليهن لتناول الطعام إلا أنه لم يكن ضروريًا أن أحضر الجانب العملي من الاجتماع، إذ قالت إنه سيدخل الملل إلى نفسي. كنت أرتدي ثوبي الوردي اللون الذي اعتدت ارتداءه يوم الأحد وكذلك حذاءً وجونلة، وقد فكرت في أني لو سكبتُ أي شيء لكان على كالبورنيا أن تغسل ثوبي مرة أخرى لأرتديه في الغد. لقد كانت مشغولة جدًا اليوم، وقررت أن أبتعد عن حجرة الطعام.

---

(١) قبيلة إفريقية تعيش في فقر مدقع. تلجأ هاربر لي إلى السخرية في هذا المقام من السيدات اللاتي يبدين اهتمامًا بحياة الأفارقة البائسين، بينما لا يُحرِّكُ مشاعرهن ما يقاسيه الأفارقة الأمريكيون من ظلم تحت النظام العنصري (المترجمة).

سألتها وأنا أرغب في مساعدتها:

ـ هل أستطيع مساعدتك يا كال؟

توقفت كالبورنيا في الردهة وقالت:

ـ الزمي الصمت ولا تبرحي مكانك في ركن الغرفة، وستساعدينني على تحميل الصواني حين أعود.

بدأت الهمهمة اللطيفة للسيدات ترتفع حين فتحت كالبورنيا الباب: «عجبًا يا ألكسندرا، لم أذق في حياتي حلوى شارلوت كهذه... إنها رائعة... لا أستطيع أن أطهو الحلوى هكذا، أبدًا أبدًا.... ما كان ليخطر على بال أحد أن يصنع الحلوى بهذا النوع من التوت.... بالتوت... كالبورنيا؟... من كان سيخطر له ذلك؟... أي شخص سيقول لك إن زوجة الواعظ... لا... لا، حسنًا هي كذلك، وذاك الطفل الآخر الذي لا يستطيع المشي بعد...».

صمتت السيدات، فأيقنت أنهن قد انتهين من التهام كل الأطباق التي قدمت لهن. عادت كالبورنيا ووضعت إبريق أمي الفضي الثقيل على صينية. همهمتُ: «إبريق القهوة هذا عجيب. إنهم لا يصنعون مثله هذه الأيام».

ـ هل يمكن لي أن أحمله إلى الداخل؟

ـ إذا كنت حريصة ولن تسقطيه أرضًا. ضعيه عند نهاية المائدة أمام السيدة ألكسندرا. هناك عند الفناجين وما شابه. هي التي ستصب القهوة.

حاولت أن أضغط بمؤخرتي على الباب المروحي كما تفعل كالبورنيا

ولكن الباب لم ينفتح. فتحت كالبورنيا الباب لي وهي تبتسم وقالت: «انتبهي الآن. إنه ثقيل. لا تنظري إليه ولن تسكبيه».

نجحت رحلتي، ابتسمت العمة ألكسندرا ابتسامة مشرقة وقالت: «ابقي معنا يا چان لويز». وكان ذلك جزءًا من حملتها لتعليمي كيف أُصبح سيدة محترمة.

كان من عادة كل مضيفة لإحدى الحلقات أن تدعو جيرانها لتناول المأكولات الخفيفة، بغض النظر عن الطائفة التي ينتمين إليها، وكان ذلك يفسر حضور الآنسة راتشيل وهي محتفظة بوعيها دون أثر لما تشرب من خمور، والآنسة مودي، والآنسة ستيفاني كروفورد. جَلَسْتُ بالقرب من الآنسة مودي وأنا أشعر بحالة عصبية وتساءلت لماذا ترتدي النساء قبعاتهن لكي يعبرن الشارع فحسب؟ كانت النساء المحتشدات يملأنني دومًا بخوف غامض ورغبة أكيدة في أن أكون في مكان آخر، ولكن هذا الشعور هو ما كانت تسميه العمة ألكسندرا بشعور «الطفل المدلّل».

كانت السيدات منتعشات في الثياب الرقيقة ذات الأزهار: كان أغلبهن قد وضعن الكثير من البودرة ولكن دون استعمال حمرة الخدود، أما النوع الوحيد من أحمر الشفاه في الغرفة فكان من نوع «تانجي ناتشورال» (Tangee Natural). كما كان طلاء «كيوتكس ناتشورال» (Cutex Natural) يلمع على أظافر أيديهن. ولكن بعض السيدات الأصغر سنًا كن يستعملن النوع المسمى «روز» (Rose). كان أريج عطورهن رائعًا. جلست في هدوء، بعد أن تغلبت على رعشة يديّ بأن أطبقت على ذراعي مقعدي بقوة، وانتظرت أن تكلمني إحداهن.

لمع جسر الأسنان الذهبي في فم الآنسة مودي حين قالت:

ـ أنت أنيقة جدًا اليوم يا آنسة چان لويز. أين بنطلونك اليوم؟

ـ تحت ثوبي.

لم أكن أقصد أن أثير الضحك، ولكن السيدات ضحكن، احمرت وجنتاي حين أدركت خطئي، ولكن الآنسة مودي نظرت إليّ نظرة جدية. إنها لا تضحك أبدًا إلا إذا قصدت أن أكون مضحكة.

ووسط الصمت المفاجئ الذي أعقب ذلك، صاحت الآنسة ستيفاني كروفورد عبر الغرفة:

ـ ماذا ترغبين أن تكوني حين تكبرين يا چان لويز؟ محامية؟

ـ لا، لم أفكر بذلك بعد.

أجبتها وأنا ممتنة لكونها تلفظت فغيرت مجرى الحديث. ثم بدأت أختار مهنتي بسرعة: ماذا أقول ممرضة؟ قائد طائرة؟

ـ حسنًا...

ـ عجبًا، ظننتك تريدين أن تكوني محامية، فقد شرعتِ في الذهاب إلى المحكمة.

ضحكت السيدات مرة أخرى، قالت إحداهن:

ـ ستيفاني تلك شخص غريب الأطوار.

تشجعت الآنسة ستيفاني على متابعة الموضوع فقالت:

ـ ألا تريدين أن تكوني محامية حين تكبرين؟

لمست يد الآنسة مودي يدي، فأجبت برقة كافية:

ـ لا، مجرد سيدة.

نظرت إليّ ستيفاني بشك، وخلصت إلى أني لم أكن أقصد أية وقاحة، وقد قنعت أخيرًا بأن قالت:

ـ حسنًا، لن تكون لديك فرصة كبيرة لتحقيق ذلك حتى تبدئي بارتداء الفساتين مرات أكثر.

أطبقت يد الآنسة مودي بشدة على يدي فلم أقل شيئًا، كان دفء اليد كافيًا.

كانت السيدة جريس مريوذر إلى يساري، وشعرت أنه من الأدب التحدث إليها. كان السيد مريوذر، وهو الميثودي المخلص حين يلزم الأمر ذلك، لا يرى في الغناء ما يضير. كان يقول: «يا للعناية السماوية المدهشة. ما أجمل ذلك الصوت، إنه ينقذ شخصًا بائسًا مثلي...». وكان الرأي السائد في مايكوم، على أية حال، أن السيدة مريوذر قد أعادته إلى رشده وصنعت منه مواطنًا صالحًا. بالتأكيد، كانت السيدة مريوذر أكثر السيدات ورعًا في مايكوم. بحثت عن موضوع قد يكون مُهمًا لها، قلت:

ـ ما الذي درستموه عصر هذا اليوم؟

قالت:

ـ آه يا طفلتي، كنا نتحدث عن أولئك «المرونا» البائسين.

ثم صمتت. كان لا بد من طرح بضعة أسئلة أخرى.

كانت عينا السيدة مريوذر البنيتان الواسعتان تمتلئان دائمًا بالدموع حين تتذكر المضطهدين. قالت:

ـإنهم يعيشون في تلك الغابة لا يرعاهم سوى السيد ج. جريمز إيفرت (J. Grimes Everett). ليس هناك شخص أبيض واحد يسعى للاقتراب منهم سوى السيد ج. جريمز إيفرت الذي يملك ورع القديسين.

انطلق صوت السيدة ميريوذر كأنه عزف على الأُرْغُن. فكل كلمة تأخذ مداها الكامل.

الفقر... الجهل... انحطاط الأخلاق... لا أحد يعرف كل ذلك تحديدًا سوى «ج. جريمز إيفرت». هل تعرفين أنه حين طلبت مني الكنيسة القيام بتلك الرحلة إلى أرض المعسكر قال لي ج. جريمز إيفرت...

ـ هل كان هناك يا سيدتي؟ ظننت...

ـ كان هناك في إجازة. قال ج. جريمز إيفرت لي: «يا سيدة مريوذر، ليست لديك فكرة، أية فكرة عما نواجهه هناك». هذا ما قاله لي.

ـ نعم يا سيدتي.

قلت له: «يا سيد إيفرت، إن سيدات الكنيسة الأسقفية لمايكوم ألاباما في الجنوب يساندونك مئة بالمائة». هذا ما قلته له. وكما تعرفين، فقد أخذت على نفسي عهدًا في تلك اللحظة. قلت لنفسي حين أعود إلى البلدة، سأحاضر حول موضوع «المرونا» وأنقل رسالة ج. جريمز إيفرت إلى مايكوم، وهذا ما أفعله الآن.

ـ نعم يا سيدتي.

حين كانت السيدة مريوذر تهز رأسها، كانت خصلات شعرها الداكن اللون تهتز. قالت:

ـ يا چان لويز، أنت فتاة محظوظة. فأنت تعيشين في بيت مسيحي مع أشخاص مسيحيين في بلدة مسيحية. أما هناك في أرض ج. جريمز إيفرت فلا شيء هناك سوى الخطيئة والقذارة.

ـ نعم يا سيدتي.

ـ الخطيئة والقذارة... عما كنت تتحدثين يا جيرترود؟

وهنا التفتت السيدة مريوذر إلى السيدة الجالسة بالقرب منها: «أوه تعنين ذلك... حسنًا، دائما أقول اغفري وانسي، اغفري وانسي. إن ما على الكنيسة أن تفعله هو أن تساعدها على أن تعيش حياة مسيحية من الآن فصاعدًا وذلك من أجل أولئك الأطفال. يجب أن يذهب بعض الرجال إلى هناك ويقولوا للواعظ أن يشجعها».

هنا قاطعتها قائلة:

ـ اعذريني يا سيدة مريوذر. هل تتحدثن جميعكن عن مايبلا يوويل؟

ـ مايبلا..؟ لا يا طفلتي. بل زوجة ذلك الرجل الزنجي، زوجة توم، توم....

ـ روبنسون يا سيدتي.

التفتت السيدة مريوذر نحو جارتها مرة أخرى:

ـ هناك شيء واحد أؤمن به فعلًا يا جيرترود، ولكن بعض الناس لا يرونه بطريقتي نفسها. لو أننا نجعلهم يعرفون أننا نغفر لهم، وأننا قد نسينا الموضوع، فإن هذا كله سينقضي.

قاطعتها مرة أخرى:

ـ يا سيدة مريوذر، ما الذي سينقضي؟

التفتت إليّ من جديد، كانت السيدة مريوذر واحدة من أولئك الراشدات المحرومات من الأطفال، واللائي يظنن أنه من الضروري استعمال نبرة صوت مختلفة عند التحدث إلى الأطفال. قالت بنغمة متباطئة:

ـ لا شيء يا چان لويز. الطباخون وعمال الحقول غير راضين، ولكنهم عادوا إلى هدوئهم الآن... لقد همهموا وتمتموا طوال ذلك اليوم الذي تلا تلك المحكمة.

واجهت السيدة مريوذر السيدة فارو (Mrs. Farrow):

ـ يا جيرترود، سأقول لك إنه ليس هناك من يفوق الزنجي العابس في تعكير مزاجنا فوجوههم تنطق بالبؤس. وإذا ما جلبت إحداهن لتساعدك في المطبخ، فهذا سيفسد يومك كله. هل تعرفين ما قلت لخادمتي «صوفي» كما يليق بمسيحية، قلت: «يا صوفي، أنت بكل بساطة لا تتصرفين اليوم كما يليق بمسيحية. لم يكن المسيح من النوع الذي يهمهم ويتمتم ويتذمر طوال النهار وقد أصابت كلماتي هدفها، فقد رفعت عينيها عن الأرض وقالت: «لا، يا سيدة مريوذر، لم يكن المسيح يفعل ذلك». أقول لك يا جيرترود إن عليك ألا تدعي فرصة واحدة تفوتك دون أن تذكري فيها الرب.

وتذكرت هنا الأرغن الصغير القديم في المعبد الصغير في «فينشز لاندينج». حين كنت صغيرة جدًا، وكنت إذا ما أحسنت التصرف خلال النهار، يسمح لي أتيكوس أن أنفخ بينما يقوم هو بمتابعة لحن ما بإصبع واحدة، وكانت النغمة الأخيرة تستمر ما دام هناك هواء يبقيها. كادت

أنفاس السيدة مريوذر تنفد، كما رأيت، وكانت تستجمع شتات نفسها بينما تهيأت السيدة فارو لتتحدث.

كانت السيدة فارو امرأة رائعة القوام، ذات عينين فاتحتي اللون وقدمين صغيرتين. كان لشعرها تموجات دائمة، وقد اتخذ شكل حلقات رمادية متلاصقة. كانت الثانية في ترتيب أكثر السيدات ورعًا في مايكوم، وكانت لديها عادة غريبة، إذ كانت تمهد لأي شيء تريد قوله مصدرة صوتًا أشبه بالفحيح.

قالت:

ـ يا جريس، هذا شبيه بما قلته للأخ «هاتسون» (Brother Hutson) ذلك اليوم. قلت له: «يا أخ «هاتسون» يبدو أننا نحارب في معركة خاسرة، أجل... معركة خاسرة. فهم لا يكترثون أبدًا. يمكننا تثقيفهم حتى نصاب بالإنهاك، ويمكننا أن نحاول أن نجعلهم مسيحيين حتى تنفد قوانا ويبلغ بنا التعب مداه، ولكن لا امرأة آمنة في فراشها هذه الأيام». قال لي: «يا سيدة فارو، لا أعرف ما الذي نحن مقدمون عليه هنا». فقلت له إن ما يقوله حقيقة واقعة.

أومأت السيدة مريوذر برأسها على نحو كشف ما تتحلى به من حكمة. كان صوتها يعلو على رنين فناجين القهوة والأصوات الصادرة عن السيدات وهن يأكلن. قالت:

ـ يا جيرترود، أقول لك إن هناك بعض الناس الطيبين في هذه البلدة وإن كانوا ضالين، إنهم طيبون لكنهم ضالون. إنهم أولئك الذين يظنون أنهم يحسنون صنعًا، هؤلاء من أعني. لست أنا التي تدعوهم بأسمائهم، ولكن بعض من في البلدة ظن أنه كان يحسن الصنع منذ فترة من الزمن،

ولكن ما فعلوه حقًا كان تحريضهم. هذا كل ما فعلوه. كاد الأمر يبدو وكأنه الصواب حين فعلوا ما فعلوا، أنا واثقة من أني لا أعرف، لا أدعي العلم بهذه الأمور، ولكنها كانت مقطبة الجبين... متذمرة... أقول لك إن «صوفي» لو استمرت فيما كانت عليه يومًا آخر لطردتها. لم يخطر على عقلها المسكين أن السبب الوحيد الذي يجعلني أبقيها في خدمتي هو هذا الكساد الاقتصادي وأنها في حاجة إلى الدولار وربع الدولار الذي تحصل عليه في الأسبوع.

ـ ولكنك لا تجدين صعوبة في ازدراد طعامهم والاستمتاع به، أليس كذلك؟[1]

كانت الآنسة مودي هي من تفوهت بتلك الكلمات وقد ارتسم على زاويتي فمها خطان مشدودان وهي تجلس في صمت بالقرب مني، وفنجان القهوة متوازن على ركبة واحدة. كنت قد فقدت خيط الحديث منذ فترة طويلة، وذلك حين توقفتا عن التحدث عن زوجة توم روبنسون، وقد قنعت بالتفكير في فينشز لاندينج والنهر. جانب العمة ألكسندرا التوفيق في جميع مساعيها: فالجانب العملي من الاجتماع كان مُرَوِّعًا، والجانب الاجتماعي منه كئيبًا.

قالت السيدة مريوذر:

ـ يا مودي، أنا واثقة أني لا أعرف ما الذي تعنينه.

(١) الإشارة ليست صريحة، ولكن السيدة مودي تعني أتيكوس، كما سيتبين بعد ذلك من شعور العمة ألكسندرا بالامتنان لها لدفاعها عن أخيها ضد كلمات السيدة مريوذر (المترجمة).

قالت الآنسة مودي باقتضاب:

ـ وأنا واثقة أنك تعرفين.

وكَفَّت عن الكلام. حين تكون الآنسة مودي غاضبة فإن اقتضابها يكون باردًا. كان شيئا ما قد جعلها غاضبة جدًا، وكانت عيناها الرماديتان باردتين كصوتها. احمرّ وجه السيدة مريوذر، ونظرت إليَّ ثم التفتت بعيدًا. ولم أتمكن من رؤية السيدة فارو.

نهضت العمة ألكسندرا من خلف منضدتها ووزّعت بسرعة مزيدًا من المأكولات، وجمعت بمهارة بين السيدة مريوذر والسيدة جيتس في حوار شائق وعندما نجحت في دفعهما للانهماك في الحديث مع السيدة بيركينز، عادت لاتخاذ مقعدها وألقت بنظرة ملؤها الامتنان نحو الآنسة مودي، وزاد عجبي من عالم النساء، فلم تكن الآنسة مودي والعمة ألكسندرا صديقتين حميمتين، وها هي العمة تشكرها في صمت الآن على شيء ما. لماذا؟ لم أكن أعرف. وقد أرضاني أن أعلم أن هناك من يمكنه أن يقدم المساعدة للعمة ألكسندرا فيصل إلى أعماقها على نحو يثير فيها عاطفة الامتنان، لم يكن هناك شك في ذلك، فسرعان ما سوف أدخل هذا العالم الذي تتهادى على سطحه سيدات يفوح منهن العطر، وهن يروّحن بالمراوح برقة ويشربن الماء البارد.

ولكني كنت أكثر شعورًا بالراحة في عالم والدي. فأشخاص كالسيد هك تيت لا يوقعونك في الفخ بأسئلة بريئة ليضحكوا عليك، وحتى جيم ما كان ينزع كثيرًا إلى الانتقاد إلا إذا قلت أمامه شيئًا سخيفًا. بدت السيدات لي وكأن حياتهن تختلط بشيء من شعور الخوف تجاه الرجال، وبدا كذلك أنهن لا يستحسن الرجال من كل قلوبهن، ولكني كنت أحب

الرجال. كان هناك شيء ما فيهم مهما مارسوا السَّبَّ والشرب والقمار ومضغوا التبغ، مهما كانوا كريهين، فقد كان هناك شيء ما فيهم كنت أحبه غريزيًا... فهم ليسوا...

ـ منافقون يا سيدة بيركينز، منافقون بالفطرة...

هذا ما كانت تقوله السيدة مريوذر ثم استأنفت قائلة:

ـ على الأقل لا نحمل هذه الخطيئة على أكتافنا هنا. الناس هناك يعطونهم حريتهم، ولكنك لا ترينهم يجلسون إلى المائدة نفسها معهم. على الأقل نحن لا نمارس ذلك الخداع الذي يمارسونه، فهم يقولون لهم: نعم أنتم أنداد لنا ولكن ابعدوا عنا، أما هنا فنحن نقول: عيشوا بطريقتكم ونحن نعيش بطريقتنا. وأعتقد أن تلك المرأة، تلك «السيدة روزفلت» قد فقدت عقلها... لقد جنت حتما، إذ تأتي إلى مدينة بيرمنجهام وتحاول الجلوس معهم. لو كنت محافظ بيرمنجهام....

ـ حسنًا لم تكن أي منا محافظ بيرمنجهام، ولكني رغبت لو كنت حاكم ألاباما لمدة يوم واحد: كنت سأطلق سراح توم روبنسون بسرعة لا تسمح لعضوات الجمعية التبشيرية بالوقت الكافي لالتقاط الأنفاس. كانت كالبورنيا تحكي منذ أيام لطباخة الآنسة راتشيل عن توم روبنسون وكيف أنه يصعب عليه تحمل ما أصابه، ولم تتوقف عن الحديث حين دخلت المطبخ. قالت إن أتيكوس فعل كل ما بوسعه ليهوِّن عليه سجنه، وأن الشيء الأخير الذي قاله لأتيكوس قبل أن يؤخذ إلى السجن هو: «وداعا يا سيد فينش، لا يمكنك أن تفعل أي شيء الآن، لذا لا فائدة من المحاولة». قالت كالبورنيا إن أتيكوس حكى لها أنه منذ أن أخذوا توم إلى السجن فقد كل أمل، قالت إن أتيكوس حاول أن يشرح الأمور له وكيف

أن عليه أن يبذل قصارى جهده حتى لا يفقد الأمل، لأن أتيكوس يبذل ما في وسعه للعمل على إطلاق سراحه. وسألت طباخة الآنسة راتشيل كالبورنيا لماذا لا يقول أتيكوس: «أجل، سيُطلق سراحك» ويترك الأمور عند هذا الحد... لو قال ذلك فسوف يرتاح توم. قالت كالبورنيا «لأنك لا تعرفين القانون جيدًا. أول شيء تتعلمينه عندما تعيشين مع أسرة بها رجل قانون هو أنه لا توجد أي أجوبة محددة عن أي شيء. لا يستطيع السيد فينش أن يقول إن شيئًا ما هو كذا حين لا يعرف أنه كذلك».

سَمِعتُ الباب الأمامي ينصفق وسمعت صوت خطوات أتيكوس في الردهة. وتساءلت تلقائيا عن الساعة. ليس هذا وقت عودته إلى البيت، وفى أيام اجتماعات «الجمعية التبشيرية» فإنه يبقى عادة في البلدة حتى يحل الظلام.

توقف في الردهة وقبعته في يده، وكان وجهه شاحبًا.

قال:

ـ معذرة سيداتي. أرجوكن الاستمرار في الاجتماع. لا تدعنني أقطع عليكن الاجتماع. يا ألكسندرا، هل يمكنك القدوم إلى المطبخ للحظة؟ أريد أن آخذ منك كالبورنيا لفترة.

لم يدخل عبر حجرة الطعام، بل ذهب إلى الردهة الخلفية ودخل المطبخ من الباب الخلفي. قابلته أنا والعمة ألكسندرا. فُتِح باب حجرة الطعام مرة أخرى وانضمت الآنسة مودي إلينا. كانت كالبورنيا قد قامت جزئيا من كرسيها.

قال أتيكوس:

ـ يا كال، أريدك أن تذهبي معي إلى منزل هيلين روبنسون...

سألت العمة ألكسندرا وقد أقلقتها النظرة التي كانت مرتسمة على وجه أبي:

ـ ما الأمر؟

ـ لقد مات توم.

ـ رفعت العمة ألكسندرا يدها إلى فمها.

قال أتيكوس:

ـ لقد أطلقوا النار عليه. كان يجري. كان ذلك أثناء فترة التريُّض. قالوا إنه اندفع فجأة بجنون نحو السور وبدأ يتسلقه. أمامهم تمامًا....

ـ ألم يحاولوا إيقافه؟ ألم يحذروه؟

كان صوت العمة ألكسندرا يرتجف.

ـ نعم، طلب منه الحراس التوقف. لقد أطلقوا عدة طلقات في الهواء ثم أطلقوا عليه. وقد أصابوه حين تجاوز السور تمامًا. قالوا إنه لو كانت لديه ذراعان سليمتان لنجا، فقد كان يتحرك بسرعة. وجدوا في جسده سبعة عشر ثقبًا. لم تكن هناك حاجة إلى إطلاق كل تلك الطلقات عليه. كال، أريدك أن تأتي معي وتساعديني على إخبار هيلين بالنبأ.

همهمت كالبورنيا وهي تحاول فك مريلتها دون جدوى:

ـ نعم يا سيدي.

اقتربت منها الآنسة مودي وفكّت لها مريلتها.

قالت العمة ألكسندرا:

ـ هذه هي القشة الأخيرة يا أتيكوس.

ـ هذا يعتمد على الطريقة التي تنظرين إلى الأمر بها. ما هو إلا زنجي واحد بالنسبة إليهم، ضمن مائتين منهم؟ لم يكن هو «توم» بالنسبة للحراس، بل مجرد سجين هارب.

استند أتيكوس إلى الثلاجة، دفع بنظارته إلى الأعلى، وفرك عينيه. قال:

ـ كانت لدينا فرصة طيبة. قلت له ما كنت أفكر فيه، ولكني لم أستطع أن أقول له أكثر من أن لدينا فرصة طيبة. أعتقد أن توم ضاق بفرص الرجال البيض وفضل أن ينتهز فرصته الخاصة. هل أنت جاهزة يا كال؟

ـ نعم يا سيدي يا سيد فينش.

ـ إذن هيا بنا.

جلست العمة ألكسندرا في كرسي كالبورنيا وغَطَّتْ وجهها بيديها. جلست هناك بهدوء كامل: كانت هادئة إلى درجةٍ جعلتني أظنها ستفقد الوعي، وسمعت الآنسة مودي تتنفس وكأنها قد صعدت السلم لتوها، وفي حجرة الطعام كانت السيدات يثرثرن بسعادة.

ظننت أن العمة ألكسندرا كانت تبكي، ولكنها حين أبعدت يديها عن وجهها، لم تكن تفعل ذلك، بدت متعبة. ثم نطقت أخيرًا، وكان صوتها خفيضا:

لا أستطيع أن أقول إني أوافق على كل ما يفعله، يا مودي، ولكنه أخي، وكل ما أريد أن أعرفه هو: متى سينتهي كل هذا؟

ثم ارتفع صوتها:

ـ إن ذاك يمزقه قطعًا. إنه لا يفصح عن ذلك كثيرًا، ولكنه مزقه قطعًا. لقد رأيته حين... ما الذي يريدونه منه غير ذلك يا مودي، ما الذي يريدونه غير ذلك؟

سألت الآنسة مودي:

ـ من هم الذين يريدون يا ألكسندرا؟

ـ أعني هذه البلدة. إن أهلها يريدون منه أن يفعل ما يخشون هم أنفسهم فعله... فذاك لن يضرّهم كثيرًا. لا مانع لديهم من أن يخسر صحته وهو يؤدي ما يخشون هم أن يفعلوه، إنهم...

قالت الآنسة مودي:

ـ اهدئي سيسمعنك، هل سبق لك أن فكرت في الأمر على هذا الوجه؟ سواء أكانت مايكوم تعرف ذلك أم لا، إلا أننا ندفع له أعلى مكافأة نستطيع أن ندفعها لأي إنسان. إننا نأتمنه على فعل ما هو حق. إن الأمر بهذه البساطة.

ـ من يفعل ذلك؟

لم تعرف العمة ألكسندرا أنها كانت تردد كلام ابن أخيها ابن الثانية عشرة.

تلك المجموعة من الناس في هذه البلدة الذين يقولون إن عمل الخير ليس مقتصرًا على فئة دون غيرها. تلك المجموعة من الناس الذين يقولون إن المحاكمة العادلة يجب أن تكون من نصيب الجميع، وليس

نحن فحسب. إنها تلك المجموعة من الناس الذين يتسمون بما يكفي من التواضع حتى يقولوا في أنفسهم حين ينظرون إلى زنجي: «لطف الله وحده هو الذي جعلنا ننجو من حياة بائسة».

كانت حماسة الآنسة مودي القديمة قد عادت إليها الآن:

ـ إنها المجموعة من الناس من سكان هذه البلدة الذين تتوفر لديهم الخلفية الاجتماعية، هؤلاء هم من تسألين عنهم.

لو كنت أكثر انتباهًا، لكانت لدي نبذة أخرى أضيفها إلى تعريف جيم للخلفية الاجتماعية، ولكني وجدت نفسي أرتجف ولا أستطيع التماسك. لقد شاهدت سجن إنفيلد كما كان أتيكوس قد دلني على فناء التريض. كان في حجم ملعب كرة القدم الأمريكية.

أمرتني الآنسة مودي: «أوقفي ذلك الارتجاف». فتوقفت. «انهضي يا ألكسندرا، فقد تركناهن بما فيه الكفاية».

نهضت العمة ألكسندرا وأصلحت من هندامها، ثم أخرجت منديلها من حزامها ومسحت أنفها. ربتت على شعرها وقالت:

ـ هل يبدو عليّ شيء؟

قالت الآنسة مودي:

ـ إطلاقًا. هل تمالكت نفسك يا چان لويز؟

ـ نعم يا سيدتي.

ـ إذن هيا بنا ننضم للسيدات.

حين فتحت الآنسة مودي الباب المؤدي إلى حجرة الطعام ارتفعت أصواتهن. كانت العمة ألكسندرا تتقدمني، ورأيت رأسها يرتفع وهي تعبر الباب.

قالت:

ـ أوه يا سيدة بيركينز. أنت تحتاجين إلى مزيد من القهوة. اسمحي لي أن أقدمها لك.

قالت الآنسة مودي:

ـ كالبورنيا ذهبت في مهمة لعدة دقائق يا جريس. اسمحي لي أن أقدم لك المزيد من الحلوى المصنوعة من التوت. هل سمعت ما فعله ابن عمي قبل أيام؟ أعني ذاك الذي يحب صيد السمك؟

وهكذا انطلقتا ضمن صف من النساء الضاحكات وفي حجرة الطعام، وهما تعيدان ملء فناجين القهوة، وتوزعان الحلوى وكأن أسفهما الوحيد كان المصيبة المنزلية المؤقتة المتمثلة في غياب كالبورنيا.

بدأت الهمهمة الخفيفة مرة أخرى: «أجل يا سيدي هكذا قلت يا سيدة بيركنز، إن ج. جريمز إيفرت قديس شهيد، لقد احتاج إلى زوجة فكانوا يركضون نحو... صالون الجمال عصر كل يوم سبت، بعد أن تغرب الشمس بقليل. إنه ينام مبكرًا مثلما تنام الدواجن، صندوق ممتلئ بالدواجن المريضة. يقول «فريد» إن ذلك هو الذي أثار المسألة كلها. يقول «فريد...»».

نظرت العمة ألكسندرا عبر الغرفة في اتجاهي وابتسمت ثم نظرت

إلى صينية من الحلوى على المائدة، وأومأت برأسها إليها. احترست وأنا أحمل الصينية وأتجه نحو السيدة مريوذر. وبأفضل ما لدي من كياسة، سألتها إن كانت تريد بعضًا منها. وعلى أية حال، فإن كانت عمتي تستطيع أن تكون سيدة بمعنى الكلمة في وقت كهذا، فأنا أستطيع ذلك أيضًا.

الفصل الخامس والعشرون

ـ لا تفعلي ذلك يا سكاوت. ضعيه على السلم الخلفي.

ـ جيم، هل أنت مجنون؟

ـ قلت ضعيه على السلم الخلفي.

رفعت ذلك المخلوق الصغير وأنا أتنهد، ووضعته على آخر درجة في السلم ثم عُدْتُ إلى سريري. كان شهر سبتمبر قد حل، ولكن لا أثر للطقس البارد، ولذا كنا لا نزال ننام في المدخل الخلفي في حماية الباب المنخلي. كانت الحشرات المضيئة لا تزال منتشرة في أنحاء المكان، كما كانت زواحف الليل والحشرات الطائرة التي تضرب الحاجز المنخلي طوال الصيف لم تبتعد بعد إلى حيث ترحل عادة حين يأتي الخريف.

وَجَدَتْ حشرة الرولي بولي طريقها إلى داخل المنزل: وقد استنتجت أن الحشرة الصغيرة قد زحفت صاعدة السلم، ثم انسلت من تحت الباب. كنت أضع كتابي على الأرض إلى القرب من سريري حين رأيتها. وهذه المخلوقات لا يزيد طولها عن بوصة واحدة، وحين تلمسها فإنها تتكور على نفسها متحولة إلى كرة رمادية محكمة.

تمددت على بطني، ومددت يدي إليها ووخزتها. تكورت. ثم شعرت بالأمان، على ما أعتقد، فعادت إلى شكلها الأصلي. تحركت مسافة عدة بوصات على سيقانها المائة، لمستها مرة أخرى فتكورت من جديد. وحين شعرت بالنعاس، قررت إنهاء الأمر. كنت سأسحقها بيدي حين تكلم جيم.

كان جيم مقطب الجبين. ربما كان ذلك جزءًا من المرحلة التي كان يمر بها، وقد تمنيت أن يتجاوزها بسرعة. لم يكن قاسيًا على الحيوانات إطلاقًا، ولكني لم أعرف أن حبه للخير كان يمتد ليشمل عالم الحشرات.

سألت:

ـ لماذا طلبت مني ألا أسحقها؟

ـ لأنها لا تزعجك.

أجابني جيم من الظلام. كان قد أطفأ مصباح القراءة.

ـ أعتقد أنك تمر الآن بمرحلة لا تقتل فيها الذباب والبعوض، أخبرني حين تغير رأيك. هل أقول لك شيئًا؟ لن أجلس مكتوفة اليدين دون أن أسحق بقَّة تقرصني.

أجابني:

ـ اصمتي.

كان جيم هو الذي يصبح أكثر تشبهًا بالبنات كل يوم، وليس أنا. لم ألبث أن شعرت بالراحة فاستلقيت على ظهري وانتظرت أن يغلبني

النوم، وبينما كنت أنتظر رحت أفكر في ديل؛ كان قد غادرنا منذ أول الشهر وقطع من الوعود الأكيدة الكثير بأنه سيعود عندما تغلق المدرسة أبوابها... كان يظن أنه لدى أسرته فكرة عامة الآن بأنه يحب قضاء الصيف في مايكوم. اصطحبتنا الآنسة راتشيل بالتاكسي إلى محطة مايكوم، وقد لوح لنا ديل من نافذة القطار حتى غاب عن الأنظار. لم يفارق مخيلتي قط: وقد افتقدته. في آخر يومين قضاهما معنا، علمه جيم السباحة.

علمه السباحة. فجأة أفقت تماما إذ تذكرت ما حكاه لي ديل.

كانت «دوامة باركر» في نهاية طريق ترابي بعيد عن الطريق العام المؤدي إلى بلدة ميريديان على بعد ميل واحد من بلدتنا. من السهل أن يجد المرء عربة قطن أو سيارة عابرة تُقِلُّه على الطريق العام، وكان المشوار القصير على الأقدام نحو النهر سهلًا، ولكن احتمال العودة سيرًا على الأقدام طوال الطريق إلى المنزل عند الغسق، حين تكون حركة السير خفيفة، كان احتمالًا واردًا ومتعبًا، ويحرص السباحون عادة على ألا يتأخروا كثيرًا.

وكما روى ديل، فقد كان هو وجيم قد وصلا إلى الطريق العام حين شاهدا أتيكوس يقود سيارته في اتجاههما. بدا عليه أنه لم يرهما، لذا لوحا له. وأخيرًا أوقف أتيكوس سيارته وحين لحقا به قال:

الأفضل لكما أن تجدا سيارة تعيدكما إلى البيت، فأنا لن أذهب إلى البيت الآن.

وقال ديل إن كالبورنيا كانت تجلس في المقعد الخلفي للسيارة.

احتج جيم، ثم توسل فقال أتيكوس:

ـ حسنًا، يمكنكما أن تأتيا معنا بشرط البقاء في السيارة.

وفي الطريق إلى بيت توم روبنسون حكى لهما أتيكوس ما حدث.

انعطفت السيارة خارج الطريق العام ثم سارت ببطء مارة بمقلب القمامة ومنزل عائلة يوويل، ثم هبطت إلى الزقاق الضيق نحو أكواخ الزنوج. قال ديل إن مجموعة من الأطفال السود كانوا يلعبون في فناء منزل توم الأمامي. أوقف أتيكوس سيارته ونزل ولحقت به كالبورنيا عبر البوابة الأمامية.

سمعه ديل يسأل أحد الأطفال:

ـ أين أمك يا سام؟

أجابه سام:

ـ إنها هناك في منزل الأخت ستيفنز (Sis Stevens)، يا سيد فينش، هل تريد أن أذهب لأناديها؟

قال ديل إن أتيكوس بدا مترددًا، ثم قال، نعم، وانطلق سام.

قال أتيكوس للأطفال:

ـ استمروا في اللعب أيها الأطفال.

خرجت فتاة صغيرة من باب الكوخ ووقفت تنظر إلى أتيكوس. قال ديل إن شعرها كان عبارة عن كومة من الضفائر الغليظة الصغيرة، وكل واحدة منها تنتهي بشريطة لامعة. ابتسمت ابتسامة عريضة ثم سارت نحو والدنا. ولكنها كانت أصغر من أن تنزل السلم وحدها: قال ديل إن أتيكوس اتجه إليها، رفع قبعته وأعطاها إصبعه؛ فأمسكت بها وأنزلها هو درجات السلم ببطء. ثم سلمها إلى كالبورنيا.

كان سام يهرول خلف أمه حين وصلا. قال ديل إن هيلين قالت: «مساء الخير يا سيد فينش، ألن تجلس؟»، ولكنها لم تقل شيئًا آخر، ولا أتيكوس أيضًا.

قال ديل:

ـ يا سكاوت، لقد سقطت على التراب. سقطت هكذا على التراب كأنما داستها قدم مارد ضخم، هكذا فجأة، هكذا.....وكأنكِ تدوسين نملة، وهنا ضرب ديل الأرض بقدمه.

قال ديل إن كالبورنيا وأتيكوس أوقفا هيلين على قدميها وجراها إلى داخل الكوخ. وقد بقوا في الداخل فترة طويلة، ثم خرج أتيكوس وحده. وحين عادوا بالسيارة مارين بمقلب القمامة، صرخ بهم بعض أفراد عائلة يوويل ولكن ديل لم يسمع ما قالوه جيدًا.

اهتمت مايكوم بخبر موت توم ربما لمدة يومين، كانت فترة يومين كافية حتى تنتشر المعلومات في أنحاء المقاطعة. «هل سمعت بما حدث...؟ لا؟ حسنًا، يقولون إنه كان يهرب بسرعة البرق...» بالنسبة لمايكوم كان موت توم شيئًا «نمطيًا». فالشيء النمطي هو أن يحاول زنجي أن يكسر قيوده ويهرب، والشيء النمطي هو أن يكون عقل الزنجي بلا خطة، دون تفكير في المستقبل، بل مجرد الهروب في أول فرصة تحين له. شيء مضحك. كان يمكن لأتيكوس فينش أن يطلق سراحه. ولكن أن ينتظر...؟ لا وحق الجحيم. فما يجيء بسهولة يذهب بسهولة أيضًا. هذا يكشف لك الأمر: فتوم روبنسون شخص متزوج شرعيًا، ويقولون إنه كان حسن السمعة ويذهب إلى الكنيسة وغير ذلك، ولكن ما إن تسنح لهم الفرصة فإن الخط الفاصل دقيق للغاية، فالزنجي يبقى زنجيًا.

وقد ورد من التفاصيل ما يكفي كي يقدم المستمع رؤيته الخاصة للحكاية ثم توقف القيل والقال حتى ظهرت صحيفة «مايكوم تريبيون» في الخميس التالي. كان فيها نعي مع ترجمة موجزة عن حياة المتوفى في «أخبار الملونين»، ولكن كان هناك أيضًا مقالٌ افتتاحيٌ.

في ذلك المقال، كان السيد ب. ب. أندروود أشد ما يكون مرارة، وقد بدا أنه لا يهتم بمن سيقوم بإلغاء إعلانه أو اشتراكه في الصحيفة. ولكن أهل مايكوم لا تصدر عنهم ردود أفعال كهذه: فقد كان بإمكان السيد أندروود أن يبح صوته أو يكتب ما شاء له أن يكتب، ومع ذلك فالناس سيستمرون في الإعلان عنده ودفع الاشتراكات لصحيفته. إذا كان يريد أن يجعل من نفسه أضحوكة فذاك شأنه. لم يكن السيد أندروود يتحدث عن ضياع العدل، بل كان يتحدث بطريقة يستطيع بها الأطفال أن يفهموا. كان السيد أندروود يتصور بكل بساطة أن قتل الأشخاص ذوي العاهة خطيئة، سواء أكانوا واقفين أم جالسين أم هاربين. وقد شبه موت توم بالذبح الذي لا معنى له للطيور المغردة على أيدي الصيادين والأطفال، وقد ظنت مايكوم أنه كان يحاول كتابة افتتاحية شعرية بحيث يعاد طبعها في صحيفة «مونتجومري أدفرتايزر».

تساءلت في نفسي وأنا أقرأ افتتاحية السيد أندررود كيف يمكن لكلامه أن يكون صحيحًا. قتل بلا معنى...؟ لقد عومل توم معاملة قانونية حتى يوم مماته، كما حُوكِمَ علنًا وأدانه اثنا عشر رجلًا طيبًا صادقًا، كما دافع عنه والدي طوال الوقت. ثم وضح لي ما عناه السيد أندروود: لقد بذل أتيكوس ما بوسعه باعتباره رجلًا حرًا لإنقاذ توم روبنسون، ولكن ما كان لأتيكوس أن يربح قضيته في ساحات القلوب المغلَّقة على أسرارها، فتوم روبنسون أصبح رجلًا ميتًا في اللحظة التي فتحت فيها مايلا يوويل فمها وصرخت.

لقد بعث اسم «يوويل» في نفسي شعورًا بالغثيان، لم تكن مايكوم قد أضاعت وقتها في اكتشاف آراء السيد يوويل حول مقتل توم ونقلها عبر أفضل قناة للشائعات، ألا وهي الآنسة ستيفاني كروفورد. قالت الآنسة ستيفاني للعمة ألكسندرا في حضور جيم: «حسنًا، إنه بلغ من الكبر حدًا لا يسمح له بالاستماع إلى النصح». إن السيد يوويل قال إن موت توم جعل عدد الذين يجب أن يموتوا ينخفض من ثلاثة إلى اثنين. وقد قال لي جيم إن عليّ ألا أخاف، فكلام السيد يوويل مجرد ثرثرة. كما قال لي إني إذا تلفظت بكلمة واحدة لأتيكوس حول هذا الموضوع، أو إذا جعلت أتيكوس يعرف بطريقة أو بأخرى أني عرفت، فإنه سيقاطعني ولن يوجه إليّ كلامًا بعد ذلك أبدًا.

الفصل السادس والعشرون

بدأت الدراسة، وبدأت معها رحلاتنا اليومية مرورًا بمنزل عائلة رادلي. أصبح جيم الآن في الصف السابع وكان يذهب إلى المدرسة الثانوية الكائنة خلف مبنى المدرسة الابتدائية، وكنت أنا في الصف الثالث وأصبح مسار حياتنا اليومي مختلفًا إلى حد أني كنت أمشي صباحًا مع جيم حتى المدرسة وأراه فقط في مواعيد الوجبات. كان يخرج ليلعب كرة القدم، ولكنه كان لا يزال صغيرًا نحيفا لا يملك ما يقدمه للفريق سوى إمداده بجرادل الماء، وقد استغرق في نشاطه هذا تدفعه حماسة بالغة حتى إنه أصبح يقضي معظم أوقات العصر خارج المنزل فلا يعود قبل حلول الظلام إلا نادرًا.

لم يعد منزل عائلة رادلي يخيفني، ولكنه ظل على كآبته المعهودة وبرودته المعتادة تحت أشجار البلوط الضخمة، كما لم يفقد الرهبة التي يبعثها في النفس، وكان السيد ناثان رادلي لا يزال يُرى في الأيام الصحوة، وهو يسير من البيت إلى البلدة وبالعكس، وكنا نعرف أن «بو» لا يزال هناك وذلك للسبب القديم نفسه: فلم يره أحد يخرج محمولًا بعد. كنت أشعر أحيانًا بالندم عند مروري بذلك المنزل العتيق، وذلك

لأني شاركت فيما كان يعتبر تعذيبًا لآرثر رادلي. فمن المستبعد أن من اعتاد العزلة من البشر أن يتلصص عليه الأطفال من خلال مصاريع النوافذ، أو بأن يقدموا له التحيات على طرف عصا صيد، أو بأن يتجولوا في بستان الخُضَر الممتد أمام بيته في الليل؟

ومع ذلك تذكرت العُملتين من النوع المرسوم عليه رأس هندي، و«اللبان»، والدميتين المصنوعتين من الصابون، والميدالية الصدئة والساعة المكسورة ذات السلسلة. لا بد أن جيم قد رماها في مكان ما. توقفت ونظرت إلى الشجرة في عصر أحد الأيام: كان جذعها منتفخًا حول الأسمنت. وكان لون البقعة نفسها يتحول إلى اللون الأصفر.

على كل حال، فقد كدنا نراه مرتين، وكان ذلك رقمًا قياسيًا كافيًا لأي شخص.

ولكني كنت أبحث عنه كلما مررت من هناك. ربما سنراه في يوم من الأيام. لقد تخيلت كيف سيكون ذلك: حين سيحدث سيكون هو جالسًا على الأرجوحة حين أمرُ، أنا أقول: «كيف حالك يا سيد آرثر؟» وكأني كنت أقول له ذلك عصر كل يوم من أيام حياتي. وسيرد هو: «مساء الخير يا چان لويز» وكأنما كان يقول لي ذلك عصر كل يوم من أيام حياتي. «إن الطقس جميل، أليس كذلك؟» وسأقول: «نعم يا سيدي. جميل جدًا». ثم أستأنف طريقي.

كان ذلك مجرد خيال. لن يتاح لنا أن نراه على الإطلاق. فربما كان يخرج فعلًا حين لا يكون القمر مضيئًا ويتلصص على الآنسة ستيفاني كروفورد. لو كنت مكانه لاخترت شخصًا آخر أنظر إليه، ولكن ذلك كان شأنه الخاص. إنه لن يأتي ليتلصص علينا أبدًا.

قال أتيكوس في إحدى الليالي حين عبرت عن رغبة مُلِحَّة في أن أنظر ولو لمرة واحدة إلى بو رادلي قبل أن أموت:

ـ لن تعودي إلى سيرتك الأولى، أليس كذلك؟ وإذا كنت ستفعلين ذلك، فسأقول لك من الآن: «كفاكِ. فلم يعد بقدوري وأنا في هذه السن أن أمنعكم من تخطي حدود ملكية عائلة رادلي، بالإضافة إلى ذلك فالمكان خَطِر. كان يمكن أن يتعرض أحدكم للقتل في إحدى المرات. أنت تعرفين أن السيد ناثان يطلق النار على كل ظل يراه، حتى لو كانت ظلال أطفال صغار حفاة، لقد كنتم محظوظين إذ لم تقتلوا».

سكت فورًا، وفي الوقت نفسه أثار أتيكوس عجبي ؛ فقد كانت هذه هي أول مرة يجعلنا ندرك فيها أنه كان يعرف أكثر بكثير مما كنا نظن حول أمر ما. لقد مضى على الأمر سنوات، لا بل كان ذلك في الصيف الماضي أو ربما الصيف قبل الماضي، مرت الأيام وذاكرتي لا تسعفني. عليّ أن أسأل جيم.

لقد مرت بنا أحداث وأحـداث، ولم يكن بو رادلي يمثل أسوأ مخاوفنا، قال أتيكوس إنه لا يرى أنه من الممكن أن يقع بنا ما هو أسوأ مما وقع بالفعل وأن الأمور جميعها مآلها إلى الاستقرار على نحو ما، وبعد مرور فترة كافية من الزمن سينسى الناس أن موضوع توم روبنسون شغل انتباههم في يوم من الأيام.

ربما كان أتيكوس على حق، ولكن حوادث الصيف خَيّمَتْ فوق رءوسنا كما لو كانت سحابة من دخان في غرفة مغلقة. لم يناقش أهل مايكوم القضية معي أو مع جيم على الإطلاق، وقد بدا أنهم قد انتهوا من مناقشتها مع أطفالهم، وقد خلصوا إلى أنه لا حيلة لنا في أن يكون

أتيكوس أبًا لنا، ولذا فإن على أطفالهم أن يعاملونا برفق بالرغم مما عرف عنه من غرابة الأطوار. ما كان ممكنًا أن يكون الأطفال قد توصلوا إلى ذلك بأنفسهم: فلو تُرِك زملاء الصف ليتصرّفوا من تلقاء أنفسهم، لاضطررنا أنا وجيم إلى خوض عدة معارك ملاكمة سريعة ومُرْضية ووضعنا حدًا للمسألة. ولكن بما أن الأمر كان على ما هو عليه، فإننا أرغمنا على رفع رءوسنا عاليًا وأن نكون بحق «جنتلمان» و«سيدة». وبطريقة ما ذكرنا ذلك بعهد السيدة هنري لافاييت ديبوز إذا ما استبعدنا صراخها. ولكن كان هناك أمر واحد غريب، على أية حال، لم أفهمه على الإطلاق: فرغم عيوب أتيكوس بوصفه أبًا، كان الناس راضين عن انتخابه مرة أخرى لبرلمان الولاية في ذلك العام، وكالعادة، دون معارضة. وقد استنتجت أن الناس غريبو الأطوار فحسب. لقد ابتعدت عنهم، ولم أعرهم اهتمامًا إلا إذا اضطررت إلى ذلك.

وقد اضطررت إلى ذلك في أحد أيام الدراسة. فقد كانت لدينا حصة أسبوعية تسمى «الأحداث الجارية». وكان من المفروض أن يقوم كل طفل باختيار مقال من صحيفة، فيستوعب مضمونه ثم يرويه لبقية الفصل. وقد كان من شأن هذه الممارسة أن تتغلب ـ حسب زعمهم ـ على مجموعة متنوعة من نواحي القصور: فقد كان من شأن الوقوف أمام زملاء الفصل أن يشجع على تعلّم الوقفة الجيدة أمام الآخرين وتدريب الطفل على حفظ التوازن: فإلقاء خطاب قصير كان يجعله واعيًا بالكلمات، كما أن حفظه للحادثة التي يرويها يُقوي ذاكرته، وكونه قد اختير يجعله أكثر حرصًا على العودة إلى الجماعة.

كانت الفكرة عميقة، ولكنها كالعادة لم تفلح تمامًا في مايكوم. فبادئ ذي بدء، كانت قلة من الأطفال الريفيين يحصلون على صحف، وهكذا فإن ثقل «الأحداث الجارية» كان يتحمله أطفال البلدة، وهذا كان من

شأنه أن يقنع الأطفال الذين يأتون من نواحٍ متفرقة بما لا يقبل الشك بأن «أطفال البلدة» كانوا يستأثرون بكل الاهتمام على أية حال. أما الأطفال الريفيون الذين تصلهم الصحف، فكانوا يحضرون مختارات مما أسموه «صحيفة جريت» [1] (The Grit Paper). وهي نشرة تفتقر إلى المصداقية في نظر معلمتنا «الآنسة جيتس». ولقد حِرْتُ في سبب ما يبدو على الآنسة جيتس من تقطيب للجبين كلما قرأ أحد الأطفال ما تيسر له من صحيفة جريت، ولكنني على نحو ما وجدت ذلك الموقف مرتبطًا بحب العزف على الكمان وتناول البسكويت المحلى بالعصير المركز على الغداء، وأن يكون الشخص متدينًا، وأن يغني أغنية «الحمار يشدو بعذوبة» (Sweetly sings the Donkey) وأن يلفظ كلمة (Donkey) أو حمار على أنها (Dunkey)، وقد كانت الدولة تدفع الرواتب للمعلمين حتى يثنوا أولئك الأطفال عن مثل تلك الممارسات.

ومع ذلك، فلم يكن الكثير من الأطفال يعرفون ماذا تعني عبارة «الأحداث الجارية». فها هو «ليتل تشاك ليتل»، وهو الخبير بالأبقار وعاداتها، توقفه الآنسة جيتس بعد أن كان قد قرأ نصف حكاية كتبها في الصحيفة «العم ناتشل» (Uncle Natchell) وتقول له: «يا تشارلز، هذه ليست حادثة جارية. إنها إعلان».

كان سيسيل جاكوبز يعلم جيدًا معنى «الحدث الجاري». ولما جاء دوره توجه إلى مقدمة الفصل وبدأ قائلًا: «العم هتلر» قالت الآنسة جيتس:

---

(١) صحيفة تُغنَى بشئون الريف الأمريكي، صدر العدد الأول منها في عام ١٨٨٢ ولا تزال متاحة على الإنترنت http://www.grit.com/. (المترجمة).

ـ أدولف هتلر (Adolf Hitler) يا سيسيل. لا يمكن البدء بنداء شخص «بالعم».

رد سيسيل:

ـ نعم يا سيدتي. لقد كان هتلر يحاكم اليهود.

قالت: لا بل يضطهدهم[1].

ـ لا يا آنسة جيتس، فمكتوب هنا ـ ما علينا ـ كان أدولف هتلر يتعقب اليهود ويدخلهم السجون وينهب كل ممتلكاتهم ويطهر البلد من كل من هم محدودي الذكاء.

ـ يطهر البلد من كل من هم محدودي الذكاء؟

ـ نعم يا سيدتي، نعم يا آنسة جيتس.

ـ أعتقد أنهم لا يملكون من الحكمة ما يجعلهم يطهرون أنفسهم. لا يمكن لساذج أن يفعل ذلك لنفسه. ما علينا فقد بدأ هتلر بحصار أنصاف اليهود أيضًا وقد أبدى رغبته في تسجيل أسمائهم جميعًا تحسبًا لقيامهم بأعمال تتسبب في إزعاجه. أنا أعتقد أنه شيء مؤسف.

قالت الآنسة جيتس:

ـ حسنًا يا سيسيل.

توجه سيسيل عائدًا إلى مقعده في الفصل وهو يشعر بالفخر.

---

(١) يُلاحظ أن كلمتي (prosecute) وتعني «يحاكم» و(persecute) وتعني «يضطهد» متقاربتان صوتيًا. وقد خلَطَ سيسيل بينهما فقامت الآنسة جيتس بتصحيح الخطأ. فواقع الأمر يشير إلى أن سيسيل لم يخطىء الفهم وإنما أخطأ في استخدام الكلمة الصحيحة. (المترجمة).

رفع أحد التلاميذ يده في مؤخرة الفصل وسأل:

ـ كيف له أن يفعل ذلك؟

سألت الآنسة جيتس بصبر:

ـ من يفعل ماذا؟

فرد من رفع يده:

ـ أعني كيف كان لهتلر أن يضع الناس في معسكرات الاعتقال. يبدو أن حكومته لم تمنعه.

ـ إن هتلر هو الحكومة.

ردت الآنسة جيتس وهي تقتنص الفرصة لإثبات قدراتها التعليمية فتوجهت إلى السبورة وكتبت كلمة «ديمقراطية» بالأحرف الكبيرة ورددت: «ديمقراطية». هل يعرف أحد تعريف هذه الكلمة؟

رد أحد التلاميذ:

ـ لدينا تعريف.

رفعت يدي متذكرة شعارًا لحملة انتخابية سابقة ذكره لي أتيكوس من قبل.

ـ ما هو معناها يا آنسة چان لويز؟

فاستشهدت بالنص:

ـ فُرص متكافئة للجميع؛ لا مزايا لأحد دون الآخر.

ابتسمت الآنسة جيتس:

ـ حسنًا يا چان لويز.

ثم كتبت عبارة «نحن....» أمام كلمة «ديمقراطية».

«الآن رددوا هذه العبارة: نحن ديمقراطيون».

رددناها ثم قالت لنا الآنسة جيتس:

ـ هذا هو الفرق بين أمريكا وألمانيا. إن الولايات المتحدة الأمريكية دولة ديمقراطية بينما ألمانيا دولة ديكتاتورية. فنحن هنا لا نؤمن باضطهاد أحد.

ـ يقع الاضطهاد على أيدي من هم متحيزون.

ثم أضافت بحرص:

ـ التحيز: ليس هناك من هم أحسن من اليهود في العالم كله، ولا يمكنني أن أفهم لمَ لا يرى هتلر هذا.

ظهر شخص فضولي في منتصف الفصل قائلًا:

ـ لماذا ـ في ظنك يا آنسة جيتس ـ لا يحبون اليهود؟

ـ لا أعرف يا هنري. فهم يتفاعلون مع كل مجتمع يعيشون فيه، أضف إلى ذلك أنهم شديدو التدين. إن هتلر يحاول التغاضي عن الدين أو التعايش بدونه وربما هو يكرههم لهذا السبب.

قام سيسيل ليقول:

ـ لست متأكدًا من ذلك. فهم يتعاملون بالربا وما شابه ذلك، ولكن ليس هذا سببًا كافيًا لاضطهادهم فهم بيض اللون، أليس كذلك؟

قالت الآنسة جيتس:

ـ عندما تنتقل إلى المرحلة الثانوية يا سيسيل، فستعلم أن اليهود قد تعرضوا للاضطهاد منذ فجر التاريخ حتى إنهم طُرِدوا من بلادهم. فهذه من أسوأ القصص في تاريخ العالم. والآن حان الوقت لدرس الحساب.

وبما أني لم أحب الحساب إطلاقًا، فقد قضيت كل ساعات الفصل وأنا أنظر من النافذة إلى الخارج. والمرة الوحيدة التي رأيت فيها أتيكوس يقطّب كانت حين راح إلمير ديفز[1] (Elmer Davis) ينبئه بآخر الأخبار حول هتلر. كان أتيكوس يخرس الراديو وهو يتأفف وقد سألته مرة عن السبب في أنه لا يطيق هتلر فقال لي: «لأنه مجنون».

لم يكن ذلك كافيًا، حسبما أرى، بينما مضى الفصل في تدريبات الجمع. مجنون واحد وملايين الألمان. بدا لي أنه كان من الأفضل لهم لو حبسوا هتلر في حظيرة بدلًا من تركه يحبسهم كلهم. كان هناك أمر آخر غير صحيح... سأسأل أبي عنه.

وقد فعلت، وقال إنه لا يستطيع على الأرجح الإجابة عن سؤالي لأنه لا يعرف الإجابة.

ـ ولكن هل من المقبول أن تكره هتلر؟

ـ لا، ليس مقبولًا كُره أي شخص.

قلت:

---

(١) إلمير ديفز (Elmer Davis) (١٨٩٠ ـ ١٩٥٠) هو صحفي ومذيع في اذاعة سي بي إس CBS. كانت تقاريره محل اهتمام المستمعين أثناء الحرب العالمية الثانية (المترجمة).

ـ يا أتيكوس، هناك أمر ما لا أفهمه. قالت الآنسة جيتس إن ذلك كان كريهًا، أي أن يفعل هتلر ما يفعله، وقد احْمَرَّ وجهها فعلًا حين أُثير الأمر.

ـ أعتقد أن وجهها لا بد وأن يحمرّ.

ـ ولكن...

ـ نعم؟

ـ لا شيء يا سيدي.

وابتعدت، وأنا لست متأكدة من أني أستطيع أن أشرح لأتيكوس ما كان يدور في ذهني، ولا أستطيع أن أوضح ما كان مجرد إحساس. ربما يستطيع جيم أن يجيبني، فهو يفهم شئون المدرسة أكثر من أتيكوس.

كان جيم منهكًا من حمل جرادل الماء. وكان إلى جانب سريره على الأرض اثنتا عشرة قشرة موز على الأقل متناثرة حول زجاجة حليب فارغة. سألته:

ـ لماذا تأكل كل هذا؟

ـ يقول المدرب إنني إذا استطعت أن أضيف إلى وزني ما يعادل اثني عشر كيلو جرامًا حتى العام الذي يلي العام القادم فسأستطيع اللعب مع الفريق. وهذه أسرع طريقة لذلك.

ـ هذا إذا لم تتقيأ ما أكلته بالكامل يا جيم. أريد أن أسألك سؤالًا.

ـ هيا، قولي.

أنزل كتابه ومدّد ساقيه.

ـ الآنسة جيتس سيدة لطيفة، أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد. لقد أحببتها عندما كنت تلميذًا في فصلها.

ـ إنها تكره هتلر كثيرًا.

ـ وما الخطأ في ذلك؟

ـ حسنًا، لقد حكت اليوم عن مدى سوء معاملته لليهود. يا جيم، ليس عدلًا أن نضطهد أحدًا، أليس كذلك؟ أعني أن تكون لدينا حتى أفكار متدنية حول أي شخص، أليس كذلك؟

ـ لا والله يا سكاوت. ولكن ما الذي يقلقك؟

ـ حسنًا، لدى خروجنا من دار المحكمة في تلك الليلة، كانت الآنسة جيتس تنزل السلم أمامنا، لا بد أنك لم ترها: كانت تتحدث إلى الآنسة ستيفاني كروفورد. لقد سمعتها تقول إن الوقت قد حان وأصبح ضروريًا أن يلقّنهم أحد درسًا، فقد صاروا يحاولون تخطي حدودهم، وأن الخطوة التالية التي سيفكرون فيها ستكون الزواج منا. يا جيم، كيف يمكنك أن تكره هتلر إلى ذلك الحد ثم تتحول لتمارس أفعالًا بشعةً تجاه أشخاص موجودين في موطنك على الأخص.

فجأة ثار جيم. قفز من سريره وأمسك بي من ياقتي وهزني وهو يقول:

ـ لا أريد أن أسمع شيئًا بخصوص دار المحكمة، أبدًا، أبدًا، هل تسمعينني؟ هل تسمعينني؟ لا تقولي كلمة واحدة لي بشأنها مرة أخرى، هل تسمعينني؟ والآن هيا من هنا.

كنت مندهشة إلى حد أني لم أبكِ. تسللت خارجة من غرفة جيم

وأغلقت الباب بهدوء، لئلا ينفجر مرة أخرى إذا ما انصفق الباب بعنف. ولأني شعرت فجأة بالتعب فقد كنت في حاجة إلى أتيكوس. وجدته في غرفة الجلوس فمضيت نحوه وحاولت الجلوس إلى حجره.

ابتسم أتيكوس وقال:

ـ لقد أصبحت كبيرة على ذلك الآن، سأكون مضطرا إلى ضم جزء منك فحسب.

ثم ضمني إليه واستأنف الكلام بلطف:

ـ يا سكاوت، لا تجعلي جيم يُثبِّط من عزيمتك. إنه يمر بوقت عصيب الآن. لقد سمعت ما دار بينكما منذ ثوانٍ.

قال أتيكوس إن جيم كان يحاول بشدة أن ينسى أمرًا ما، ولكن الواقع أنه يختزنه لفترة ما، حتى يمر وقت كافٍ عليه. عندئذ سيكون قادرًا على التفكير في الأمر واستخلاص المعنى من ورائه. وعندما يستطيع جيم أن يفكر بالأمر، سيعود إلى نفسه مرة أخرى.

الفصل السابع والعشرون

مثلما توقع أتيكوس، استقرت الأمور على نحو ما؛ فقد انتصف شهر أكتوبر ولم يقع من الأمور غير المعتادة سوى حادثتين عابرتين تعرض لهما اثنان من مواطني مايكوم، لا، بل ثلاث حوادث، ولم تكن تتعلق جميعها بنا نحن عائلة فينش... وإنما كانت لها علاقة ما بنا بشكلٍ أو بآخر.

كانت أول حادثة هي أن السيد بوب يوويل حصل على وظيفة ثم فقدها خلال أيام، وربما أراد أن يكون فريد عصره في سجلات الثلاثينيات من القرن العشرين: فقد كان الشخص الوحيد الذي سمعت أنه طُرِد من «الوكالة العمومية للعمال» لكسله. وأعتقد أن شهرته قصيرة الأجل قد جلبت عليه وظيفة أقصر أجلًا، ولكن وظيفته دامت بقدر شهرته السيئة: فقد وجد السيد يوويل نفسه منسيًا كما نُسي توم روبنسون من قبل. وبعد ذلك، عاد للظهور أسبوعيًا وبانتظام عند المكتب الاجتماعي للحصول على شيك المعونة، وكان يستلمه متذمرًا ومهمهمًا بكلماتٍ غامضة ضد أولاد الزنا الذين يظنون أنهم يديرون هذه البلدة ولا يسمحون لرجلٍ شريف مثله أن يكسب قوته بعرق جبينه. أما روث جونز Ruth Jones،

مسئولة المكتب الاجتماعي فقد قالت إن السيد يوويل قد اتهم أتيكوس صراحة بأنه حرمه وظيفته. وقد بلغ من انزعاجها أن ذهبت إلى مكتب أتيكوس لتقول له ما سمعته. قال أتيكوس للآنسة روث ألا تلقي للأمر بالًا، وأن بوب يوويل إذا أراد أن يناقش «حرمان» أتيكوس له من وظيفته، فهو يعرف الطريق إلى مكتبه.

أما الحادثة الثانية فوقعت للقاضي تايلور. لم يكن القاضي تايلور ممن يرتادون الكنيسة في ليالي الأحد، أما السيدة تايلور فكانت تحرص على ذلك. كان القاضي تايلور يستمتع بساعة صلاة ليلة الأحد وحده في منزله الكبير، وكان يقضي تلك الساعة عادة في مكتبه يقرأ كتابات «بوب تايلور» (لم يكن من أقاربه، ولكن القاضي كان ليفخر بتلك القرابة إن وجدت). وفي إحدى ليالي الأحد، وبينما كان القاضي تايلور مستغرقًا في إحدى الصفحات سمع صوت خربشة مزعجة. قال موجهًا كلامه إلى آن تايلور (Ann Taylor)، وهي كلبته البدينة التي تخلو من أي سمة تميزها بين أفراد جنسها: «صه». ثم أدرك أنه كان يتحدث إلى غرفة فارغة، كان صوت الخربشة قادمًا من خلف المنزل. مشى القاضي تايلور بتثاقل نحو الخلف ليفتح الباب لكلبته حتى تخرج ولكنه وجد الباب المنخلي يتأرجح مفتوحًا. وقد لمح ظِلًا عند زاوية المنزل، وكان ذلك هو كل ما رآه من زائره. وعادت السيدة تايلور من الكنيسة لتجد زوجها في كرسيه، غارقًا في كتابات «بوب تايلور»، وقد وضع بندقية على حجره.

أما الحادثة الثالثة فقد جرت لهيلين روبنسون، أرملة توم. فإذا كان السيد يوويل قد نُسي مثلما نُسي توم روبنسون، فإن توم روبنسون كان قد نُسي كما نُسي بو رادلي. ولكن توم لم ينسه مخدومه السيد لينك ديس، فقد أتاح السيد لينك ديس وظيفة لهيلين. لم يكن في حاجة إلى خدماتها

فعلا، ولكنه قال إنه يشعر بالأسف الشديد تجاه الطريقة التي جرت بها الأمور. لم أعرف إطلاقًا من كان يرعى أطفالها وهي في العمل. قالت كالبورنيا إن هيلين كانت تجد مشقة كبيرة، إذ كان عليها أن تمشي مسافة ميل كامل بعيدًا عن طريقها لتتجنب المرور بمنزل عائلة يوويل الذين ـ وفقًا لما قالته هيلين ـ شتموها حين حاولت استعمال الطريق العام في أول مرة. وقد لاحظ السيد لينك ديس أن هيلين كانت تصل إلى العمل صباحًا من الاتجاه المعاكس، وقد مارس ضغوطًا عليها لمعرفة السبب وقد رجته هيلين «فلنترك الأمر على ما هو عليه، من فضلك ياسيدي»، فأجابها لن أفعل بحق الجحيم، ثم طلب منها أن تأتي إلى متجره عصر ذلك اليوم نفسه قبل أن تغادر العمل. وقد فعلت ذلك، وقام السيد لينك بإغلاق متجره، ثم لبس قبعته وثبتها على رأسه، ومشى مع هيلين إلى منزلها، وقد اصطحبها عبر الطريق المختصر، مرورًا بمنزل عائلة يوويل. وفي طريق عودته توقف السيد لينك عند البوابة المجنونة.

صـــاح:

ـ يا يوويل. إني أناديك.

كانت النوافذ المزدحمة عادة بالأطفال تخلو منهم.

أعرف أن كل واحد فيكم ممدد هناك على الأرض. والآن اسمعني يا بوب يوويل: إذا سمعت مرة أخرى من هيلين أنها لا تستطيع السير في هذا الطريق، فسوف أضعك في السجن قبل غروب الشمس.

ثم بصق السيد لينك على التراب وسار تجاه منزله.

ذهبـت هيلين إلى العمـل في صبـاح اليـوم التالي من الطريق العام.

لم يشتمها أحد، ولكنها بعد أن ابتعدت مسافة أمتار عن منزل عائلة يوويل، نظرت حولها فرأت السيد يوويل خلفها. التفتت واستمرت في السير، وأبقى السيد يوويل على المسافة نفسها إلى الخلف منها حتى وصلت إلى منزل السيد لينك ديس. وتقول هيلين إنها طوال المسافة التي قطعتها إلى منزل السيد لينك ديس كانت تسمع صوتًا خافتًا خلفها، يدندن بكلمات وقحة، مما أصابها بهلع شديد؛ فاتصلت بالسيد لينك ديس بالتليفون في متجره الذي لم يكن بعيدًا عن منزله. وحين خرج السيد لينك من متجره رأى السيد يوويل مستندًا على السور. قال له السيد يوويل:

ـ لا تنظر إليّ يا لينك كأنني حثالة. فأنا لم أقفز على...

ـ أول شيء يمكنك أن تفعله يا يوويل هو أن تخرج جثتك العفنة من أرضي. أنت تستند على السور وأنا لا أستطيع إعادة طلائه من جديد، ثم عليك أن تبتعد عن طبَّاختي وإلا حبستك بتهمة التعدي...

ـ لم ألمسها يا لينك ديس ولست من النوع الذي يفضل صحبة الزنوج.

ـ ليس بالضرورة أن تلمسها، يكفي أن تُخيفها، وإذا لم تكن تهمة التعدي كافية لحبسك لفترة، فسوف أحبسك وفقًا لقانون السيدات.[1]

ـ لذا اغرُب عن وجهي. وإذا كنت تظن أني لا أعني ما أقول، فما عليك إلا أن تضايق تلك المرأة مرة أخرى.

ـ من الواضح أن السيد يوويل ظن أنه يعني ما يقول، فهيلين لم تعد تشكو بعد ذلك.

---

(١) أحد قوانين ولاية ألاباما في تلك الحقبة يجرم التفوه بألفاظ نابية في حضرة النساء، ويحدد أقصى عقوبة لذلك بستة أشهر من السجن مع الشغل (المترجمة).

ـ لا أحب ذلك يا أتيكوس، لا أحبه إطلاقًا.

كان ذلك هو تقييم عمتي لهذه الأحداث.

ذلك الرجل يبدو وكأن لديه حقدًا دائمًا متواصلًا ضد كل من له علاقة بتلك الدعوى. وأنا أعرف أن هذا النوع من الناس يُصر على الانتقام، ولكني لا أفهم لماذا يملؤه الحقد: فقد نجح في المحكمة في أن يصل إلى ما يريد، أليس كذلك؟

قال أتيكوس:

ـ أعتقد أني أفهم. قد يكون ذلك لأنه في سريرة نفسه يعرف أن ما نسجه هو وابنته من أكاذيب لا يصدقه سوى قلة من الناس في مايكوم، كان يظن أنه سيصبح بطلًا، ولكن كان كل ما ناله لقاء جهده... هو... «حسنًا، سندين ذلك الزنجي ولكن عد أنت إلى مقلب النفايات». لقد حصل على مراده من الجميع، ولذا يجب أن يكون راضيا الآن. على كل حال سيهدأ حين تتغير الظروف.

ـ ولكن لماذا حاول يا ترى السطو ليلًا على منزل القاضي تايلور؟ من الواضح أنه لم يكن يعلم أن جون كان في المنزل وإلا ما حاول. الأنوار الوحيدة التي تكون مضاءة في ليالي الأحد في منزل جون هي تلك التي عند المدخل الأمامي وفي الخلف في غرفته الخاصة.

ـ أنت لا تعرفين إن كان بوب يوويل هو الذي مزق ذلك الباب المنخلي، ولا تعرفين من فعلها حقًا. ولكني أستطيع أن أُخَمِّن. لقد أثبت أنه كاذب ولكن جون جعله يبدو كالأحمق. فطوال فترة وجوده على منصة الشهود لم أكن أجرؤ على النظر إلى جون دون أن أبتسم. كان

جون ينظر إليه وكأنه دجاجة ذات ثلاثة أرجل أو كبيضة مربعة الشكل. لا تدَّعي بعد الآن أن القضاة لا يحاولون جعل المحلفين يتحاملون.

وهنا ضحك أتيكوس.

ومع نهاية شهر أكتوبر، عادت حياتنا إلى عادتها من مدرسة ولعب ومذاكرة. بدا على جيم أنه نجح في أن يبعد عن ذهنه ما كان يحاول أن ينساه، كما أن زملاء الدراسة ساعدونا، رحمة بنا، على نسيان غرابة أطوار والدنا. سألني سيسيل جاكوبز ذات مرة إن كان أتيكوس راديكاليا. وحين سألت أتيكوس هذا السؤال أعجبه إلى درجة استفزتني ولكنه قال إنه لم يكن يسخر مني. قال:

ـ قولي لسيسيل إنني راديكالي مثل كوتون توم هفلين[1] (Cotton Tom Heflin).

كان نجم العمة ألكسندرا قد علا، لا بد وأن الآنسة مودي قد أخرست كل أعضاء الجمعية التبشيرية بضربة واحدة، فها هي عمتي تتزعم الجمع مرة أخرى. لقد أصبحت مأكولاتها الخفيفة ألذ طعمًا مما سبق. وقد تعلمت أمرًا آخر حول الحياة الاجتماعية «للمرونا»البائسين عن طريق الإصغاء إلى السيدة مريوذر: لقد كان لديهم حس ضعيف بالأسرة إلى حد أن القبيلة كلها كانت أسرة كبيرة واحدة. لقد كان للطفل الواحد من

(١) كوتون توم هفلين (Cotton Tom Heflin): من ولاية ألاباما، عضو مجلس النواب الأمريكي من ١٩٠٥ إلى ١٩٢١، وعضو مجلس الشيوخ من ١٩٢١ ـ ١٩٣١، كان يحصل على أصوات أهل الجنوب من الملاك والمنتمين إلى جماعة «كوكلاكس كلان» العنصرية، وهو بذلك أبعد ما يكون عن الراديكالية (المترجمة).

تلك القبيلة آباء بعدد ما في القبيلة من رجال، وأمهات بعدد ما فيها من نساء. وقد كان ج. جرايمز إيفرت يبذل قصارى جهده لتغيير هذه الحالة، وهو في أشد الحاجة إلى صلواتنا.

عادت مايكوم إلى عادتها من جديد، تمامًا كما كانت في العام الماضي والذي سبقه، مع تغييرين طفيفين فقط. الأول هو أن الناس قد أزالوا من واجهات متاجرهم وسياراتهم الملصقات التي كانت تقول: «قانون العودة إلى الازدهار الوطني: نحن نقوم بدورنا». وقد سألت أتيكوس عن السبب فقال إن ذلك يرجع إلى أن ذلك القانون لم يعد ساريًا. وحين سألته عمن قتله، قال: تسعة رجال مُسِنين(١).

أما التغيير الثاني الذي طرأ على مايكوم منذ العام الماضي فلم تكن له أهمية قومية. فحتى ذلك الحين، كان احتفال «الهالووين» (Halloween)(٢) غير معترف به في مايكوم إطلاقًا. كان كل طفل يفعل ما يحلو له، وقد يساعده أطفال آخرون إن كانت هناك حاجة لنقل شيء ما، كوضع عربة خفيفة فوق الإسطبل. ولكن الآباء رأوا أن ما حدث في العام الماضي تجاوز الحدود، وذلك لما حدث من تعكير صفو الآنسة توتي والآنسة فروتي (Miss Tutti and Miss Frutti).

كانت الآنستان توتي وفروتي باربر أختين عانسين تعيشان معًا بالمنزل الوحيد في مايكوم الذي يفخر بأن له قبوًا. وقد كان يشاع أن الآنستين

---

(١) إشارة إلى المحكمة العليا الأمريكية (المترجمة).

(٢) احتفال يقام في في كثير من بلاد الغرب ليلة ٣١ أكتوبر التي يُعتقد أنها الليلة التي يتواصل فيها العالمان المنظور وغير المنظور، ويستمتع الأطفال بخاصة بالحفلات التنكرية والمرور على المنازل طلبًا للحلوى (المترجمة).

تنتميان إلى الحزب الجمهوري، حيث إنهما هاجرتا من كلانتون، ألاباما (Clanton, Alabama) في عام ١٩١١. كانت عاداتهما غريبة علينا، فلم يعرف أحد لماذا كانتا تريدان حفر قبو، ولكنهما حققتا رغبتهما وقامتا بحفره، وقد أنفقتا بقية حياتهما وهما تطردان أجيالًا من الأطفال منه.

كانت الآنستان توتي وفروتي (كان اسماهما الأصليان سارة وفرانسيس Sarah and Frances) مصابتين بالصمم. كانت الآنسة توتي تنكر ذلك وبالتالي فقد عاشت في عالم من الصمت، أما الآنسة فروتي، التي لا ترضى أن يفوتها شيء، فكانت تستخدم «ميكروفونًا» ضخما حتى إن جيم قال إنه مكبر للصوت من أحد تلك الجرامافونات القديمة من الطراز المرسوم عليه كلب.

لقد استقرت تلك الأفكار في الأذهان، وبما أن احتفال الهالويين قد حل فقد قام بعض الأطفال من الأشقياء بالانتظار حتى نامت الآنستان باربر، ثم تسللوا إلى غرفة جلوسهما، (في مايكوم لا أحد يوصد أبوابه في الليل سوى عائلة رادلي)، وقاموا بنقل كل قطع الأثاث وخبأوها في القبو. وأسجل هنا عدم اشتراكي معهم في ذلك العمل.

لقد سمعتهم.

كانت تلك هي الصرخة التي أيقظت جيران الآنستين باربر في فجر اليوم التالي:

لقد سمعتهم يقودون عربة نقل حتى الباب. وقد كانوا يضربون الأرض بأقدامهم كالجياد. لا بد وأنهم أصبحوا الآن في نيو أورليانز (New Orleans).

كانت الآنسة توتي واثقة من أن بائعي الفرو الذين عبروا المدينة منذ يومين هم الذين سرقوا أثاثهما.

قالت:

ـ كانوا ذوي شعور داكنة. يبدو أنهم سوريون.

استُدعِي السيد هك تيت. عاين المكان وقال إنه يظن أن مرتكبي الحادث من سكان البلدة أنفسهم. قالت الآنسة فروتي إنها كانت لتستطيع أن تميز صوت سكان أي شخص من مايكوم، ولم تكن هناك أية أصوات من مايكوم في الردهة في الليلة الماضية: فقد كان اللصوص يمدون حرف الراء وهذا ما لا يفعله أهل مايكوم. وكان رأي الآنسة توتي القاطع أنه لا يمكن التوصل إليهم واسترداد المفروشات إلا باستخدام الكلاب المدربة على اقتفاء الأثر، لذا اضطر السيد تيت إلى أن يسير مسافة عشرة أميال على الطريق العام ليجمع الكلاب الريفية ويجعلها تتعقب الأثر.

وقد جلبها أولًا إلى السلم الأمامي لمنزل الآنستين باربر، ولكن كل ما فعلته الكلاب هي أنها كانت تهرع إلى مؤخرة المنزل وتنبح عند باب القبو. وحين أطلقها ثلاث مرات دون نتيجة، خمن حقيقة ما حدث. وفى ظهيرة ذلك اليوم، لم يشاهد أي طفل يمشي حافيًا في مايكوم، فلم يخلع طفل حذاءه حتى انتهت الكلاب من مهمتها.

وهكذا قالت نساء مايكوم إن الأمور ستكون مختلفة هذا العام. فسوف تفتح قاعة احتفالات المدرسة الثانوية أبوابها، وسيكون هناك مهرجان احتفالي مع مشاهد مسرحية للراشدين، ولعبة التقاط التفاح من جرادل الماء ولعبة شد الحلوى اللدنة، ولعبة تثبيت الذيل على الحمار بالنسبة للأطفال. كما ستكون هناك جائزة قدرها خمسة وعشرون

سنتًا لأفضل زي خاص باحتفال الهالووين، إذا كان مصممه هو الذي يرتديه.

صدرت عنا أنا وجيم أنّات الألم، ولم يكن ذلك لفعل أتيناه، بل كان ذلك من حيث المبدأ، إذ ظن جيم أنه في كل الأحوال أكبر سنًا من أن يشارك في الهالووين. قال إنه لن يرضى أن يراه أحد قرب المدرسة الثانوية وهو متورط في أمر كهذا. قلت في نفسي: «حسنًا سيأخذني أتيكوس إلى مكان الاحتفال».

وسرعان ما عرفت أن خدماتي ستكون مطلوبة على المسرح في ذلك المساء على أية حال. كانت السيدة جريس مريوذر قد ألفت مشهدًا مسرحيًا عنوانه: «مقاطعة مايكوم: من الطين إلى النجوم». وكان المفترض أن أمثل دور «فخذ الخنزير المقدد». فهي كانت تعتقد أنه سيكون شيئًا رائعًا أن يرتدي الأطفال أزياء تمثل المنتجات الزراعية للمقاطعة: سيرتدي سيسيل جاكوبز زيًا يبدو فيه كالبقرة، أما أجنس بون (Agnes Boone) فستكون حبة فاصولياء، كما يمثل طفل آخر حبة فول سوداني، وهكذا حتى نَضَبَ خيال السيدة مريوذر وانتهى الرصيد من الأطفال.

كانت مهمتنا الوحيدة، وهذا ما استطعت أن أفهمه من التمرينين اللذين قمنا بهما، أننا سندخل من يسار خشبة المسرح بينما تقوم السيدة مريوذر (وهي ليست المؤلفة فحسب بل الراوية أيضًا) بإطلاق أسمائنا. فحين تصيح: «لحم خنزير»، كان ذلك إشارة الانطلاق بالنسبة لي، ثم ستقوم المجموعة بعد أن تصبح مجتمعة فوق الخشبة بغناء نشيد المقاطعة الرسمي: «مقاطعة مايكوم. مقاطعة مايكوم، سنكون مخلصين لك إلى

الأبد»، وذاك هو مِسْكُ الختام. كما ستقوم السيدة مريوذر بالصعود إلى الخشبة حاملة علم الولاية.

لم يكن الزي الذي سأرتديه يمثل مشكلة. فالسيدة كرنشو (Mrs. Crenshaw)، وهي الخياطة المحلية، كان لديها من الخيال بقدر ما كان للسيدة مريوذر. أخذت السيدة كرنشو قطعة سلك من أحد الأسوار وشكلتها بحيث جعلتها تبدو مثل فخذ الخنزير المقدد. ثم غطت ذلك بقماش بني اللون وطلته بدهان جعلته يبدو بلون اللحم المقدد. كان عليّ أن أنحني وكان على شخص ما أن يجذب ذلك الاختراع حتى يغطي رأسي ويصل إلى ركبتي تقريبًا. وقد تركت لي السيدة كرنشو ـ فيما يدل على حسن تفكيرـ ثقبين للنظر. وقد كان عملها ممتازًا: فقد قال جيم إني كنت أبدو بالفعل كفخذ خنزير مقدد ولكن بساقين. ولكن كان الزي يسبب مضايقات، فإذا أردت أن أحك أنفي ما كان يمكنني أن أصل إليه، وما إن ألبسه فلا أستطيع التخلص منه دون مساعدة.

وحين جاء ميعاد الهالووين، كنت أفترض أن العائلة كلها ستكون حاضرة لترى أدائي على خشبة المسرح، ولكني أصبت بخيبة أمل. قال أتيكوس بكل ما يستطيعه من لباقة إنه لا يظن أنه يستطيع حضور المهرجان تلك الليلة بالذات، فهو متعب جدًا. فقد كان في مونتجومري لمدة أسبوع وقد وصل إلى البيت عصر اليوم متأخرًا، قال إنه يظن أن جيم يمكن أن يرافقني لو طلبت منه ذلك.

قالت العمة ألكسندرا إن عليها أن تذهب إلى الفراش مبكرًا، فقد أسهمت في تزيين خشبة المسرح طوال فترة بعد الظهر، وتشعر بالتعب: وهنا قطعت كلامها فجأة في منتصف جملة كانت تقولها. أغلقت فمها ثم فتحته مرة أخرى لتقول شيئًا، ولكن لم تخرج أية كلمات.

سألتها:

ـ ماذا حدث يا عمتي؟

ـ لا شيء، لا شيء. أشعر بانقباض.

ثم طردت من ذهنها ما كان قد سَبَّب لها الخوف، واقترحت عليّ أن أعرض دوري على العائلة في غرفة الجلوس. وهكذا حشرني جيم في زيي، ووقف عند باب غرفة الجلوس، وصاح: «لحم الخنزير» كما تقولها السيدة مريوذر تمامًا، وتقدمت داخلة الغرفة. وقد سَعِدَ أتيكوس والعمة ألكسندرا بالعرض.

كررت تمثيل دوري أمام كالبورنيا في المطبخ وقالت إني رائعة. أردت أن أعبُرَ الشارع إلى منزل الآنسة مودي لأعرض أمامها أيضًا، ولكن جيم قال إنها قد تحضر المهرجان على أية حال.

بعد ذلك، لم يعد مهمًا أن يذهبوا أو لا. قال جيم إنه سيرافقني. وهكذا بدأت أطول رحلة لنا معًا.

الفصل الثامن والعشرون

كان الطقس حارًا على عكس ما اعتدنا في آخر أيام شهر أكتوبر. لم نشعر بالحاجة إلى ارتداء ستراتنا. اشتدت الرياح؛ فقال جيم إن المطر قد يهطل قبل أن نعود إلى المنزل، وكان القمر غائبًا عن سماء تلك الليلة.

كان نور الشارع عند الزاوية يلقي ظلالًا حادة على منزل عائلة رادلي. سمعت جيم يضحك بصوت خافت. قال: «أراهن على أنه لا أحد هناك ليزعجهم الليلة». كان جيم يحمل زي فخذ لحم الخنزير، وقد ارتبكت خطواته تحت وطأة ما يحمل، لكنني رأيت أن تصرفه يَنُمّ عن شهامة.

قلت:

ـ ولكنه مكان مخيف، أليس كذلك؟ إن بو رادلي لا يؤذي أحدًا، ولكني سعيدة جدًا أنك معي.

ـ أنت تعرفين أن أتيكوس ما كان ليتركك تذهبين إلى المدرسة وحدك.

ـ ولم لا، المدرسة قريبة جدًا وهي عبر الفناء.

قال جيم ليغيظني:

ـ ذلك الفناء يعد مكانًا بعيدًا لا يصح أن تعبره الفتيات الصغيرات ليلًا. ألست خائفة من الأشباح؟

ضحكنا. الأشباح والأبخرة الحارة والتعاويذ والإشارات السرية كل ذلك اختفى مع مرور السنوات كما يختفي الندى مع شروق الشمس.

قال جيم:

ـ ما كان ذلك الشيء القديم الذي كنا نقوله: «يا أيها الملاك، يا حياة في الموت، ابتعد عن طريقي ولا تمتص أنفاسي».

قلت:

ـ كفى.

وكنا الآن أمام منزل عائلة رادلي.

ـ لا بد أن بو في البيت. اصغِ.

كان هناك فوق رأسينا على ارتفاع كبير طائرٌ محاكٍ وحيد يطلق ألحانه، غير مدرك وسط نشوته من صاحب الشجرة التي يرتع عليها، فراح ينطلق من الصياح الحاد لطائر عباد الشمس إلى الوقوقة الغاضبة لطائر «البلوجاي» إلى النواح الحزين لطائر «البوور ويل» (Poor Will).

مشينا حول الزاوية وتعثرت في جذعٍ شق لنفسه مسارًا على الطريق. حاول جيم مساعدتي ولكنه لم يفلح إلاَّ في أن يُفلت زيي من يديه ليقع في التراب. لم أقع أرضًا، على أية حال، وسرعان ما استأنفنا طريقنا مرة أخرى.

ابتعدنا عن الطريق ودخلنا فناء المدرسة. كان الظلام حالكًا.

سألته حين تقدمنا في سيرنا بضع خطوات.

ـ كيف تعرف أين نحن يا جيم؟

ـ أستطيع أن أقول إننا تحت شجرة البلوط الكبيرة لأننا نمر عبر بقعة باردة. انتبهي الآن ولا تتعثري مرة أخرى.

كنا قد أبطأنا السير وصرنا نسير بحذر شديد، ونتلمس طريقنا إلى الأمام حتى لا نصطدم بالشجرة. كانت الشجرة وحيدة وعتيقة. ما كان بإمكان طفلين معًا أن يلمس أحدهما ذراعي الآخر إذا ما قاما بلفها حول الشجرة. كانت بعيدة عن أنظار المعلمين وجواسيسهم وعيون الجيران الفضوليين: إنها قريبة من حدود منزل عائلة رادلي، ولكن أفراد عائلة رادلي لم يكونوا فضوليين. كانت بقعة صغيرة من الأرض تحت أغصانها لا تخلو من آثار معارك وألعاب كثيرة قمنا بها بعيدًا عن الأنظار.

كانت الأنوار في مدرج المدرسة الثانوية تشع من على بعد، غير أن تلك الأنوار كانت عديمة النفع لنا إذ أعشت عيوننا. قال جيم:

ـ لا تنظري إلى الأمام يا سكاوت. انظري إلى الأرض ولن تقعي.

ـ كان عليك أن تحضر المصباح اليدوي يا جيم.

ـ لم أكن أعرف أن الظلام شديد إلى هذا الحد. لم يكن يبدو أن الظلام سيكون بهذه الشدة في بداية المساء. إنَّ الغيوم كثيفة، هذا هو السبب. ستبقى هذه الغيوم قليلًا على أية حال.

وإذا بمن يقطع الطريق أمامنا فجأة.

صاح جيم:

ـ يا إلهي!

اندفعت دائرة ضوء في وجهينا، وقفز سيسيل جاكوبز مرحًا من وراء تلك الدائرة وزعق:

ـ لقد ظفرت بكما. عرفت أنكما ستأتيان من هذه الطريق.

ـ ما الذي تفعله وحدك يا ولد في هذا المكان؟ ألست خائفًا من بو رادلي؟

كان سيسيل قد وصل بأمان إلى القاعة الكبيرة مع والديه بالسيارة، ولم يرنا هناك، فهبط وانتظرنا في ذلك المكان لأنه كان واثقًا من أننا كنا سنمر من هناك إن عاجلًا أو آجلًا. وكان يظن على أية حال أن السيد فينش سيكون معنا.

قال جيم:

ـ لا داعي لذلك، فالمنزل قريب جدًا من المدرسة. ومن تراه يخاف أن يقطع مثل هذه المسافة القصيرة؟

كان علينا أن نقر بأن سيسيل قد نجح فيما أراده. لقد أخافنا فعلًا، وكان يمكنه أن ينشر ذلك عبر فناء المدرسة كله، كان ذلك حقًا له.

ـ قل لي، ألست تمثل دور البقرة الليلة؟ أين زِيّك؟

قال:

ـ إنه وراء خشبة المسرح. تقول السيدة مريوذر إن المشهد المسرحي لن يُؤدى قبل مرور بعض الوقت. يمكنك أن تضعي زيك وراء خشبة المسرح بالقرب من زيي يا سكاوت، ثم يمكننا أن ننضم للآخرين.

كانت تلك فكرة ممتازة، كما قال جيم. كان يظن أنها فكرة عظيمة أن أكون أنا وسيسيل معًا. فبهذه الطريقة سيتاح له أن يصحب أشخاصًا من سنه.

حين وصلنا إلى القاعة الكبيرة، كانت البلدة كلها هناك عدا أتيكوس والسيدات اللواتي تعبن من أعمال التزيين، وعدا المنبوذين... كان معظم سكان المقاطعة هناك كما يبدو فالقاعة كانت تعج بالريفيين المرتدين أفضل ملابسهم. كانت للمدرسة الثانوية ردهة واسعة في الطابق الأسفل، وكان الناس يدورون حول الأكشاك التي نصبت على امتداد كل جانب منها.

تنهدت حين رأيتها وقلت:

ـ آه يا جيم، لقد نسيت أن أحضر نقودي.

ـ أتيكوس لم ينس. إليك بثلاثين سنتا يمكنك شراء ستة أشياء. سأراك لاحقًا.

ـ حسنًا.

هكذا قلت له وقد قنعت بالثلاثين سنتًا وبسيسيل. وذهبت مع سيسيل إلى مقدمة القاعة الكبرى عبر باب إلى أحد جانبي المسرح، ثم إلى ما وراء خشبة المسرح. تخلصت من زيي وانطلقنا مسرعين، كانت السيدة مريوذر تقف عند المنصة أمام الصف الأول من المقاعد وهي تقوم بتغييرات سريعة ومرتجلة في النص في اللحظات الأخيرة.

سألت سيسيل: «كم من المال معك؟» فقال إن معه ثلاثين سنتًا أيضًا مما جعلنا متساويين. وقد أنفقنا أول خمسة سنتات في «بيت الأهوال»،

الذي لم يرعبنا على الإطلاق، حيث دخلنا غرفة الصف السابع وقد سادها ظلام دامس وكان دليلنا فيها الغول، وقد جعلنا نلمس عدة أشياء زعم أنها أشلاء كائن بشري. «ها هما عيناه» هكذا قيل لنا حين لمسنا حبتي عنب مقشرتين موضوعتين على طبق. «هذا قلبه» وكان ذلك شيئًا كالكبد النيئ. «ها هي أحشاؤه» ونحن ندس أيدينا في طبق من المكرونة الباردة.

كما زرت أنا وسيسيل عدة أكشاك. وقد اشترى كل منا كيسًا فيه قطع من الكعك الذي صنعته زوجة القاضي تايلور. أردت أن أشترك في مسابقة التقاط التفاح بالفم دون استخدام اليدين، ولكن سيسيل قال إنها ضارة بالصحة؛ فقد قالت له أمه إنه قد يلتقط عدوى أحد الأمراض حيث إن الجميع يدفعون برءوسهم في نفس الحوض. قلت محتجة: «ولكن ليس بالبلدة مرض معدٍ»، فقال سيسيل إن أمه قالت إن تناول ما تبقى من طعام الآخرين ضار بالصحة، سألت العمة ألكسندرا فيما بعد عن هذا، فقالت إن الناس الذين يتمسكون بمثل هذه الآراء هم في العادة أشخاص يحاولون إحراز التقدم بوسائل لا علاقة لها بالكفاءة. كنا سنشتري قطعة من الحلوى حين ظهرت السيدة مريوذر وطُلب إلينا أن نذهب إلى ما خلف خشبة المسرح، حيث حان الوقت كي نستعد للعرض. كانت القاعة الكبرى تغص بالناس، كما كانت الفرقة الموسيقية لمدرسة مايكوم الثانوية قد اجتمعت في المقدمة تحت مستوى الخشبة. أنيرت أضواء المسرح وراحت الستارة المخملية الحمراء تتلاطم وتتماوج من جراء ما يجري خلفها من حركة سريعة دائبة.

اتجهت أنا وسيسل إلى خلف خشبة المسرح ووصلنا إلى الردهة الضيقة التي تَعُجّ بالناس: كبار يضعون قبعات ثلاثية الزوايا مصنوعة في

المنزل، قبعات الجنوبيين في الحرب الأهلية، قبعات الحرب الإسبانية الأمريكية، وخوَذ الحرب العالمية، أما الأطفال الذين كانوا يرتدون أزياء تمثل المنتجات الزراعية فكانوا يحتشدون حول النافذة الوحيدة الصغيرة.

ارتفع صوتي بالعويل وبكيت وقد غلبني شعورٌ باليأس:

ـ لقد حطم أحدهم زيِّي.

هرعت السيدة مريوذر نحوي وأعادت الأسلاك إلى ما كانت عليه ثم حشرتني داخلها.

سألني سيسيل:

ـ هل أنت على ما يرام في الداخل هناك يا سكاوت؟ صوتك يبدو وكأنه يأتي من بعيد، وكأنك على الجانب الآخر من الجبل.

قلت:

ـ لا يبدو صوتك أقرب من ذلك إليّ.

عزفت الفرقة النشيد الوطني، وسمعنا الجمهور ينهض. ثم سمعنا صوت الطبول الضخمة. وقالت السيدة مريوذر المتمركزة خلف المنصة قرب الفرقة الموسيقية: «مقاطعة مايكوم من الطين إلى النجوم».

وقرعت الطبول الضخمة مرة أخرى، ثم ترجمت السيدة مريوذر عنوان المشهد من اللاتينية إلى الإنجليزية وذلك من أجل الحضور من الريفيين، وأضافت دون ضرورة كما بدا لي: «مشهد مسرحي احتفالي».

همس سيسيل:

ـ أعتقد أنهم ما كانوا سيفهمون المعنى لو أنها أخبرتهم به.

ولكنه أُمر بالتزام الصمت فورًا.

همست:

ـ البلدة كلها تعرفه.

قال سيسيل:

ـ ولكن أهل الريف وصلوا أيضًا.

ـ اصمتوا هناك.

هذا ما أمر به صوت رجالي وسكتنا.

كان صوت الطبل العميق يدوي مع كل جملة تقولها السيدة مريوذر التي غلف الشجن كلماتها وهي تحكي عن مقاطعة مايكوم وكونها أقدم من الولاية التي تنتمي إليها، وأنها كانت جزءًا من مقاطعة ألاباما والميسيسبي، وأن أول رجل أبيض وصل الغابات العذراء كان الجد الأكبر الخامس لقاضي الأمور الحسبية، والذي ما عاد يسمع به أحد. ثم جاء الكولونيل مايكوم الذي لا يعرف الخوف سبيلًا إلى قلبه والذي سُميت المقاطعة باسمه.

كان أندرو جاكسون قد أسند إليه منصبًا كبيرًا، وكان ما اتسم به الكولونيل من ثقة بالنفس على غير أساس، وإحساس ضئيل بالقدرة على اتخاذ القرار السليم قد جلبا الكارثة على كل من صحبه في حروب الكريك الهندية. وقد واظب الكولونيل مايكوم على توجيه الجهد حتى تكون المنطقة ممهدة لممارسة الديمقراطية، ولكن أولى حملاته كانت

هي ذاتها آخرها. كانت الأوامر التي وصلته عن طريق رسول هندي صديق هي التحرك جنوبًا. وبعد أن استشار شجرة ليعرف من أشنتها اتجاه الجنوب، وبعد رفضه الاستماع إلى مرءوسيه الذين تجرؤوا على تصحيح غلطته، انطلق الكولونيل مايكوم في رحلة هدفها اجتثاث الأعداء وورط قواته في السير في اتجاه الشمال الغربي عبر الغابة العذراء التي لم تطأها قدم بشر، إلى أن أنقذهم من ورطتهم جمع من المستوطنين كانوا متجهين إلى داخل البلاد

قدمت السيدة مريوذر وصفًا دام نصف الساعة عن مآثر الكولونيل مايكوم. وقد اكتشفت في تلك الأثناء أني إذا ثنيت ركبتي فإني أستطيع أن أحنيهما تحت زيي، وأستطيع الجلوس تقريبًا. جلست واستمعت إلى خطبة السيدة مريوذر الرتيبة ودوي الطبل الضخم وسرعان ما نمت.

قيل لي لاحقًا إن السيدة مريوذر كانت تعتمد كثيرًا على مسك الختام حتى إنها صاحت قائلة «لحم الخنزير» وبثقة أوحت إليها بها «شجرات الصنوبر» و«الفاصولياء» التي دخلت عند سماعها الإشارة المتفق عليها. انتظرت ثواني قليلة ثم صاحت: «لحم الخنزير»؟ وحين لم يظهر شيء على الخشبة، صاحت بقوة: «لحم الخنزير!».

لا بد أني سمعتها أثناء نومي، أو أن الفرقة التي كانت تعزف لحن «ديكسي» قد أيقظتني، ولكني على كل حال اخترت الدخول إلى خشبة المسرح حين كانت السيدة مريوذر ترفع علم الولاية. كلمة «اخترت» ليست صحيحة: فقد كنت أظن أنه من الأفضل لي أن ألحق بالآخرين.

لقد قيل لي لاحقًا إن القاضي تايلور خرج إلى ما وراء الصالة ووقف هناك في حالة انفعال جعلته يضرب ركبتيه بكفيه إلى حد أن السيدة تايلور أحضرت له كأسًا من الماء وحبة دواء.

بدا على السيدة مريوذر وكأنها تلقت ضربة على رأسها، لقد كان الجميع يهللون لكنها أمسكت بي خلف خشبة المسرح وقالت لي إني أفسدت عرضها المسرحي. لقد جعلتني أشعر ببؤس شديد، ولكن حين جاء جيم ليوصلني إلى البيت كان لطيفًا. قال إنه لم يستطع أن يرى زيي جيدًا من حيث كان يجلس. كيف استطاع أن يعرف أني كنت أشعر بالضيق وأنا مرتدية زيي؟ هذا ما لا أعرفه، ولكنه قال إني أجدت الأداء. وإن كنت وصلت متأخرة قليلًا، وهذا كل ما في الأمر. كان جيم قد أصبح يتقن مثل أتيكوس تقريبًا كيف يبعث الأمل في النفس حين تسوء الأمور. ولكن ولا حتى جيم كان يستطيع إخراجي عبر كل ذلك الحشد من الناس، وقد وافق على الانتظار خلف خشبة المسرح حتى يغادر الجمهور القاعة.

سألني:

ـ هل تريدين خلعه يا سكاوت؟

ـ لا، سأبقيه عليّ.

كنت أستطيع إخفاء عاري خلفه.

سألنا أحدهم:

ـ هل تريدان أن أوصلكما بالسيارة إلى المنزل؟

ـ لا، شكرًا يا سيدي. إنها مجرد مسافة قصيرة سيرًا على الأقدام.

قال الصوت:

ـ احـذروا الأشباح. والأفضل أن تقولوا للأشباح أن تحذر من سكاوت.

قال لي جيم:

ـ لم يبق كثيرون. هيا نذهب.

انطلقنا عبر القاعة إلى الردهة، ثم نزلنا السلم كان الظلام لا يزال شديدًا. بعض السيارات التي لم ترحل بعد كانت متوقفة عند الجانب الآخر من المبنى، وكانت أنوارها الأمامية تعوق الرؤية. قال جيم: «لو أن إحداها كانت تسير في اتجاهنا لكنا استطعنا أن نرى على نحو أفضل. هيا يا سكاوت، دعيني أمسك بظهرك حتى لا تفقدين توازنك».

ـ أستطيع أن أرى جيدًا.

ـ حسنًا، ولكنك قد تفقدين توازنك.

أحسست بضغط خفيف على رأسي وافترضت أن جيم كان يمسك بنهاية فخذ لحم الخنزير.

ـ هل أمسكت بي؟

ـ نعم، نعم.

بدأنا بعبور فناء المدرسة المعتم، وكنا نبذل قصارى جهدنا لنرى أقدامنا. قلت:

ـ يا جيم، لقد نسيت حذائي. تركته هناك خلف خشبة المسرح.

ـ حسنًا، هيا نحضره.

ولكن ما إن التفتنا حتى كانت أنوار القاعة قد أطفئت.

قـــال:

ـ يمكنك إحضاره غدًا.

ـ ولكن غدا هو يوم الأحد.

قلت ذلك بلهجة احتجاجية، ولكن جيم دفعني في اتجاه المنزل.

ـ تستطيعين أن تقولي للبواب أن يدخلك... يا سكاوت؟

ـ نعم؟

ـ لا شيء.

لم يكن جيم قد عاد إلى مثل ذلك التكتم منذ زمن طويل. وتساءلت في نفسي عما كان يفكر فيه. ربما سيقول لي متى أراد، وعلى الأرجح حين نصل إلى المنزل. أحسست بأصابعه على رأس الزي وهي تشد عليه بقوة. هززت رأسي وقلت:

ـ يا جيم، لست في حاجة إلى....

قال وهو يقرُصني:

ـ اصمتي دقيقةً يا سكاوت.

كان يمشي في صمت. قلت:

ـ انتهت الدقيقة. ما الذي تفكر فيه؟

التفت لأنظر إليه، ولكن خياله لم يكن مرئيًا.

قال:

ـ أظن أني سمعت شيئًا. توقفي للحظة.

توقفنا.

ـ هل سمعت شيئًا؟

قال:

ـ لا.

ولم نكن قد مشينا خمس خطوات أخرى حتى جعلني أتوقف مرة أخرى.

ـ يا جيم، هل تحاول إخافتي؟ أنت تعرف أني أكبر سنًا...

ـ اصمتي.

وفهمت من نبرته أنه لم يكن يمزح.

كان الليل هادئًا. كنت أستطيع سماع أنفاسه بالقرب مني. بين الحين والآخر كانت هناك نسمة مفاجئة تضرب ساقي العاريتين، ولكن كان ذلك كل ما تبقى من ليلة تنذر بهبوب ريح عاصفة. كان ذلك هدوء ما قبل العاصفة الرعدية. وأصغينا.

قلت:

ـ سمعت كلبًا عجوزًا ينبح.

ـ لا، ليس ذاك. أسمع الصوت حين نمشي، وحين نتوقف لا أسمعه.

ـ أنت تسمع صوت احتكاك الزي....أوه، لا شك أن جوَّ عيد الهالووين (Halloween) قد أثَّر فيك.

قلت ذلك لأقنع به نفسي وليس جيم بالتحديد، فقد كنت أسمع بكل

تأكيد. وما إن استأنفنا السير حتى سمعت ما كان جيم يتحدث عنه. ولم يكن ذلك الصوت صادرًا من زيّي.

قال جيم:

ـ لا بد وأنه صديقنا العزيز سيسل. لن يفاجئنا مرة أخرى. فلنجعله يظن أننا لا نسير بسرعة.

أبطأنا السير إلى حد الزحف. سألت جيم كيف يستطيع سيسيل أن يلحق بنا في هذا الظلام، يبدو أنه سيفاجئنا من الخلف.

قال جيم:

ـ أستطيع أن أراك يا سكاوت.

ـ كيف؟ أنا لا أستطيع أن أراك؟

إن الخطوط العريضة على زيك تضيء في الظلام. لقد قامت السيدة كرنشو بطلائها ببعض الطلاء اللامع حتى تلتمع تحت أنوار المسرح. أستطيع أن أراك جيدًا، ويبدو أن سيسيل يستطيع أن يراك جيدًا حيث يلاحقنا من بُعد.

كنت أود أن أظهر لسيسيل أننا كنا نعرف أنه يلاحقنا وأننا كنا مستعدين له. صحت فجأة وأنا أستدير إلى الخلف:

ـ سيسيل جاكوبز دجاجة كبيرة مبلولة.

توقفنا. لم يكن هناك من جواب سوى الصدى الصادر عن سور المدرسة البعيد.

قال جيم:

ـ سأمسك به. هاي.

أجاب سور المدرسة:

ـ هاي هاي هاي.

لم يكن من عادة سيسيل أن يسكت لفترة طويلة، فهو يمزح حتى يكرر المزحة مرات ومرات. كان يجب أن يكون قد قفز علينا الآن. أشار إليّ جيم بالتوقف مرة أخرى.

قال هامسًا:

ـ سكاوت هل يمكنك أن تخلعي ذلك الشيء؟

ـ أظن ذلك، ولكني لا أرتدي أشياء كثيرة من تحته.

ـ ثوبك معي هنا.

ـ لا أستطيع ارتداءه في الظلام.

ـ حسنًا، لا بأس.

ـ هل أنت خائف يا جيم؟

ـ لا، أظن أننا اقتربنا من الشجرة الآن ثم بعد ذلك ببضعة أمتار سنكون قد وصلنا إلى الشارع، عندها نستطيع أن نرى ضوء الشارع.

كان جيم يتحدث بصوت جاف متمهل خال من المشاعر، وتساءلت في نفسي إلى متى سيحاول يا ترى الإبقاء على أسطورة سيسيل؟

ـ هل تعتقد أن علينا أن نغني يا جيم؟

ـ لا، اصمتي تمامًا يا سكاوت.

لم نكن قد زدنا سرعة خطونا. كان جيم يعرف بقدر ما أعرف أنه كان من الصعب السير بسرعة دون أن يدوس هو على أحد أصابع قدمي، أو أن أتعثر بالحجارة، وغير ذلك من المشاق، حيث كنت حافية القدمين. ربما كان ذلك الصوت هو حفيف الأوراق. ولكن لم تكن هناك رياح ولا شجر فيما عدا شجرة البلوط الكبيرة.

كان رفيقنا يسير وهو يجر قدميه وكأنه يرتدي حذاءً ثقيلا. وأيا كان، فقد كان يرتدي بنطلونًا ثقيلًا مصنوعا من القطن. وما كنت أظنه حفيف الأوراق وكان في حقيقة الأمر صوت احتكاك القماش المصنوع من القطن بمثيله، مع كل خطوة يخطوها.

أحسست بالرمل وقد أصبح باردًا تحت قدميَّ فعرفت أننا أصبحنا قرب شجرة البلوط الكبيرة. ضغط جيم على رأسي. توقفنا وأصغينا.

لم تتوقف الخطوات معنا هذه المرة. كان بنطلونه يسير بسرعة وثبات. ثم توقف. كان يعدو، يعدو نحونا بخطوات ليست خطوات طفل.

صرخ جيم:

ـ اجرِ يا سكاوت. اجرِ... أجرِ.

خطوت خطوة واحدة هائلة فوجدت نفسي أُصابُ بدوار: فلم أكن أستطيع الحفاظ على توازني في الظلام بينما ذراعاي محشورتان في الزي وعاطلتان عن العمل.

ـ يا جيم، يا جيم، ساعدني يا جيم.

حطم شيء ما الأسلاك المحيطة بي. اختلط المعدن بالمعدن وسقطت على الأرض وتدحرجت إلى أبعد ما أستطيع متخبطة وأنا أحاول النجاة

من سجني المصنوع من الأسلاك. ومن مكان ما بالقرب مني وصلتني أصوات عراك وركل، وأصوات الأحذية واللحم واحتكاكها بالتراب والجذور. تدحرج أحدهم من فوقي وأحسست أنه جيم. نهض كالبرق وراح يجذبني معه، ولكن رغم أني كنت قد حررت رأسي وكتفي، فقد كنت محشورة في الزي على نحوٍ لم نستطع معه أن نهرب بعيدًا.

كنا قد وصلنا إلى الشارع تقريبًا حين شعرت بانفلات يد جيم من يدي، وشعرت به يُقذف إلى الخلف ويُطرح أرضًا. وانطلق مزيد من أصوات العراك، ثم سمعت صوت شيء يسحق وصرخ جيم.

جريت في اتجاه صرخة جيم وغرقت في بطن مترهل لرجل قال صاحبه: «هُفْ» وحاول أن يمسك بذراعي. ولكنهما كانتا مكبلتين بشدة. كان بطنه مترهلًا ولكن ذراعيه كانتا كالفولاذ وقد راح يخنقني ببطء. لم أستطع الحراك. وفجأة انتُزع للخلف وطرح أرضًا وهو يكاد يجذبني معه. ظننت أن جيم قد نهض.

أحيانًا يعمل عقل المرء ببطء شديد. وقفت هناك مذهولة. كانت أصوات العراك تخبو، تنفس شخص ما بصعوبة مُصدرًا صوتا كالصفير وهدأ الليل مرة أخرى.

هدأ الليل ولكن كان هناك صوت رجل يتنفس بصعوبة، يتنفس بصعوبة ويترنح. أظن أنه اتجه نحو الشجرة واستند إليها. سعل بشدة، سعالًا قويًا يهز العظام بعنف.

- جيم.

لم يكن هناك جواب سوى سماع صوت التنفس الثقيل للرجل.

جيم.

لم يجب جيم.

بدأ الرجل يتحرك في أنحاء المكان، وكأنه يبحث عن شيء ما. سمعته يئن ويجر شيئًا ثقيلًا على الأرض. أدركت ببطء أن هناك أربعة أشخاص الآن تحت الشجرة.

ـ أتيكوس...؟

كان الرجل يمشي بتثاقل وترنح نحو الشارع.

سرت إلى حيث افترضت أنه كان واقفًا وتلمست الأرض بجنون بأصابع قدمي. وفورًا لمست شخصًا ما.

ـ جيم؟

لمست أصابع قدمي بنطلونًا وربطة حزام وأزرارًا وأشياءً لم أستطع تمييزها، وياقة ووجهًا، وكانت هناك لحية نابتة أعلمتني أن ذاك لم يكن جيم. وشممت رائحة الويسكي الرديء. شققت طريقي نحو ما ظننت أنه الشارع. لم أكن واثقة، حيث إني تقلبت مرات كثيرة. ولكني وجدته ونظرت نحو عمود النور. كان رجل ما يمر من تحته. كان الرجل يمشي بخطوات مترددة متثاقلة كشخص يحمل حملًا ثقيلًا. كان يلتف حول الزاوية وكان يحمل جيم. كانت إحدى ذراعي جيم متدلية أمامه وتتحرك جيئة وذهابًا.

وعند وصولي إلى الزاوية كان الرجل يعبر فناءنا الأمامي. وقد أظهر النور الخارج من بابنا الأمامي خيال أتيكوس، هرع نازلًا السلم وأدخل هو والرجل جيم إلى الداخل.

كنت واقفة عند الباب الأمامي حين كانا يعبران البهو. كانت العمة ألكسندرا تجري لتقابلني. وصل صوت أتيكوس بحدة من غرفة جيم: «اتصلي بالدكتور رينولدز. أين سكاوت؟».

صاحت العمة ألكسندرا وهي تجرني معها في اتجاه الهاتف: «ها هي هنا». حاولت أن تتفحصني بقلق. فقلت لها: «أنا بخير يا عمتي. من الأفضل أن تتصلي بالتليفون».

رفعت السماعة وقالت: «يولا ماي، اتصلي بالدكتور رينولدز، وبسرعة».

«أجيس»، هل والدك في المنزل؟ يا إلهي أين هو؟ أرجوك أن تقول له أن يأتي إلى هنا. أرجوك، إنها حالة طارئة وخطيرة.

لم يكن هناك داع أن تقدم العمة ألكسندرا نفسها، فالناس في مايكوم كانوا يعرفون أصوات بعضهم البعض.

خرج أتيكوس من غرفة جيم. وفي اللحظة التي قطعت فيها العمة ألكسندرا الاتصال، أخذ أتيكوس السماعة منها. ضرب على زر الهاتف ثم قال: «يا يولا ماي، أريد المأمور من فضلك».

«من؟ هك؟ أتيكوس فينش يتكلم. لقد طارد أحدهم ولديّ، وأصيب ابني جيم، حدث ذلك فيما بين مبنى المدرسة وبيتي. لا أستطيع أن أترك ابني. أسرع إلى هنا من فضلك، وانظر إن كان لا يزال في أرجاء المكان. أشك أنك ستجده الآن، ولكني أود أن أراه لو وجدته. يجب أن أتركك الآن. شكرًا يا هك».

ـ أتيكوس، هل مات جيم؟

ـ لا يا سكاوت. اعتني بها يا أختي.

كان ذلك ما قاله بصوت مرتفع وهو يعبر البهو.

ارتجفت أصابع العمة ألكسندرا وهي تفك عني القماش والأسلاك وكانت تسألني المرة تلو الأخرى بينما كانت تحررني من قيودي: «هل أنت بخير يا حبيبتي؟».

لكم شعرت بالراحة إذ تحررت أخيرًا.كنت قد بدأت أفقد إحساسي بذراعيّ، وكانتا قد صارتا حمراوين بهما بقع سداسية صغيرة. فركتهما، وشعرت أن الوخز قد خف.

ـ عمتي هل مات جيم؟

ـ لا، لا يا حبيبتي، إنّه فاقد الوعي. لا نعرف مدى سوء إصابته حتى يصل الدكتور رينولدز. يا چان لويز ماذا حدث؟

ـ لا أعرف.

وتركت هي الأمر عند هذا الحد. جلبت لي شيئًا أرتديه، ولو أني فكرت في الأمر في حينه، لكنت لن أدعها تنساه أبدًا: ففي ذهولها جلبت لي عمتي أفرولًا لأرتديه. قالت وهي تسلمني الملابس التي تكرهها أشد الكره: «البسي هذا يا حبيبتي».

ثم اندفعت عائدة نحو غرفة جيم، وبعدها عادت إلى الردهة. ربتت عليّ بذهول ثم عادت إلى غرفة جيم.

توقفت سيارة أمام المنزل. كنت أعرف خطوات الدكتور رينولدز كما أعرف خطوات أبي تقريبًا. لقد أشرف على ولادتي وجيم، كما كان

يرعانا في كل مرض يصيب الأطفال أو الكبارعمومًا، بما فيه تلك المرة التي سقط فيها جيم من كوخ الشجرة، وكنا له دائمًا أصدقاء أوفياء. قال الدكتور رينولدز إننا لم نكن لنظل أصدقاء لو أن البثور تعاود الظهور على جسدينا، ولكننا لم نر رأيه.

دخل من الباب وقال: «يا إلهي!». مشى نحوي وقال: «أنت لا تزالين واقفة»، ثم غيَّر اتجاه سيره. كان يعرف كل غرفة في المنزل. كان يعرف أنني ما دمت في حالة سيئة فإن جيم لا شك سيعاني الحالة ذاتها.

بعد مرور فترة طويلة عاد الدكتور رينولدز فسألته:

ـ هل مات جيم؟

قال وهو ينحني جالسًا بالقرب مني:

ـ إنه بعيد كل البعد عن ذلك. لقد أصيب بكدمة في الرأس كما حدث لك أيضًا، كما كُسِرَتْ ذراعه. يا سكاوت انظري هناك، لا، أديري رأسك، وحركي عينيك. والآن انظري إلى هناك. لقد كسرت ذراعه كسرًا قويًا، وأستطيع أن أقول إن الكسر في المرفق. كأن شخصًا ما حاول أن يلوي ذراعه حتى ينتزعها من مكانها... والآن انظري إليّ.

ـ إذن هو ليس ميتًا؟

ـ لا.

وقف الدكتور رينولدز:

ـ لا يمكننا أن نفعل أكثر من ذلك الليلة، إلا أن نحاول أن نجعله يستقر في وضع مريح بقدر ما نستطيع. علينا أن نصور ذراعه بأشعة إكس...

ويبـدو أنه سيظل يحمل ذراعه إلى جانبه فترة من الزمن. لا تقلقي على أية حال، فهو سيعود كما كان. الأولاد في سنه يستعيدون صحتهم بسرعة.

وبينما كان يتحدث، كان الدكتور رينولدز ينظر بحدة إليّ، ويلمس بأصابعه النتوء الذي برز في جبهتي:

ـ أنت لا تشعرين أنك مصابة بكسر في أي مكان، أو مفلسة، أليس كذلك؟

جعلتني نكتة الدكتور رينولدز الصغيرة أبتسم.

ـ إذن أنت لا تعتقد أنه مات؟

ارتدى قبعته وقال:

ـ قد أكون مخطئًا طبعًا، ولكني أعتقد أنه حي جدًا، تبدو عليه أعراض الحياة كلها. اذهبي وانظري إليه، وحين أعود سنجتمع معًا ونصل إلى قرار.

كانت خطوات الدكتور رينولدز شابة وحيوية. لم تكن خطوات السيد هك تيت كذلك. فحذاؤه الثقيل كان ينزل كالمطرقة على الباب الأمامي وقد فتح الباب بارتباك، لكنه قال نفس الشيء الذي قاله لي الدكتور رينولدز حين دخل، وأضاف عليه:

ـ هل أنت بخير يا سكاوت؟

ـ نعم يا سيدي، سأدخل لأرى جيم. أتيكوس والجميع هناك.

ـ إذن سأذهب معك.

كانت العمة ألكسندرا قد وضعت منشفة فوق ضوء لمبة القراءة

الخاصة بجيم، وكانت غرفته معتمة قليلًا. كان جيم ممدًا على ظهره وقد بدت علامة بشعة على امتداد أحد جانبي وجهه. كانت ذراعه اليسرى تمتد مبتعدة عن جسده. كان مرفقه ملويًا قليلًا، ولكن في الاتجاه المعاكس. كان جيم مقطب الجبين.

ـ جيم...؟

تكلم أتيكوس فقال:

ـ لا يستطيع أن يسمعك يا سكاوت، لقد فقد وعيه مرة أخرى.

تراجعت قائلة:

ـ نعم يا سيدي.

كانت غرفة جيم كبيرة ومربعة الشكل. كانت العمة ألكسندرا جالسة في كرسي هزاز قرب المدفأة. وكان الرجل الذي جاء بجيم إلى المنزل يقف في إحدى الزوايا، ويستند إلى الحائط. كان شخصًا ريفيًا لا أعرفه. ربما حضر الحفل وكان لا يزال في الجوار حين حدث ما حدث. لا بد وأنه سمع صرخاتنا فجاء يعدو.

كان أتيكوس واقفًا بالقرب من سرير جيم.

وقف السيد هك تيت عند الباب. وقبعته في يده. مع مصباح يدوي يبرز من جيب بنطلونه. كان يرتدي ملابس العمل.

قال أتيكوس:

ـ ادخل يا هك. هل وجدت شيئًا؟ لا أستطيع أن أتصور من هو

ذاك الذي وصلت به النذالة إلى حد يمكنه معه أن يفعل مثل هذا الفعل الدنيء، ولكني آمل أن تكون قد وجدته.

التقط السيد تيت أنفاسه على نحو مسموع، ونظر بحدة إلى الرجل الواقف في الزاوية، ثم أشار برأسه إليه، ونظر بعد ذلك في أرجاء الغرفة، إلى جيم والعمة ألكسندرا ثم إلى أتيكوس.

قال بلطف:

ـ اجلس يا سيد فينش.

قال أتيكوس:

ـ فلنجلس جميعًا. خذ هذا الكرسي يا هك، وسأحضر كرسيًا آخر من غرفة الجلوس.

جلس السيد تيت في كرسي القراءة الخاص بجيم. انتظر حتى عاد أتيكوس ثم استرخى. تساءلت لماذا لم يجلب أتيكوس كرسيا للرجل الذي في الزاوية، ولكن أتيكوس كان يعرف أساليب الريفيين أفضل مني بكثير. كان بعض زبائنه الريفيين يوقفون جيادهم طويلة الآذان تحت أشجار الشنابري في الفناء الخلفي، وكان أتيكوس غالبًا ما يقابلهم على السلم الخلفي. ربما كان هذا الشخص أكثر راحة حيث هو.

قال السيد تيت:

ـ يا سيد فينش، سأقول لك ما وجدت. لقد وجدت ثوب فتاة صغيرة، وهو هناك في سيارتي. هل هو ثوبك يا سكاوت؟

ـ نعم يا سيدي، إن كان قرنفلي اللون مطرزًا.

كان السيد تيت يتصرف وكأنه جالس في منصة الشهود. كان يهوى أن يروي الأمور بطريقته الخاصة، متحررًا من قيود ممثل الادعاء أو الدفاع، وأحيانًا كان ذلك يستغرقه بعض الوقت.

ـ لقد وجدت بعض القطع المضحكة من قماش بلون الطين...

ذلك كان زيي يا سيد تيت.

مرر السيد تيت يديه فوق فخذيه. حك ذراعه اليسري ثم تفحص المدفأة في غرفة جيم، وبدا وكأنه مهتم بها. ثم بحثت أصابعه عن أنفه الطويل.

قال أتيكوس:

ـ ما الحكاية يا هك.

وجد السيد تيت عنقه وحكه، ثم قال:

ـ بوب يوويل متمدد هناك على الأرض تحت الشجرة وهناك سكين مطبخ مغروزة بين ضلوعه. إنه ميت يا سيد فينش.

الفصل التاسع والعشرون

نهضت العمة ألكسندرا ومدت يدها إلى المدفأة. نهض السيد تيت ليساعدها ولكنها رفضت. وللمرة الأولى في حياة أتيكوس تخونه كياسته: فقد ظل جالسا مكانه.

لم أستطع، على نحو ما، أن أفكر سوى في شيء واحد وهو ما كان السيد يوويل قد أعلنه من أنه سينال من أتيكوس ولو استغرقه ذلك حياته بأكملها. لقد كاد السيد يوويل أن ينال منه، وكان ذلك آخر شيء فعله في حياته.

قال أتيكوس وقد علته الكآبة:

ـ هل أنت واثق؟

ـ إنه ميت فعلًا، إنه ميت بالفعل، ولن يؤذي هذين الطفلين بعد الآن.

ـ لم أعنِ ذلك.

بدا على أتيكوس وكأنه يتحدث وهو نائم. بدأت تظهر عليه علامات تقدم العمر، وهذه إشارة إلى تأثره الداخلي؛ ففكه القوي قد ارتخى قليلًا، وبدأت بعض التجاعيد تتشكل تحت أذنيه، واختفى شعر رأسه الأسود وبدت للعيان الخصلات الرمادية أعلى صدغيه.

قالت العمة ألكسندرا أخيرًا:

ـ أليس من الأفضل أن نذهب إلى غرفة الجلوس؟

قال السيد تيت:

ـ حسبما تريدون، أنا أرغب في أن نبقى هنا إذا كان ذلك لا يضر جيم. أريد أن أتفحص إصابته بينما تحكي لنا سكاوت عما حدث.

سألت العمة:

ـ هل يمكن أن أترككم؟ إن وجودي ليس ضروريًا في هذه الغرفة. سأكون في غرفتي إذا أردتني يا أتيكوس.

ذهبت العمة ألكسندرا نحو الباب، ولكنها توقفت والتفتت:

ـ أتيكوس، كان لدي حدس مسبق بما جرى... لقد... هذه غلطتي أنا... كان يجب أن..

رفع السيد تيت يده وقال:

ـ هيا يا سيدة ألكسندرا. أعرف أن هدا قد سبب صدمة قوية لك، لا تندمي على أي شيء... لو كنا نتبع مشاعرنا طوال الوقت لكنا كالقطط التي تطارد ذيولها. يا آنسة سكاوت، هل تستطيعين أن تَقُصِي علينا ما حدث وهو لا يزال حاضرا في ذهنك؟ هل تظنين أنه بمقدورك أن تفعلي ذلك؟ هل شاهدته يلاحقكما؟

اتجهت إلى أتيكوس وأحسست بذراعيه تلتفان حولي. دفنت وجهي في صدره ثم قلت:

ـ انطلقنا نحو البيت. قلت يا جيم لقد نسيت حذائي. وما إن قررنا

العودة لإحضاره حتى انطفأت الأنوار. قال جيم إني أستطيع إحضاره غدًا..

قال أتيكوس:

ـ ارفعي صوتك يا سكاوت حتى يستطيع السيد تيت سماعك.

ولكني تسللت إلى حجره.

ثم قال جيم اسكتي للحظة. وظننت أنه كان يفكر...فهو دائمًا يطلب من الآخرين أن يصمتوا عندما يفكر.. ثم قال إنه سمع شيئًا ما. وقد كنا نظن في البداية أنه كان سيسيل.

ـ سيسيل؟

ـ سيسيل جاكوبز. لقد أخافنا هذه الليلة مرة، وكنا نظن أنه هو مرة أخرى. كان يرتدي ملاءة. كانوا سيعطون ربع دولار لأفضل زي. ولا أعرف من كسب الجائزة.

ـ أين كنتما حين ظننتما أن سيسيل كان يلاحقكما؟

ـ على مقربة من مبنى المدرسة. وقد صحت عاليًا...

ـ ماذا قلت؟

ـ سيسيل جاكوبز دجاجة كبيرة سمينة، هذا ما أظن أني قلته. لم نسمع أي جواب. ثم صاح جيم محييًا أو قال شيئًا ما بصوتٍ مرتفع جدًا...

قال السيد تيت:

ـ لحظة يا سكاوت. هل سمعتهما يا سيد فينش؟

قال أتيكوس إنه لم يسمع شيئًا. كان قد أدار جهاز الراديو. كما كانت العمة ألكسندرا قد أدارت جهازها أيضًا في غرفة نومها. إنه يتذكر ذلك لأنها طلبت منه أن يخفض الصوت قليلًا حتى تستطيع الاستماع إلى جهازها. ابتسم أتيكوس ثم أردف:

ـ أنا دائما أرفع صوت الراديو.

قال السيد تيت:

ـ أتساءل إن كان الجيران قد سمعوا شيئًا.

ـ أشك في ذلك يا هك. فمعظمهم يستمعون إلى الراديو أو يذهبون إلى الفراش مبكرًا مثلما يفعل الدجاج. قد تكون مودي أتكنسون لا تزال مستيقظة وإن كنت أشك في ذلك.

قال السيد تيت:

ـ تابعي يا سكاوت.

ـ حسنًا، بعد أن صاح جيم تابعنا السير. يا سيد تيت، كنت محبوسة في زيي ولكني كنت أستطيع سماعها بنفسي. أعني الخطوات. كانت الخطوات تسير حين نسير وتتوقف حين نتوقف. قال جيم إنه يستطيع رؤيتي لأن السيدة كرنشو وضعت نوعًا من الطلاء اللامع على زيي. كنت أقوم بدور فخذ لحم الخنزير.

سأل السيد تيت وقد صعق:

ـ وكيف ذلك؟

ـ وصف له أتيكوس دوري، وكذلك تركيب الزي الذي ارتديته. ثم قال:

ـ كان يجب أن تراها حين دخلت. كان الزي ممزقا وصار بلا شكل واضح.

حك السيد تيت ذقنه وقال:

ـ تساءلت لماذا ظهرت تلك العلامات على الرجل. كان كُما قميصه يحملان آثار ثقوب صغيرة، كما كان على ذراعيه ثقب أو اثنان بحيث يتناسبان مع فتحتي العينين في الزي. هل يمكن أن أرى الزي يا سيدي؟

جلب أتيكوس بقايا الزي. قلَّبه السيد تيت ثم لفَّه ليتعرف على شكله الأصلي. قال: «هذا الشيء ربما يكون قد أنقذ حياتها. انظر».

أشار بسبابته الطويلة. كان هناك خط نظيف لامع على السلك الباهت كأنما من أثر السكين. همهم السيد تيت:

كان بوب يوويل جادًا في تهديداته.

قال أتيكوس:

ـ لا بد أنه قد فقد عقله.

ـ لا أحب أن أختلف معك يا سيد فينش... ولكنه لم يكن مجنونًا، بل وضيعًا إلى أقصى حد. إنه شخص بغيض دنيء يعب من الخمر ما يمنحه الشجاعة ليقتل أطفالًا. ما كان ليجرؤ على مواجهتك وجهًا لوجه.

هز أتيكوس رأسه وقال:

ـ لا أستطيع أن أتصور وجود إنسان يمكنه أن....

ـ يا سيد فينش، هناك نوع من البشر عليك أن تقتلهم قبل أن تحييهم. وهم في ذلك لا يستأهلون حتى تلك الرصاصة التي يجب قتلهم بها. وكان يوويل واحدا من هؤلاء.

قال أتيكوس:

ـ ظننت أنه قد أفرغ حقده ذلك اليوم الذي هددني فيه. وحتى لو لم يكن قد أفرغه كله، كنت أظن أنه سيحاول أن ينال مني أنا.

ـ كان لديه من الشجاعة ما يكفي لإزعاج امرأة ملونة فقيرة، وكانت لديه الشجاعة لإزعاج القاضي تايلور حين ظن أن المنزل كان خاليًا، لذا هل كنت تظن أنه سيواجهك وجهًا لوجه في وضح النهار؟

تنهد السيد تيت ثم أردف:

ـ هيا نتابع حديثنا. يا سكاوت، لقد سمعتماه يسير خلفكما.

ـ نعم يا سيدي. وحين وصلنا إلى تحت الشجرة...

ـ وكيف تعرفين أنكما كنتما تحت الشجرة؟ ما كنت تستطيعين أن تري شيئًا هناك.

ـ كنت حافية القدمين، جيم يقول إن الأرض تحت الشجر تكون عادة أبرد.

ـ علينا أن نعيِّنه نائبًا للمأمور. هيا أكملي.

ـ ثم حدث فجأة أن أمسك بي شيء ما وحاول تمزيق زيي... أعتقد أني وقعت على الأرض... سمعت صوت عراك تحت الشجرة... كانا يصطدمان بالجذع على ما يبدو، ثم وجدني جيم وبدأ يجذبني نحو الشارع. ولكن شخصًا ما... السيد يوويل رماه أرضًا على ما أعتقد. وقد تعاركا فترة أخرى ثم سمعت ذلك الصوت الغريب... وصرخ جيم...

ـ توقفت. إذن كانت تلك ذراع جيم.

ـ على أية حال، صرخ جيم ولم أعد أسمع صوته بعد ذلك والشيء التالي كان... كان السيد يوويل يحاول أن يعصرني حتى الموت، على ما أعتقد... ثم رمى شخص ما بالسيد يوويل أرضًا. لا بد أن جيم كان قد نهض من جديد على ما أعتقد. هذا كل ما أعرفه...

ـ وثم....؟

كان السيد تيت ينظر إليّ بحدة.

ـ كان شخص ما يترنح ويلهث في أرجاء المكان و.... يسعل حتى الموت. في البداية ظننت أنه جيم، ولكن الصوت لم يكن صوته، ولذا بدأت أبحث عن جيم على الأرض، ظننت أن أتيكوس جاء لإنقاذنا وقد أنهك من الجري.

ـ من كان ذاك؟

ـ هذا هو الشخص يا سيد تيت، إنه يستطيع أن يقول لك اسمه بنفسه.

وحين قلت ذلك، أشرت نصف إشارة إلى الرجل الواقف في الركن، ولكني أعدت ذراعي إلى مكانها بسرعة لئلا يوبِّخني أتيكوس على ذلك. كانت الإشارة إلى الناس بالذراع تصرفًا غير مهذب.

كان لا يزال مستندًا إلى الجدار. كان مستندًا إلى الجدار حين دخلت الغرفة، وذراعاه مثنيتان على صدره. وحين أشرت إليه أنزل ذراعيه وضغط بكفيه على الجدار. كانت يداه بيضاوين، ولكنهما بيضاوان شاحبتان كأنهما لم تريا الشمس قط، بيضاوان إلى حد أنهما كانتا متوهجتين مقارنةً بالجدار الذي كان لونه أبيضَ مُصفرًّا في النور الباهت لغرفة جيم.

نظرت من يديه إلى بنطلونه الكاكي، ثم تحركت عيناي على امتداد جسمه النحيف حتى قميصه القطني الممزق. كان وجهه أبيض كيديه، باستثناء ذقنه الناتئة. كانت وجنتاه نحيلتين إلى حد أنهما بدتا مجوَّفتين، وكان فمه واسعًا. وعلى صدغيه ثلمات ضحلة ودقيقة، كما كانت عيناه الرماديتان تبدوان بلا لون إلى حدٍ بدا معه كما لو كان أعمى. أما شعره فكان يخلو من مظاهر الحياة كالريش تقريبًا على قمة رأسه.

حين أشرت إليه انزلقت كفاه تاركة آثارًا دهنية من العرق على الحائط، ثم علق إبهاميه في حزامه. فجأة أصابته نوبة غريبة من التشنج، وكأنه سمع صوت أظافر تَحُكُّ لوحًا حجريًا، ولكن، وبينما كنت أحدق فيه مندهشة، بدأ التوتر يزول ببطء من وجهه. انفرجت شفتاه بابتسامة خجول، وفجأة انهمرت دموعي فرأيت صورة جارنا غير واضحة من خلف دموعي الفجائية.

قلت:

ـ مرحبا يا «بو».

الفصل الثلاثون

قال أتيكوس وهو يصحح لي بلطف:

ـ السيد آرثر يا حبيبتي چان لويز، هذا هو السيد آرثر رادلي. أعتقد أنه يعرفك من قبل.

إذا كان أتيكوس لديه القدرة على تقديمي بهذه الطريقة العادية إلى بو رادلي في مثل هذا الوقت... حسنًا.... فإن هذا هو أتيكوس.

رآني بو أهرع غريزيًا نحو السرير حيث كان جيم نائمًا. فالابتسامة الخجول زحفت هي نفسها عبر وجهه. وبسبب اضطرابي حاولت أن أغطي هذا الاضطراب عن طريق تغطية جيم.

قال أتيكوس:

ـ مهلًا، لا تلمسيه.

جلس السيد هك تيت يركز النظر إلى بو من خلال نظارته ذات الإطار المصنوع من قرون الحيوانات. كان يَهِمُ بالحديث حين وصل الدكتور رينولدز قادمًا من الردهة.

قال حين وصل إلى الباب:

- فليخرج الجميع. مساء الخير يا آرثر، لم ألاحظك في المرة الأولى التي كنت فيها هنا.

كان صوت الدكتور رينولدز حيويًا كخطواته، وقد حيَّاه وكأنه اعتاد ذلك في كل يوم من أيام حياته، وهذا شيء أدهشني أكثر مما أدهشتني فكرة وجودي في الغرفة نفسها مع بو رادلي. طبعا... حتى بو رادلي يصاب بالمرض أحيانًا. ولكني ما كنت متأكدة من ذلك على أية حال.

كان الدكتور رينولدز يحمل رزمة كبيرة ملفوفة بورق الصحف. وضعها على مكتب جيم وخلع سترته. ثم قال موجهًا كلامه إليّ:

- هل أنت مقتنعة تماما الآن أنه حي؟ هل أقول لك كيف عرفت أنه حي؟ حين حاولت أن أفحصه رفسني. وقد اضطررت إلى جعله يفقد وعيه حتى أستطيع أن ألمسه. هيا اذهبي إذن.

قال أتيكوس وهو ينظر إلى بو:

- هيا نخرج إلى المدخل الأمامي. توجد مقاعد كثيرة هناك، وما زال الجو دافئًا بما فيه الكفاية.

تساءلت لماذا كان أتيكوس يدعونا إلى المدخل الأمامي وليس إلى غرفة الجلوس، ثم فهمت لماذا. فأنوار غرفة الجلوس كانت قوية جدًا.

خرجنا الواحد تلو الآخر. أولًا السيد تيت... كان أتيكوس ينتظر عند الباب حتى يخرج بو، ثم غير رأيه ولحق بالسيد تيت.

من عادة الناس أن يمارسوا الأمور اليومية حتى في أغرب الظروف. ولم أكن أنا مستثناة من ذلك. سمعت نفسي أقول:

ـ هيا يا سيد آرثر. أنت لا تعرف المنزل جيدًا. سأرافقك حتى المدخل يا سيدي.

نظر إليّ وأومأ برأسه.

قُدْتُه عبر الردهة وغرفة الجلوس.

ـ هل لك أن تجلس يا سيد آرثر؟ هذا الكرسي الهزاز لطيف ومريح.

ـ ها هي تصوراتي الخيالية التي رسمتها له تعود للحياة مرة أخرى: كنت أتخيله جالسًا في المدخل الأمامي... إنه طقس جميل تمامًا، أليس كذلك يا سيد آرثر؟

ـ أجل إنه طقس جميل تمامًا. وبينما كنت أشعر بأن ما يحدث غير حقيقي، قدته نحو الكرسي الأكثر بعدًا عن أتيكوس والسيد تيت. كان الكرسي موضوعا في الظل. سيشعر براحة أكبر في الظلام.

كان أتيكوس جالسًا في الأرجوحة، والسيد تيت في الكرسي القريب منه. كان النور القادم من نوافذ غرفة الجلوس ينعكس بقوة عليهما. جلست أنا بالقرب من بو.

كان أتيكوس يقول:

ـ حسنًا يا هك. أعتقد أن ما علينا أن نفعله.... يا إلهي إني أفقد ذاكرتي.

دفع أتيكوس بنظارته إلى الأعلى وضغط بأصابعه على عينيه:

ـ إن جيم لم يبلغ الثالثة عشرة بعد... لا، بل هو في الثالثة عشرة تماما... لا أستطيع أن أتذكر. على أية حال، سترفع القضية أمام محكمة المقاطعة.

ـ أي قضية يا سيد فينش؟

أنزل السيد تيت ساقًا عن الأخرى وانحنى إلى الأمام.

ـ بالطبع كان الأمر دفاعًا عن النفس واضحًا كعين الشمس، ولكن عليّ أن أذهب إلى المكتب وأبحث عن...

ـ يا سيد فينش، هل تعتقد أن جيم قتل بوب يوويل؟ هل تعتقد ذلك؟

ـ سمعت ما قالته سكاوت، لا شك في ذلك. لقد قالت إنه نهض وألقاه عنها... ربما استطاع أن يمسك بطريقة ما بسكين يوويل في الظلام... سنعرف غدًا.

ـ يا سيد فينش، انتظر قليلًا. جيم لم يطعن بوب يوويل.

صمت أتيكوس للحظة. نظر السيد تيت وكأنه كان يقيِّم ما قاله. ولكن أتيكوس هزَّ رأسه.

ـ هك، هذا كرم كبير منك وأعرف أنك تفعل ذلك بدافع من قلبك الطيب، ولكن لا تحاول طرح المشكلة بهذه الطريقة.

نهض السيد تيت وذهب إلى حافة المدخل الأمامي. بصق في الشجيرات، ثم دفع يديه في جيبي بنطلونه الخلفيين، ثم واجه أتيكوس وقال:

ـ أية طريقة؟

ـ يؤسفني أني تحدثت بحدة يا هك، ولكن لن يقوم أحد بطمس هذه القضية. أنا لا أعيش بهذه الطريقة.

ـ لن يطمس أحد أي شيء يا سيد فينش.

كان صوت السيد تيت هادئًا، ولكن حذاءه كان مزروعًا فوق الألواح الخشبية للمدخل الأمامي. بحيث بدا وكأنه نبت هناك. كان نوعًا من الخلاف الغريب ـ خلاف ذي طبيعة لم أفهمها ـ ينشأ بين أبي والمأمور.

كان دور أتيكوس الآن في النهوض والسير نحو حافة المدخل الأمامي. تنحنح ثم بصق بصاقًا جافًا في الفناء. وضع يديه في جيبيه وواجه السيد تيت:

ـ يا هك، لم تقلها، ولكني أعرف ما تفكر فيه. وأشكرك على ذلك. يا چان لويز.

وهنا استدار نحوي ثم قال:

ـ قلت إن جيم رمى بالسيد يوويل بعيدًا عنك؟

ـ نعم يا سيدي، هذا ما ظننت...

ـ هل ترى يا هك؟ أشكرك من أعماق قلبي، ولكني لا أريد لابني أن يستهل حياته بحِمْلٍ كهذا فوق رأسه. وأفضل طريقة لتنقية الأجواء هو أن توضح الأمور بشفافية. فليأت سكان المقاطعة ومعهم شطائرهم. لا أريده أن يشب ويترعرع وهناك همسات حوله. لا أريد أن يقول أي شخص: «جيم فينش... لقد دفع أبوه مبلغًا كبيرًا لتخليصه من تلك المشكلة». كلما أسرعنا بحل المشكلة كان أفضل.

قال السيد تيت بتصميم:

ـ يا سيد فينش. بوب يوويل سقط على سكينه. لقد قتل نفسه.

ـ سار أتيكوس نحو زاوية المدخل الأمامي. نظر إلى النبات المتسلق.

كان كلا الرجلين عنيدًا، كلٌ بأسلوبه الخاص، وتساءلت من سيتراجع أولًا. كان عناد أتيكوس هادئًا لا يظهر إلا نادرًا، ولكنه كان يتشبث برأيه في بعض الأمور كتشبث عائلة كانينجهام. أما عناد السيد تيت فكان فطريًا، ولكنه كان مساويًا لعناد أبي.

أدار أبي ظهره ثم قال:

ـ يا هك، إذا طُمِس هذا الأمر فسيكون تناقضا صريحًا بالنسبة لجيم مع ما ربيته عليه. أحيانًا أعتقد أني أب فاشل تمامًا، ولكنني كل ما يملكه ولداي. وقبل أن ينظر جيم إلى أي شخص آخر فإنه ينظر إليّ. وقد حاولت أن أعيش بحيث أستطيع أن أرد على نظراته دون مواربة وأن أنظر في عينيه.... وإذا ما غضضت الطَّرْفَ عن ذلك الأمر فإني بصراحة لن أكون قادرًا على النظر في عينيه، وفي ذلك اليوم الذي لا أستطيع فيه أن أفعل ذلك، سأعرف أني خسرته. لا أريد أن أخسره هو أو سكاوت، لأنهما كل ما أملك.

قال السيد تيت وهو ما زال مزروعًا على الألواح الخشبية لأرضية المدخل الأمامي:

ـ يا سيد فينش، لقد سقط بوب يوويل على سكينه. وأنا أستطيع إثبات ذلك.

التفت أتيكوس بحركة دائرية. كانت يداه مدسوستين في جيبيه. قال:

ـ يا هك، ألا تستطيع حتى أن تحاول أن ترى الأمور من وجهة نظري؟ أنت لديك أطفال أيضًا، ولكني أكبر منك سنًا. وحين يكبر طفلاي سأكون

رجلًا عجوزًا هذا إذا كنت لا أزال حيًا، ولكني الآن حي... وإذا كانا لا يستطيعان الوثوق بي فلن يثقا بأحد. جيم وسكاوت يعرفان ما حدث. وإذا سمعاني أقول في البلدة إن شيئًا آخر قد حدث... يا هك، فلن يكونا طفلي بعدها أبدًا. لا أستطيع أن أعيش في البلدة بأسلوب وفي البيت بأسلوب آخر.

هز السيد تيت نفسه على كعبيه ثم قال بصبر:

ـ لقد رمى بجيم أرضًا، ثم تعثر بجذر تحت الشجرة و.... انظر، أستطيع أن أريك كيف حدث ذلك.

أدخل السيد تيت يده في جيبه الجانبي وأخرج «مطواة». وبينما كان يفعل ذلك وصل الدكتور رينولدز إلى الباب فقال له:

ـ ابن... الميت هناك تحت الشجرة يا دكتور، داخل فناء المدرسة. هل لديك مصباح يدوي؟ خذ هذا.

قال الدكتور:

ـ أستطيع أن أتقدم بسيارتي ثم أستعمل أنوارها.

ـ ولكنه أخذ مصباح السيد تيت مع ذلك، ثم أردف:

جيم بخير. لن يستيقظ الليلة، على ما آمل، لذا لا تقلقوا. أكانت تلك هي السكين التي قتلته؟

لا يا سيدي، لا تزال مغروسة فيه. بدت من مظهر قبضتها لي كسكين مطبخ. لا بد أن «كن» قد وصل الآن مع النقالة يا دكتور. طابت ليلتك.

فتح السيد تيت «المطواة» قال: «كانت هكذا». أمسك بها وتظاهر

بالتعثر، وبينما كان ينحني نحو الأمام سبقته ذراعه اليسرى. «أترى؟ لقد طعن نفسه فيما بين الأضلاع لقد جعلها ثقل جسمه تخترق صدره».

أغلق السيد تيت «المطواة» ودفعها في جيبه. قال:

ـ سكاوت في الثامنة من العمر. لقد كانت مصابة بالفزع إلى حد لم تستطع معه أن تعرف ما حدث بالضبط.

قال أتيكوس في كآبة:

ـ ستدهش.

ـ لا أقول إنها اختلقت الحكاية، بل أقول إنها كانت مصابة بالفزع إلى حد أنها لم تستطع أن تعرف ما حدث تحديدًا. كان الظلام دامسًا هناك، ظلام حالك. وحتى يكون المرء شاهدًا موثوقًا في مثل هذه الحالة، فلا بد أن يكون من النوع الذي يعتاد هذا الظلام.

قال أتيكوس بلطف:

ـ لن أقبل بهذه الرواية.

ـ اللعنة، أنا لا أفكر في جيم.

ضرب السيد تيت الألواح الخشبية بحذائه في قوة إلى حد أن الأنوار في غرفة نوم الآنسة مودي أضيئت. كما أضيئت أنوار الآنسة ستيفاني كروفورد. نظر أتيكوس والسيد تيت عبر الشارع، ثم نظر كل منهما إلى الآخر وانتظر.

وحين تكلم السيد تيت مرة أخرى كان صوته يكاد لا يُسمَع:

ـ يا سيد فينش، أكره أن أعارضك حين تكون على هذه الحال.

لقد تعرضت الليلة لحالة انفعال ليس من السهل على أي رجل أن يمر بها، ولا أدري لِمَ لَمْ تطرحك في الفراش ولكني أعرف أنك لا تستطيع الآن أن تعرف مجموع اثنين واثنين. إننا مضطرون إلى حل هذه المشكلة الليلة لأننا لو انتظرنا إلى الغد نكون قد تأخرنا كثيرًا. بوب يوويل لديه سكين مطبخ في أحشائه.

أضاف السيد تيت أن أتيكوس لن يقف هناك ويصر على أن أي صبي في حجم جيم وبذراع مكسورة كان لا يزال فيه من القوة ما يكفي لمواجهة رجل وقتله في الظلام الدامس.

قال أتيكوس بحدة:

ـ يا هك، أكانت تلك «مطواة» التي كنت تلوح بها. من أين حصلت عليها؟

أجاب الست تيت ببرود:

ـ أخذتها من رجل مخمور.

حاولت أن أتذكر. كان السيد يوويل فوقي... ثم طُرح أرضا... لا بد أن جيم قد نهض... على الأقل ظننت...

ـ يا هك؟

ـ قلت إني أخذتها من رجل مخمور في البلدة الليلة. ربما وجد يوويل سكين المطبخ تلك في مقلب القمامة، ثم سنَّ نَصْلَهَا وانتظر في صبر وهدوء... لقد انتظر لاقتناص فرصته.

مشى أتيكوس حتى الأرجوحة ثم جلس. كانت يداه مدلاتين بترهل

بين ركبتيه. كان ينظر إلى الأرضية كما كان في تلك الليلة عند السجن، رأيته يتحرك حينها بالبطء نفسه الذي لاحظته الآن، وذلك حين ظننت أن طيه للصحيفة وإلقاءها على كرسيه سيستغرق وقتًا طويلًا.

مشى السيد تيت بهدوء وتثاقل في المدخل الأمامي ثم قال:

ـ ليس القرار قرارك يا سيد فينش، بل قراري أنا مئة بالمئة. إنه قراري ومسئوليتي. وإذا كنت لا تراه كما أراه أنا، فليس هناك الكثير مما تستطيع فعله. إذا أردت أن تحاول، سأتهمك بالكذب في وجهك. لم يطعن ابنك بوب يوويل نهائيًا... وما كان يمكنه أن يفعل ذلك وأنت تعرف كل شيء. كل ما كان يريده هو أن يصل هو وأخته إلى البيت سالمين.

توقف السيد تيت عن السير. توقف أمام أتيكوس وكان ظهره لنا. قال:

ـ لست رجلًا طيبًا جدا يا سيدي. ولكني مأمور مقاطعة مايكوم. لقد عشت في هذه البلدة طوال حياتي وأصبحت الآن في الثالثة والأربعين. أعرف كل ما يحدث في هذه البلدة وحتى ما حدث فيها قبل أن أولد. هناك شاب أسود مات دون مبرر، والرجل المسئول عن موته ميت هو الآخر الآن. فليدفن الموتى أنفسهم هذه المرة يا سيد فينش. فليدفن الموتى أنفسهم.

سار السيد تيت نحو الأرجوحة والتقط قبعته. كانت ملقاة قرب أتيكوس. دفع السيد تيت شعره إلى الخلف ثم ارتدى قبعته.

ـ لم يسبق لي أن سمعت أنه منافٍ للقانون أن يقوم المواطن ببذل قصارى جهده ليمنع جريمة من أن تُرْتَكَب، وهذا ما فعله بالضبط،

ولكنك قد تقول ربما إنه من واجبي أن أقول للبلدة كل شيء وألا أطمس شيئًا. هل تعرف ما سيحدث عندئذ؟ ستقوم كل السيدات في مايكوم بما فيهن زوجتي بالطرق على بابه وجلب الكعك المحلي له. بالنسبة لي وبالطريقة التي أفكر بها يا سيد فينش، فإن لفت النظر إلى الرجل الذي قدم لك ولهذه البلدة خدمة عظيمة وجره إلى أضواء الشهرة وهو الخجول بطبعه... بالنسبة لي يبدو مثل هذا الفعل كخطيئة. إنها خطيئة ولن أدعها تقع على كاهلي. لو تعلق الأمر بأي رجل آخر لاختلف الوضع. ولكن ليس هذا الرجل يا سيد فينش.

كان السيد تيت يحاول أن يحفر حفرة في الأرضية بإبهام حذائه. شد أنفه ثم دلك ذراعه اليسرى وقال:

ـ قد لا أكون رجلا ذا شأن كبير يا سيد فينش، ولكني لا أزال مأمور مقاطعة مايكوم وقد سقط بوب يوويل على سكينه، طابت ليلتك يا سيدي.

سار السيد تيت بقوة قاطعا المدخل الأمامي ثم عبر الفناء الأمامي. وسمعنا صوت باب سيارته وهو ينصفق بقوة ثم انطلق بها بعيدًا.

جلس أتيكوس ينظر إلى الأرض لفترة طويلة. وأخيرًا رفع رأسه. قال:

ـ يا سكاوت، لقد سقط السيد يوويل على سكينه. هل يمكنك أن تفهمي ذلك؟

بدا أتيكوس وكأنه بحاجة إلى تشجيع. جريت نحوه وضممته وقبَّلته بكل ما فيّ من قوة. قلت له بلهجة مطمئنة:

ـ نعم يا سيدي، أفهم. كان السيد تيت على حق.

حرر أتيكوس نفسه ونظر إليّ وقال:

ـ ما الذي تعنينه؟

ـ سيكون ذلك أشبه بقتل طائر محاكٍ، أليس كذلك؟

وضع أتيكوس وجهه في شعري ومرَّغه به. وحين نهض وسار عبر المدخل الأمامي إلى الظلال، كانت خطوته الشابة قد عادت إليه. وقبل أن يدخل البيت، توقف أمام بو رادلي وقال له:

ـ شكرًا لما أسْدَيْتَه لطفليّ يا آرثر.

الفصل الواحد والثلاثون

حين نهض بو رادلي على قدميه، انعكس النور القادم من نوافذ غرفة الجلوس على جبهته. بدت كل حركة كان يقوم بها مضطربة، وكأنه لم يكن واثقًا من أن يديه وقدميه كانت قادرة على التواصل الصحيح مع الأشياء التي كان يلمسها. سعل سُعْلَته القوية، وقد هزته إلى حد أنه اضطر إلى الجلوس مرة أخرى. فتشت يده في جيب بنطلونه الخلفي، وأخرجت منديلًا. سعل في المنديل ثم مسح به وجهه.

وبما أنني اعتدت إلى حد كبير على غيابه، فقد وجدت أنني لا أستطيع أن أصدق أنه كان جالسًا بالقرب مني طوال هذا الوقت، وأنه كان حاضرًا. إذ لم يصدر عنه أي صوت.

نهض مرة أخرى. استدار نحوي وأشار نحو الباب الأمامي برأسه.

ـ أنت تريد أن تتمنى لجيم ليلة طيبة، أليس كذلك يا سيد آرثر؟ ادخل.

قدته عبر البهو. كانت العمة ألكسندرا جالسة قرب سرير جيم. قالت:

ـ ادخل يا آرثر، إنه لا يزال نائمًا. لقد أعطاه الدكتور رينولدز منوِّمًا قويًا. يا چان لويز هل أبوك في غرفة الجلوس؟

ـ نعم يا سيدتي، أظن ذلك.

ـ سأذهب لأتحدث إليه قليلًا. لقد ترك الدكتور رينولدز بعض...

ثم خفت صوتها حتى تلاشى.

كان بو قد انحرف نحو أحد أركان الغرفة، حيث وقف هناك وذقنه مرفوعة عاليًا، وراح يحدق في جيم من على بُعد. أخذته من يده. كانت دافئة إلى حد مدهش بالمقارنة ببياض لونها. شددته قليلًا فسمح لي أن أقوده إلى سرير جيم.

كان الدكتور رينولدز قد صنع ما يشبه الخيمة فوق ذراع جيم حتى يبقى الغطاء بعيدًا عنها، وقد انحنى بو إلى الأمام ونظر من فوقها. كان على وجهه نوع من الفضول الخجول، وكأنه لم ير صبيًا من قبل. كان فمه مفتوحًا قليلًا، ونظر إلى جيم من رأسه حتى قدميه. ثم ارتفعت يد بو قليلًا، ولكنه تركها تسقط إلى جانبه.

ـ تستطيع أن تربت عليه يا سيد آرثر، إنه نائم. ما كنت تستطيع ذلك لو كان مستيقظًا. على أية حال ما كان سيدعك تفعل ذلك... هيا.

ارتفعت يد بو وحلقت فوق رأس جيم.

ـ هيا يا سيدي، إنه نائم.

نزلت يده بخفة على شعر جيم.

كنت قد بدأت أتعلم لغته الجسدية الخاصة. اشتدت قبضة يده على يدي مشيرًا إلى أنه يودّ الرحيل.

قدته إلى المدخل الأمامي، حيث توقفت خطواته القلقة. كان لا يزال يمسك بيدي ولم يبدِ أية إشارة إلى أنه يريد إطلاق سراحي.

ـ هل لك أن تقوديني إلى البيت؟

همس بتلك الجملة همسًا، وبنبرة طفل خائف من الظلام. وضعت قدمي على الدرجة العليا ثم توقفت. سأقوده عبر منزلنا ولكني لن أقوده أبدًا إلى البيت.

ـ يا سيد آرثر، اثن ذراعك هنا، هكذا. هذا صحيح يا سيدي.

دفعت بذراعي تحت ذراعه.

كان عليه أن ينحني قليلًا حتى يماشيني. لو كانت الآنسة ستيفاني كروفورد تراقبنا من نافذة الطابق العلوي لمنزلها، لكانت سترى آرثر رادلي يرافقني عبر الممشى، كأي «جنتلمان».

وصلنا إلى عمود النور على الناصية، وتَسَاءلت نفسي كم مرة يا ترى وقف ديل هنا وهو يعانق هذا العمود الضخم، يراقب وينتظر ويَتأمَّل. وتساءلت كم مرة يا ترى قمنا أنا وجيم بهذه الرحلة، ولكني دخلت عبر بوابة منزل عائلة رادلي للمرة الثانية في حياتي. صعدنا أنا وبو السلم الأمامي نحو المدخل. وجدت أصابعه مقبض الباب الأمامي. حرر يدي بلطف، فتح الباب ودخل، ثم أغلق الباب خلفه. ولم أره بعد ذلك أبدًا.

عادة ما يجلب الجيران الطعام عند الموت والزهور عند المرض وأشياء صغيرة في حالات ما بين هذا وذاك. كان بو جارنا. لقد منحنا دميتين من الصابون، وساعة مكسورة مع سلسلة، وزوجًا من البنسات التي تجلب الحظ السعيد، كما منحنا حياتينا. ولكن الجيران يهدون أيضا بالمقابل، إلا أننا لم نكن نعيد إلى الشجرة ما كنا نأخذه منها: لم نعطه شيئًا، وهذا ما أحزنني.

استدرت لأعود إلى المنزل. كانت الأنوار تتلألأ عبر الشارع وحتى نهاية البلدة. لم أكن قد رأيت حيًّا من هذه الزاوية. هناك كان منزل الآنسة مودي، ومنزل الآنسة ستيفاني.. وذاك هو منزلنا. كنت أستطيع أن أرى أرجوحة المدخل الأمامي... كان منزل الآنسة راشيل وراء منزلنا، ولكنه يُرى بوضوح. وكنت أستطيع أن أرى حتى منزل السيدة ديبوز.

نظرت خلفي فإلى يسار الباب البني اللون كانت نافذة طويلة ذات مصراع مغلق. مشيت نحوها، ووقفت أمامها، ثم استدرت. وتصورت أنه في ضوء النهار يمكن للمرء أن يرى كل شيء حتى ناصية مكتب البريد.

ضوء النهار...تلاشى الليل في خيالي. كان الوقت الآن نهارًا والحي يموج بالحركة. الآنسة ستيفاني كروفورد تعبر الشارع لتحكي آخر الأخبار للآنسة راشيل، والآنسة مودي منحنية فوق شجرات الأزاليا. إنه الصيف، وهناك طفلان يعدوان على طول الرصيف باتجاه رجل يقترب من بعيد. الرجل يلوح بيده. والطفلان يتسابقان نحوه.

ما زال الفصل صيفًا، والطفلان يقتربان. هناك صبي يمشي مثقلًا على الرصيف ويجر وراءه قصبة صيد. وقف رجل ينتظر ويداه على ردفيه. الفصل صيف... وطفلاه يلعبان في الفناء الأمامي مع صديقهما، وهم يمثلون مسرحية صغيرة غريبة من اختراعهم.

الفصل خريف... وطفلاه يتعاركان على الرصيف أمام منزل السيدة ديبوز. الصبي يساعد أخته على النهوض، ثم يذهبان إلى البيت. الفصل خريف... وطفلاه يهرولان ذهابا وإيابا حول الناصية، ومِحَنُ اليوم وانتصاراته على وجهيهما. يتوقفان أمام شجرة البلوط سعيدين ومتحيرين وخائفين.

الفصل شتاء... وطفلاه يرتجفان عند البوابة الأمامية وهو يرى ظلهما على خلفية منزلٍ يحترق. الفصل شتاء... ويسير رجل في الشارع، يُسقط نظارته ثم يُطلق النار على كلب فيقتله.

الفصل صيف، وهو يراقب طفليه وقد تحطم قلبهما. الخريف مرة أخرى، وطفلا بو في حاجة إليه.

كان أتيكوس على حق. قال لي مرة لن تعرفي أبدًا إنسانا ما على حقيقته حتى تضعي نفسك مكانه وتنظري للأشياء من وجهة نظره. كان الوقوف عند المدخل الأمامي لمنزل عائلة رادلي كافيًا.

كانت أنوار الشارع غائمة من المطر الخفيف الذي راح ينزل. وبينما كنت أسير إلى البيت، شعرت أني تقدمت كثيرًا في السن، ولكني حين نظرت إلى أرنبة أنفي، استطعت أن أرى خرزات دقيقة ضبابية، ولكن النظر بعينين محوَّلتين جعلني أصاب بدوار فتخليت عما كنت أفعله. وبينما كنت في طريقي إلى البيت، فكرت في كل ما لدي لأحكيه لجيم غدًا. سيُجن لأن كل ذلك قد فاته، ولن يتحدث إليّ أيامًا بطولها. وبينما كنت في طريقي إلى البيت، فكرت في أنني أنا وجيم سنكبر ولكن لم يبق أمامنا الكثير لنتعلمه، إلا ربما علم الجبر.

عدوت صاعدة السلم إلى داخل البيت. كانت العمة ألكسندرا قد أوت إلى فراشها، وكانت غرفة أتيكوس معتمة. سأرى إن كان جيم قد استعاد وعيه. كان أتيكوس في غرفة جيم، جالسًا بالقرب من سريره. وكان يقرأ في كتاب.

ـ هل استيقظ جيم؟

ـ إنه ينام بهدوء. لن يستيقظ حتى الصباح.

ـ أوه. هل ستواصل السهر عنده؟

ـ لمدة ساعة أو أكثر قليلًا. اذهبي إلى فراشك يا سكاوت. لقد كان يومك طويلًا.

ـ حسنًا، أظن أني سأبقى معك قليلًا.

ـ كما تشائين.

كان الوقت بعد منتصف الليل، وعجبت من موافقته الودود. كان أحكم مني على أية حال: فما إن جلست حتى بدأت أشعر بالنعاس. سألته:

ـ ماذا تقرأ؟

قلب أتيكوس الكتاب ليريني غلافه:

ـ إنه من كتب جيم وعنوانه: «الشبح الرمادي».

تيقظت فجأة:

ـ لماذا اخترت هذا الكتاب بالذات؟

قال بحدة:

ـ حبيبتي، لا أعرف. لقد مددت يدي وانتقيته. إنه واحد من الأشياء القليلة التي لم أقرأها.

ـ اقرأه بصوت عال من فضلك يا أتيكوس. إنه مخيف فعلًا.

ـ لا. لقد نلت كفايتك من الخوف ولفترة طويلة. هذا الكتاب...

ـ أتيكوس، أنا لم أشعر بالخوف.

رفع حاجبيه، فقلت محتجة:

ـ على الأقل لم أخف حتى بدأت أحكي ما حدث للسيد تيت. جيم لم يكن خائفًا. لقد سألته وقال إنه ليس خائفا. وبالإضافة إلى ذلك فليس هناك ما يخيف حقًا إلا ما نقرأه في الكتب.

فتح أتيكوس فمه ليقول شيئًا، ولكنه أغلقه مرة أخرى. رفع إبهامه من منتصف الكتاب وعاد إلى الصفحة الأولى. تحركت وأسندت رأسي إلى ركبتيه.

قال:

ـ احم... «الشبح الرمادي» بقلم «سيكاتاري هوكينز» (Seckatary Hawkins) الفصل الأول.

حاولت أن أبقى مستيقظة، ولكن المطر كان رقيقًا جدًا، والغرفة دافئةً جدًا وصوته عميقًا جدًا وركبته مريحةً جدًا حتى إني غرقت في النوم.

بعد ثوانٍ، كما بدا لي، كان حذاؤه يدوس بلطف على أضلاعي. رفعني على قدمي وسار بي إلى غرفتي. هممت: «لقد سمعت كل كلمة قلتها... لم أكن نائمة إطلاقًا، والقصة تدور حول سفينة وحول «القرد ذي الأصابع الثلاثة والصبي ستونر» (Three-fingered Fred 'n' Stoner's Boy).

فك أزرار الأفرول، أسندني إليه ثم خلعه عني. أمسكني بيد وجلب بيجامتي باليد الأخرى.

حسنًا، وكان الجميع يظنون أن الصبي ستونر هو الذي يشيع الفوضى في ناديهم ويرمي بالحبر في كل مكان و....

قادني إلى السرير وأجلسني فيه. رفع ساقي ووضعني تحت الغطاء.

وقد طاردوه ولم يستطيعوا الإمساك به لأنهم ما كانوا يعرفون شكله، و... يا أتيكوس، وحين رأوه أخيرًا، لم يكن قد ارتكب أيًا من تلك الأشياء... يا أتيكوس، لقد كان لطيفا حقًا.

كانت يداه تحت ذقني، ترفع الغطاء إلى أعلى وتثبته من حولي.

ـ معظم الناس هكذا يا سكاوت حين ترينهم أخيرًا.

أطفأ النور وذهب إلى غرفة جيم، سيبقى هناك طوال الليل، وسيكون هناك حين يستيقظ جيم في الصباح.

تمَّت

عن المترجمة

د. داليا سعد الدين الشيال أستاذ الأدب الأمريكي المشارك بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب، جامعة القاهرة.

تخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، بكلية الآداب، جامعة القاهرة. وحصلت على درجتي الماجستير والدكتوراه من الجامعة نفسها. تخصصت في الأدب الأمريكي وبخاصة أدب الأفارقة الأمريكيين. وسلطت الضوء على صلة ذلك الأدب بالفنون المرئية والمسموعة وبصفة خاصة موسيقى الجاز. ألقت محاضرات في الأدب الأمريكي في الولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا واليابان. وشاركت في مؤتمرات عدة ببحوث عقدت الصلة فيها بين الآداب والفنون.

عن المراجع

د. مصطفى رياض أستاذ الأدب ورئيس قسم اللغة الإنجليزية بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

تخرج في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، بكلية الآداب، جامعة عين شمس، حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه من الجامعة نفسها. تخصص في الأدب الأنجلو أيرلندي، كما نشر بحوثًا في الأدب المقارن. له ترجمات في مجال النقد الأدبي، أهمها ما ترجم من مقالات من تاريخ كمبريدج للنقد الأدبي. كما ترجم في مجال القانون العام عدة أعمال تدور حول النظام القضائي الأمريكي.

أن تقتل طائرًا بريئًا

«أن تقتل طائرًا بريئًا» هي تلك الرواية غير القابلة للنسيان!

وبمجرد نشرها لأول مرة عام ١٩٦٠ أصبحت من أكثر الكتب مبيعًا، كما لاقت تقديرًا نقديًا كبيرًا.

كما فازت أيضًا بجائزة بوليتزر للكتاب عام ١٩٦١، وتحولت إلى فيلم سينمائي فاز بجائزة الأكاديمية الأمريكية (الأوسكار) وصارت من كلاسيكيات الأدب الأمريكي.

إن رواية «أن تقتل طائرًا بريئًا» هي قصة عاطفية ودرامية ومحركة للمشاعر بحق، وهي تأخذ قراءها إلى أعماق وسبل السلوك الإنساني، وإلى عالم من البراءة والحكمة، وهي تكشف عن وجهي الإنسانية في العطف والقسوة، والحب والكراهية، والمرح والحزن.

ولقد طُبع من هذه الرواية حتى الآن أكثر من ١٥ مليون نسخة وتمت ترجمتها إلى ٤٠ لغة من لغات العالم. وأصبحت هذه الر... جدًا، والتي كتبتها امرأة شابة من ألاباما في الولايات ال... بريق وجاذبية على المستوى العالمي.

ولقد رأت هاربر لي دائمًا أن كتابها هذا عبارة عن قصة ... ولكنه صار الآن أحد أهم روائع الأدب الأمريكي.





دار الشروق
www.shorouk.com